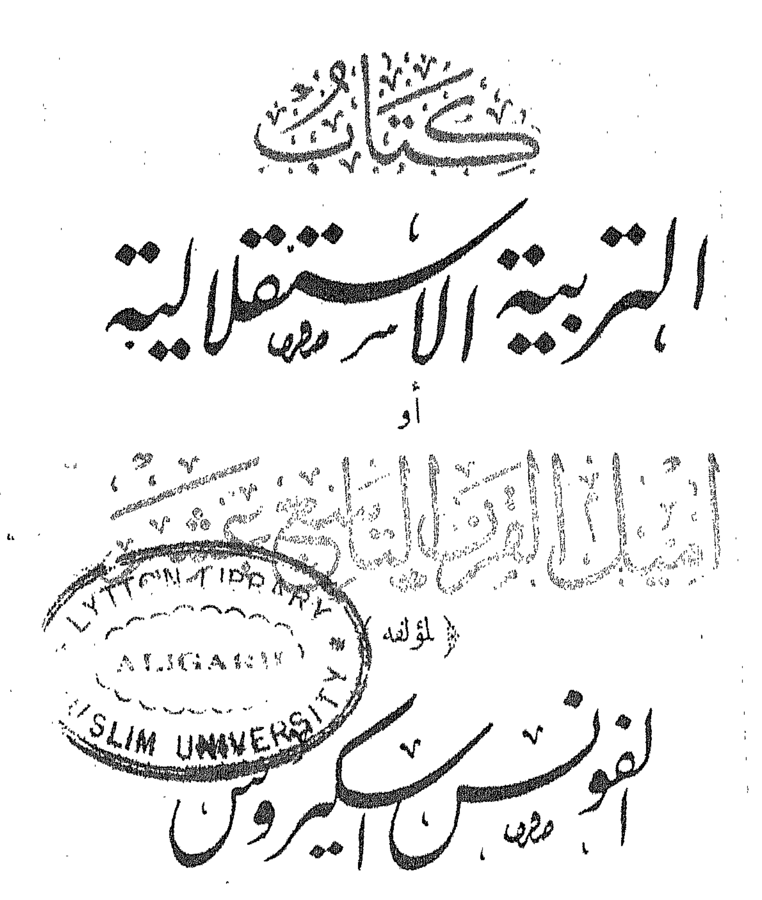




كتاب التربية الاستقلالية

أو

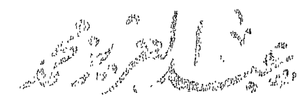
إميل القرن التاسع عشر

« لمؤلفه »

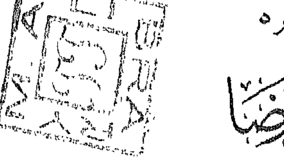
ألفونس إسكيروس

لاعب ولدك سبعا
وأدبه سبعا وصاحبه سبعا
ثم اجعل حبله على غاربه
(حكيم عربي)

« وترجمه بالعربية عن الفرنسية »



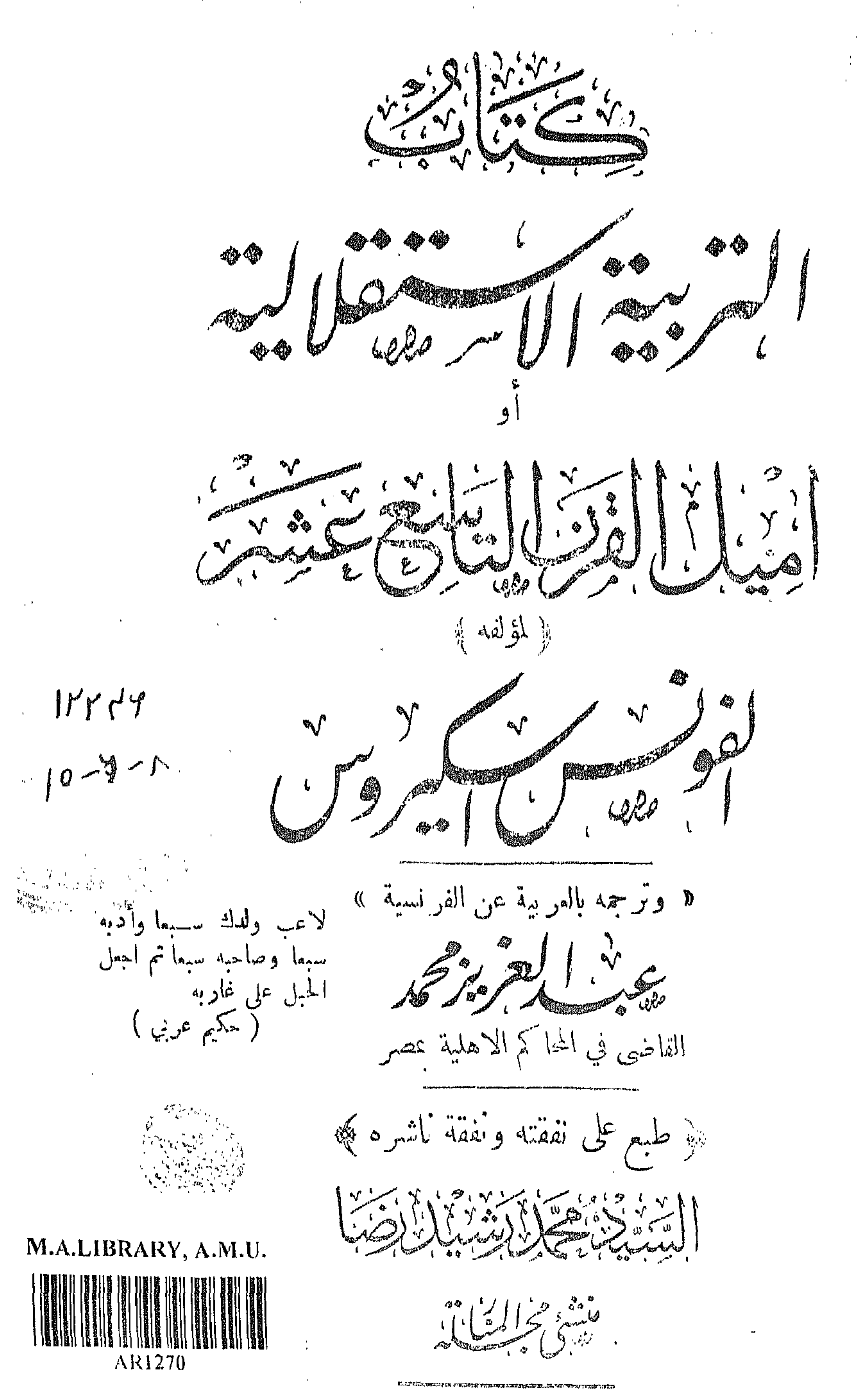
« القاضي بالمحاكم الاهلية بمصر »



طبع على نفقته ونفقة ناشره

السيد محمد رشيد رضا

الطبعة الثانية بمطبعة المنار بشارع مصر القديمة بمصر سنة ١٣٣١ هـ ق ١٢٩١ هـ ش



كتاب

التربية الاستقلالية

أو

أميل القرن التاسع عشر

﴿ لمؤلفه ﴾

ألفونس أسكيروس

« وترجمه بالعربية عن الفرنسية »

عبد العزيز محمد

القاضي في المحاكم الأهلية بمصر

لاعب ولدك سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا ثم اجعل الحبل على غاربه
(حكيم عربي)

﴿ طبع على نفقته ونفقة ناشره ﴾

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

﴿ الطبعة الثانية بمطبعة المنار بشارع مصر القديمة بمصر سنة ١٣٣١ هق ١٢٩١ هش ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

هوَ الذي بعثَ في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ ويزكّيهم ويعلّمهمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا مِنْ قبلُ لفي ضلالٍ مبين *

فله الحمد والشكر والثناء الحسن ، وعلى نبيه ورسوله الصلاة والسلام . والرحمة والبركات لمن تزكوا بالتربية العالية ، وتعلموا الكتاب والحكمة السامية ، فكان لكل منهم نصيبه من السعادة في نفسه ، والسيادة في أبناء جنسه ، ومنهم من أعدته هذه التزكية للسعادة الآجلة ، كما أعطته السيادة العاجلة ، (١٧ : ٢٠ كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ٢١ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة اكبر درجات وأكبر تفضيلا)

فبالتربية والتعليم سعادة الدنيا ، وبهما سعادة الحياة الاخرى ، والامور بمقاصدها

للانسان استعداد لايعرف له حد ولا نهاية ، ولا تظهر ثمرات استعداده الا بالتعاون ، ولا يكون التعاون إلا بالعيشة الاجتماعية ، وشؤون الاجتماع لا ترتقي إلا بالنظام ، وإنما يقوم النظام بالحكام ، والحكام عرضة للبغي والأثرة لا يصدهم عنهما الا سيطرة الامم عليهم ، والامة لاتصلح للسيطرة على حكامها إلا اذا كان أفرادها أحراراً في أنفسهم ، مستقلين في أفكارهم وارادتهم ، فالحرية والاستقلال هما القدمان اللتان يسير بهما الانسان الى منازل الكمال ،

لا يصل الانسان الى الكمال في شيء من مقاصد الحياة الا بالسير التدريجي على سنن الفطرة . والسير بطيء وسريع ، فمنه الهدجان والدليف ، والدألان والوجيف ، (١) بل منه القهقرى ، والرجوع إلى الورا ، فاذا هو أرشد الى الغاية

---

(١) الهدجان (بالتحريك) مشية المثقل والدليف مشية الشيخ رويداً ومقاربته الخطو . والدألان مشية النشيط والوجيف السير السريع

في البداية ، وأمد بما يوافق الفطرة من ضروب الهداية ، يكون أبعد عن التخبط في سيره ، والضلال في طريقه ، وأقرب وصولا إلى المقاصد ، بالسفر القاصد ،

ولكن مضت سنة الأولين بما أبان لنا أن الانسان لا يرتقي في المقاصد الاجتماعية الا بتوزيع الاعمال ، ونوط كل عمل بطائفة من الناس ، يصرفون همتهم اليه ، ويعولون في معايشهم عليه ، ومن هذه الاعمال حفظ الامن وحماية النظام ، ومنها الارشاد والتعليم ، والتربية والتأديب ، — وأن الصنفين القائمين بهذين العملين — ولهما القيامة على سائر الاصناف — قد يسيئون التصرف ، ويتبعون الهوى ، فيعبثون بالحرية والاستقلال ، فيحولون دون ما توجه اليه الناس من الكمال ، — وأن الاول منهم (وهو صنف الحكام) كثيرا ما يمعن في الاستبداد ، ويغلو في الاستعباد ، حتى يفسد على الناس ما ارتقى به الاجتماع قبله ، ويخرب ما أقامه من معالم العمران من سلفه ، وقد يستعين بصنف المعلمين والمربين ، على إفساد النفوس والافكار من الناشئين ، بتنشئتهم على الخنوع للمستبدين ، وتقليد الميتين ، فيرجع قومه القهقرى ، ويسيرون في اجتماعهم الى الورا ، حتى تكون البداوة خيرا من مدنيتهم ، لانها على إقفارها من نتائج العقول في الفنون والصناعات ، تكون عامرة باستقلال الفكر والارادة وحرية التصرف ، وما يتبع ذلك من عزة النفس ، والتحلي بكثير من الفضائل ، التي هي من طبيعة الفطرة ، ولوازم تلك المعيشة

فالكمال الاجتماعي الذي يطلب بالمدنية عرضة لنقائص يجلبها للبشر استبداد الوازع من الامراء والسلاطين ، وفساد القوّام على التربية والتعليم ، وسوء اختيار الافراد الذين يعيشون في كنف السلطة والحكم ، وينامون على مهاد الراحة والترف ، فتفسد فطرتهم ، وتهي عزيمتهم ، ويرضون أن يكونوا عالة على غيرهم ، وعبيدا للقوام عليهم ، بما فقدوا من الحرية والاستقلال ، بل يقول الحكيم ابن خلدون ان التأديب والتعليم الصناعي يذهب بالبأس وعزة النفس لان الوازع فيهما أجنبي ، وأما الادب الشرعي فليس كذلك لان الوازع فيه نفسي ، وهو موافق لقول علماء العصر ان كمال الانسان أن يكون حراً مستقلا تصدر أعماله بارادته واختياره عن اعتقاده ووجدانه ، ولا يحكم عليه الا الشرع والقانون الذي رضيه لنفسه ، وكان له رأي في اختيار القائمين بتنفيذه

هذا المقصد العالي لا ينال في الحضارة الا بتربية وتعليم تتبع فيهما سنة الفطرة ، وتتقى فيهما أهواء الوازعين الذين يرون من مصلحتهم أن يصبغوا نفوس النابتة

بصبغة خاصة، يستديمون بها السيادة عليهم ، ويقودهم كالانعام الى ما يريدون منهم،
أسرف الوازعون من رؤساء الدين والدنيا في الجور على الخاضعين لهم في أوربة زمنا طويلا حتى لم يعد للطاقة البشرية قبل باحتمال جورهم . فأحدث ذلك الضغط انفجاراً عظيما اهتزت له الارض ، و زلزل ذلك القهر والجبروت ، بل زال واندك بهمة دعاة الحرية والاستقلال . ولكن حدث عنه بمقتضى السنة الالهية التي يعبر عنها «برد الفعل» اسراف في مقاومة تينك السلطتين الجائرتين - سلطة الحكومة وسلطة الكنيسة - فحدثت المذاهب المادية والاشتراكية المتطرفة والفوضوية، وكانت فرنسة أشد الشعوب والاجيال غلواً في ذلك، وانكلترة أشد اعتدالا فيه لما جرت عليه من المحافظة على التقاليد القديمة. والتثبت في النزوع الى الآراء والاعمال الجديدة.

انبثت آراء الغالين في مقاومة السلطة والدين، في كتب التربية والتعليم التي ألفها كبار الحكماء والكتاب من الاوربيين، ولاسيما الفرنسيين منهم، حتى صار حقها مشوباً بباطلها ، ونفعها معارضاً بإثمها ، وكان من أشهر كتب التربية (كتاب اميل القرن الثامن عشر) للحكيم الفرنسي الشهير (جان جاك روسو) ثم ارتقت المعارف وزخرت بحار العلم ، فصار الآخرون ، يستدركون على مامضى عليه الاولون ، كما فعل (ألفونس أسكيروس) في كتابه الذي سماه (اميل القرن التاسع عشر) إشارة الى ماينبغي أن يكون عليه فن التربية في ذلك القرن وما بعده . وهو الكتاب الذي نشرنا ترجمته في بضعة مجلدات من المنار ، في كل مجلد منها رسائل معدودة ، نشرت في أجزاء متصلة أو متفرقة ، وقد جمعنا شمل هاتيك الرسائل والشذرات كلها اليوم لننشرها في هذا السفر على قراء العربية عامة،وأرباب البيوت منهم خاصة ، لما في قراءتها متصلة من تمام الفائدة بما يكون القارىء أوعى للمسائل وأضبط ، وأرغب في تتبعها وأنشط .

لم أر في المصنفات الحديثة ولا القديمة مصنفاً كهذا الكتاب (في موضوعه) جمع بين اللذة والفائدة في أنفع العلوم التي تتفاضل فيها عقول البشر ، وهو علم تربية الانسان جسما وعقلا ونفساً ، ليكون سعيداً في نفسه ، نافعاً لابناء جنسه . ولهذا رغب في نشره الاستاذ الامام، قدس الله روحه في دار السلام، وعهد الى مريده ذي الفطرة السليمة ، والاداب القويمة ، صديقنا عبد العزيز افندي محمد القاضي بالمحاكم الاهلية المصرية ، بأن يترجمه بالعربية ، لينشر في مجلة المنار الاسلامية ، وحسبي من بيان مزية الترجمة عرضها على القراء العارفين بقواعد العربية وأساليبها، فهم الذين يشهدون

لها بأنها في الذروة العليا بين المصنفات المترجمة في هذا العصر . فالكتاب بها عون للنابتة على إحكام ملكة الانشاء والترجمة . كما انه بمعانيه يطبع في النفوس ملكات استقلال الفكر والارادة ، وحب الحرية والرغبة في خدمة الامة ، وغير ذلك من الفضائل ، ويهدي العقول الى أمثل طرق التربية والتعليم

ألا إن غرض المؤلف من كتابه هذا هو هداية قارئيه الى الحياة الزوجية الفضلى ومحبة الزوجين ، ووفائهما في القرب والبعد ، والسراء والضراء — ومكان الأم من قلب الهيئة الاجتماعية — وتربية جسم الطفل على سنة الفطرة ليكون بدنه سليما قويا ، — وتربية حواسه وخياله وفكره ، ووجداناته وعواطفه ، كالرحمة والاحسان والعدل والمساواة والايثار ، وغير ذلك من القوى والصفات الروحية ، مهتديا في ذلك كله بالعمل والاحتكاك بالحوادث — والى تعليم الناشيء العلوم الكونية بعرض المعلومات على مشاعره ، وارشاده الى كيفية النظر فيها ، والحكم الصحيح عليها ، واعداده للعلوم النظرية في الدين والفلسفة ليحكم فيها بنفسه ، بعد بلوغ رشده . وغاية ذلك كله أن يخرج المربى حراً مستقلا خيرا فاضلا لا يحكم ولا يقول الا عن علم وبصيرة ، ولا يعمل الا ما يرى ان فيه الخير والمنفعة

ولما كان قوام التربية العملية القدوة والتأسي اختار المؤلف أن يجعل تربية «اميل» في بلاد الانكليز لانهم أرقى الشعوب أخلاقا وأعرقهم في الحرية والاستقلال

ولما كانت العلوم لا تبلغ كمالها الا حيث يكثر الاخصائيون فيها ، جعل المؤلف التعليم العالي لاميل في مدارس ألمانية العالية لان الالمانيين أرقى شعوب العالم في تحرير العلوم

هذا الضرب من التربية والتعليم على سنة الفطرة موافق لهداية القرآن الذي هو دين الفطرة . وما أنكره المؤلف من تلقين الدين للناشيء كما يلقن الفنون وإلزامه التقليد فيه — ومن حمله على الآداب وعمل الخير خوفاً من العذاب في الآخرة وعدم النجاة فيها — له وجه وجيه في الجملة ، فان النبي (ص) لم يعلم ولدان أصحابه ولا كبارهم الدين كما تعلم الفنون وإنما أدبهم وزكاهم بتلاوة القرآن عليهم ، وبسيرته (سنته) الحميدة فيهم . دعاهم بالدليل ، وعلمهم بالدليل ، وأدبهم بالدليل ، وليس في الاسلام شيء تقليدي لا يستند الى دليل .

فلا غرو اذا كنا نسلم للمؤلف ما اختاره من جعل قوام التربية الادبية الاعتبار بما في الفضيلة والخير من المنفعة ، وما في ضدهما من المضرة ، بالاختبار والاعتبار لا بمجرد القول ، فان ذلك معقول في نفسه وموافق لهداية الاسلام . ونعذره في نهيه عن دعمها

بنصوص الدين ، لان ما يعرفه من هداية الاديان ينافي طريقته فالجمع بينهما جمع بين الضدين . على انه على اعتداله لم يسلم من الافراط في السخط على دين الكنيسة بمقتضى سنة رد الفعل التي أشرنا اليها من قبل

ولكن طريقته تنطبق على هداية القرآن لانها موافقة للفطرة ، ويزيدها الاسلام قوة وتمكيناً ببيان ان الآثار الطبيعية للخير في الدنيا وهي منافعه التي يؤتى لاجلها ، لا تذكر بالنسبة الى المنافع والمثوبة التي تكون له (أي الخير) في الحياة الآخرة ، وهذه قضية بيناها بالدلائل والنصوص في مواضع كثيرة من تفسير القرآن الحكيم ومن المنار

فلم يبق بعد هذا الا أن أنصح لقراء العربية بأن يجعلوا هذا الكتاب ركناً للتربية والتعليم مع مراعاة المسلم منهم لهداية القرآن ، التي أجزم بأن المصنف لو عرفها لجعلها ركناً للتربية فوق هدايات الحواس والعقل والوجدان

أنصح للمتعلمات من البنات ومن ربات البيوت بأن يقرأنه المرة بعد المرة . وأنصح للرجال بأن يقرءوه لنسائهم ويفسروه لهن تفسيراً . وأنصح للنابتة الجديدة من تلاميذ المدارس الدنيوية ، وطلاب المدارس الدينية ، بأن يقدموا العناية بمطالعته على جميع ما يطالعون من الكتب العصرية للاستعانة على تأديب النفوس واحكام صناعة الانشاء وإتقان أسلوب الترجمة . وإني لعلى علم بأن الاقبال على هذا الكتاب وتوخي العمل به سيكون مبدأ لعصر جديد يربي في نفوس قراء العربية الحرية الذاتية والاستقلال الشخصي والنوعي ، ومتى كثر الاحرار المستقلون في شعب فانهم يحيون شعبهم حياة استقلالية يستحيل أن يعبث بها مستبد ، أو يفسدها عليهم مفسد ، ولهذا سميت الكتاب بالتربية الاستقلالية ، وجعلت تسمية المؤلف له ثانوية ، فالاسم الاول يدل على موضوعه وغايته ، والثاني يشير الى منهاجه وطريقته ، وهي تمثيل فن التربية بالعمل في شخص المربى ، وهو المنهج السوي والطريقة المثلى . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

محمد رشيد رضا الحسيني
منشىء المنار

كتبت في غاية جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦

﴿ مقدمة ناشر الكتاب لطبعته الثانية ﴾

بسم الله وله الحمد، فهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده، فيتم بسننه من تجديد الامم والشعوب ما يريده، فمنها ما يسلمه فساد التربية الى الردى، ومنها ما يحييه اصلاحها بعد الموت والبلى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاءنا بالبينات والهدى، القائل الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، وعلى آله وصحبه وكل عبد مصطفى

نحمده عوداً على بدء أن نفخ روح الحياة الجديدة في أمتنا العربية، وهدى من شاء من المجددين فيها لاحياء الحكمة الشرقية واقتباس الحكمة الغربية، فطفقت الامة تحسن الاختيار، وتميز بين النافع والضار، من قديم الآثار وحديث الاسفار، ومن آيات ذلك إقبالهم على هذا الكتاب (التربية الاستقلالية) حتى نفدت نسخ الطبعة الاولى منه في أربع سنين، وحملتنا كثرة الطلب على إعادة طبعه في أوائل السنة الخامسة

قدر الكتاب قدْره سعدباشا زغلول وكان في إبان طبعته الاولى ناظراً للمعارف العمومية، فأمر باعتماد تقريره للمطالعة في مدرسة القضاء الشرعي ومدرسة المعلمين الناصرية، وقد أقره خلفه في نظارة المعارف أحمد حشمت باشا، ويرجى ان يكون حظ النظارة منه على عهده أعلى، فانه هو الناظر الذي عني كل العناية بالتعليم العملي والتربية العملية، وتحويل التعليم وكتب العلوم والفنون الى اللغة العربية، ولا رجاء في حياة الامة وارتقائها إلا بهذا . ولعله لا يكاد يوجد كتاب في التربية العملية والتعليم العملي اعون له من هذا الكتاب على ترغيب ذكران النابتة وإناثها في هذا الاصلاح الذي تصدى له، فانهم بمطالعته يعرفون قيمته، ويكونون فيما يريده منهم على هدى وبصيرة

وقد أعدنا النظر هذه المرة بتصحيح الكتاب فقلما يرى الناقدون فيه شيئا من العثرات التي كانت في الطبعة الاولى، كاستعمال «كلا» و «مطلقاً» في غير مواضعهما، ونحو ذلك من مولدات الجرائد، اللهم إلا ما يعدوه الطرف ويتجاوزه النظر، أو يذهل عنه الذهن لطول ألفته له، فمثل هذا لا يفطن له العارف إلا إذا توخى النقد وتأياه، ولم يكن له غرض من القراءة سواه، وما ثم الا أحرف قليلة وقع التساهل في إقرارها في مواضعها، ولا تخلو كتابة اشهر نقاد هذا العصر من مثلها، فما أبرىء الكتاب من حرف ينتقد وانما أتجرأ على القول بأنه من أصح ما أعرف من المترجمات والمنشآت العصرية عبارة إن لم يكن أصحها، فانا إذاً لم أسرف فيما جدت به على ترجمته من الثناء، والقول بأنه عون لطلاب العربية على إحسان الترجمة والانشاء،

وأما خطأ الطبع في هذه النسخة فقد وضعنا له جدولا يرى الناظر فيه ان أكثره من قبيل التصحيف أو زيادة حرف أو نقصان حرف من حروف الهجاء فمن صحح نسخته على الجدول لا يشوه محاسن شيء من صفحاتها

بنصوص الدين ، لان ما يعرفه من هداية الاديان ينافي طريقته فالجمع بينهما جمع بين الضدين . على انه على اعتداله لم يسلم من الافراط في السخط على دين الكنيسة بمقتضى سنة رد الفعل التي أشرنا اليها من قبل

ولكن طريقته تنطبق على هداية القرآن لانها موافقة للفطرة ، ويزيدها الاسلام قوة وتمكيناً ببيان ان الآثار الطبيعية للخير في الدنيا وهي منافعه التي يؤتى لاجلها ، لا تذكر بالنسبة الى المنافع والمثوبة التي تكون له (أي الخير) في الحياة الآخرة ، وهذه قضية بيناها بالدلائل والنصوص في مواضع كثيرة من تفسير القرآن الحكيم ومن المنار

فلم يبق بعد هذا الا أن أنصح لقراء العربية بأن يجعلوا هذا الكتاب ركناً للتربية والتعليم مع مراعاة المسلم منهم لهداية القرآن ، التي أجزم بأن المصنف لو عرفها لجعلها ركناً للتربية فوق هدايات الحواس والعقل والوجدان

أنصح للمتعلمات من البنات ومن ربات البيوت بأن يقرأنه المرة بعد المرة . وأنصح للرجال بأن يقرءوه انساءهم ويفسروه لهن تفسيراً . وأنصح للنابتة الجديدة من تلاميذ المدارس الدنيوية ، وطلاب المدارس الدينية ، بأن يقدموا العناية بمطالعته على جميع ما يطالعون من الكتب العصرية للاستعانة على تأديب النفوس واحكام صناعة الانشاء وإتقان أسلوب الترجمة . وإني لعلى علم بأن الاقبال على هذا الكتاب وتوخي العمل به سيكون مبدأ لعصر جديد يربي في نفوس قراء العربية الحرية الذاتية والاستقلال الشخصي والنوعي ، ومتى كثر الاحرار المستقلون في شعب فانهم يحيون شعبهم حياة استقلالية يستحيل أن يعبث بها مستبد ، أو يفسدها عليهم مفسد ، ولهذا سميت الكتاب بالتربية الاستقلالية ، وجعلت تسمية المؤلف له ثانوية ، فالاسم الاول يدل على موضوعه وغايته ، والثاني يشير الى منهاجه وطريقته ، وهي تمثيل فن التربية بالعمل في شخص المربى ، وهو المنهج السوي والطريقة المثلى . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

محمد رشيد رضا الحسيني
منشىء المنار

كتبت في غاية جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦

﴿ مقدمة ناشر الكتاب لطبعته الثانية ﴾

بسم الله وله الحمد، فهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده، فيتم بسننه من تجديد الامم والشعوب مايريده، فمنها ما يسلمه فساد التربية الى الردى، ومنها ما يحييه اصلاحها بعد الموت والبلى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاءنا بالبينات والهدى، القائل الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، وعلى آله وصحبه وكل عبد مصطفى

نحمده عوداً على بدء أن نفخ روح الحياة الجديدة في أمتنا العربية، وهدى من شاء من المجددين فيها لاحياء الحكمة الشرقية واقتباس الحكمة الغربية، فطفقت الامة تحسن الاختيار، وتميز بين النافع والضار، من قديم الآثار وحديث الاسفار، ومن آيات ذلك إقبالهم على هذا الكتاب (التربية الاستقلالية) حتى نفدت نسخ الطبعة الاولى منه في أربع سنين، وحملتنا كثرة الطلب على إعادة طبعه في أوائل السنة الخامسة

قدر الكتاب قدره سعد باشا زغلول وكان في إبان طبعته الاولى ناظراً للمعارف العمومية، فأمر باعتماد تقريره للمطالعة في مدرسة القضاء الشرعي ومدرسة المعلمين الناصرية، وقد أقره خلفه في نظارة المعارف أحمد حشمت باشا، ويرجى ان يكون حظ النظارة منه على عهده أعلى، فانه هو الناظر الذي عني كل العناية بالتعليم العملي والتربية العملية، وتحويل التعليم وكتب العلوم والفنون الى اللغة العربية، ولا رجاء في حياة الامة وارتقائها إلا بهذا . ولعله لا يكاد يوجد كتاب في التربية العملية والتعليم العملي اعون له من هذا الكتاب على ترغيب ذكران النابتة وإناثها في هذا الاصلاح الذي تصدى له، فانهم بمطالعته يعرفون قيمته، ويكونون فيما يريده منهم على هدى وبصيرة

وقد أعدنا النظر هذه المرة بتصحيح الكتاب فقلما يرى الناقدون فيه شيئا من العثرات التي كانت في الطبعة الاولى، كاستعمال «كلا» و «مطلقاً» في غير مواضعهما، ونحو ذلك من مولدات الجرائد، اللهم إلا ما يعدوه الطرف ويتجاوزه النظر، أو يذهل عنه الذهن لطول ألفته له، فمثل هذا لا يفطن له العارف إلا إذا توخى النقد وتأياه، ولم يكن له غرض من القراءة سواه، وما ثم الا أحرف قليلة وقع التساهل في إقرارها في مواضعها، ولا تخلو كتابة اشهر نقاد هذا العصر من مثلها، فما أبرىء الكتاب من حرف ينتقد وانما أتجرأ على القول بأنه من أصح ما أعرف من المترجمات والمنشآت العصرية عبارة إن لم يكن أصحها، فانا إذاً لم أسرف فيما جدت به على ترجمته من الثناء، والقول بأنه عون لطلاب العربية على إحسان الترجمة والانشاء،

وأما خطأ الطبع في هذه النسخة فقد وضعنا له جدولا يرى الناظر فيه ان أكثره من قبيل التصحيف أو زيادة حرف أو نقصان حرف من حروف الهجاء فمن صحح نسخته على الجدول لا يشوه محاسن شيء من صفحاتها

ومن غريب الاتفاق أن ترجمة الكتاب وطبعته الاولى وطبعته الثانية « هذه » كل ذلك قد تم في سلخ جمادى الآخرة، فكأنه فأل حسن و بشارة بأن الامة قد أنشأت تنسلخ من الجمود على تربية التقليد القديمة، وتستبدل بها التربية الاستقلالية الجديدة، والله الموفق و به الحول والقوة　　ناشر الكتاب

محمد رشيد رضا

مقدمة المترجم للطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على ينبوع الحكمة، ونبي الرحمة، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وأتم له من مكارم الاخلاق وجلائل الشيم نصيبه، فصارت سيرته المحمودة اكمل مثال للمربين، وأفضل هدي للمرشدين، وعلى آله وأصحابه الهادين المهتدين

أما بعد فقد مضت سنة الله سبحانه في الانسان أن يخلق عاجزاً جاهلا محتاجا الى الكافل الذي يحوطه برعايته. ويقيمه على الصراط السوي في معيشته. ثم يتدرج في القدرة والعلم حتى يبلغ ما أعد له من الكمال الحسي والمعنوي بحسب استعداده. وعلى مقدار عناية قيمه بتربيته

من أجل هذا تفاوتت درجات الناس تفاوتاً عظيما في القدرة والعجز والعلم والجهل، وتنوعت آثار هذه الصفات فيهم تنوعا لا يحده وصف ولا يشمله حصر، وتبع ذلك اختلاف الامم بالترقي والتدلي والعزة والذلة

فمن أمة عنيت بتربية أبنائها وتهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم وانشائهم أحراراً عشاقا للعلم يخدمونها ويخدمونه مختارين كما يخدمون أنفسهم، فاشرقت في ربوعها شمس العلم، وكشفت لها الحجاب عما سخر لها من قوى الكون، فاستخدمتها في حاجاتها وحاجات نظرائها، واستعانت بها على تحسين أحوالها وترقية معايشها

لان لها الحديد على صلابته وشدة بأسه فاتخذت منه سجناً حصينا لعدوين متعاندين هما الماء والنار، فكان من كفاحهما فيه أن تصاعدت زفرات الماء وغلت

مراجل غيظه ، فالتمس الخلاص فلم يسعه الا أن طار بسجنه ، فكان ذلك سببا لاستعمال هذه القوة الفائقة في طي المسافات السحيقة ، وتقريب الامم المتنائية، وكسر نخوة البحار والتخفيض من غلوائها ، بامتطاء ظهورها وشق أحشائها ، والاخذ بشكائمها . نعم وفي تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريكا خفف من أوصاب الصناع ومتاعب العمال ، وغمر أسواق التجارة بضروب المصنوعات البديعة فأصبح الفقير شريكا للغني في الاستمتاع بها ، بعد ان كان محروماً منها ، واتخذت لها من الحديد أيضاً قذافات للموت ، جلابات للدمار والخراب ، لا تردها شجاعة الشجعان ، ولا تغني منها مصاولة الفرسان ، فملكتها نواصي الاعزاء ، وبسطت لها السلطان في جميع الارجاء .

لفتها قصيف الرعد ووميض البرق وغيرها من آثار القوى الكونية التي طالما مر عليها من غبروا من أجيال البشر وهم عنها معرضون ، فحدست أن فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى ، وانها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار ، فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين أثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها في مكامنها ، وما زالوا يصلون الليل بالنهار في تتبعها ، حتى اهتدوا الى ينابيعها وجمعوا شتاتها بعد ان كانت شعاعا هملا ، وحصروها في سبل ضيقة لاقبل لها بتعديها ، ثم ألقوا مقاليدها الى الأمة فكان من تصريفها في مرافق الانسان ومنافعه ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة امكان عقل المخلوق : رعدة تحيل الماء هواء ، وتقلب الليل نهارا ، ونبض أقرب من لمح البصر ، يصير تارة مناجاة كتابية بين مطوحين في مطارح الغربة ، تستنجز بها الامور وتقضى بها المآرب ، وطوراً يكون مخاطبة شفوية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما يكون بينهما من بعد الشقة ، وكرة تدفع جاريات تطير طيراناً على سطح الارض مقلة ما شاءت أن تقل من الناس والمتاع .

ولو رحت اعدد لك آثار التربية المثلى والعلم النافع في الامم الراقية لاحتجت في تفصيل ذلك الى مجلدات فأجتزىء عنه بما لمحت اليه تلميحاً .

وأمة أخرى لم تبلغها دعوة العلم ولا رأت آثار التربية في غيرها ، فلازمت حالتها الفطرية ، ومعيشتها الوحشية ، فكان ذلك مدعاة الى وقوف نمو العقل في أبنائها وانعدام ما فيهم من ضروب الاستعداد ، وكان مصيرها خسران وجودها الذاتي وفناؤها في غيرها من الامم الحية .

وأمة ثالثة خلقت مستعدة للرقي وسارت في سبيله شوطاً بعيداً بما نشأت عليه من الحرية، وتحققت به من أصول التربية الدينية الصحيحة، فنالت في الزمن اليسير من العزة والمجد وبسطة السلطان مالم ينله غيرها من الامم في الزمن الطويل

رباها مرشدها الاكبر بسيرته السنية على حب العدل، والايفاء بالعهود، وانفاق الاموال في وجوه الخير، والتآخي في نصرة الحق، والترفع عن سفساف الامور، وأوجب طلب العلم من المهد الى اللحد على أفرادها نساء ورجالا غير مخصص علماً بعينه، فنبغ فيها رجال لم تسمح الايام بنظائرهم ولن تلد الوالدات أمثالهم — منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسة لم يعهدها التاريخ في غيرهم من السواس، حرموا أنفسهم فيها من ملاذ العيش، وصبروها على مصلحة الناس، وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة — ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا أكبر دول الارض لعهدهم مع تمام العدل في معاملة المغلوبين، وبذل الامان للمستأمنين — ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم في طلب الحقائق فلم يدعوا باباً من أبواب العلم الا دخلوه على ما كانوا يلاقونه في ذلك من صعوبة التحصيل، لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم، يشهد لهم بذلك ما خلفوه من آثارهم التي تزدان بها دور الكتب في معظم البلدان — ومنهم مهرة الصناع الذين أقاموا من معالم الحضارة ما يحكم لهم بالتبرز على مناسبيهم ويوجب لاخوانهم حق المفاخرة بهم .

واأسفي على هذه الامة، أسف يجرح النفس أسى، ويذيب القلب حسرة! مالبثت ان بطرت معيشتها وكفرت بأنعم ربها، فوجد عليها الزمان، وانتابتها نوائب الحدثان، طال عليها أمد هداية الدين، وبعد عنها عهد المرشدين، فقست القلوب وفسدت الاخلاق، واستحكمت علة الترف من النفوس، فملكها الطمع، وتولاها الحسد، ومنيت بالحكام المستبدين، والامراء الغاشمين، فمزقوا وحدتها، وملكوا عليها أمرها، وصرفوها فيما تهوى أنفسهم، فاستحالت حريتها رقا، وانقلب عزها ذلا، وعدلها ظلما، وأنسها بالعلم وحشة .

لم يغب سوء حالها عمن يجاورونها من الامم القوية، بل كانوا يراقبونها مراقبة الصائد الذي يتحين الفرص لصيده، وما عتموا أن ناصبوها العداوة وكادوا لها المكايد، فوقع معظم بلادها في قبضتهم، وتغلغلوا في أحشائها، وأصبحوا لها حكاماً يديرون شؤونها على حسب ما تقتضيه مصالح بلادهم، وفتحوا عليها أبواباً من الترف وفساد الاخلاق ألهتها عن الشعور بألم العبودية، وصرفتها عن النظر في مصالحها القومية

لم يصبها كل ذلك الا من عدم محافظتها على حريتها باغفالها التربية الصحيحة وهجرها العلم النافع .

واذا كان هذا شأن التربية في رفع الامم وخفضها ، كان حقاً على العقلاء من كل أمة أن يعنوا بها ويفكروا في الوصول اليها من أقوم طرقها ، ويبينوا أصولها ، ويدونوا فيها الكتب النافعة ويحثوا قومهم على الاخذ بما فيها . وقد خرج من عهدة هذا الحق علماء الامم الحية في أوربة وأمريكة فوضعوا من قواعدها ماظهرت آثارها في أقوامهم ، وأكسبتهم حسن الذكر في بلادهم ، وغفل عن ذلك غيرهم من خواص الامم التي تتنازعها الحياة والموت لغلبة القنوط عليهم ، فلم يوجد لديها من الكتب الحديثة في موضوع التربية الا بعض رسائل لاغناء بها فيه .

كان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراه براً بقومه غيوراً على حياتهم ، حريصاً على ايقاظهم من سبات الجهل ، وانهاضهم من حضيض الذل ، فكان دائم التصفح لما كتبه الاوربيون والامريكيون في التربية والحكمة ، وكان من كثرة اهتمامه بالتربية ان ترجم فيها كتاباً مفيداً للحكيم الانكليزي هربرت سبنسر ، غيرانه لم يتسع وقته لتصحيحه وتهذيب ترجمته ونشره فبقي كما هو ، وقد وقع له كتاب آخر فيها عظيم النفع لمؤلف فرنسي اسمه (الفونس أسكيروس) فأعجب بما فيه من الافكار الصحيحة والمعاني الشائقة ، فعهد إلي بترجمته ونشره تدريجاً في مجلة المنار الجليلة ، فوفقت للايفاء بعهده مساعدة له على ما كان بسبيله من خدمة المصلحة العامة ، وقياماً ببعض المفروض علي منها . فالكتاب اذن أثر من آثار سعيه في ترقية بلاده ، ويد من أياديه الكثيرة عند قومه ، سيشكرها له منهم الشاكرون ، ويغمطها على ديدنهم فيه الجاحدون ، أجزل الله له المثوبة على حسن مقاصده ، وغمره برحمته واحسانه على مجاهدته في إعلاء شأن أمته .

هذا الكتاب الذي أتقدم بترجمته لقراء العربية يرمي مؤلفه الى غاية واحدة هي إنشاء الطفل حراً مستقلا تصدر أعماله وآراؤه عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد . ومن أصوله في التربية أن لا تحشر اليه قواعد العلم حشراً ويرغم على حفظها بل يجعل له الدرس من وسائل التسلية بأن يخلى بينه وبين ما حوله من الاشياء والحوادث ويلفت ذهنه اليها لينتزع منها بنفسه ما تؤديه مراقبتها اليه من العلوم .

تمكن هذا الاصل من نفس المؤلف تمكناً حمله على أن يبعد في تأليفه عن أساليب الكتب التعليمية المعهودة : وضعه على أسلوب يقرب من أسلوب القصص ليكون أشهى للنفوس ، وأنفى للملل عن القلوب ، تخيل زوجين سمى أحدهما الدكتور

إراسم والثاني هيلانة ، منيا بالفراق ،لأول عهدهما بالاقتران،لاتهام الزوج بجريمة سياسية سجن من أجلها . ولم يلبثا بعد افتراقهما ان أحست الزوجة بالحمل فجرت بينهما رسائل في مواضيع شتى أدمجت فيها أصول التربية الصحيحة ادماجاً، وسنحت للزوج اثناء سجنه سوانح أفكار، ومرت بذهنه شوارد خواطر، كان يقيدها في جريدته اليومية، فاجتمع للمؤلف من الرسائل والصحف والشذرات المقتطفة من جريدة الزوج هذا السفر الذي وسمه « باميل القرن التاسع عشر » وقسمه أربعة أقسام سمى كلا منها كتاباً ، أولها في الام وثانيها في الطفل وثالثها في اليافع ورابعها في الشاب .

فأما كتاب الأم فمسائله هي : - ماتجب عليها مراعاته في طور الحمل من العناية بصحتها وتوفير عافيتها ، وملازمة السكينة والاستقرار والبعد عن كل ما يثير انفعالاتها، وترويح نفسها بالمناظر البديعة والمشاهد الرائعة. وبيان ان التربية الأولى من شؤون الام خاصة ــ وما يجب عليها من العلم بتدبير صحة المولود بعد الوضع وارضاعه بنفسها وتعويده من نعومة أظفاره الاستقلال في حركاته وسكناته . ووصف ما للنساء الانكليزيات من الفضل على الفرنسيات في ذلك . وانتقاد طريقة التربية الأولى في فرنسا . وانتقاد أخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد أسلافهم .

***

وأما كتاب الولد فمسائله هي : — تعريف التربية وبيان الصعوبة في تحديد زمني بدايتها ونهايتها ، وبيان عمل الام في الشهور الاولى من حياة الطفل، وانتقاد مايفعله الامهات بأطفالهن في هذه السن ، وبيان ان أول علوم الطفل تأتيه من طرق الحواس ، وطريقة تربية الحواس ، وتأثير المدنية في قوى الحواس ، وعمل الأم في تمرينها، ووجوب تعرف طباع الطفل، وبيان اهمال المربين لهذا الواجب. وما يلزم اتباعه في سياسة الطفل. ، ووجوب لفته الى المحسوسات، وتدريبه على وقاية نفسه بنفسه ، وبيان خطأ الوالدين في انشاء أولادهما على مثالهما في الطباع والاذواق، وكون هذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالا حقيقياً ، وبيان ماهية الطبع ، وهل الارادة خلقية أو كسبية .

وبيان ان مايبديه الطفل في حال غضبه أو تألمه من الاصوات والحركات لازمة لشفاء مابه، وان الواجب في حمله على الكف عنها أخذه بالتسلية والتلهية لا بالتسلط والقهر، ووجوب مقاومة التربية لاهواء الطفل الفاسدة وذلك بطريقتين احداهما إلهاؤه عنها والثانية جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها ، وضرورة استعمال

السلطة في سياسة الاطفال و وجوب التعجيل بالكف عن استعمالها متى تيسر ذلك، و بيان ضرر قهر الطفل على الامتثال، و وجوب اجتناب تخويفه بالعقوبات الالهية، والخوض معه في المسائل الدينية، و وجوب تركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات ، و بيان عدم الفائدة في أصول علم الاخلاق للاطفال وقلة جدوى القدوة ومطالعة قصص الحيوانات لهم وضررها واستقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه و بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة ، و بيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطاً من كرامتها ، وكيفية تفاهم الام مع ابنها بالاصوات ، و ربما كانت الاصوات أصل اللغات ، و وجوب استعداد الام للتربية بالتعلم ، وتفكر الاطفال، وأصل اللغات وتعليمها لهم، وسوء طريقة المربين في ذلك ،وان التفكر مما يتعلمه الطفل ، وخطأ المربين في عنايتهم بالالفاظ دون المعاني ، وتعويد الاطفال النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكر، و بيان ان الاعمال الصبيانية ليست باطلة برمتها بل منها ما يكون مفيداً ، وأنس الطفل بالحيوانات وأنسها به ، وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الانسان الفطرية التي كانت تدعوها الى الثقة به ، وتأثير الجمال في الاطفال ، واحتياجهم الى كثرة التعلم ، وتعليمهم الصدق والمواساة والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الزمن بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقي ، و وجوب اعتراف المربي للطفل بجهل ما يجهله وانتقاد المربين في دعواهم العلم بكل شيء امام الاطفال ، وانتقاد التعليم الديني والسياسي، وان من شروط التربية أن ينسى المربي ما تعلمه ليستأنف تعلمه مع الطفل، و وجوب التدرج في تعليم العلوم للاطفال بلفت أذهانهم الى ما حولهم، وانتقاد الكتب التعليمية ، وفوائد التصوير والمعارض في التربية ، والتربية والتعليم بالفانوس السحري والتمثيل والمعارض، وتعليم الاطفال الضرب في الارض ومعرفة جهاتها بالعمل، وتعليمهم الصناعة بما يشترى لهم من اللعب، وتربية خيال الصغير بالقصص والاساطير ، وتعليم القراءة والخط والرسم والتدرج الفطري في تعليمها ، وان الصحة في تغيير الهواء ، وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء ، وتعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري ، وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من الكلم، وتعليم السباحة وتربية العضلات .

****

وأما كتاب اليافع فمسائله هي : — حب الزوجة والولد والوطن، وتعليم المسميات

قبل الاسماء ، وتربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معاً ، والتعليم بضرب الامثال ، والـكلام على الخط الديواني ، وتمرين المتعلمين على الاعمال المادية الشاقة ، وما يجب أن تكون عليه التربية ، وآثارها إذا كانت كما يجب ، وتجلي العلم في العمل ، وانتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبهما ، والـكلام على التقليد والذاكرة ، والمؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها ، وكون السفر من أركان التربية ، والتربية بركوب البحر ، وما يتعلم في السفينة ، وشجاعة النساء المحمودة ، والتربية بالمعاينة ، وفوائد الشدائد ، وكون بذل النفس للمحبوب أول الحب ، ووجوب الموازنة بين القوى والاعمال ، والتربية بالتأثيرات الطبيعية .

****

وأما كتاب الشاب فمسائله هي : — انتقاد حال الطلبة في ألمانيا ، وبيان حال العلم فيها ، ووجوب نقد الطالب مايقرأه من أفكار غيره ، ووجوب القصد في الاشتغال بعلوم المعقولات ، وان نفع الامة يحصل بالقيام بالواجب على قدر الطاقة ، ووجوب اختيار الطالب للعمل الذي يشتغل به في حياته ، وان لاحرية لامة يتكالب شبانها على تولي أعمال الحكومة ، وان الرأي العام لاقيمة له إلا إذا كانت الحكومة شورى ، ووجوب أن تكون خدمة المرء لامته لا للجزاء ، والـكلام في الحب وابتدائه وغرور الشبان بالمعشوقات ، ووجوب عدم تداخل الوالدين مع أولادهما في شؤون الحب ، وترك الفصل في تمحيص صحيحه من فاسده للتجربة ، والـكلام على المدرسة الجامعة في ألمانيا ، والاستقلال في العلم ، وفلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية ، ووجوب الاعتماد على البراهين العقلية دون الخطابة ، وحب الوطن ، ووجوب أن يكون للشاب المتعلم رأي في سياسة بلاده ، وان تربية الرجال الاحرار تجتث بها جراثيم الشرور المحزنة للامة .

هذه هي أقسام الـكتاب ومقاصده وأمهات مسائله أجملتها للقارىء اجمالا حتى إذا قرأها حركه الشوق الى استشفافها في مواضعها منه فحصل الفائدة المقصودة لمؤلفه ومترجمه ان شاء الله .

لم يعن المؤلف بتلقيب مباحث كتابه فاضطررت الى أن أضع لها ألقاباً استنبطتها من سياق كل مبحث وشاركني في وضعها الاستاذ الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية عند نشر الـكتاب في مجلته كما انه حفظه الله كان يصحح ماكان يعثر عليه من الاغلاط وأنا شاكر له هذا الصنيع .

حرصت غاية الحرص على عدم التصرف في الترجمة وقوفاً بها عند حد المعاني التي قصد المؤلف أن يعرضها على قومه، وتحاشيا من أن يتسرب اليها بالتوسع ما ليس مقصوداً له، وهذا هو سبب ما يجده القارىء في بعض المواضع من عجمة الاسلوب، ولم أشذ عن هذا إلا في تغيير لفظ الطبيعة بلفظ الجلالة أو الفطرة على حسب مراعاة الاحوال لعرف التخاطب بين المتكلمين بالعربية .

للمؤلف رأي في التعليم الديني مبني على أحوال خاصة بالمكان الذي عاش فيه، والقوم الذين نشأ بينهم لا محل لذكرها هنا، فلا أعيبه عليه ولا أوافقه فيه، ولا سيما ان في مطاوي كلامه في هذا الموضوع وفي موضوعات أخرى مغامز تبين عن سوء عقيدته وذلك الرأي هو : أن لا يتكلم مع الصبي في شيء من الدين في صغره، وأن يتربص به حتى يكبر ويدرس المذاهب الدينية بنفسه، فيعتقد منها ما يشاء. ويكفيني هنا أن أقول ان كثيراً من أبناء من يشايعونه في رأيه لا يبلغون سن الشباب حتى تحتوشهم أهواؤهم عن النظر في الدين، وتصرفهم شهواتهم عن اتباع هدي النبيين، فينبذوا الدين وراء ظهورهم ويفشو فيهم الالحاد، وما ينجم عنه من الاباحة والفساد، كما هو مشاهد معروف

وعندي أنه لا شيء أمثل في هذه المسألة من اتباع هدي الدين نفسه ومن الخطل في الرأي أن يؤخذ فيها بقول غير المتدين .

بدأت بترجمة الكتاب في اليوم الرابع من جمادى الآخرة سنة ١٣١٧هـ الموافق لليوم التاسع من اكتوبر سنة ١٨٩٩م وفرغت منها في أول جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤هـ الموافق للثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٠٦ م. ومعذرتي في ذلك الابطاء المفرط اني انما اختلست الساعات التي قضيتها في ترجمته اختلاسا من أوقات فراغي من عملي القضائي، وقد كانت هذه الاوقات كثيرة تسع أضعاف هذه الترجمة لولا اني كنت كثير الضن بها على صرفها فيما ينفع كغيري من الناس في مصر .

كنت أحسب ان نشر الكتاب في المنار يكفي في تحقيق الانتفاع به، ولكني رأيت كثيراً من الاخوان الذين كانوا يوالون مطالعة ما كان ينشر منه فيها شديدي الميل الى رؤيته مطبوعا على حدة، واتفق لي أن زرت صاحب الدولة الوزير الجليل رياض باشا في شهر رمضان الماضي مع الاستاذ السيد محمد رشيد فألفيته معجباً بالترجمة أشد الاعجاب حاثاً على نشرها مجموعة، فكان كل هذا باعثاً لي على نشره الآن جملة واحدة تعميا لفائدته، وموافاة لرغائب الكثيرين ممن طالعوه منجماً .

وجل ما أبتغيه ممن أقدمه اليهم من اخواني قراء العربية أن لا يكون حظي

عندهم من عنائي في ترجمته اطراحه و إغفاله، بل أرجو منهم أن يأخذوه بقوة و يقبلوا على مطالعته بتأمل، ليقارنوا بيننا و بين غيرنا في العناية بتربية الناشئين و يعلموا أين نحن من قوم هذه أفكارهم فيها، حتى اذا آلمهم النقص الفاضح، وأخجلهم التقصير الفاحش، هبوا الى مجاراة غيرهم من الامم الراقية، وفكروا طويلا في تربية أبنائهم، وتخيروا عن بصيرة وعلم لا عن تقليد محض اكمل الطرق لانشائهم أحراراً جامعين بين ملكات العلم وفضائل الدين، ولن يتم لهم ذلك الا بالاخلاص والصبر ودوام الاشتغال والله المستعان وبه الحول والقوة

المترجم

تحريراً في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢٦ — و٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨ عبد العزيز محمد

﴿ مقدمة المترجم للطبعة الثانية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله أن أطلق لساني بحمده على غامر إحسانه، وهدى جناني لشكره على عوارف فضله، وجعل حمده مدعاة لفيض رحمته، وشكره سبباً لزيادة نعمه، والصلاة والسلام على الرحمة المهداه، سيدنا محمد بن عبد الله، خير من حرر العقول من ربقة الجهالات وطهر النفوس من لوث الاوهام، وربى الاخلاق بقويم هديه الالهي، وهذب الطباع باقامتها على الصراط السوي، وعلى آله وصحبه أئمة المربين، وقادة المرشدين

أما بعد فلا شيء يعدل اللذة التي يجدها العامل إذا وجد عمله نافعاً مقبولا عند قومه، تحقق صدق هذه القضية عند نشر كتاب (التربية الاستقلالية) عقيب طبعه لاول مرة، فاني وجدت من إقبال العلماء والادباء عليه وتقريظهم له وتوفرهم على مطالعته وحث الناس على اقتنائه، ما ملأ قلبي سروراً وغبطة، وأنساني ما لاقيته من العناء في ابرازه الى العربية، وزادني سروراً أن قدرته قدره نظارة المعارف الجليلة في عهد صاحب السعادة العالم الجليل سعد باشا زغلول فقررت إقراءه في بعض مدارسها العليا، وتفضل صاحب السعادة المفضال أحمد حشمت باشا ناظرها الحالي الشغف بحب العلم فأقر هذا القرار . وكان من توارد طلب الناس لنسخ الكتاب ان نفدت جميعها، وهذا ما دعاني مع ناشره بالطبعة الاولى إلى إعادة طبعه الآن، وها نحن ذان نقدم لقراء العربية طبعته الثانية والله أسأل أن يديم النفع به وهو حسبنا ونعم الوكيل

عبد العزيز محمد

(تنبيه) من طبع هذا الكتاب غيرنا يحاكم و يجازى، ومن وجدت بيده نسخة منه (من غير طبعته الاولى) غير مختومة بختم المترجم يسأل عنها قانوناً

الكتاب الاول

(في الأم)

الرسالة الاولى

(من الدكتور إراسم الى زوجته في ٣ يناير سنة ١٨٥ — [1])

في وصف حاله في السجن

قد مضى عليّ ياعزيزتي هيلانة ثمانية أيام طوال عجزت فيها عن الكتابة اليك وأعوزتني العبارة التي أرضاها لوصف ماأعانيه من مضض الألم. ليس مايقاسيه الاسير من عذاب الأسر هو الحرمان من الغدو والرواح ، والعجز عن المشي مطلق السراح، بل عذابه الأكبر هو ضيق الصدر وابتئاس النفس . تلك القباب والاعمدة والدهاليز الدائمة التي لاتنفك عن مواجهة المسجون هي التي تبلبل منه الافكار ، وتوقعه في الدوار ، حتى يقذفه هذا العناء ، في مهواة الفناء ، وهذه الاحجار أحجار البناء تمسخه فتحيله حجرا مثلها . وفي أول عهدي بالسجن كنت صنما لاارجع للناس قولا ، ولا أملك لهم ولا لنفسي ضرا ولا نفعا ، وكدت أعدم الحركة والفكر بل كان يخيل لي أني قد فقدت وجودي

---

(١) عن يمين رقم ٥ في الأصل الفرنسي نقطة (لاصفر) لابهام السنة والاكتفاء ببيان أن ذلك كان في النصف الثاني للقرن وقد جعلنا بدل النقط خطاً عرضياً

وفنيت عن نفسي، وانتقلت حياتي الى السجن نفسه، لحصره إياي في دائرة من الوجود مشئومة صناعية لاجولان للفكر فيها. واني أؤكد لك أن من هذه حاله يلزمه عمل كبير للرجوع الى وجوده. وهذا العمل قد قمت انا به. والآن قد ثابت اليّ نفسي، واصبحت مالكا لحسي. لاترجنّ مني أن أصف لك ... فان المسجون قلما يعرف مايسكنه من المحالّ واني قد نقلت من ... في غروب الشمس. ولما وصلنا الى السجن كان الليل قد أرخى سدوله ولم يبق لي من الضياء الا بقية لا اكاد أميزبها في ظلمات الجو غير الاشباح السوداء لبروج السجن الصغيرة، واسهمه واسنته الحجرية، وكان يخيل لي ان البناء قصر متين شيد بالظلمات. نزلنا من الجارية (العجلة) وصعدنا مشاة الى طريق مدرج منحوت في الصخر يفضي الى سجن الحكومة وكنت أمشي في هذا الطريق كأني في حلم. على اني قد راعني منظر شيئين في هذا المكان أولهما جمال ذلك البناء الباهر ووقوعه من قمة الجبل المظلم موقع التاج من الرأس- ثانيهما اصطخاب البحر وتلاطم أمواجه.

وليست تلك القمة في الحقيقة الا قطعة من الصوان برزت من صحراء رملية. - ورمل هذه الصحراء يمتد الى البحر تعلوه الكآبة والحزن. وكنت اميز المحيط من بعد في ضوء الصفائح المائية المضطربة. وليس الحال كذلك في جميع الاوقات، لان المحيط في إبان المد يغمر الساحل ويعلو ويصطخب ويحدق بالجبل من كل جانب فتغمره زخرة امواجه المتزاحمة.

يصل النور الى مخدعي من السجن - وهو مقابل للمحيط - من كوة صغيرة كـكوى الاسلحة النارية في المعاقل او كالذي يسميه المهندسون « برنجا » على انها مع ضيقها مسرح للنظر لانهاية له. وهي من الارتفاع

بحيث لا أشاهد منها سطح البحر الا قائما على اطراف اصابع الرجلين فاذا جلست لا يبقى لي ما امتع به نظري الا السماء. ولا بأس في ذلك عليّ فان لي في السماء ناحية من الكون اشاهد فيها ساعات كاملة طائفة من ظواهر هذا العالم لم تكن تسترعي نظري الى هذا العهد، وهي ألوان الضوء المتغيرة والصواعق والبرد والضباب، وبالجملة ما للأحداث الجوية من الجمال الخيالي اذا برزت من حجب الظلام. غيري من الناس يحب ان يشاهد السماء في البحر حيث يتراءى السحاب في مرآته وأما انا فاخالفهم في ذلك لان البحر بالنسبة اليّ هو الذي ينعكس على السماء فأراه في مرآتها.

قد رأيت مما ذكرتُ ان لي مرقبا للعالم وحظاً منه فما الذي يمنعني ان اتخيل في السحب سلاسل جبال وفي سهول الاثير ارياقا ومزارع جميلة. تلك المناظر الخلوية المعلقة في الهواء ليست كما اعلم الا خيالات سانحة لافكاري وما أتذكره من معلوماتي. قد تبعث الانسان وحدته على البحث في مخيلته عن صور ما عرفه من الاماكن ومن احبهم من الناس فأنا الآن بسبب استحضاري لمرائي ماضيّ الجميلة في حيز من النور — قد انفتح فوق رأسي — أرى مثالك فيه

ان كان قدر عليّ ان اصير خياليا كان ذلك آخر عقاب لعقل لم يشتغل منذ عشرين سنة بغير العلوم الحقيقية

على اني لست اشكو من شيء فطوبى لمن يصح له عند سقوطه ان يعتمد على فكرة انه دافع عن حوزة القانون وذب عن الحق واني اذا كنت اتألم فليس ذلك الا لاني كنت سبباً في تألمك. اه

الرسالة الثانية

(من إراسم الى هيلانة في ٦ يناير سنة ـ ١٨٥)

اتحافه اياها على بعده من العالم بخبر سار

حدث بالامس بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحاً ضباب كثيف غمر الشاطئ كله، والعادة في مثل هذه الحالة ان تدق الاجراس ايذانا بالخطر ، فلذلك طفقت أجراس القرية القريبة من السجن تطنطن وتيسر لي أن أفهم المقصود من هـذه الإشارة . ذلك الساحل المحدق بنا ممتلئ بالاخطار لان الرمال المتحركة ومستنقعات الماء الراكد والمد والجزر كلها حبائل تترقب اصطياد السائح الضال كامنة له تحت استار الضباب ، لذلك تناديه أصوات الاجراس وتحذره من الوقوع في الخطر وترشده بمصدرها الى الطريق الذي يلزمه سلوكه ليصل الى سفح الجبل أسرع ما يكون . وقد سألت في مساء هذا اليوم سجاناً لنا يسكن أهله القرية عما حدث فأخبرني بان طفلين مسكينين قد فاجأتهما أمواج البحر في إبان المد فأحاطت بهما وكادا يغرقان لولا ما بذله من الجهد والهمة صيادو الشاطئ من ذوي النجدة والبسالة في انقاذهما من مخالب الموت غير مبالين بالخطر الذي كاد يذهب بقواربهم . من هنا ترين انني على بعدي من العالم وحرماني من معرفة ما يحصل فيه قد قدرت ان اتحفك بهذا الخبر السار . اهـ

الرسالة الثالثة

(من إراسم الى هيلانة في ٨ ينابر سنة — ١٨٥)

تعرفه أماكن السجن تسلية لنفسه

انا في السجن تتعاقب عليّ الساعات وكلها متشابهة لا اختلاف بينها فليست الحياة هنا الا يوما واحداً بسبب ما يحرج الصدر ويضيق على النفس من توحد الاشياء وتشابه الاطوار وعدم تغير شيء منها . آه لو عادت إليّ نعمة العلم بما يقع في الخارج ،وليتني أعرف شيئاً من أخبارك . قد أذن لي في الخروج من مخدعي للتنزه كل يوم ساعة أو ساعتين على رصيف مرتفع للسجن فانا أصرف هذا الزمن في إجالة نظري والسياحة به فيما حولي من الاشياء لأتعرّفها فاني للآن ما كنت أعرف شيئاً في هذا المكان بل كنت اجنبيا منه بالمرة اذ كنت كميت ألقي في مكان لا يدري اين هو. وقد ابتدأت منذ أسبوع أن أعرف أين مستقري فتجدينني الآن اهتم بتعرّف شكل الأماكن المحيطة بي تعرفا صحيحاً ، يبعثني على ذلك وجدان لا شك في انه عام في جميع المسجونين . ولا ينفك ناظراي عن اكتشاف ما لم أكن رأيته حال دخولي في السجن . وإخالني قادرا على ان أرسم في الورق صورة ما احدثه البحر في الشواطئ من التقطع فنشأت عنه الخلجان والرءوس التي تمتد كالالسنة امتدادا عرضيا ، وصورة الصخور التي تتراوح بين البروز في ضوء الشمس والاختفاء الى نصفها في ظلام الضباب البعيد . وقد عرفت أيضاً رسم البناء الذي يحويني

وأوضاعه الهندسية الجميلة ، وتنظيماته الحربية ، ومعاقله الطبيعية ، ومنحدراته ومناطق اسواره . ولم يكن اهتمامي بمعرفة ذلك مبنيا على تدبير حيلة للهرب . كلا ! إنه قد حاول ذلك غيري من المسجونين وردوا بالخيبة لا ننا ان أمكننا ان نجو ممن يقومون على حراستنا من العساكر والسجانين الذين يتعسر علينا ان نخدع يقظتهم والتفاتهم ، فاننا لا نجو من المحيط والرمال الحائلة بوعوثتها وغيرهما من العقبات الكثيرة . وانما انا ابحث في ذلك عن طريقة أسلي بها نفسي وأشغل بها فكري ، فلا شيء مني يريد الهرب والتخلص من السجن سوى عقلي . اه

الرسالة الرابعة

(من إراسم الى هيلانة في ١٠ يناير سنة — ١٨٥)

(السجن قيد للاشباح دون الارواح)

اتعلمين ما للسجن عليّ من الفضل ؟ انه ليعلمني الحرية ويدلني على عجز الإنسان عن الاستيلاء على مثله . ذلك ما أحس به كلما تعاقبت عليّ الايام فيه وآنس من نفسي نوعا من الفرح تشوبه المرارة عندما اجدها اكبر وأقوى من ان يبهظها ثقل وطأة الظلم ، فليست أسوار السجن الصوانية ، وأغلاقه الحديدية ، وحفظته الايقاظ ، الاهباء في طريق العقل لا حوائل تحبسه وتمنعه من الجولان ، بل أشعة نوره تتخطى كل هذه العوائق ولا تقف عند شيء منها . وإن عزمة المسجون لتقاوم عزيمة ساجنه ومصفده ، وانه مهما جُدل وصرع فلا يستسلم ، فاذا هو كان على شيء من العدل

والحق كان أشرف من غالبه وأسمى منه مكانة ومن العبث مايحاوله هذا الغالب ، فالفكر كالهواء لايدخل في قبضة أحد. نعم إن من مقدوره أن يشد وثاق مسجونه ولكن ليصلْ بعد الى أعماق قلبه ،وليأسرْ ماهنالك من عزة نفسه ومنعة وجدانه، ان كان ذلك في قدرته ؟ هيهات هيهات . تلك المنعة التي أجدها في نفسي تدعوني الى الثقة العظيمة بالمستقبل . لا أقسم بغيابات السجن (حجراته المظلمة الضيقة المعدة للمحكوم عليهم به طول حياتهم) ولا بأشباح أولئك الذين ماتوا هنا في زوايا النسيان أو في اقفاص الحديد ـ إن الحق والحرية سيكون لهما النصر والظفر في هذه الدنيا . اهـ

الرسالة الخامسة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ١٢ يناير سنة — ٥٨٥ ﴾

مواساة الاصدقاء الخاملين في حال الشدة

قد اهتديت بعد العناء الى طريقة إيصال هذا المكتوب اليك فسيصلك على يد . . . . الذي تفضل عليّ بأن يكون رسولا بيننا على مافي ذلك من المخاطرة بنفسه . هذا يدلك على ان الانسان الذي يحتف به في حال رخائه الجلساء المتملقون لايعدم في حال شدته ان يرى حوله احياناً اصدقاء خاملين يخلصون له الود . وأختم قولي بأني لك طول حياتي . اهـ

الرسالة السادسة

﴿ من هيلانة الى إراسم فى ٢٠ يناير سنة ـ ١٨٥ ﴾

إخبارها إياه برأي الطبيب في حملها وبعزمها على السفر لزيارته

قد تلقيت مكتوبك ايها الحبيب من يد البريد السري فكان له في نفسي احسن اثر وانفعه. فاني كنت في حاجة عظمى الى شيء يسليني ويسرّي عني بعض الألم فلَشدَّ ماقاسيته منه مدة شهر وقد ضعفت صحتي وانحطت قوتي والطبيب الذي يداويني في غيبتك يسألني اسئلة كثيرة وله فكرة في سبب هذا المرض اراها تشف عن جنونه فانه يزعم اني . . . . . كلا إنني لموقنة بخطائه في ذلك. ومهما يكن من الامر فنفسي تائقة لرؤيتك فان هذا الفراق العاجل بعد الزواج الذي لم يمض عليه اكثر من سنة خطب هائل لا يطاق، ولا سبيل إلى المعيشة معه، وإني مسافرة مساء الليلة من باريس ومعي إجازة موقع عليها من ناظر الحقانية أُذن لي فيها بزيارتك فلا بد ان يسمح لي بدخول السجن ولا يمكن ان يحل استبداد المستبدين ماعقدته رابطة الحب.

لاتخش شيئا من هذه الزيارة فاني لم اقصد بها الرغبة اليك في ان تستميح الحكومة عفوا عنك لاني وان كنت كثيرة التألم لغيبتك أحترم وجدانك وهواجس نفسك وان لم افهمها حق الفهم. اعلم ان فيَّ ما في بقية النساء من مواضع الضعف ومظان العجز، الا اني منزهة من دناءة الخدين وخيانتها لصاحبها فان شرفك داخل فيما احبه منك. وإنك على احتباسك

عني وبعدك عن ناظري بما فيك من عزة النفس والشهامة وإباء الضيم لاجلّ في نفسي منك وانت بين يدي لو فسدت مبادئك ومعتقداتك التي جريت على سنتها طول حياتك . اني لما تزوجتك تزوجت شيئاً آخر معك الا وهو ضميرك ووجدانك فان بقيت على ولائه متبعا مايرشدك اليه اقسمت لك اني اكون في الاخلاص لك كما تكون في الاخلاص له طول حياتي . والآن اودعك لاراك قريبا ان شاء الله وا كاشفك محبة قلبي اياك وامتلاءه بالحزن عليك اهـ

الرسالة السابعة

(من هيلانه الى اراسم في ٢٠ يناير سنة ــ ١٨٥)

« انفعال نفسها بزيارة السجن وما لاقته من المشقة في الرجوع منه »

« واخبارها زوجها بالجنين وتخوفها من ثقل فروض التربية »

لم يتيسر لي ان احدثك بشيء مما أردت محادثتك به عند اللقاء مع ان حديثي ذو شجون . من أجل ذلك أردت ان اعتاض عما فاتني منه بالمكاتبة فسطرت لك هذه الكلمات :

كان مجيئي الى السجن بالامس واستفتاحي بابه في الساعة الثانية بعد الظهر وبعد ان تحادثت مع مديره برهة اقبل نحوي أحد خزنته يهدج في مشيته وانا اسمع خفق نعليه شديدا على البلاط واخذني الى الغرفة التي كنت انتظرك فيها . كان قلبي قد وعدني قبل دخولي السجن ورؤيتي مافيه ان يستجمع كل مالديه من الجراءة والثبات ليدفع بذلك عني بوادر

الجزع وخواطر الهلع، فلم يلبث بعد دخولي هذه الغرفة ان نقض ميثاقه، وحل وثاقه، فاعوزتني رباطة الجاش وثبات الجنان لما رأيتني وحيدة لا انيس لي، وجمد الدم في عروقي لما استولى عليّ من الدهشة والوحشة مع انقطاع الصوت في قباب السجن الا مايكون من صرير الابواب وصلصلة اغلاقها من بعيد اثناء فتحها واقفالها. فلما بدا محياك لناظري فقدت بقية رشادي وغبت عن وجودي فان فرحي برؤيتك بعد احتجابك عني وحزني لوجودك في هذا المكان قد اثارا علي جميع ضروب الانفعال فقدحتني وصرعتني، ولم تبق لي من القوة سوى ما اسكب به العبرات، واردّد الزفرات، فألقيت نفسي عليك، وكنت كما تعلم بين يديك، رأيتك وقت التلاقي شاحب اللون ممتقعه فهل كنت مريضاً؟ وليس من العجيب اني نسيت ان اسألك عن ذلك فانني اذ ذاك كنت فانية فيك فما كنت افكر ولا ارى ولا احس ولا اقول شيئاً.

اتعلم ماذا كان يقلقني من الافكار فوق ذلك؟ انه كان يخيل لي ان لتلك الجدران جدران السجن المخيفة أبصارا وأسماعا وإدراكا وانها تحس بي لو صافحتك، وتراني لو اشرت اليك اشارة ما، وتسمعني لو أفضيت اليك بسر فتذيعه. لما عاد الينا خازن السجن ونبهنا الى أن وقت التلاقي الممنوح لنا قد انقضى من بضع دقائق قف شعري واقشعر جسمي وطار لبي، ولو اقسمت له عن سلامة صدر انه لم يمض على دخولي السجن شيء من الزمن وان في الساعة خللا أدى الى هذا الخطإ لما كنت في اعتقادي حانثة ووددت لو بعت حياتي وجميع ما املكه من حطام الدنيا وان قلّ بساعة أخرى أقضيها معك

لم تكن لي مندوحة عن فراقك على غصتي بمرارته ففارقتك مملوءة الفؤاد من الحزن ، فارغة العينين من الدمع ، معتقلة اللسان من الوجوم ، على شرف من فقد الادراك والشعور ، واجتزت مكان الاسلحة يتقدمني دليل يحمل مصباحا فان الليل كان قد جنّ على ما ظهر لي ولم يكن ابتعادي عن حضرتك حائلا بيني وبينك ولا شاغلا قلبي عن الاستغراق في شهودك . كلا اني كنت اخالني في كل خطوة اخطوها اسمعك تناديني مسترجعا اياي ، ولقد التفت مرة لاتبين هذا النداء الوهمي فلم يقع نظري إلا على وجه من الحجر ، ذلك هو احد البابين العظيمين الحافظين لمدخل القرية . سار بي ذلك الدليل الخرّيت الواسع الخبرة بشاطئ المحيط ومواقعه على حافة الساحل متجها نحو قرية . . حيث يجب أن أقضي ليلتي في ناموس الصيادين[1] . هذا الطريق وعث أمضي فيه الحزن والنصب حتى لقد كدت ان أجلس فيه مرتين على الرمال طلبا للراحة واستميحك العفو ان أقول اني كدت أود لو تم لي ذلك فاني كنت أعالل النفس بقولي: اني بجلوسي هاهنا أنام بالقرب من سجنه على الاقل وان اغتالتني الامواج فحسبي اني قضيت نحبي واسمه على شفتيّ

كنت في سبيل توطين نفسي على الصبر وتشجيعها على احتمال المكروه اردد النظر الى جهة . . . . . وكان الليل ساكنا الا أنه كان حالك الظلام مخيفه فلا كوكب فيه ولا قمر ، وكان يزيد في كثافة حجب الظلام ذلك السحاب المركوم وما يجود به من الرذاذ البارد . وأما البحر فكنت اسمع له من بعيد زمجرة وهديرا وأرى فوقه الخرة سنجابية

(١) الناموس لفظ مشترك بين جملة معان منها منزل الصيادين

اللون . وقد تنورت على ما وصفت لك من شدة الظلمة ضوءًا ضعيفا كان يظهر بصيصه من نافذة في جهة الجبل وتعذر عليّ أن احكم ان كان هذا الضوء المتذبذب منبعثا من السجن او من احد مساكن القرية وكنت مع هـذا الشك الذي كان يخامرني في مصدره انظر اليه نظر المحب الى اثر حبيبه وكنت أتوهم انه ان انطفأ ينطفئ معه نبراس حياتي ثم وصلنا بفضل همة الدليل وخبرته بعد الجد في السير الى نقطة تقابل . . . . فلم يبق بيننا وبينها سوى جدول يجتاز على المركب . جلست في المركب على مقعد من الخشب أرشدني اليه الجذافون لما اضنتني الافكار ونهكت قواي الخواطر فكانت هذه الراحة والسكون المستتب حولي سببا في توجيه ذهني الى فكرة جديدة فبينا أنا أفكر فيما كنت أفضيت به اليك من حالة صحتي وما استنتجه العلم منها اذ شعرت على الفور بحركة شيء حي تحت منطقتي . الله اكبر قد كان الطبيب مصيبا وعما قليل أكون اما

لا احسبك نسيت أن أعظم أمنية كانت لنا في أيام الهناء الماضية ان يرزقني الله ولدا منك واني لترتعد فرائصي عند التفكر في ذلك .

على انه لا ينبغي ان اخفي عنك نتيجة شعوري بالحمل وهي أني بعد أن تكدرت برهة أحسست بأن شعاعاً من الفرح والعزة يضيء في جوانب ظلمات حزني وأني في رجوعي من عندك لم أكن فريدة محرومة من الرفيق وخلت اني قد وجدتك بعد فقدك نعم أدركت مع الزهو والاعجاب أن ذلك الذي يجنه حشاي وتنضم عليه جوانحي هو انت أيها الحبيب وهل هو الا مثالك الحي وبضعة من لحمك ودمك ? ثم خيل لي بعد ذلك بلحظة ان الامواج المضطربة تحييني بلسانك تحية الزوجة

والام وقلت في نفسي قد صار في وسعي الآن ان اقتحم ظلمات الليل والرمال الوعثة ولا أبالي بالسجن ولا بأوامره الشديدة وحراسه وسجانيه وصحت بأن هؤلاء ليس في قدرتهم ان يأخذوه مني وانه هو في الجملة أبوه أو على الاقل بضعة منه يمكنني ان أخفيها في مستقري فأجعلها حرة بعيدة عن عدوان المعتدين كما تخفي اللبوة الجريحة شبلها في عرينها .

أقول هذا ولكنني أرى أمراً يروعني ويبلبل فكري وهو طريقة تربية هذا الولد فاني طالما سمعتك تتكلم فيما يجب على الوالدين لأولادهم بعبارات هي من سمو البلاغة وقوة التأثير بحيث ان قلبي كان يخفق لسماعها املا في انه سيكون المقصود بها واليوم قد اقترب تحقق هذا الامل وأنا من تحققه في إشفاق ورعب . من ذا الذي يقوم بتلك الفروض التي أنت تعلمها أكمل العلم ؟ فقد كنت تقول لي : لو رزقني الله ولداً لوقفت حياتي على تعليمه وتربيته وكنت تجاهر كل المجاهرة بانكار الطرق السائدة في تربية الناشئين واستهجانها شديد الاستهجان . كل ذلك لا يزال منقوشا في ذاكرتي لكني بقدر ما كنت أعجب بأفكارك ومقاصدك تعتريني الآن رعدة خوف أمام هذا التكليف الذي سيقع ثقله عليّ وحدي فقد فرق بيننا القانون البشري بهوّة حفرها لتكون حاجزاً يحول بيني وبين الوصول اليك في وقت أكون فيه أشد حاجة الى الاسترشاد بنصائحك والاستضاءة بنور معارفك والاعتماد على معونتك الادبية . ليت شعري ما سيكون من امر هذا الولد اذا كبر وهو محروم من رعاية والده وعنايته وما عسى ان أفعل له وأنا كالقصبة الضئيلة قد رزحت بضعفي وضعضعني سقمي ؟

قد وجدت قوبيدون الزنجي البار الذي أحضرته معك من امريكا

في انتظاري هو وزوجته على الشاطئ الآخر للجدول فلما رأياني ارادا تقبيل يدي رغما عني قائلين ان هاتين اليدين صافحتا يديك وان لك الفضل عليهما في الحصول على حريتهما. وما بلغت الشاطئ الا وأنا في قفقفة من البرد قد وصل أثرها الى اعماق نفسي وكانت ثيابي مبللة فوجدتهما والحمد لله قد أعدا لي فراشاً في احد نواميس الصيادين التي على ضفة الجدول واذكيا لي به ناراً من قضبان أشجار يابسة فأخذ البرد يزول عني تدريجا بتوقد اللهب في المستوقد وارتحت لما كان يبديه لي كل من هذين الشخصين من إخلاصه في الحب والولاء. ما أشد عدوى بر الانسان وأعظم أثر احسانه؟ فاني نمت هذه الليلة احسن من نومي في سوابقها بعد ذلك النهار الذي قضيته متعبة الجسم والنفس وكدت فيه ألعن الحياة واسأمها وانا اكتب اليك الآن في ناموس الصيادين بعد استيقاظي من النوم صباحا

تجد مكتوبي كما اتفقنا بالامس مخبأً فيما ارسله لك من الملابس التي توليت طيها واصلاحها بنفسي. ورق هذا المكتوب — وان كان رقيقاً — متين وقد طويته طية جعلته فيها على شكل زر، فليت شعري هل يتيسر لك قراءة خطي الذي هو كارجل الذباب؟

سأعود بعد غد الى السجن فقد وعدت بأن يؤذن لي في الدخول الساعة الأولى مساء وعسى أن اتجلد في هذه المرة فاستجمع شتات فكري. والآن أقبلك قبلة الوداع بكل ما في نفسي من قوة الشوق والملتقى قريب ان شاء الله

الرسالة الثامنة

(من إراسم الى هيلانة في ١٦ يناير سنة ـ ١٨٥)

(نقله من سجنه الى سجن آخر)

أكتب اليك هذا وقد استيقظت في الساعة السادسة صباحاً وعلمت ان عشرين مسجوناً انا منهم قد فصلوا لارسالهم الى سجن ... وبلغني ان أمر نقلنا وصل الى هنا ليلاً من باريس فلم يكن لي من وسيلة لانبائك بهذا الخبر قبل الآن ولم يبق لي أمل في لقائك فان السفر سيكون في الساعة السابعة صباحا وسيصل اليك هذا المكتوب وانا في طريقي الى الجزيرة التي جعلت مقرا لي فأودعك وداع محب ثابت على عهده لايثنيه عن حبك اعتراض الحوائل ولا يلويه عن ذكراك تطويح المطاوح .

(غرام على يأس الهوى ورجائه — وشوق على بعد المزار وقربه)

الرسالة التاسعة

(من هيلانة الى إراسم في ١٧ يناير سنة ـ ١٨٥)

خيبتها في زيارة السجن وعزمها على اتباع زوجها في منفاه

جئت اليوم الى السجن لزيارتك فمثل لنفسك ماعراني من هزة الطرب ونشوة الفرح لما علمت بأنك أخرجت منه . ما كان أبعدني عن العقل واقربني من الجنون في تلك الساعة اذ ظننت انك فزت برجوع

نعمة الحرية اليك ! . لكن لم يلبث كاتب السجن أن أبان لي خطأي اذ اخبرني بأنك قد وجهت (هكذا عبارته) الى جزيرة .... واني سأتبعك قاطعة أجواز البحار ، مقتحمة في سبيل القرب منك جميع الاخطار ، فأينما تكن وان في آخر الدنيا فلا بدّ لي من اللحاق بك لا يعوقني عنك هجير الشمس المحرقة ولا اخطار مجاهيل الصحاري والقفار ولا اعتراض سلاسل الجبال الشامخة دونك لان غايتي التي اسعى اليها هي ان نعيش مجتمعين فاكتب إلي حتى اوافيك لأُمتع النفس بلقائك

الرسالة العاشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٢ فبراير سنة ـ ١٨٥)

نهيها عن السفر اليه رعاية للجنين وما يلزم له من السكون

انا واثق ايتها العزيزة بحبك اياي واقسم عليك بأطهر مايوجد في هذا العالم واجله بالتقديس ان لا تقاربيني وان تهرولي هربا مني . نعم انني قبل الآن بشهر أو شهرين كنت اقبل منك هذا الاخلاص الشريف طيبة به نفسي منشرحا له صدري اذ لم أكن عالما بحملك وكنت أجد فيك وحدك حيناً بعد حين تفريجا لكربتي في وحدتي وايناسا من وحشتي . وكنت لاعتزازي بوجودك معي واغتباطي بقربك مني ولو ساعة من نهار انسى كل ماأقاسيه في لحظة من الحافظك . اما اليوم فقد تغيرت الاحوال وتبدلت الشؤون تبدلا عظيما فاصبحنا أنا وأنت لا نملك من أمرنا شيئا حتى حرية التحابّ والتوادّ . اصبح ماهو في العادة سبب اتصال واقتراب

بين الرجل والمرأة سببا لانفصالنا ،وحائلا دون اجتماعنا ،وذلك للحال السيء الذي نحن فيه . الا يجب ان نهيئ هذه المجاملات وتلك الآداب لذلك الذي لم يوجد بعد الوجود الكامل بحيث يطلق عليه ما يعبر به عن الموجود ؟ الا انه قد وجبت له علينا حقوق نحن مطالبون بادائها . اياك ان تنسي انك مسئولة امام الله عما وهب لك من حلية الشرف بأن أهلك لأن تكوني أمّاً

اني أخاطبك من حيث أنا طبيب وزوج ـ وأخشى أن أتعجل فأقول أب ـ بأن الذي ينبغي لك الآن هو شيء من السكينة والاستقرار، وأنصح لك بأن تغادري بلادنا الآن وتهاجري من هذه الارض التي تميد بزلازل الفتن فعي نصيحتي واتبعيها، واعلمي أن لي صديقا في انكلترة من رصفائي الاطباء يناجيني حسن اعتقادي فيه انه سينفعك ويرشدك الى كل ما يجب عليك علمه مما يتيسر لك به توطن تلك البلاد على حالة موافقة ،وان لنا والحمد لله فيما جمعته بكدي من يسير المال سدادا من عوز بل كفافا من العيش ، فاستجمعي به أولا لنفسك كل وسائل الراحة ومعدات المعيشة الطيبة ثم احفظي ما بقي لتربية ولدنا .... آه لو أدري عاجلا انك قد فارقت فرنسة وابتعدت عن مشاغب الشقاق الداخلي، فعجلي بالرحيل أيتها الحبيبة

أقول ـ والله على ما أقول شهيد ـ إنك لم تكوني في زمن من الازمان أعز على نفسي وأغلى قيمة عندي منك هذه الساعة التي أرغب فيها اليك في عدم اللحاق بي في سفري المحزن . لا تكثري همك بما قدّر عليّ واعلمي ان جل ما يعانيه المسجون من الشقاء هو احساسه بان لا نفع

في وجوده وقد ذقت أنا هذا الألم النفسي وبلوت مرارته لكني اليوم قد كلفت بواجب جديد يحتم عليّ أداؤه واني لارجو أن أقوم به مهما حالت دونه الحوائل

وفي الختام أودعك وداع حبيب يرى في قلبه من إجلالك ماعنعه من الشك في حبك اياه ويعلم به أنك لاتشكين في حبه اياك ٠

(حاشية) اني مرسل طي هذا مكتوبا للدكتور وارنجتون في لندرة اه

الرسالة الحادية عشرة

(من هيلانة الى ارامس في ١٥ فبراير سنة ـ ١٨٥)

تفضيل الامومة على الزوجية واماني الام في الولد

أطعت أمرك وسمعت نصحك وسأسافر غدا الى انكلترة ، واني قد استرجعت جزءا من ثبات جناني ، وفتح مكتوبك لي أبوابا أرى منها مشاهد جديدة . لتفن صفة الزوجية في صفة الامومة فتلك سنة الله في خلقه لا محيص لي من اتباعها . على أن هذا الولد الذي وعدت به سيكون الرابطة بيننا ويقرب شقة البين التي تفصلنا بعض التقريب. واني أرغب في الحياة من أجله ومن أجلك، فانه سيكون يوم يمن الله علينا بانتظام الشمل موضوع سلوة لاحزاننا وقرة لأعيننا وعزة لانفسنا

حقق الله مانرجوه من الامل ووقانا بفضله عوادي السوء اه

الرسالة الثانية عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ٢٥ مارس سنة — ١٨٥)

وصفها لوندرة ومقابلتها الدكتور وارنجتون وسفرها بارشاده الى بنزانس

واقامتها مع زوجه ووصفها مالاقت

كتابي اليك وقد استقر بي النوى الآن في انكلترة أكاشفك فيه بما وجدته في هذه البلاد فأقول . استأجرت مساء يوم الاثنين الماضي عجلة اجتزت بها ما بين القنطرة المسماة بقنطرة لوندرة « لندن بريدج » والميدان المعروف بميدان أوستون . وكأني بك سائلي عما شاهدته من عاصمة الجزائر البريطانية : لم أرمنها شيئاً أو إن ما رأيته لا يكاد يكون شيئاً يذكر . كنت أحس أحياناً بأني أدور في الظلام مع العجلة اثناء جريها في الميادين الفسيحة المحتفة بالبساتين والبيوت التي كنت اخالها هاجعة ، وكنت أرى عقب ذلك من كوّتي العجلة شوارع طويلة تمتد ذات اليمين وذات الشمال تحدها المخازن التجارية من الجانبين ، ويمتد في جانبي كل منهما على مدى البصر صفان من المصابيح الغازية ، فكنت تارة أجدني في ظلمات متكاثفة الحجب وأخرى اراني بين طوائف غير منتظمة من تلك المصابيح . وقد كان منظر ضوئها المنعكس على رصف الشوارع المبللة وعلى وقائع [1] الطريق ، وجملة أهـل المدينة الذين كانوا يغدون

(١) الوقائع جمع وقيعة وهي النقرة في الجبل او في السهل يستنقع فيها الماء

ويروحون وسمات الهم والاشتغال بادية على وجوههم ، وجلبة الغوغاء [١] التي كان يتعاورها السكوت فجأة ـ كان كل هذا غريباً عندي غير معهود لدي ،وكانت السماء تمطر وكأن لا مطر . ذلك انها كانت ترهم [٢] إرهاماً خفيفاً جداً يقول رائيه انه لا بد ان يستمر هكذا ألف سنة . وقد حصل في ذهني من سفري هـذا في سدف الظلام مجتازة مستنقعات الماء جائلة فيما أجهله من الاماكن صورةُ مدينة لا أول لها ولا آخر ، فيها كثير من ضروب العظمة والبذخ ،وكثير من أنواع الحقارة والمسكنة ، فهل هذه هي لندره ؟

تبوأت النزل الذي كانت وصفته لي السيدة . . . . فألفيت كل ما فيه في غاية النظافة والهدوء والنظام . قـدم لي العشاء في غرفة خاصة منه فيها كفايتها من الفرش وهي ملاصقة للغرفة التي أعدت لنومي . وقد راعني من خادمة المائدة جمالها البارع ،فبعثني ذلك على مراجعة ذاكرتي لادكار القليل من الانكليزية الذي كنت تعلمته في المدرسـة لمخاطبتها بلغتها ،فكانت أجوبتها لي في غاية الاختصار ولم ألبث ان فهمت من احتراسها في كلامها وظهور سيما الحيرة على وجهها ان الخادمات الانـكليزيات لا يحفلن بخطاب المخدوم اياهن خلافا للفرنسيات : والذي أدهشني كثيرا في هـذا النزل ان اهله لم يسألوني عن اسمي ولا عن حقيقة امري !! عجبا لهـذه البلاد التي لا يظهر ان أهلها يعتقدون اني ما اتيت بلادهم الا لقلب حكومتهم (تريد التعريض ببلادها الفرنسية)

---

(١) الغوغاء عامة الناس وجلبتهم لغطهم غـير المفهوم (٢) ارهمت السماء اتت بالرهمة وهي بكسر الراء المطر الضعيف الدائم

اتباعا لنصائحك قد اهتديت الى محل الدكتور وارنجتون وذهبت اليه في ثاني يوم من وصولي وقدمت اليه مكتوبك فما كاد يأتي على آخره حتى تذكر اسمك واقبل علي تلوح عليه علائم الوقار الفطري

انشأ هذا الدكتور يخاطبني بالفرنسية وهو يحسن الكلام بها بعض الاحسان فقال « لقد أصاب زوجك في إرسالك الى بلاد اجنبية فسترتاح نفسك الى المقام في انكلترة بما ستجدينه فيها من اعتدال الصحة الا اني أنصح لك بان تقيمي في الارياف فانها أجود مناخا واصفى هواء فان السكنى في الحواضر العظيمة لا تلائم النساء في الطور الذي انت فيه الآن ولا تلائم الاطفال ايضا ، وقد انشأ الكبراء من تجارنا في لندرة يفهمون مزايا الاقامة في القرى ويقدرونها حق قدرها فتريتهم لا يعبأون بالسفر مرتين كل يوم في السكة الحديدية ولا بما يضيعه عليهم هذا السفر من الفوائد الكثيرة التي منها الحضور في ناديهم مثلا وذلك ليمتعوا أسرهم بقليل من نضارة الخضرة ومنافع الشمس فهم يصرفون بذلك نساءهم عن التردد على معاهد التمثيل ومواطن اللهو الليلي ، ولكل امرئ منهم في الحقيقة نصيب من فائدة هذه الاقامة غير أن الاطفال هم اصحاب الحظ الاوفر منها فهم ينشأون في كمال الصحة من هذه المعيشة المطلقة في هواء الفضاء ، ولا يكاد يرغب عن ذلك الا الغنجات[1] المتورنات[2] اللاهيات بالتافه والمحقرات ، ولكن ما الحيلة في إرضائهن وللامومة واجبات لا بد من أدائها ؟ تأملي في الاطفال الذين يتربون في المدن الكبيرة ، الا ترين معظمهم شاحبي الالوان سقيمي الاجسام كالنباتات

(١) الغنجات ذوات الدلال (٢) المتورنات المبالغات في التطيب والتنعم

الموشمة (النابتة في الظل المحرومة من ضوء الشمس وحرارتها) . أتظنين انهم على هذا الضعف يزدادون في عقولهم بقدر ما يخسرون من صحتهم ؟ كلا اني لا أرى هذا صوابا لان جو المدن الذي أفسده ما فيها من ضروب اللذائذ وصنوف الاعمال لا يلائم بحال من الاحوال نمو العقل الخلقي ، وان الاطفال ليبلغون سن الرجولية قبل ابانه بتأثير تلك الحرارة الصناعيـة التي في المدن الا انهم في الغالب يكونون رجالا ناقصين لا يبلغون في الـكمال الدرجة المطلوبة »

فاه الدكتور بهذه الكلمات الاخيرة وابتسم ابتساما انتهى بظهور خطوط عرضية على وجهه السكسوني المستدير الذي يشرف منه على خديه شعر الصدغين القصير الذي قد وخطه الشيب ، ثم استأنف الخطاب فقال :

« دعيني اتولى أمر سكناك في الخلاء فان لي صديقا علك في قرية مرازيون بيتا للنزهة فيه شيء من الجمـال والنظام وموقعه تجاه خليج بنزانس وهو يبحث عن مستأجر يؤجره له بجميع أثاثه ورياشه لانه على وشك الرحيل الى ايطالية للمقام بها لاسباب صحية فانا أرغب اليك في الذهاب الى هذا البيت ورؤيته واحثك على ذلك وأرى ان في هذا السفر تسلية لك وترويحا ، ولو اني طبيبك لـكان من أول ما أصفه لك تبديل الهواء، وكوني على ثقة بأن آلام النفس تزول بتغيير المؤثرات فقلما يوجد من هـذه الآلام ما يتعاصى على هـذا التغيير كما ثبت لي بالتجارب فإن الانسان اذا رأى مشاهد خلوية جديدة يحيا حياة جديدة . وليس لي ان أمدح لك أميرية (كونتية)[١] كورنواي فانها مسقط رأسي . على

(١) الـكونتية هي ارض الـكونت وهو الشريف من اشراف فرنسة الغابرين

ان الناس قد اجمعوا على القول بانها اكثر جهات بريطانية العظمى اعتدالا في الاقليم وانها هي التي يعيش في أرضها الريحان والعطر والعود معرضة لهوائها المطلق في جميع الفصول . ان كنت ممن يروقهن منظر الصخور فانك ستشاهدين هناك منها جميع الاشكال في أبهج الاوضاع وأجدرها بالتصوير ، ولست أعرف حق المعرفة مقدار الاجرة التي يطلبها صديقي في سكنى بيته لكني لا أشك في انه لا يخرج عن الاعتدال فيما يطلبه وستجدين في بنزانس زوجتي السيدة وارنجتون فانها هناك هي وأسرتها حتى الآن وستغتبط باستقبالك وأما أنا فسأذهب لزيارتها واستنشاق هواء مولدي كلما تيسر لي الخلاص من اشغالي في لندره فاننا معشر الانكليز لا نقدر على اطالة الثواء في مكان واحد فالحركة والفضاء من حاجاتنا . وما كان أجدرنا باختراع الآلة البخارية وقد اخترعناها ولا عجب واصبحنا بسبب هذا الاختراع اقل الامم تغيرا فاننا مع سفرنا الدائم في اقامة مستمرة لاننا في أوطاننا أينما كنا »

افترقت أنا والدكتور على احسن حال من الوفاق والمودة وقد خاطبني في شأنك بما شف لي عن كنه اجلاله لك واعظامه لقدرك ، ولمح لي مرة واحدة في مطاوي كلامه تلميحا خفيفا الى ما انا فيه من الفرقة الحاضرة ، فأبان لي به عن عطف عليّ وميل اليّ ولم يسترسل استرسال الناس في عبارات التعزية والتسلية التي كثيراً ما أذلتني وهضمتني حق إدلالي بصفة الزوجية . تم الاتفاق بيننا على ان اسافر في الغد الى كورنواي وانما عجلت بالسفر لأستقر في مكان ما ، وقد رضيت هذه البلدة لي مقرا لان جميع الامكنة التي لا أراك فيها سواء عندي .

لما وصلت الى بنزانس اثناء الليل تلقتني السيدة وارنجتون عند نزولي من عجلة المسافرين وكانت في انتظاري لان زوجها كان كتب اليها بذلك واذا أردت ان تتصور تلك السيدة فمثل لنفسك امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ليست حسنة الوجه ولا دميمته ولكنها محبوبته سوداء العينين والشعر خنساء الانف عظيمة الفم باسمته سمينة قصيرة على انها خفيفة نشيطة قد أوتيت حظاً وافراً من الحنان والرأفة

لقد كثر مالاحظت انه يوجد في بعض الاحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والانوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين أفراد اسرة واحدة مع ان كلا منهما يكون أجنبياً من الآخر من كل الوجوه . أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون ؟ ذلك هو صديقك يعقوب نقولا ، خلتني أراه بذاته في زي امرأة

حمل أمتعتي خادم كان يصحب هذه السيدة فوضعها في عجلة ركبناها فاوصلتنا الى منزل الدكتور الريفي . ولهذا المنزل منظر بهيج اذا شوهد ليلاً في ضوء السماء فانه لكونه مبنيا بالصوان كمعظم بيوت التنزه الخلوية والاكواخ التي في تلك الجهة كان حجارته صفائح من اليرمع [1] والمهو [2] تلمع كأنها شهب تساقط من القمر، وفي النهار أيضاً له نوع آخر من جمال المنظر، فانه قائم في وسط حديقة من الاشجار المجلوبة من البلاد الاجنبية ذات الالوان اللطيفة المختلفة، وينبسط على طول مقدمه إيوان مسقوف

---

(١) اليرمع حجارة بيض تلمع في الشمس (٢) المهو حجر ابيض يقال له بصاق القمر

تتسلقه شجيرات الفوشياء [١] التي ترتفع ارتفاعاً غير معهود فهو مزدان من داخله وخارجه بزينة بديعة من الازهار لم تر عيني مثلها قط ، ولبيوت النبات الزجاجية المحل الاول في انتظام هذه الدار على ما أرى . لا جرم ان مثل هذه البساتين المسقوفة بالزجاج تزيد المعيشة الاهلية نضارة وحسنا والغرفة التي تفضل أهل هذا البيت الكريم باعدادها لي واحلتنيها السيدة وارنجتون نفسها بما أوتيته من كامل اللطف وفائق الظرف يخالها الانسان جنة — لو أن للارواح الوحيدة الجريحة أفئدتها من الحزن جنة في هذه الدنيا . . . — ومن محاسن هذه الغرفة أني عند ما أهب من نومي فيها اسمع تغريد القبّرة فيروقني لحنها .

السيدة وارنجتون هي والدة كاملة عاقلة فانها تقسم وقتها قسمين ، أحدهما لتربية اولادها ، والثاني للعناية بأمر ازهارها ، ولها من كل قسم منهما شيء من الفراغ يكفيها للمطالعة ، وهي على بعدها عن الدعوى بالاحاطة بالعلوم في المنطوق والمفهوم لها من طرق الاستدلال على مسائل شتى أحكام صائبة وآراء سديدة . وأسرة هذه السيدة يعجب بها من يراها ، فبنتاها الكبيرتان اللتان احداهما ربما كان عمرها سبعة عشر ربيعاً — كما كان يقال في تقدير السن سابقاً — لكل منهما وجنتان يذوب الورد منهما غيرة وحسداً ، وبعد هاتين البنتين صف من بنات أخريات وبنين يتألف فيه من اختلاف رءوسهم بالصغر والكبر وتباينهم بالطول

(١) الفوشياء شجيرة امريكية معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتنوع ازهارها في اشكالها والوانها وسهولة غرسها وهي من اشجار الزينة

والقصر نظام يحوي اجمل الفروق وابهاها . كثيراً ما كنت اسمع ان النساء الانكليزيات نُثُرٌ (كثيرات الاولاد) ولكن : الله اكبر ! ماهذا الزخرف زخرف الشعور الشقراء والاكتاف المكشوفة والالوان الزاهية الغضة التي ما كنت أسمع بها ! ا هـ

الرسالة الثالثة عشرة

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٢٨ مارس سنة — ١٨٥ ﴾

زيارتها جبل القديس ميكائيل ووصفها المنزل الذي استأجرته للسكنى

خرجت بالامس للنزهة أنا والسيدة وارنجتون راكبتين عجلة مكشوفة سلكت بنا المهيع الذي يبتدئ من بنزانس ويلتف حول الخليج المسمى بخليج الجبل على شكل نصف دائرة عظيمة كحذاء الفرس، فما ابهج ما رأيته وأجمله ! على انه ليس أول شيء أمال ذهني ونبه فكري هو البحر الزاخر أو شواطئه المرصعة بالصخور أو حركة أمواجه المتلاطمة المتعاقبة في تلاشيها على رمل الطريق، بل الذي استوقف نظري هو قطعة من الصوان يعلوها بناء كالدير أو القلعة الحصينة يسميها الانكليز بالجبل، وهي بارزة على يسار بطن الخليج ولذلك نسب اليها فقيل له خليج الجبل. إخالني رأيت هذه الصخرة بما فوقها من الابراج الصغيرة في منام أو في وقعة من وقعات الكابوس عليّ.

سألت السيدة وارنجتون بصوت متقطع من الرعشة عن هذا الشبح الحجري فأجابتني مترددة لما رأته من حالتي بقولها: هذا هو جبل القديس ميكائيل عندنا . فلما سمعت منها هذه الكلمة احسست بان كل ما في جسمي

من الدم قد جزر عائدا الى قلبي فلمحت ماصرت اليه من الاضطراب وعرضت عليّ الرجوع الى المنزل فصحت : لا ! بل لابد لي من الذهاب اليه فاضطررنا من أجل ذلك الى الطواف حول الخليج والذهاب الى مرازيون .

لما ان صرنا حذاء الجبل كان البحر في إبان جزره وكانت هذه الصخرة الصوانية على شكل شبه جزيرة لانحسار الماء عن بعض جهاتها بعد أن كانت جزيرة كاملة بعض ساعات من النهار . سلكنا للوصول اليها شعبا رمليا موحلا يكتنفه من الجانبين قطع من الصخور مغطاة بالطحلب والعلقي (١) المبللة وتيسر لنا به ان نجتاز البحر يبسا ومما كان يعرض لنا من القطع الصخرية كنا كاننا نمشي بين أطلال ، وكنت كلما جد بنا السير أزداد دهشة وارتياعا لتشابه ذينك الجبلين المتحدي الاسم فان هذه الصخرة بما فوقها من البناء وما حولها من البحر تكاد تكون عين التي في بلادنا الا ان تلك أسعد حظا من هذه فانها لم تدنس باتخاذها سجنا في زمن من الازمان .

افضى بنا المسير بعد حين الى سفح ذلك الجبل فاذا حوله لفيف من مساكن حقيرة يتألف من مجموعها قرية للصيادين والملاحين فوقفنا تشرف علينا الصخرة الصوانية من سموها المريع ، ثم اقتحمناها فاضطررنا في ذلك الى الصعود على شعب بل سلم نحتت درجاته في الصخرة وقد انتهى الامر بالسيدة وارنجتون الى ان ضاقت انفاسها وطفقت تلهث من شدة التعب فدعوتها الى الاستراحة على كتلة من كتل صخرية كانت تعترضنا في طريقنا ويظهر انها خرجت من باطن الجبل بسبب انفجار ناري فما كان

(١) العلقي نبت يكون واحدا وجمعا قضبانه دقاق عسر رضها تتخذ منه المكانس

اسرع ماالجابت، وجلسنا طائفة من الزمن لا ننبس بكلمة لما أدهشنا من مشهد العظم والخراب فكان البحر محدقا بنا وذلك البناء القائم الذي هو من آثار القرون الوسطى فوقنا، وعن ايماننا وعن شمائلنا اطلال من الصخر يغطي جزءا من عريها بعض الاعشاب البرية . وقد رأيت على ما في هذا المكان من المحول زهرة زرقاء نابتة في صدوع الصخر على طبقة رقيقة من بقايا الاعشاب المتعفنة فقطفتها على ذكر انها لعلها تكون بشرى السعادة.
كنت الى هذه الساعة التي رأيت فيها جبل القديس ميكائيل مترددة في اختيار البقعة التي أتخذها متبوءا وسكنا، واما الآن فقد استقر لمجرد مشاهدته رأيي وزال ترددي . فكأنما يوجد شيء من السحر في أسماء الامكنة واشكالها تغلب على فكري فحملني على ترجيح الاقامة بهذا المحل على انه لا بدع ولا سحر، فهاتان الصخرتان ـ اللتان تتراءيان وتتناغيان مع فصل المحيط بينهما ـ وهما جبلا القديس ميكائيل اختان في انكلترة وفرنسة متشابهتان في جميع الصفات والاوضاع فأول هذين الحصنين وهو حصن الانكليز كان حظه من كر السنين عليه الترك والاغفال، واما ثانيهما وهو حصننا فان له صراخا يصل الى كبد السماء دالا على استبشاع حالته واملة في الخلاص منها .

ذهبنا في نفس ذلك اليوم لزيارة المنزل الذي أوصاني الدكتور وارنجتون باستئجاره وقد علمت ان مؤسسي قرية مرازيون التي هو فيها من اليهود الذين كانوا يتجرون فيها بالتصدير قبل ميلاد المسيح بزمن مديد، واني لفي شك من وجود كثير من ذريتهم الآن في هذه القرية فانه لم يبق من دلائل وجودهم في هذه الجهات الا اسم واحد وهو

(اميرسيون) قد ارتاحت نفسي له لانه يذكرني بفرنسة. تتألف تلك القرية من جملة مساكن جديدة على بعضها مسحة من طلاوة المدنية الانكليزية، وهي قائمة من الخليج على شاطئه المقابل لجبل القديس ميكائيل الذي يتراءى معها على بعد فلها في ذلك منظر ذو بهاء وجلال من محاسنه . ان هذا الخليج ـ وهو تلك القطعة الجميلة من الماء التي تكتنفها الرمال وتتخللها الصخور وخصوصاً ما هو منها جهة الشاطئ المقابل للمنازل ـ تكثر فيه حركات الامواج المعتدلة التي تسكّن آلام النفس وتخفض من برحائها .

بقي علي الآن أن أحدثك عن المنزل فأقول : انه لا ينقصه شيء من المتانة والرصانة لانه كله مبني بالصوان الذي يكثر في هذه الجهة دون غيره ، ولما كانت مادته شديدة الصلابة تتعاصى على النحت اعتاد البناءون على الاكتفاء في إعداده للبناء بترقيق قطعه ، ومن أجل ذلك كانت ظهور جدران المساكن في الجملة خشنة وغير مستوية ، وطريقة البناء في الداخل تخالف كذلك طريقتنا فيه مخالفة عظيمة لانهم لا يقتصرون هنا على فصل البيوت بعضها عن بعض بحيث لا تتلاصق، بل هم يفصلون بين الغرف ايضاً بحيث تكون المعيشة عزلة تامة .

ذلك البيت قائم على ربوة رملية قحلة فلذلك أخشى ان يكون معرضا لهبوب الرياح الشديدة الآتية من البحر ، لكن الناس يؤكدون لي ان هذه الرياح التي تهب من هذه الجهة تكون فاترة صحية في جميع فصول السنة. واما الأثاث فهو في غاية البساطة والملاءمة لحالتي، واكثر مادهشت له في هذا البيت هو اني وجدت في الطبقة العليا منه غرفتين منفصلة احداهما عن الاخرى تمام الانفصال ليس لهما في ذاتهما شيء تمتازان به امتيازا ظاهرا

لكنهما على هذه البساطة قد أحسن البناء وضعهما فكان لهما أجمل منظر واحسن موقع تشرق عليه الشمس، فالضوء يسبح فيهما بلا حجاب يعترضه لان نوافذهما من اجل ان تتلقاه بالتكريم تكاد تكون مجردة من الستائر وهذا منها نوع من الادب والترحيب بلسان الحال فكأنها تقول له : تفضل فهذا محلك لا يمنعك منه مانع. نعم ان عليهما من الخارج بعض قضبان من الحديد انقبض قلبي لرؤيتها أول مرة الا أن هذا الانفعال السيء قد زال عند ما علمت ان هذا المحل هو مسكن الاولاد وان هذه القضبان لم توضع الا لمنع ما عساه يقع من الحوادث التي تكثر عادة من الاطفال بما يلازم سنهم من التهور والجهل بالخطر فهي اذن وسيلة من وسائل التحفظ لا علامة على الاسر. في احدى هاتين الغرفتين ينام الاطفال وفي الاخرى يلعبون بالنهار اذا كان الجوّ بارداً أو السماء ممطرة ، وقد أكد لي الناس هنا ان هاتين الحجرتين يوجد لهما نظيرتان في كل بيت من بيوت الانكليز التامة المنافع والمرافق .

ولا أنكر عليك ان هذا الامر قد أثر في نفسي فان معظم الدور عندنا في باريس تامة البيوت والغرف والمرافق اللازمة ، وهي حجرة الاكل وقاعة الاستقبال وغرفة النوم والمكتب ومخدع الخلوة وغيرها مما يطابق عادات الرجل الدنيوي واهواء المرأة المتربية فلم ينس فيها الا ما يلزم لشخص واحد ، الا وهو الطفل

الطفل عندنا بسبب اضطراره الى ملازمة الكبار في معيشتهم وتقضيته الايام والليالي في غرفة واحدة مع والدته العصبية الرقيقة المزاج ووالده المثقل بالاعمال لا بد ان يكون ضيفاً مقلقاً لغيره واسيراً كاسف البال في

نفسه فانه لامندوحة عن ان تمتد يده الى الاثاث فتفسده وتتناول الكتب فتمزقها والآنية الصينية فتكسرها ويجرّ عليه هذا النزق وما ينشأ عنه من الإتلاف الخفيف توبيخاً مستمراً ، فيقرعه والداه ويعاقبانه على نشاطه وسروره ولغطه ، اعني على كونه طفلاً .

وليس هذا كل مايلاقيه عندنا فانه احيانا قد يطرد من مسكن أبويه لضيق المحل فلا يجد له مأوى سوى فناء المنزل وانت تدري ماهي افنية البيوت في معظم المدن الكبيرة فليست هي الا جحور ضباب .

قد فهم الانكليز مقتضيات المعيشة المنزلية من حيث سكنى الاولاد أحسن مما فهمناها بكثير فهم يعتبرون المولود عندهم شخصاً مستقلا فيفرذونه بحجرة قائمة بذاتها .

لم أصف لك حتى الآن شيئا من بستان البيت على انه هو الذي أخذت بهجته ونضارته بلبي : ليس لهذا البستان سور من البناء وانما هو محاط بسياج من النبات تمطره في شهر يونيه - على مايقال - شجيرات الرتم [1] الشوكية ذهباً من أشجارها العسجدية ، واذا أردت ان تتصور جمال هذا البستان فمثل لنفسك نحو آكرين [2] أرضا تغطيهما جميعا شجيرات الورد وعنب الثعلب وغيرها من الاشجار الصغيرة . وانما كان مافي هذا البستان شجيرات لان أرضه رملية ومجاورة للبحر فهي لاتصلح للاشجار الكبيرة ولكن قد أنشأت تنفتح بين أعشابه المطرية عيون بعض ازهاره البنفسجية

(١) الرتم شجرة ذات ازهار صفراء أصلها من اسبانية (٢) الآكر كما في الاصل مقياس سطحي قدره ٤٨٤٠ ياردة مربعة واحسبه محرفاً عن الاكارة القريبة في المعنى منه لانها في عرف الفقهاء الاسلاميين مايعطى من الارض للاكرة لزراعته

فكيف يكون جماله بعد خمسة أو ستة اسابيع اذا كساه الربيع بلا حساب ما لديه من حلل البهاء والنضارة ؟

قد استأجرت المنزل وسأسكنه في الاسبوع المقبل واما الآن فأنا ساكنة عند السيدة وارنجتون التي تحوطني بانسها الدائم وكرمها الغامر وكل ما أنا فيه من وسائل النعيم يؤلمني وأوبخ نفسي عليه عند ما اذكر سجنك وما انت فيه من الضيق والالم .

أنا متطلعة لاخبارك أيها الحبيب فأرجو ان توافيني بشيء منها ، فهل خفت عليك معيشة السجن بسبب تغيير المحل أو زادت ثقلا ؟ اسألك بالله أن تصدقني الحديث ولا تخفي عني منه شيأ

وفي الختام اقبلك من وراء تلك البحار التي وان حالت بيننا لم تفرق بين قلبينا . اهـ

الرسالة الرابعة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٨ ابريل سنة ـ ١٥٨)

وجوب محافظة الحامل على سلامتها من الامراض

تلقيت مكتوبك ايتها العزيزة هيلانة فذهب بروعي وثابت الي سكينتي واطمأن به قلبي عليك كثيرا لشفيفه لي عما فيك من الاقدام والسلطان على نفسك فانت حقا اشرف صاحبة عرفتها في حياتي . قدر علي السجن وعليك النفي فاحتملت نصيبك من المقدور شريفة النفس عالية الهمة .

ان نصيحة صديقنا الدكتور وارنجتون لك بسكنى القرى صادرة

عن حكمة وسداد فان الإقامة بالاريارف أولى بك الآن من السكنى في المدن لكثرة مافي هذه من الصخب والشغب لان الاعتكاف والرجوع الى المعيشة الفطرية هما اللذان يتيسر لك بهما ولا شك استجماع قواك بعد مالاقيته من تلك الصدمات النفسية التي اخشى ان تكون زعزعت صحتك فأوهنتها .

اعلمي ان من المفروض عليك ان تكوني صحيحة الجسم سليمة من الادواء ، لانك مسئولة من الآن عن الوديعة التي استودعك الله اياها ، ولا تستغربي مني مخاطبتي إياك باصطلاح العلماء بمنافع الاعضاء فاني ماتعلمت الطب عبثا بل تعلمته للانتفاع به . كل كائن دخل في بداية الحياة عرضة للمرض والهلاك ، ولذلك كان للجنين امراض حقيقية . ومن هذه الامراض والعلل الخفية مالاشك في عجز العلم عن إدراك كنهه ، ولكن يحق لنا كل الحق ان نعتقد ان للمرأة دخلا في بعض مايولد به الطفل من التشوه في كثير من الاحوال ، ولا اخالك نسيت تلك السيدة د.. التي فتنت القلوب ببديع حسنها فانها لما أصابها هوس المرقص وبعثها على ان تقضي فصل الشتاء كله رقصا في قاعات باريس ـ بل اداها الي الاستمرار على ذلك حتى في ساعة الوضع ـ قد وضعت بنتا فيها شيء من الجمال غير انها حدباء .

اذا عرفنا ان لأعمال المرأة تأثيرا في الجنين كما وصفنا تأتى لنا أيضا ان نقف على العلاقة التي بين انفعالاتها النفسية وبين اخلاق ذلك الجنين الذي يحيا بحياتها ، ويشمله شخصها وتضمه احشاؤها ، فقد كان الحكيم

هوب [١] يعلل مافيه من خلق الجبن بما لاقته أمه من الاهوال أثناء حملها به حينما كانت العمارة الاسبانية المسماة ارمادا الشهيرة تهدد انكلترة وتطوف حول سواحلها ، وكان ما يتخيله أهلها من صورة إغارة الاعداء عليهم يلقي الرعب في قلوبهم .

قد طالعت وقائع نيجل [٢] فما أشد ماتجدينه فيها من مسكنة الملك يعقوب الثاني [٣] فلشدّ ما كانت ترتعد فرائصه ويصفر لونه عند رؤيته السيف مجرداً من قرابه . فجبن ذلك الملك على كونه ممايضحك الثكلى ـ ربما كان جديرا بأن يحرك في الانسان عاطفة أخرى اذا صح ان ضعفه هـذا ناتج من مشاهد المصائب والرزايا التي كانت تحيط بأمه مريم استوارت [٤] في أثناء حملها به .

يصعب الحكم اليقيني على درجة تأثر الجنين بتزعزع الشجرةالعصبية التي تظله في بطن أمه في حالة العلم الحاضرة ، ويكفي وجودالشك في تأثره موجبا على أمه اتقاء أسباب الانفعالات الشديدة والنظر الى الاماكن

---

(١) هوب هو توماس هوب الحكيم الانكليزي الشهير المولود سنة ١٦٧٩ المتوفى سنة ١٨٥٨ ميلادية وهو من أنصار مذهب الاستبداد في السياسة (٢) نيجل كاتب قصصي شهير (٣) يعقوب الثاني هو أحد ملوك انكلترة السابقين وهو ابن كارلوس الاول تولى الملك بعد اخيه كارلوس الثاني سنة ١٦٨٥م وحاول رد المذهب الكاثوليكي الى انكلترة وارجاع حكم الاستبداد فخامه صهره غليوم اورنجا فالتجأ الى لويس الرابع عشر ومات في فرنسة سنـة ١٨٩١ (٤) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية وأم مريم لورين ولدت سنة ١٥٤٢ وماتت سنة ١٥٨٧م تزوجت ولي عهد الحكومة الفرنسية الذي صار بعد الزواج فرنسيس الثاني ولما توفي زوجها عادت الى إيقوسية وتزوجت بهنري دارنلي ثم تزوجت بيوثويل ثم ثار عليها رعيتها فالتجأت الى اليصابات ملكة انكلترة وبقيت في الاسر تسعة عشر عاما حتى ماتت

المشئومة والابتعاد عن المتاعب وعما يجره الاخلاص في الولاء من الشدائد والمحن .

المرأة هي قالب للنوع الانساني يفرغ فيه فيتشكل بشكله الى حد محدود ، فيجب عليها لهذه الصفة رعاية صحتها والمحافظة عليها . فيلزمها في الحمل ان تكون مستريحة الجسم والفكر مستجمة القوى ، ولكن يندر ان يوجد بين ربات الجمال من النساء من تصبر فيما جرى العرف بتسميته الدنيا الكبرى على ترك اللذائذ ومجامع الافراح وملاعب التمثيل لتنال شرف الاتيان بأولاد حسان ، بل من خسارة الصّفقه لديهن ان يجدن انفسهن عاجزات عن استئجار غيرهن لتأدية وظائف الحبل كما يستأجرنهن للرضاعة ، فانهن لو وجدن لذلك سبيلا لاستأجرت المثريات منهن من عهد بعيد بطون نساء الطبقة السفلى لحمل اجنتهن .

وأما هؤلاء فانهن لكدهن في وسائل المعيشة لا يجدن لهن من الزمن مايهتممن فيه كثيرا بأمر ذريتهن ، فقد رأيت بعضهن وقد أثقلن حتى كدن يشارفن الوضع تلجئهن ضرورات المعيشة الى غسل الملابس في نهر السين زمن الشتاء فكن يغمسن اذرعتهن في مائه المثلوج أو تضطرهن الى دفع عجلات محملة لتمشيتها أو الى حمل أثقال باهظة يرتاع لها الاشداء من حمالي الاسواق ، وبهذا تعلمين ماجر علينا مافي اخلاقنا من الاثرة وحب الاختصاص من رداءة النسل ، كل مايضعف المرأة التي هي قرينة الرجل وصاحبته يضعف الذرية ويحط من شرف الجنس ، فاذا أراد المجتمع الانساني ان يضمن لنفسه الحصول على أولاد حسان الخلق يكونون في المستقبل رجالا أشداء فلا يتسنّى له ذلك الا بتحري

العدل في تقسيم ثمرات العمل وبأن يعرف للمرأة ماتستحقه من الاحترام والاجلال . اهـ

الرسالة الخامسة عشرة

(من اراسم الي هيلانة في ١٠ ابريل سنة ـ ١٨٥)

(التربية الاولى من خصائص الام)

« غرضه من تربية ولده أن يكون حراً لا أن يكون من كبار الرجال »

ليست مكتوباتي اليك كغيرها مما يكتب الناس بعضهم الى بعض وانما هي أحاديث مسجون يناجي بها في عزلته أعظم شقيقة لنفسه وأحسن قسيمة لروحه

ولا بد ان يكون قد سبق الى ذهنك ما اقصده منها ففطنت اليه . اني أريد ان أعمل ما استطيع وانا في مطارح النوى لتحصيل السعادة لذلك الذي بشرنا الله به ، فانه ليعرض لفكري ان هذا الطفل ربما لا يعرفني ولا يراني أبداً، وقد يتهمني يوماً ما بأني اهملت ما فرضه الله عليّ من الواجبات التي تحفظ حقوقه بالقيام بها ، فيحرج لذلك صدري ، وتنقبض نفسي، ولكني لا اخالني مستحقاً لهذا اللوم اذا كنت على ما أنا فيه من العجز عن حياطته بضروب الرعاية وصنوف الملاطفة ادفع له دين الابوة من نقد آخر .

اني بما أكتبه من الرسائل سأؤدي على بعدي من ولدي ما فرض له عليّ من حقوق التربية ، لا بإعوازغيرها من الطرق المثلى لاداء هذا الفرض . فقد

درست شيئاً من احوال الانسان في تطوافي حول الارض مشتغلا بصناعة الطب في السفن، ورأيته في اقاليمها المختلفة ، وفي اعمار مجتمعاته المتباينة ، ولذلك أرى ان في قدرتي ان استنتج من افكاري ومما تحفظه ذاكرتي من الحوادث طريقة للتربية مؤسسة على نواميس الكون وتاريخ وقائعه ، فعلينا الآن ان نتبادل الافكار في ذلك ، فسأكتب اليك عما يبدو لي وتكتبين اليّ عما يعن لك، حتى تتحد روحي وروحك في السهر على مهد هذا الولد العزيز رعاية له وعناية بشأنه .

سأراه في منامي يشب وينمو، وأنت ستحدثيني عنه في مكتوباتك وستخبرينه بوجودي ، ولا موجب لاهتمامه بمستقبله ، فان تربية الطفل الأولى هي من خصائص والدته وانت أهل للقيام بها وحدك بما فيك من يقظة القلب وتوقد الذكاء، وسننظر بعد فيما يلزم من امور تربيته المستقبلة .

على اننا يجب علينا ان نعين الغاية التي يلزمنا ان نرمي اليها في مساعينا . اني لا أعلم مطلقا بوجود قالب يفرغ فيه الناس فيخرجون من النابغين ، ولئن كان فليس هو للتربية قطعا بل يكون بين يدي الخالق (سبحانه) ليهيء به من يشاء لما يشاء ، فاذا كان ولدنا ذكرا كان غرضي من تربيته ان يكون رجلا حرّا، ولا اقصد بحال من الاحوال ان يكون من كبار الرجال وعظمائهم اه

الرسالة السادسة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ١١ ابريل سنة ـ ١٨٥)

تشابه السجون في جميع البلدان وتسرية همه بالمطالعة

أراك متطلعة الى اخباري راغبة اليّ في ان أوافيك بشيء منها، فها أنا ذا اخبرك بأن السجن واحد في جميع البلاد ، فليس بين المكان الذي تركته وبين هذا الذي أسكنه الآن على رغمي كبير فرق ، وإني من عهد وصولي اليه قد لجأت الى المطالعة فإني وجدت الكتاب في غيبتك عني احسن قرين لي يؤنسني ويسرّي عني الهم . ماذا أقول بعد ذلك ، غاية ما اقول لك اني عائش راجٍ الفرج ثابت على حبك والسلام . اه

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ١٥ ابريل سنة ـ ١٨٥)

قرارها في المسكن الجديد ـ مجيء قوبيدون وزوجته جرجية من فرنسة ـ مقارنتها بين الفرنسيات والانكليزيات في تربية الاولاد

قد تم لي القرار في المنزل الذي استأجرته، وفي صباح هذا اليوم قدم على إحدى السفن التجارية خادمانا الزنجيان قوبيدون وزوجته جورجية آتيين من فرنسة حيث كانا تخلفا عني لحزم امتعتنا. فاسكنتهما رواقاً ملاصقاً للمنزل من ناحية البستان وانا الآن اساعدهما في نفض كتبك وترتيب مجموعاتك

لم يكد يستقر هـذا الزنجيُّ البارّ حتى وجّه عزيمته الى اعمال شتى فصرح لي ان في نيته قلب أرض البستان و بذر الحبوب وتطعيم الاشجار وغرس انواع من النبات فيها ـ الى غير ذلك من الاعمال، وقال لي انه ان لم ينتج بستاننا عما قليل أطيب فواكه البلد واجود بقوله فلا يكون هو الملوم في ذلك ، وهو يذكر سابق اشتغاله بزراعة الارض أيام رقه ، وهو فرح فخور بانه ينبعث الآن الى العمل بسائق الشكر والاقرار بالنعمة بعد ان كان لا يلجئه اليه الا خوفه من أليم الضرب بالسوط، ويقول: ما أشد اتقان ما سيصير اليه شغلي، فقد اصبحت مالكا لنفسي منفكا من ربقة الاستعباد .

لا اخفي عنك أن المقارنة بين اسمه والمسمى كانت مدعاة للضحك ومثاراً للاستغراب ، وان سكان مرازيون يضحكون منه لانهم يستصعبون التوفيق بين معنى العشق وبين مشفري ذلك الزنجي الغليظين وأنفـه الافطس وجلده الاسود (*) واني لأخشى ان يكون هـذا الاسم لم يطلق عليه من مواليه السالفين الا تهكما وسخرية ، ولـكني على رأيي هذا لم اجسر ان اكلمه في تغييره فإني لو فعلت لـكان هذا اعترافا مني له بأنه دميم، أو تصريحا بأن البيض لا ينصفون مثله من سكان افريقية

أنا في هذا البلد أعيش بعزل تام عن الناس فلا اتردد الا الى دار السيدة وارنجتون حيث أصادف احيانا بعض سيدات من بنزانس أو من ضواحي مدينة لندرة ، والذي يهمني كثيراً في اختلاطي بهؤلاء

(*) « قوبيدون » هو في خرافات اليونان ابن الزهرة إلهة الجمال وهو عندهم اله العشق والغرام

السيدات هو الطريقة التي يجري عليها الانكليزيات في تربيه أولادهن وانا مجتهدة بملا حظتي إياهن في تعلم مهنة الامومة

سكان كورنواي ـ وان صح أنهم ليسوا من نسل الانكليز السكسونيين لما يقال من انتسابهم الى فصيلة من الصقالبة ولما أراه بينهم و بين البريتونيين [1] من المشابهة التامة في لون الشعر وملامح الوجه ـ يعيش بينهم عدة من الأسر «العائلات» الانكليزية ومن كانوا من الباقين غير انكليزيي الاصل فقد تخلقوا باخلاق تلك الأمة التي الحقهم بها الفتح وسرت فيهم عاداتها على تفاوت في ذلك قلة وكثرة .

انظر كيف يستقبح النساء في انكلترة طريقة تقميط الاطفال ويستهجنها ، وتقول الوالدات منهن استهزاءً بنا : اننا ندخل اطفالنا في اكياس رثاء الناس ، حتى اذا سنحت لنا الفرصة علقناهم على مسامير في الجدران، واكتفينا بذلك مؤنة ما تستلزمه حالتهم من العناية والرعاية اذا كانوا غير مقمطين . وانما ساغ لهن ان يقلن ذلك لان اطفالهن يتمتعون بتمام الحرية في حركاتهم ، لانهنّ يلبسنهم ثوباً طويلا من الصوف اللين (فانيلا) فيكونون فيه مالكي أنفسهم على قدر مالهم من القوى الصغيرة في تلك السن ، واني والحق أقول معجبة بهذه العادة لاني كثيراً ما ساءني رؤية الاطفال يربطون وتحصر اجسامهم في لفائف تضم اطرافها بالدبابيس فيكونون كجثث محنطة لفت بشرائط من السكولان [2]

أطباء الانكليز كافة يمقتون ما يجعل في اثواب الاطفال من

(١) البريتونيون هم سكان بريطانية وهي أحد أقاليم فرنسة (٢) السكولان نبت البردي

الحبال التي يعتمدون عليها في دبيبهم وما يتخذ لهم من الدرّاجات الخيزورية[1] والآلات المتدحرجة لاجل مساعدتهم على الدرجان ، ويؤكدون ان استعمالها مما يؤدي الى تشوّه صدر الطفل واعوجاج ساقيه بما يستلزمه ذلك الاستعمال من وقوع ثقل الجسم كله على العقبين .

بل الدكتور وارنجتون قد بالغ في الامر حتى قال بوجوب تعويد الطفل من نعومة اظفاره ان تكون أعماله كلها عن قصد وعزيمة ولهذا يجب ترك اقامته وتمشيته بالالات الصناعية حال عجزه عن ذلك بنفسه لان فيه اضلالا له في فهم مقدار قواه فانه حينئذ يتوهم انه يدرج بنفسه والدارج في الحقيقة هي تلك الآلات التي يعتمد عليها وهو وهم يصحبه طول حياته ويظهر أثره في عامة شؤونه .

يتعلم الاطفال هنا الحركة والانتقال بأنفسهم فانهم يتركون وشأنهم في التحرك فيتدحرجون ويحبون على بساط يفرش لهم ، وينالون من القوة تدريجا مايمكنهم من الوقوف ثم يخاطرون بأنفسهم فيخطون خطوات مستعينين فيها بالاعتماد على مايكون قريبا منهم من أثاث المكان فاذا اضطربوا لضعفهم تلقتهم أذرعة أمهاتهم فمنعتهم من الوقوع .

هذه الطريقة التي هي سنة الله في خلقه ــ وليست سوى التخلية بين الطفل وعمله ــ هي أكثر انتشاراً في أمريكا منها هنا ، فقد سمعت بمناسبة الكلام فيها ان سائحا انكليزيا صادف يوما وهو في الولايات المتحدة بأمريكا صبيا في الثانية أو الثالثة من عمره يزحف بيديه ورجليه

(١) الخيزورية المصنوعة من الخيزور وهو الخيزران

على حرف قنطرة مدعثرة يتدفق من تحتها سيل صخب ، فارتاع لقدوم هذا الحدث المتهور في الخطر فاسرع في التماس والدته فاصابها جالسة مطمئنة على حافة مجرى هذا السيل نفسه تغسل ثيابا فمثل لها مارآه من حالة ولدها وهو فزع متخوف عليه الهلاك ، فما كان جوابها الا ان قالت غير مدهوشة ولا منزعجة «ان الصبي معتاد العناية بنفسه ووقايتها واني اذا عدوت اليه لابعاده عن مظنة التهلكة مظهرة له الجزع والهلع كان ذلك ولا شك مذهبا لرشاده مضيعا لسداده» فلما سمع السائح الاجنبي منها هذا القول اقتصر على مراقبة الطفل لينظر ماذا يكون من أمره فرآه قد مكنه مابذله من قواه من تنكب طريق الهلاك.

أنا ان سيقت لي الدنيا بحذافيرها على ان أرى صبيا لي في هذه الحالة مارضيت ، ولكن تلك المرأة لم تخطئ خطأ بينا في تعريضها ولدها للخطر على مارايت كما قد يسبق الى الذهن بل هي قد فهمت فروض الامومة الحقيقية أحسن مما فهمناها ، فان هذه الطريقة في سياسة الاحداث من بداية نشأتهم هي سبب مانراه في سكان أمريكا الشمالية من ميلهم الى المخاطرة وشغفهم بالاستقلال .

الوالدات الانكليزيات كافة يمتنعن من تغطية رؤس اطفالهن ولا يقبلن ان يضعن عليها القبعات المحشوة بالوبر التي هي مجان الضعف . نعم انه قد يعترض عليهن بما في ذلك من تعريض الاطفال للخطر لما يتوقع من سقوطهم ولكنهن يدفعن هذا الاعتراض أولا بأن رعايتهن لهم واهتمامهن بأمرهم ، يقومان مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم ، وثانيا بأن الطفل كلما شعر بقلة أسباب الوقاية من جانب الغير زاد احتراسه وتوقيه ،

فيلزم ان يربى فيه من صغره خلق الاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها لا ان يعول في حفظه على بعض طرق احتياطية لا تغني عنه شيئا وهي دائما مبنية على الوهم والخطإ قلّ ذلك أو كثر . اذا شاهدت الطفل الانكليزي وهو مكشوف الرأس والذراعين والساقين خلته هرقلا [1] صغيراً وان كان لا يخنق الافاعي لانقطاع دابرها من جزيرته ، ولكن قد بدت عليه مخايل الجسارة وسمات الجراءة والاقدام . من أجل هذا كان لا يوجد دم اغزر مادة من دم الانكليز ولا نسل أقوى من نسلهم ، واجسامهم مبرأة من العاهات فهي عندهم في غاية الندرة ، ولا أخالك تصدقني اذا قلت اني الى الآن لم يقع بصري على احدب منهم ، وفي رأيي ان جمال النسل حجة قائمة تنطق بأفصح لسان مؤيدة مذهب الحرية الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم

المهد المذبذب الذي هو من لوازم الاطفال عندنا قليل الاستعمال جدا فيما وراء (بوغاز) المانش (أي في بلاد الانكليز) وانما يوجد للاطفال سرر كثيرة ليست من الأراجيح التي تهتز باليد كالتي عندنا ، فالانكليز عامة يسترذلون عادة هز الاطفال ويقولون انها ذريعة الى تعويدهم ان لا يناموا الا بوسائل صناعية . تعلمهم هذه العادة ان يلتمسوا راحة أبدانهم عند غيرهم على حين انه يلزمهم ان لا يطلبوها الا من أنفسهم ومن الفطرة التي فطرهم الله عليها . نحن لانهتم بما ينشأ عن اتخاذ تلك الوسائل الباطلة الموافقة لرغائب أطفالنا من

(١) هرقل هو ابن المشتري على مافي أساطير اليونان وهو من أشهر الشجعان طار صيته باعماله التي منها خنق الافاعي

الآثار السيئة في طباعهم، ولا نطيل النظر في ذلك. الطفل قبل تمييزه وتمايز أنواع الوجدان فيه يكون في فطرته من الاحتيال ماءكنه من الانتفاع بضعفه وتسامح من يكتنفونه، فكم من اناس انقضى دور طفوليتهم وهم لايزلون في حاجة الى الاهتزاز طول حياتهم. فلا تعرف لهم نوما ولا يقظة، بل تراهم في غفلة عن انفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجي فيرون في أحلامهم وخيالاتهم انهم يهتزون، وكان الاولى ان تصيح بهم الشهامة ليهبوا من رقادهم ويشمروا عن ساعد الجد للعمل والمغالبة في ميدان الحياة

أخشى ان يكون كل كلامي هذا قريب الشبه بالوعظ الديني، على اني لم آت به من تلقاء نفسي بل سمعته بما يقرب من عبارتي من قابلة وقور صديقة للسيدة وارنجتون مشهورة هنا بان قولها حجة في فن التربية فان التربية في انكلترة هي أول علم يتلقاه النساء.

إخال الولدان في انكلترة أقل بكاء منهم عندنا، ولست واهمة في ذلك فان بكاء الطفل انما يكون لتألمه من عارض يلم به، وان ما منحه هنا من الحرية وما حيط به من ضروب العناية الصحية وما سن له من قانون الغذاء يساعد على حفظ صحته ونموها، ولا بدع في ذلك فانه اذا كان للانكليز عناية كبرى بترقية نسل العجماوات حتى لاتجد أجمل من خيلهم ولا احسن من كلابهم فكيف مع هذا يظن انهم يغفلون تربية الآدمي الجسمانية.

الوالدات الانكليزيات في الجملة يرضعن أولادهن بأنفسهن، متأسيات في ذلك بملكتهن، ومن هنا كان لفظ المرضع عندهن لايؤدي المعنى الذي وضع له عندنا، فلا يراد به الا المرأة التي تقوم على الولد في تربيته

فالمراضع عند جيراننا ينقسمن الى قسمين متمايزين كل التمايز (اولهما) الحاضنات ويسمين عندهم بالمراضع الجافات (ثانيهما) المراضع الحقيقيات ويوصفن بذوات البلال[1] الاان هؤلاء أقل عددا ممن عندنا ، ولا يرجع اليهن الا عند الضرورة الملجئة حيث تكون الام في غاية العجز عن ارضاع ولدها ، بل كثير من الانكليزيات يفضلن إلقام ولدانهن زجاجات اللبن على إلقامهن اثداء الأظآر (المراضع المستأجرات) وانهن ليوسعننا لوما على تفريطنا في هذا الامر ، ولا اخالهن الى محقات في ذلك فكم من الفرنسيات المترفات من يكلن ارضاع ولدانهن الذين كان يجب ان يكونوا أعز شيء عليهن في هذا العالم الى نساء من أهل القرى جافيات الطباع قذرات الابدان لا يرضينهن مساعدات لهن في التزين والتحلي .

النظافة عند الانكليز هي في حق الاطفال اساس تدبير الصحة وهي عامة في كل الطبقات حتى الفقراء فانهم يغسلون اولادهم في كل صباح .

يشدد الاطباء هنا النكير كما يفعل رصفاؤهم في البلاد الاخرى على لبس النساء الغلائل المحزوقة (الضيقة الضاغطة) فلا يصغي لهم أحد فالصينيات يتلفن اقدامهن بالنعال الضيقة ونحن نتلف قدودنا بهذه الغلائل المحزوقة جاريات فيه على ما حكمت به العادة فراراً من السمن وبروز البطن عند الحبل . على انه يجب الاعتراف بأن الانكليزيات أقل منا عناية اخفاء حبلهن ، بل هن يفتخرن به ، فقد شبهت احداهن المرأة الحبلى الشجرة المثمرة فقالت « مثل المرأة في سبيل انشاء الاسرة كمثل الشجرة تحمل ثمرتها » .

(١) البلال بكسر الباء ما يبل به الحلق من الماء أو اللبن

ألا تذكر أننا في ايام الهناء الخالية لما كنا نتمشى في متنزه التويليريا[١] أو في حديقة لوكسمبورج[٢] كثيراً ما تألمنا لرؤية أولئك الاحداث شهداء البدعة الذين يخرجهم اصولهم متبرجين بالزينة ، فتابسهم حاضناتهم ثيابهم وزينتهم من القدمين الى الرأس قبل خروجهم، ويكون من وراء ذلك ان الطفل الحسن البزة لا يعتبر طفلا ولا يكون المقصود من اخراجه تسليته وترويح نفسه، بل تحصيل اللذة لغيره، فاذا أولع بالبحث في الارض بيديه أو جرى في مهب الريح فعبثت بتناسق ذوائب شعره الجعد الجميل وبخ وعنف على انه وسخ نفسه ، ولم يمتثل ما امر به من السكون، فكأن ذويه لا يرومون تنزيهه وانما يريدون عرضه على الانظار، فليس الذي يقصد أولا وبالذات من تلك النزه هو إمتاع الطفل بحرارة الشمس وهواء الفضاء اللذين يقويان صحته وينميان اعضاءه بما يكون معهما من الرياضة والحركة ، بل المقصود منها هو اتخاذه ألعوبة انيقة يطأمن بهاؤها ورونقها من نخوة الامهات الاخريات ويكسر من زهوهن ، فاذا رأت الام بُنَيّتها ترفل في ثوب من الخز ، مزين بالطراز المثقب ، (التانتلا) قالت في نفسها مغتبطة لو رأتها السيدة فلانة او السيدة فلانة لا نشقت مرارتها غيرة وكمدا . الى هنا امسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا الموضوع فاني صرت عيابة على ما يظهر لي .

(١) سراي التويليريا قصر كان مقراً لملوك فرنسة في باريس وكان بناؤه من أجل الملكة كاتيرينة مديسيس والذي ابتدأ بناءه هو المهندس فيليبر دولورم وأتمه من بعد المهندسان جان لولان ولوفو وأحرق في مايو سنة ١٨٧١ في عهد حكومة الشعب ثم جدد (٢) لوكسمبورج قصر في باريس بني لمريم رومدسيس في مدة خمس سنين من سنة ١٦١٥ الى سنة ١٦٢٠ والذي بناه المهندس يعقوب دوبروس

النساء الانكليزيات يحملن أولادهن أيضاً بفاخر الثياب ويخرجن بهم الى المتنزهات بل هن يبالغن في ذلك احيانا فيصلن الى حد الافراط غير ان هذا لا يكون الا في أيام الآحاد واما الاطفال الذين ينشؤن في القرى فينادران يأنسوا من انفسهم الحاجة الى الخروج طول الاسبوع لان القائمين عليهم يخلون بينهم وبين اللعب في حديقة البيت والمرح في حر الشمس ، وعلى البنات منهم دروع قصيرة وعلى البنين قمصان خفيفة من الصوف ولا يبيحون لانفسهم التعرض لهم في ألاعيبهم ، واما نحن فيحملنا هوسنا بتدبير كل شيء وادارته الى التدخل في تنزه الاطفال واستراحتهم بسياستهم في ذلك وضبطهم بقواعد لا يتعدونها .

لم يغب عن ذاكرتك اننا كنا يوما في قاعدة السيدة . . . . جالسين معها فدخل علينا ولدها الكبير وهو صبي كان وقتئذ في الرابعة أو الخامسة من عمره تلوح عليه سمات السماجة والتفت الى والدته فسألها قائلا : أماه ماذا ينبغي ان افعل لاتسلى واروّح نفسي ؟ لا ازال اتذكر اندهاشك لهذا السؤال وما جرى من المزاح والضحك بيننا بسببه . على ان هذا الصبي المسكين كان له حاضنة تنقد اجرة كبيرة جدًّا ، ولذلك احيل عليها لتسليه ، وكان يظهر من حالها انها في غاية الضجر من عملها .

في بعض الاسر الانكليزية أيضا حاضنات الا ان الذي عرفته بالمشاهدة من امرهن انهن يسسن رعيتهن الصغرى كما تسوس ملكة انكلترة رعاياها ، اعني بذلك انه لا يكاد يكون لهن سلطان عليها خصوصاً فيما يتعلق بانواع اللعب وضروب التسلي . يستدل جيراننا على وجوب إطلاق الحرية للاطفال في ألاعيبهم بادلة سديدة على ما اعتقد ، فيقولون :

ان الكبار في اشتراكهم مع جماعة الاحداث الفرحين المرحين في تلك الالاعيب يرجعون دائما الى أذواق انفسهم أكثر من رجوعهم الى أذواق أولئك الاحداث ، فيغفلون بذلك اعتبار رأيهم في مسألة لامرية في ان موضوعها القيام لهم بحقوقهم ، وليست هذه الحقوق من الكثرة بحيث يسلم المطالب بها من وخز وجدانه اذا هو هضم منها شيئا . ولهم حجة أقوى من هذه وهي ان حرمان اطفال من الاختيار يميت فيهم روح الافتطار (الابتداع والانشاء) والانبعاث النفسي الى العمل ، فاننا به نمحو آثار نوع ميلهم الفطري ونقيم ميلنا مقامه ، فهل هذا هو الوسيلة الى تربية طباعهم ؟ الطفل اذا كان نشيطاً صحيح الجسم سهل عليه ان يستقل بنفسه في التنزه والتروح، فاذا جرى على ذلك اعتاد ان لا يكون تابعاً لغيره في لعبه ومرحه . الم تكن عادة عدم الاستقلال عند الاطفال فيما ذكر هي سبب ما كان يعتور أولئك الملوك الغابرين من الكدر والضجر فيضطرهم الى ان يجعلوا في حاشيتهم من المجانين[1] من يضحكهم

يبدو لمن يدخل بيتنا انكليزيا لاول وهلة خصوصاً اذا كان مثلي لا يزال متأثرا بالافكار الفرنسية ان ما بين أهله من العلائق والمعاملات عليه سمة الفتور والاحتشام، فيرى الوالدين فيه أقل تعلقا لاولادهم وارغب عن ملاطفتهم منهما عندنا ، وكذلك يرى الاولاد اقل انسا بالاجانب ومباسطة لهم ، وكلامي هذا انما هو على جملتهم فلا ينافي ان يكون فيهم من هو على غير هذه الصفة . وان أردت ان تعرف ان كان هذا الظاهر من فتور العلائق وتراخيها منشأهُ طبع الامة الغريزي أو انه مقصود جريا

(١) المجانون بتشديد الجيم جمع مجان وهو كثير المجون

على مقتضى مذهب أو قاعدة في التربية . فاليك رجع صدى محاوراتي في هذا الموضوع مع القابلة الجليلة صاحبة الفضل عليّ خصوصاً في الارشاد والتعليم قالت : ان الانكليز يجتنبون اظهار كثير من الملاطفة والمراعاة لاولادهم حتى لا يكون عليهم للمزاعم السخيفة سبيل . وأما نحن فان الطفل عندنا يعامل مع الارتياح معاملة المرأة فكلاهما يعوّد ان يحب أكثر مما يجب . هذا النوع من المعاملة ينتج الغنجات من النساء والعارمين (١) والعوارم من الاطفال . المحبة تدعو الي المحبة واما انواع التملق والمخادعة فانها تنمي جراثيم الاثرة والزهو ، فالطفل الذي يتزلف اليه والداه كما يتزلف الناس الى العظماء لنيل الحظوة لديهم — وهذا هو شأنهما معه في الغالب — لا يلبث ان ينتهي به الامر الى اعتقاد ان الناس مدينون له بكل شيء وانه ليس مديناً لاحد منهم بشيء .

هـذا ما بدا لي من الملاحظات نصصته لك على علاته موقنة بأنه سينال حظاً من اطلاعك وبحثك ، وماذا أزيدك عليه ؟ لم يبق عندي ما اتحفك به سوى ان مثالك العزيز لا يفارق خيالي وحبك الراسخ لا يزايل قلبي . رتبت بيتي بجملته لسكنى اثنين كما لو كنت ستحل به غداً ، ونظمت مكتبك أيضاً بجملة ما فيه من الكتب والاوراق كلا في موضعه ، وهو الآن مشوق اليك فعسى ان لا يطول عهد خلوه منك . هذا أمل أرجو ان لا أحرم منه فانه لولاه لقضى علي الفراق ، وقد علقت رسمك في مطعمنا الصغير ففي ساعات الاكل اجلس للمائدة مواجهة له

(١) العارمون جمع عارم وهو الفاسد الشرس والعوارم جمع عارمة

فأرى لصورتك فيه نوعا من الحياة، ويخيل لي حينئذ اني اتغذى معك وجها لوجه كما كنا أيام القرب والصفاء. ما أولعني بالنظر الى هذه الصورة! فلا بد ان ولدنا سيأتي مشابها لك، والسلام في الختام

حاشية — أسألك على ذكر هذا الولد ماذا تريد ان تسميه؟ اه

الرسالة الثامنة عشرة

﴿من إراسم الى هيلانة في ٢١ ابريل سنة — ١٨٥ ﴾

موافقته لها في انتقادها التربية عند الفرنسيس

قد أصبت أيتها العزيزة هيلانة في انتقادك طريقتنا في سياسة الاطفال فانها جديرة بالاستهزاء والسخرية، ولكن يالها من طريقة تلائم اخلاقنا واوضاعنا السياسية ملاءمة عجيبة، فلافراط في التضييق على الطفل وحصره في لفائفه اذا كان حظه في مستقبله ان يقمط ويشد بجميع انواع القوانين والاوامر، واما حبال الملابس التي نمسك بها عند المشي فلا تعوزنا وعندنا منها ما يناسب جميع الاعمار لانه قد يجوز ان لا نحسن المشية فتلزمنا تلك الحبال ان نمشي على صراط مستقيم، وان نمضي الى حيث يريد من يقودنا. ان القائمين علينا في تربيتنا ليسلبوننا من أول نشأتنا كل ما أودع فينا من حسن الظن بانفسنا وثقتنا بها، فما اعقلهم وابعدهم نظرا في العواقب!! هذا يعلمنا ان نكون في جميع امورنا تابعين لغيرنا، معتمدين عليه في حفظنا ووقايتنا، فاننا بتعويد الناشئين ان يقادوا في درجاتهم، ويهزوا في مهودهم، ويساسوا ويراقبوا في جميع حركاتهم وسكناتهم،

نؤهلهم لان يعيشوا في مستقبل حياتهم بأعين الشرطة وتحت سيطرتها فما أجملها طريقة تتسلسل اجزاؤها !! التسلسل هو احسن لفظ وجدته للتعبير عن اتصال غاياتها بمبادئها .

وان ماذكرته لي من الطريقة التي يجري عليها الانكليز في تربية أولادهم قد أسفر لي عن وجه الحكمة في حسن أحوال انكلترة وابان لي انه لاسبب لوجود مالها من الاوضاع والقوانين الحرة الا ما تتخذه من الطرق في تربية ابنائها على مبادئ الحرية والاختيار . نحن في فرنسة نفرط في تعليق آمالنا بالحوادث ، ونفرّط في الاعتماد على ما اوتيناه من القوى ، فماذا أقول في وصفنا غير انا لسنا فرنسيسا بل نحن يهود لاننا دائما على رجاء من نزول المسيح في صورة حاكم يرفع قواعدالعدل ويخلص الناس من عوادي الجور .

ولست اقصد بهذا الكلام ان أنكر قيمة ماتناوب حكومتنا من التغير في صورها وما نتج من ذلك من المزايا فان هذا بعيد عن فكري لاني لوكنت ممن لايعبأون بالشؤون السياسية لما وُجدت حيث أنا الآن . على اني قد وصلت بعد طول النظر ومخض الرأي في ذلك التغير الى اعتقاد ان ملك الحرية لاقرار له الا في نفوسنا ، وأننا اذا أردنا تمكين دعائمه في الامة وجب علينا أولا ان نؤسس أصوله في قلوبنا . اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في اول مايو سنة ـ ١٨٥)

تسمية المولود وانتقاد طريقة التربية في فرنسة
وتوصية زوجه بعدم اتباعها في حق ولده

تسألينني في خاتمة مكتوبك عما نسمي به ولدنا. نسميه « اميل » اذا جاء ذكراً إحياء لذكر هذا الكتاب [1] الذي كنت أقرأه لك في مطالعتنا الليلية فكان في نفسك مبعث الطرب والاعجاب حتى اني كنت أكف عن القراءة حينا بعد حين لأشاهد وجهك في ضوء المصباح فأتبين فيه ذلك . وياله من عهد تحفظه ذاكرتي لتلك الايام السعيدة .

من البدع التي جرت بها ألسنة الاكياس [2] من الناس منذ حين سبهم جان جاك روسو واحتقارهم اياه ، فويل لهم مما يرمون به قبر ذلك الكاتب العظيم من نبال اللعن والقدح ، وانهم لجديرون بالرثاء لعقولهم . لم يكن ذنب ذلك الرجل الكبير سوى انه خالف سنة أهل النظر في عصره وهو اعتمادهم في اصلاح المجتمع الانساني على الرجال ومخاطبتهم إياهم فيه ، بأن وجه خطابه الى الوالدات والاطفال ، وهو أمر هداه اليه مافطر عليه من جودة الطبع وذكاء القريحة. على اننا لو جردنا كتاب « اميل » مما فيه من العبارات الفصيحة التي امتلأت بها صحفه ، والشتائم الشديدة المنبعثة عن وجدان كبر عليه احتمال الضيم والهوان ، ومن الحماسة في نصرة الفضيلة ،

(١) يعني بالكتاب كتاب جان جاك روسو في التربية المعنون « بأميل القرن الثامن عشر » (٢) الأكياس جمع كيس بتشديد الياء وهو الظريف حسن العقل

ومن الانفعالات الشريفة التي كانت تعرو مؤلفه (المؤمن بالله دون وحيه الى انبيائه) عند نظره في بدائع الصنع ومحاسن الكون ـ لو جردنا الكتاب من كل ذلك لوجدنا بقية ماقاله المؤلف في الطريقة التي أراد وضعها للتربية ترجع الى هذه القاعدة وهي السير على مقتضى الفطرة ومعاملة الاطفال معاملة العقلاء . ولو انا سلمنا له مايقول لرأينا أن اتباع الفطرة في كل ماتدعو اليه يفضي بالطفل الى حالة التوحش والهمجية . نعم ان ذلك كان منتهى الكمال في التربية على رأي هذا الحكيم، وانه على عدم ايمانه بالوحي كان يعتقد بوجود الكمال في أصل الفطرة من غير طريق الوحي. وأما كلامه في معاملة الأطفال معاملة العقلاء ومخاطبة عقولهم فلاشك انه جدير بان تصاغ له من أجله أجمل عبارات المدح تنويها بفضله ، ولا بدع في ان عرف له القرن الثامن عشر قدره بعد انكاره، فاقام له من الآثار ما خلد ذكره وأحيا اسمه. غير ان العقل من دون جميع قوى الانسان هو الذي يكون في طور الطفولية أقلها نموا فكيف إذن يعتمد على هذه القوة الكامنة في ايصال معنى الخير الى نفس الطفل.

لروسو فوق ذلك أغاليط أخرى كان يعتقد صحتها، وكان من شأنها ان تعوقنا عن الارتقاء في أخلاقنا واوضاعنا. منها اعتقاده بوجوب الامتثال لما للجمهور الاغلب من السلطة المطلقة ، فانا نجده في كتابه المسمى بالعقد الاجتماعي قد انتصر للحكومة فيما تدعيه لنفسها من حق تربية الأمة بما أقامه عليه من البراهين .

وان أردت أن أبين لك كيف خدم روسو الاطفال خاصة بما نشره في كتبه من الانتصار لهم والدفاع عن حقوقهم ، قلت ان ذلك انما كان بما ألقته تلك الكتب في نفوس الفرنسيس من بذور الثورة وهيأتها به لها .

لم يقدر الناس ما نشأ عن هذه الحادثة الكبرى في نظام البيت من ضروب التغير حق قدره ، فانها قد خففت من ثقل الولاية الابوية تخفيفا عجيبا على غير علم من الناس جميعا ، لان المؤرخين قلما يلتفتون الى ما يحصل في البيوت من تهذيب الاخلاق وصلاح العادات ، فلم يكد رجال الثورتين اللتين حدثتا في سنتي ١٧٨٩ و١٧٩٢ يدركون ما كان يعتور تلك الاخلاق والعادات البيتية من الاستحالة على قربها منهم وسهولة ملاحظتها عليهم . ذلك لانه ليس في وسع أحد ان يلاحظ أعمال جميع الناس فاذا أريد الوقوف على أثر انواع هذه الاستحالة وصنوف ذلك التغير وجب الرجوع الى ما كتب من السير في أواخر القرن السابع عشر أو في أوائل القرن الثامن عشر . هنالك يرى ما كان بين الزوج وزوجه والوالدة وأولادها من التكاف في العشرة ، والمقاسحة[1] والمجافاة في المعاملة ، نعم ان قولي هذا خاص باهل البيوتات لاننا لا نعلم شيئا من أحوال الطبقات الاخرى ، لكن هؤلاء لا بد انهم كانوا يحتذون مثال سراة الامة وزعماء الدولة .

كان البيت في ذلك العهد مؤسسا على إحدى الوصايا العشر التي وصى الله (سبحانه) بها موسى (عليه السلام) وهي « اكرم أباك وامك » فلم يوص موسى قط بحبهما .

وكانت الزوجة في الغالب تدعو زوجها سيدا وهو يدعوها سيدة فكان تخاطبهما باسميهما مع كونه هو لذة العشرة والاختلاط لا يكاد يقع منهما في حضرة الاجانب ، فالثورة هي التي ادخلت في البيوت عادة التخاطب بضمير المفرد وسوت بين الولد البكر ومن يتلوه من اخوته في الحقوق

(١) المقاسحة المياسبة أي المعاملة بالشدة

فاجتثت بذلك أصول التباين والاختلاف ، وأعلت من شأن المرأة ورفعت من قدرها ، كما وثقت ما يربطها بالرجل من عقدة النكاح ، واصبح البيت بحكم الشؤون ومجرى الحوادث مرجعا لأصداء المحاورات والمناقشات في المصالح العامة ، وصار صوت الرجل وزوجته في محادثتهما اخلص واشد مما كان قبل . وكان للكنيسة في الطفل من الحقوق الى وقت قيام الثورة في سنة ١٧٨٩ أكثر مما كان لاهله فيه ، فان البيت كان قد استعار من الدير ما فيه من صلابة المعاملة البارزة بسبب ان الوالدة في الغالب كانت تربى فيه . لا أعني بذلك ان الأم ما كانت تحب أولادها قبل الثورة وأعوذ بالله ان يخطر هذا بفكري ولكني مع اعتقادي حبها اياهم اعتقد اعتقاداً ثابتاً ان الثورة ساعدت على تخليص محبات القلوب من قيود التكلف ، فكما أن منشأ جميع الحركات العظمى للارض هو ما في باطنها من النار كذلك منشأ حوادث الانسان الكبرى هو ما في قلبه من الحب .

ذلك شأن الانسان في جميع الازمان ، فمن حياته في الهند حيث كان الطفل لا يعتبر الا برعوما [1] من نبات قبيلته ، وفي رومية التي كان الوالد فيها يملك على ولده حق حياته وموته — الى ان صار الى هذه المجتمعات الحديثة التي كاد يكون للطفل فيها وجود مستقل . قد رقي البيت في اطوار وجوده الاصلية جميع معارج الحرية ، فلا بد في تغيير شكل الحكومة واصلاحها من تغيير معنى الابوة أيضاً ورده الى حده .

أطول جميع الثورات بقاء وأخلدها أثراً هي التي كان لها من الزمن ما استحوذت فيه على عقول الناشئين . فالاصلاح الديني مثلاً وهو مذهب

(١) البرعوم هو الزهر قبل تفتحه

البروتستانت لا يزال حيا في ألمانية وسويسرة وهولاندة وانكلترة لان رجاله في هذه البلدان وفي غيرها أسعدهم الحظ بتأسيس مدارس فيها لتربية الاحداث على أصولهم وعقائدهم. وأما الثورة الفرنسية فان رجالها على العكس من ذلك لم يجدوا فترة من الزمن لتنفيذ مقاصدهم، لانهم كانوا قد خطوا على عجل ـ وان شئت فقل وهم في مهب رياح الفتنة ـ خطة مثلى للتعليم العام، غير ان اعاصير الحوادث دافعتهم عنها فحيل بينهم و بين ما كانوا يقصدون.

ولما وضعت الطريقة التي نجري عليها الآن في التربية كانت نيران الفتنة قد خمدت، ومراجل العصيان قد سكنت، فعهد الى رجال الحكومة النيابية ـ الذين حكموا على الثائرين من رصفائهم بالقتل حكم شيشيرون [1] على كاتيلينا [2] واشياعه ـ بتجديد ما اندثر من التعاليم القديمة، فما لبثت هذه التعاليم ان فاضت منها على الناس اصول الحكومة الفردية اي حكومة الاستبداد واصبحت القوة الحاكمة هي مدير المدرسة والاستاذ الاكبر لتعليم الدين ورئيس الجند الاكبر، والشارع الاكبر، بل الكل الاكبر الذي انحصرت فيه جميع الولايات. ورجا الناس من هذا الإله الذي هو من صنعهم ان يضيء عقول الامة، وان يصنع لهم علماء وانصاف علماء، فصار التعليم الابتدائي والثانوي ـ بل صارت جميع درجات التعليم محوطة بسياج حصين من

(١) شيشيرون هو مرقوس طوليوس شيشيرون أشهر خطباء الرومان ولد سنة ١٠٧ وتوفي سنة ٤٣ قبل المسيح وعين حاكما في سنة ٦٣ وأخمد ثورة كاتيلينا والحرب التي قامت بين بومبية وقيصر (٢) كاتيلينا شريف من أشراف رومية كان جمع حزبا وثار به على مجلس الشيوخ وعلى رومية فقهره شيشيرون

القوانين . معاذ الله ان أكون آسفا على ما أراه من انتشار العلوم وعموم المعارف ، ولكني ضعيف اليقين بتأثير عمل الحكومة اذا كان الغرض من التعليم هو تربية رجال احرار ، فانها ما وضعت لذلك . فان لاعضاء المجتمع الانساني كما لأعضاء الاجسام أعمالا لا يمكن تغييرها بمجرد توجيه النزعة الى ذلك . سمعت غير مرة ان الجهل كان العقبة الكبرى في طريق كمال الحرية ، وأنا موقن بصحة هذه القضية . وسمعت أيضا ممن قالوها ان الحكومة قد قررت ان يكون التعليم مجانا والزاميا وستكون الاحوال حينئذ على ما يرام ، وأنا لا أصدق هذا وأضرب الصين مثلا لأولئك الذين يرون دواليب التعليم التي تديرها يد الحكومة وسيلة لتحرير العقول — يكاد كل رجل من تلك المملكة يعرف القراءة والكتابة ، ففيها من المدارس الابتدائية والثانوية وطرق الامتحان مايفوق الحصر ، والصينيون هم الذين اخترعوا فن الطباعة وهو أكثر الفنون اليدوية أثرا في قلب شؤون العالم ، وذلك قبل ان يعرف في اوربة بخمسمائة عام ، وانت تعلمين نتيجة ذلك مثلي . لم يكن من التعليم الذي كانت الاساتذة تفيضه على الناس الا انه اتقن تحجير الاوضاع الاجتماعية وجعلها اصلب مما كانت.

كذلك يكون الشأن عند جميع الامم التي يكون الغرض من التربية فيها ايجاد رعايا للحكومة في القالب الذي تريده . ولو شئت لذكرت أمة اوروبية ليس بينها وبين الصين من هذه الجهة كبير فرق ، فان التعليم الابتدائي يثبت كل يوم في نفوس الاطفال خلق الانقياد الاعمى بسبب تداخل السلطتين الدينية والسياسية فيه . فالمعلم في هذه الحالة هو بطانة الحاكم

الغاشم ، فعلى هذا لا غرابة مطلقا في ان دينيس[١] لما خلع من الملك تولى ادارة مدرسة .

من الخطاء ان يعتقد معتقد ان الحكومات المطلقة تكره تقدم سير التعليم العام وتماديه عن قصد ، فما الذي تخشاه منه وليس هو الاجملة انواع من العرفان هي تحررها وتصورها كيفما شاءت ؟ أليس بيدها مقاليد هذه الجملة ؟ اليست طرق التعليم التي تقرّ عليها وهي المتبعة دون غيرها هي أحسن ما وجدته لتمكين أصل الانقياد للقوة الحاكمة في نفوس المتعلمين ؟ ان اخوف ما أخافه على الامة من المخازي المهينة التي تشين شرفها هي العبودية في الاختيار . فان الاصفاد التي تقيد الرقيق قد تسقط بمقاومة قليلة (والتاريخ يروي لنا في ذلك اكثر من مثل) وأما ما يتزيا به حواشي الامراء وخدمهم من الملابس الرسمية فما أطول بقاءه على ابدانهم !! اذا تعلمت الامة بالتربية الفاسدة الطاعة والانقياد وكان الباعث لها عليهما المنفعة أو الاثرة أو الوجدان كان ذلك كل ما يطالبه منها مربيها .

ان مذهب القائلين بوجوب توسط الحكومة في التعليم مؤسس كله على امور الاعتقاد التقليدي وعلى ان السلف كانوا يأتمرون بأوامر مدير المدرسة أو رئيس القرية كما نقل الينا ذلك في آثارهم ، فلا يطالب أصحاب هذا المذهب من يعلمونهم من الاطفال بالاستقلال في الفكر والعمل ، وانما يحملونهم على العمل بما يقال لهم فتكون قلوب الاطفال بأيدي معلميهم مادة لينة يتخذون منها للحكومة رعية نافعة مطيعة . واذا كانت هذه

---

(١) دينيس هو حاكم جائر غاشم كان في سيراكوز فطرده منها ديون ثم تيلون ومات وهو مدير مدرسة قورنتة سنة ٣٤٣ ق . م .

هي غايتهم التي يرمون اليها فهم لا يبالون بما عداها بل أحب شيء اليهم ان تصير المدرسة بهذه الطريقة مربى يتخرج فيه أوساط الناس فان الأمة تصير بذلك اساس الموازع قيادا واخفض جناحا .

لا يشك أحد في ان معاهد التعليم عندنا يرأسها كثير من الرجال العارفين الاحرار ، وللجامعة فوق ذلك مزية نادرة الوجود في رأي أهل النظر ، وهي أنه لما كانت الثورة الفرنسية هي الاصل في وجود القسم الاكبر منها كان من المتعسر ان تحول عن مبادئها وأصولها مهما تغيرت عليها الاحوال وتبدلت الشؤون فهي المعقل الرفيع الذي يحمي الافكار والآراء الحديثة من اغارات مذاهب الكهنوت عليها ؟ وكل يوم تتخرج في مدارسنا الاختيارية وكلياتنا عقول سامية بل عقول حرة أيضاً . نعم ان للحكومات ان تسن ماشاءت من قوانين التعليم ولكن ليس في وسعها ان تبطل تأثير علم الحكمة والافكار التي ولدتها ثورة سنة ١٧٨٩ وغيرها من المؤثرات التي تعمل في نفوس الاحداث على الرغم من كل قانون ونظام ، ومن أجل هذا انا لا أعيب المدارس لذاتها وانما أعيب فيها مجموع طرق التعليم من حيث هو مؤسس على أوهامنا وأخلاقنا وعوائدنا

التربية الخاصة عندنا هي أيضاً أقل قيمة من التربية العامة فان الوليد عند ما يسلك سبيل الحياة لا يتوجه قصدنا الا الى الزامه الجري على مألوف العادة . وما يلقى في ذهنه من المعارف كله تجريبي ، ولم يفكر أحد منا حتى الآن في جعله مساوقا لفطرة الانسان ومناسباً لها . اننا منذ نصف قرن تقريباً قد جددنا طرق تناول العلوم الرياضية والطبيعية وفنون الاقتصاد السياسي

والتاريخ والحكمة والادب والانتقاد وكل شيء الا مايختص بتربية الاطفال، على انها هي التي كان يجب البداءة بها في التغيير.

أول شيء أريد ان يحترم هو وجود الانسان حتى في ذات الطفل.

اني اذا اتفق لي سماع خطب علماء الاخلاق ورجال الحكومة في مذهب الاشتراكيين لم يعد يخامرني شك في ان هذا المذهب فاسد ممقوت مغاير للدين لما يقيمونه على ذلك من الحجج القوية والبراهين الصحيحة فأنحاز اليهم لانهم حزب الاستقامة والصلاح. هذا ما يقال ولكني اذا دخلت مدارسنا الابتدائية أو الثانوية لا يسعني الا ان أعترف على الفور بأن ماشيد لها من الابنية ووضع لتلاميذها من ضروب النظام، وما فيها من توحد طرق التعليم واختلاط الدروس، لم يوضع الا لحبس الجسم والعقل والتضييق عليهما فكما ان المصريين - على مايروى عنهم - قد اخترعوا أفرانا لطبخ الدجاج قد اكتشفنا نحن أفرانا لطبخ التلاميذ. على ان القوتين اللتين يعنى بانضاجهما فيهم أشد العناية على هذه الحرارة الصناعية - وهما قوتا التقليد والذاكرة - لا ريب في انهما أقل جميع القوى الانسانية كشفا عن حقيقة العقل واظهارا للملكات الصحيحة، فكأن المعهود اليهم بالتربية والتعليم قصدوا أولا وبالذات ان يجعل كل رجل من أول نشأته شبيها بجميع الناس. ولست أعدم قائلا يقول: ان ذلك هو من النتائج الضرورية لتطلعنا الى نظام الحكومة الجمهورية وتحققنا بأصوله. فأجيبه: ان هذا القول من الخبط والخلط الغريب، فكيف يشبه توحد المعارف والملكات بالمساواة في الحقوق، الا يرى ان سكان الولايات المتحدة على كونهم أشد منا ايغالا في الاخذ بسنة النظام الجمهوري على العكس منا يزداد فيهم شعور الاستقلال بالوجود الذاتي

ـ الذي هو أصل الحرية ـ حياة وقوة فتظهر آثاره في أعمالهم ظهورا جليا.

ان في وسع كل شاب ـ لو صحت عزيمته ـ ان يتعلم بنفسه من جديد ما لم يكن اجاد تعلمه في المدرسة وهذا ماوقع لكل منا بعد خروجه منها. ولكن! من ذا الذي يفكه من اغلال العوائد التي تخلق بها في صغره؟ وكيف يتسنى لهذا المنفلت من المدرسة ان يهتدي في مستقبله بمجرد ما اكتسبه من المعارف مع انه الى وقت مبارحته لها كان لا يستقل بعمل من أعماله بل كان يعملها جميعها باعين معلميه؟ وما الحيلة في احياء قوة نفسه بعد ان انهكها التأديب المؤدي الى درجة البهيمية؟ وما معنى الكلام على الزاجر النفسي اذا كان وجدان اليافع يسلب منه ويوضع بأيدي من يديرون شؤونه؟ ذلك هو أخص ما أخشاه من أنواع الخطر. ومن العبث ان يتمثل هنا ببعض مشاهير الرجال الذين كانوا في زمن طفوليتهم في أشد المراقبة والحصر ولم يؤثر هذا في مستقبلهم شيئا، فيقال: ان فولتير[1] مثلا تربي في حجر اليسوعيين، وتخرج جبابرة الثورة التي حصلت سنة ١٧٨٩ على رجال الكهنوت، لاني لا أتكلم هنا عن أفراد الرجال وشذاذهم وانما أقصد بكلامي جملة الامة وعامتها، واسائل نفسي عما يحدثه مثل هذا النظام من الاثر في طباع أوساطها. كوني على يقين انه ليس من الميسور لكل واحد ان يجد مايكفي من القوة لاسترجاع ما فقده من سلطانه على نفسه بعد ان ألقى لغيره زمام عزيمته.

قد لاقيت في الناس من جرى الاصطلاح بتسميتهم الشبان

---

(١) فولتير هو ارويت دوفولتير الشاعر الحكيم الفرنسي المولود سنة ١٦٩١ المتوفى سنة ١٧٧٨ بعد الميلاد

العارفين فهل رأيت منهم كثيراً يمتازون بجراءة الجنان الحقيقية ؟ ألم تريهم يقاومون غالبا من وسائل الترقي وطرق الاصلاح ماعساه ان يذهب ببعض آمالهم ، ويسخرون به ميلا مع الاثرة وحبا للاختصاص ؟ الا تجدينهم أشد عداوة من جهلة العامة لبعض العلوم ؟ انهم ليؤمنون على السواء بكل ماقدسه مرور الزمن عليه وآراء الناس فيه ، غير مهتمين بالتمييز بين صحيحه وفاسده وحقه وباطله . ومالهم ولهذا التمييز اذا كانت مهارتهم توصلهم الى مقاصدهم ؟ وهل هم في هذا العالم حتى يشتغلوا بمصالح غيرهم ؟ كلا ! بل هم قانعون بنقصهم الذي يظهرونه للناس في مظهر الكمال ويهزأون بما كان من جد الخائبين، وإخلاص المخلصين، وصدق نفوس الصادقين ، وهم لما فيهم من خفة الاحلام وكثرة المجون والغرور والترف يلتمسون في كل أمر وسيلة للانتفاع بحاضرهم ، ومع قلة مالهم من المعارف الصحيحة يظهرون في مظهر العارفين بكل شيء ، ولكون المجتمع الانساني حلبة سباق كبرى تريهم يعملون فيها لمزاحمة غيرهم في الحصول على سبقها أو على الالقاب التي تعطى عادة لمن يقاربون في هذا السبق، وفي هذه الحلبة الجديدة أيضا لا يعتد كثيرا بجدارة الجديرين، ولا بأهلية المستحقين، لان الجوازي تمنح بالمحاباة والاثرة، والذين ينالونها هم أهل الدسائس والخداع، فلا بدع إذن ان كدح المتعلمون من الشبان بعد تفصيهم من ربقة النظام المدرسي لاجل الدخول تحت ولاية الحكومة .

اذا صدقت قولي كان علينا ان لا نربي ولدنا على الطرق المتبعة، وقد يكون عملنا في ذلك أحسن من عمل غيرنا أو مثله في القبح، الا أننا على كل حال نكون قد أقمنا حجا مقدسا، فان تربية الطفل منوطة بالبيت والاهل والعشيرة

قبل ان تناط بالمجتمع الانساني . ما هذه الكلمات التي قد جمح بها قلمي ؟
قلت ان التربية منوطة بالبيت ، ولكن وأسفي على بيتنا فقد هدم . نعم
ان عشنا الذي كنا لا بد ان تتناجى فيه بأحسن أمانينا ونسكنه أعز آمالنا
قد ثارت عليه عواصف المحن فدمرته تدميرا ، ولكن لا بأس علينا من
ذلك فسنعيد بناءه بروابط الحب فوق جو الفتن فأكون معك في هذا
العمل بقلبي ، وأنت تسهرين وتنوبين عني في السهر على حراسة ذخرنا
فاني قد استودعتك اياه والسلام . اه

الرسالة العشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٨ مايو سنة ــ ١٨٥ ﴾

وصية الدكتور وارنجتون لها بالرياضة البدنية والتنزه والبعد عما يثير الانفعالات
وباجتلاء المناظر الرائقة

أتدري أيها العزيز إراسم أني فكرت كثيرا فيما ختمت به مكتوبك
الاخير وورد على ذهني منه خاطر يجب عليّ قبل الافضاء اليك به ان
أبين لك كيف ورد .

جاء الدكتور وارنجتون وأسرته الى هنا وأمضوا يومين فسنّ لي
شبه قانون أجري عليه في معيشتي ــ بل هو الذي يتبعه معظم الانكليزيات
الحوامل اللاتي يوصفن عادة بأنهن في حالة شاغلة. نصح لي بادامة الرياضة
البدنية والتنزه ثم قال ما نصه « اياك والاقتراب مما تضر مطالعته من

القصص التي تتولد من قراءتها الانفعالات الشديدة الباطلة. كان اليونان اعقل منا لانهم كانوا يحيطون نساءهم في مدة الحمل بالتماثيل والصور الجميلة المنسوبة لمشاهير الاساتذة في فن التصوير، واني وان كنت لا اجزم بان هذا كان هو السبب في اتيان أولادهم حسان الخلقة أقول على كل حال اذا كان مثل هـذه التماثيل والصور وغيرها من الاشياء البديعة الصنع يحدث في نفوس ذوي الفطر السليمة من الناس شعور الارتياح والانبساط، ويكون فيها مدعاة اعتدال الامزجة وتوافق الطبائع ، فلم لا يكون من موجبات حفظ الصحة . كثير من السيدات عندنا يغلب عليهن في طور الحمل الخمود وفتور القوى بسبب البطالة التي هي منشأ الامراض العصبية فانهن لا شغل لهن فيه سوى مساورة الاوهام ومطاردة الخيالات . واما انت فلما اعهده فيك من الشغف بالمناظر الحلوية أوصيك بالسعي وراء اجتلاء ما في الخليقة من رائع الجمال ورائق الحسن وبأن تتخذي لنفسك اعمالا مرتبة تشتغل بها يدك وعقلك » .

رأيت ان هذه النصائح كلها حكمة وعلم فاخذت نفسي بها وخرجت للتنزه اليوم التالي لتلقيها بعد تدبير بعض الشؤون البيتية ، فلما رأتني نساء القرية مبكرة على الطريق بعثهن كرم اخلاقهن على ان يبتدرنني بالتحية قائلات « صباح بهي وبكرة سنية » ولم يكن الصباح كما قلن ولكنها عادة الناس هنا اذا تبادلوا التحية بالوقت فهم دائما يميلون الى امتداحه قليلا ، فشكرت لهن حسن قصدهن .

لم أسر في تنزهي على الخليج بل اعتسفت الطريق في ريف يتسع فيه الفضاء للماشي كلما جد به السير. ومما لاحظته ان نساء كورنواي يضعن

على رؤوسهن كمات [١] من القش وقد اخترت ان أحذو مثالهن في ذلك فوضعت واحدة منها اتقاء لحر الشمس وحباً لما فيها من البساطة السكلية وإخالني أروق في نظرك لو رأيتني بها . كنت أتقدم في هذا الريف على جهل من قراه ولكنني كنت آمنة من الضلال لاني ما كنت قاصدة جهة معينة وكان ذلك اليوم من الايام التي كثيراً ما ترى في غرب انكلترة فكانت سماؤه محتجبة بالجهام [٢] وكانت تأتي من البحر ريح بليل [٣] مسفسفة [٤] فتجري بين أشجار العليق فتولد فيها رعدة طويلة وكانت الطيور تغرد حول عشاشها

قد أتى عليّ حين من الدهر كنت فيه أوجد على الخليقة اذا بدت عليها سمات الاغتباط والسرور وأنا حزينة الفؤاد متبلبلة الافكار فما زلت بي حتى أثبت لي ان هذا الوجد والانفعال باطلان بعيدان من الانصاف وناشئان من الأثرة وحب الاختصاص، فأصبحت الآن بفضل نصحك لي أسر بما أجده في سائر المخلوقات من آثار الفرح والابتهاج ، وقد تبين لي في ذلك اليوم بما انبعث في قلبي من وجدان الحنان والرحمة، وبما عاينته في المخلوقات من شواهد الفضل والنعمة ، ان الله (سبحانه) لم يلعن الارض ولم يغضب عليها . [٥]

كانت بكرتي هذه من البكر التي تعرفها يدور في هوائها على سكونه

(١) الكمة بالضم القلنسوة المدورة (٢) الجهام سحاب لا ماء فيه (٣) الريح البليل هي الباردة النادية (٤) المسفسفة هي التي تجري فويق الارض (٥) تشير الى مافي ١٧ : ٣ من سفر التكوين ونصه « ملعونة الارض بسببك »

مادة غزيرة مختلفة العناصر للتوليد والخصب ، فكان ينبعث من أشجار العوسج وحقول القمح والمخارف [١] الموطأة نسمات فاترة مقوية كانت تسري بسببها الحرارة في جسمي فتصل الى وجهي ، فكأن الارض كانت مصابة بحمى الرّبع ، ولقد تذكرتك في تسياري بين هذه المزارع وفكرت فيما سأناله عما قليل من شرف الامومة ان لم يحدث من الطوارئ مايقطع موصول آمالنا ، وفي هذا الوقت أحس قلبي بما انطوى عليه مكتوبك فتسابقت الى ذهني منه هذه الكلمات وهي « فاني قد استودعتك إياه »

عند ذلك صحت قائلة : لماذا لا أكون أنا في الحقيقة معلمة ولدي ؟ أليس من المعروف عن نساء الولايات المتحدة ان معظم تعليم الاطفال ذكورا كانوا أو اناثا موكول اليهن ؟ بل مما يؤكده العارفون أنهن يفضلن الرجال في القيام بهذا العمل الصعب ، وإني سأجرب نفسي في الاقتداء بهن . على ان هذا هو ماراه زوجي ، فمن حيث إنه قد عول على ترك المزايا التي لمدارسنا وغيرها من معاهد التعليم لاعتبارات أقدرها حق قدرها فلا بد أن أحل محله ولو حيناً من الزمن في القيام على تلميذنا الآتي وتربيته وسيكون هذا آكد فرض عليّ وأخص ماافتخر به وأُزهى . أشهد الله على ماأقول وأشهد عليه أيضا أمومة الفطرة الكبرى التي تدعوني بما فيها من القدرة الى العمل وانماء جميع قواي .

ربما أضحكتك مني هذه المزاعم واني لعلى علم بكل مايعوزني لاداء هذا الواجب الصعب المعضل فانه ينقصني كثير من المعارف . ان كان

(١) المخارف جمع مخرف وهو الطريق بين الاشجار والزروع

والداي لم يغفلا تربيتي الاولى ، ولكن لاشيء يمنعني من الاستمرار على التعلم بنفسي اذ كنت لاأزال في السن الملائمة له ، فسأعلم ولدنا في الزمن الذي يشب فيه وينمو وأتعلم أنا أيضا بتعليمه ، ولن أعتقد أني أمه حقاً الا اذا نفثت في روعه أفكارك وزرعت في نفسه أصولك .

سنتعاون بقلبينا على هذا الامر الخطير فعليك الارشاد وعليّ العمل ، وقد وعدتك بأن أكون قوية وهذا هو قصدي وسأبلغه ملتمسة من الرياضة البدنية والمطالعة مايلزمني من الصحة والعافية في جسمي وعقلي لاداء هذا الفرض العظيم ، ومعاذ الله ان يكون من قصدي ان أصير الى أحسن مما أنا عليه الآن . نعم اني لست من الوليات ولا من الناسكات فقد أتى عليّ زمن كانت تجذبني فيه جواذب اللذات الدنيوية وليس هذا الزمن عني ببعيد فاني لم أتجاوز الثالثة والعشرين من عمري ، ولم يكن تركي معاهد التمثيل وملاهي الغناء وأندية الظرفاء التي كنت أفتخر فيها بصاحبتك مبنيا على رغبتي عنها وميلي الى غيرها ، وانما كان ذلك لما أصابنا من صروف الدهر ونوائبه التي سيظل ماجرّته لي من الكآبة والحزن مخيما عليّ طول حياتي . على انني لست آسى على شيء مما فات فأرجو أن لاتظن بي ذلك ، واعتقد أني لو كنت مطلقة من قيود هذه المصائب لما انفككت عن اختيارك لي خلا وقرينا ، واعلم ان الفراق لم يزدني فيك الا حبا وانما أنا أشكو من ألم في نفسي ، ولكن كما توجد طرق مادية لحفظ صحة البدن ، توجد أيضا طريقة معنوية لحفظ النفس وسلامتها من الامراض ، وهي رفعها الى معالي الامور ، وسأجربها ، فان ذلك على مايقال يسكن من آلامها ، واذا صح هذا فأي غاية تسمو اليها أفكاري وتعلو بها نفسي أشرف من رعاية ولد أربيه

علي أصولك واخلاقك ؟ ان هذا لهو أكمل قصد وقفت نفسي على ادراكه .

أنا مع انتظاري لهذا العمل الجليل أشتغل الآن بشؤون بيتية محضة ، وأما قوبيدون فانه صمم على ان يعمل عمل المزارعين فجلب الى مسرح الدواجن في بيتنا دجاجاً وبطا وماعزا وغيرها وكان في البيت برج عتيق مهجور فعمره بالحمام، وأنا مهتمة غاية الاهتمام بكل هذا العالم الصغير، وكنت قبلا أعتقد في نفسي اني على شيء من علم الحيوانات لما قرأته من الكتب المختلفة في التاريخ الطبيعي، وأما الآن فقد تبين لي مقدار خطائي في هذا الاعتقاد، فاني كل يوم أشاهد من عجائب الحيوانات ما لم يقل عنه العلماء شيئا. وانا وجورجية نوزع الحبوب على جميع هذه الدواجن التي يظهر من حالها انها تدرك محبتنا اياها لانها تأنس بنا وتفرح لرؤيتنا اه

الرسالة الحادية والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٣١ يونية سنة ــ ١٨٥)

وصف تعويد الانكليز اطفالهم الاستقلال والحرية من صغرهم

أكتب اليك أيها العزيز اراسم قياما بما أخذته على نفسي من إنبائك بكل ما أفعل وما أرى وما أسمع فأقول :

اتفق لي منذ بضعة أسابيع ان كنت في بيت صديقك الدكتور فرأيت عنده رجلا من ايقوسيا ــ هو شيخ طويل نحيف علمت انه من اصدقاء ذلك البيت وانه غادر بلاده لاسباب مجهولة عندي ولكونه لا يستطيع المعيشة بعيداً عن منظر البحور والصخور والرمال قد نزل بكورنواي الى

حين . يبدي هذا الرجل من التنطع والتشدد في آدابه وهيآت افعاله مالو ابصرته الفرنسيات لضحك عليه كثير منهن على ما أرى، فانه اذا سعل يسعل بانتظام، واذا دخلت عليه سيدة في قاعة الاستقبال وثب قائما كأنه حرك بلولب ، واقبل بوجه فيه من تكلف الوقار والرزانة ما يحاكي تكلفه في شد رباط عنقه واتقانه، ومهما كانت حاله فهو هنا محترم مبجل. ولا غرو فانه ساح في كثير من البلدان ويحسن التكلم بالفرنسية ولديه بحسب ما ارى ذخر عظيم من المعارف. يسمى الرجل السر جون سانت اندوز وأخص ما اشتغل به في سياحته البحث في التربية وزيارة مدارس انكلترة وايقوسية وقارة أوربة. وجملة قولي فيه ان حديثه يهمني ويفيدني، ولما كنت اعلم ان موضوع انظاره وابحاثه داخل في نوع ما نبحث فيه ونشتغل به اصغيت اليه لاجلي واجلك . فما قاله لي : ان الناس في بريطانية العظمى يهتمون قبل كل شي بانماء القوى الجسدية في الناشئين ـ فبالرياضات البدنية تنشأ اعضاؤهم من صغرهم قوية تناسب الرجولية وتتهيأ اجسامهم لخدمة عقولهم وعزائمهم، وهذا هو سبب عنايتهم بالرياضيات والالعاب التي تخالف ما عندنا مخالفة جوهرية.

نعم انه يوجد في المدارس الانكليزية ما نسميه في مدارسنا الفرنسية فن التمرين البدني (الجنباز) الا ان التلاميذ الانكليز لا يرغبون فيه كثيراً . ويفضلون ما يكون في العابهم من التمرن والارتياض على ما في هذا الفن من أنواع التدريب المنتظمة التي تحصل عن أمر المعلم وتحت رعايته ، فهم يختارون بكمال حريتهم ما ترتاح اليه نفوسهم من ألعاب المصارعة والمغالبة، فلهم في ألعاب الكرة التي منها ضربها بالصولجان ومنها دحرجتها على الارض ، وفي العدو والملاكمة وغيرها من طرق التسلي

وسائل متنوعة تنمي فيهم قوة الاعضاء وتجعلهم يزدادون بالتعب شدة وصلابة .

بهذا صار الانكليز أكمل الناس استعداداً للمصارعة والكفاح وأولهم اقتحاماً لقمم أعلى الجبال المعروفة ، وهم الذين يقاومون صعوبة الاقاليم والعوارض الكونية والامم الوحشية في الهند واستراليا وزيلاندة الجديدة وفي جميع بقاع الارض التي فيها أخطار تقتحم ، فلا تأثير للعقبات الطبيعية في تلك العزائم الثابتة التي تقوم لها عطالبها عضلات هي الحديد بأساً وشدة .

لم يوضع القانون في معاهد التعليم والتربية الانكليزية الا لما تدعو اليه الضرورة المطلقة من حفظ النظام فيها ، يدلك على ذلك أن مدير مدرسة من المدارس الكبرى كان قد أمر مرة على خلاف عادته ان يراقب التلاميذ في ملعبهم ، لكنه لم يلبث ان تبين خطأه في هذا الامر وندم عليه واعترف من ذلك الحين بأن هذا التضييق كان يميل بأنفس الناشئين الى الانحطاط ميلا ظاهراً .

التلاميذ الانكليز في ساعات الاستراحة من الدرس أحرار فلهم ان يخرجوا ويتنزهوا في المدينة التي يكونون فيها أو في المزارع غير محتاجين في ذلك الى أحد يرشدهم أو يراقبهم ، فيمضي كل منهم الى حيث يشاء ولا يطالبهم معلموهم الا بامر واحد وهو ان يكونوا في سيرتهم كما يكون سراة الناس أدباً ولطف معاملة ، والكلمة المقابلة في اللغة الانكليزية للفظ سراة هي « جنتلمين » ومن الصعب ترجمتها بالفرنسية ويعني بها من بلغوا غاية الكمال في التربية والتهذيب ، فان وصف الشرف والسيادة يستفاد من التربية أكثر من استفادته من النسب ، فقد ينسلخ

عمن ناله من جهة النسب ولو في نظر غيره اذا هو تلبس بسافل العادات وسفساف الاخلاق . من أجل هذا كان الخوف من انحطاط القدر وسقوط المنزلة في اعين اهل الفضل والادب له من السلطان حتى على نفوس الناشئين ما لا تبلغه جميع انواع المراقبة التي يتصورها العقل . يقول الانكليز « اذا اردت ان يصبح ابنك رجلا في طفوليته فعامله معاملة الرجال » وهذا هو الاصل الذي يجرون عليه في التربية .

إخالك تندهش اذا لاقيت عددا عظيما من الغلمان الانكليز في السفن التجارية والمركبات العامة ومركبات السكك الحديدية يسيحون وحدهم باذن اهليهم زمن عطلة المدارس وهم في حداثة السن ولكنهم على ما في هذا من الخطر يعرفون كيف يتوقون المعاطب وكيف يعودون الى مواطنهم، ويقول الانكليز تعليلا لذلك فوق ماتقدم انه هو الوسيلة الى استقلال هؤلاء الغلمان يوما ما بسلوك طريق الحياة في هذه الدنيا .

يثق الانكليز بالاطفال ثقة تامة فاذا اخل بها هؤلاء احيانا فلا بدع في ذلك لان من يرجو منهم ان يكونوا من الحكمة والدراية في درجة اعلى مما تقتضيه سنهم فهو واهم في معرفة الطبيعة البشرية ، على انه قد شوهد ان ما يقع منهم من الخطإ يسهل ان تسد ثلمته، واما تثقيف ما اعوج من الطباع بسبب سوء الظن والقهر فهو في غاية الصعوبة .

لا بد ان يكون لهذا النوع من التربية قوة معنوية تتأثر بها نفوس الناشئين فاني أراهم هنا أملا لان يديروا بعض اعمال تقتضي كثيرا من وفرة العقل وتمامه وقد ضرب لي الرجل في هذا الموضوع مثلا تاجرا من كبار التجار في لوندره كان منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره يجوب بشوارع المدينة متأبطا

محفظة مملوءة بأوراق المصارف (بنك نوت) ويعامل وهو في هذه السن عـدة من المحال التجارية باسم أبيه . وليس ما يلقيه الانكليز في أذهان أولادهم وهم صغار من الثقة بانفسهم والاعتماد عليها قاصرا على ما يكلونه اليهم من الاعمال التجارية والصناعية ، بل هو يشمل ايضا الفنون العقلية كالشعر والانشاء وغيرهما من الصناعات الفكرية . نعم ان الانكليز ليسوا بلا ريب احسن ولا اعلم من غيرهم ولكنهم لتعودهم من نعومة اظفارهم الاستقلال في سيرهم بمعارفهم الذاتية وتحملهم تبعة اعمالهم يظهرون في كل شيء أكثر منا قياما بانفسهم، واذا لم ابال بالتصريح بكل ما اريده قلت انهم اقل منا شبها بخراف بارنورج [١]

الساعات المقررة للدروس في المدارس الانكليزية هي في الجملة اقصر منها في المدارس الفرنسية ، ويؤكد الناس هنا ان هذا الامر لا ينقص من نجاح التلاميذ ولا يضر بترقيتهم كما قد تتوهمه لان الطفل لا يقتصر في تعلمه على ما في الكتب بل هو يتعلم كذلك مما يراه اثناء تنزهه في المشاهد الجميلة والمناظر الانيقة ويستفيد استفادة حقيقة مما يكون بينه وبين رفاقه من المحاورات والمحادثات وما يتلقاه من اهله من الدروس النافعة في المعيشة اليومية ، وليس من الضرورة المؤكدة ان يغل عقل الطفل من الصباح الى المساء حتى يكون من مشاهير الرجال ، لا يعتقد جيراننا ذلك قطعا بل يرون ان في راحة التلاميذ اي ترويح

---

(١) بارنورج هو أحد الممثلين في قصة هزلية للكاتب الشهير ربلي وله خراف علمها تقليد خروف لممثل آخر في هذه القصة اسمه دندينوات انتقاماً منه فصارت يضرب بها المثل في التقليد

نفوسهم بالألعاب الرياضية المتنوعة شحذاً لأذهانهم وتقوية لعقولهم .

وهم في تأييد هـذا الرأي يضربون مثلا مدارس قللت أيضاً في هذه الايام الاخيرة ساعات الدروس في فرقها وشغلت التلاميذ فيما وفرته منها باعمال يدوية نافعة فضاعفت بذلك فيهم قوتي التنبه والحكم . اذا كان هذا كذلك كان ماصرف من الزمن في تلك الاعمال غير ضائع بل عائدا بالربح على التلاميـذ في استفادتهم من الدروس لان نجاحهم لايقدر بطولها وانما يقدر بسهولة إدراكهم مافيها من العلوم وتحققهم بها

أخص غاية يرمي اليها الانكايز في التربية — هي سلامة العقل وهم يقولون ساخرين : ما أجهل مايعود على الطفل من الفوائد والمزايا اذا كان القائمون على تربيته يضعفون فيه الاعصاب المعدة للادراك والفهم بالافراط في اجهادها ، ويغيضون مافي عيون قريحته من مادة الذكاء الغزيرة بحثه على العمل لإحراز مالا ثمرة فيه من قصب السبق في امتحاناته ، فكم من سابق في هـذه الامتحانات يأكل بهذه الطريقة مايزرع قبل إبان صلاحه ! (يعني انهم ينفقون كل مالديهم من المواهب العقلية قبـل ان يصلوا الى ثمرتها)

ليست العبرة عند الانكايز بتعليم المعلمين بل العبرة بما يعمله التلميذ ويتعلمه بنفسه . ومما يحكى تأييداً لصدق هذه القضية أنه كان يوجد في إحدى دوائر الخوارنة[1] بأيقوسية مدرسة فيها قسمان من التلاميذ داخلي وخارجي وكان جل عناية صاحبها موجها للقسم الاول ضرورة انه هو الذي

---

(١) الخوارنة جمع خوري أي كاهن

كان يعتمد عليه قبل كل شيء في إنماء كسبه ومن أجل هذا كان يقضي مع تلاميذه كل سهرته في إعدادهم لتلقي درس الغد، على ان الذي كان يحصل في المدرسة هو غير ما كان يرجوه ، لان تلاميذ القسم الثاني وهم من أبناء فقراء المزارعين الذين يسكنون الكفور والخصاص المجاورة للمدرسة على ماهم فيه من حرمانهم من معيد يكرر لهم الدروس واشتغالهم باعمالهم المدرسية في زوايا تلك الخصاص على ضوء نارها في غفلة من اهليهم عنهم كانوا يظهرون عادة على تلاميذ القسم الاول ويفوقونهم كثيراً مع اجتهاد مدير المدرسة نفسه في تقويمهم وتمرينهم ، فعظمت بذلك دهشة ذلك الرجل ولكونه كان ذا لب وفكر أخذ يبحث عن سبب هذا الامر الذي ملاه سآمة وضجرا ، فلم يلبث ان عرفه وهو ان التلاميذ الداخليين كانوا يفرطون في الاعتماد على تعليمه إياهم التعليم الآلي الذي لا عمل لفكرهم فيه ويشتغلون ولكن لا بأنفسهم بل كآلات يديرها محركها واما التلاميذ الفقراء سكان الاكواخ فلما كانوا مضطرين الى حل رموز ما يتعسر عليهم فهمه من المسائل بأنفسهم كانت أذهانهم في تيقظ ولذلك كانوا يشحذون قرائحهم ويقوّون مداركهم بالمناقشة والمنافسة ، وكان في انقطاع المعلم عن رعايتهم اثناء مدارستهم الليلية مزية لهم ، فلا جرم أنهم سبقوا الى المقاعد الاولى في فرقهم نهاراً . استفاد المعلم من هذه الحكمة التي أهدتها له التجربة فترك من ذلك الحين التلاميذ الداخليين وشأنهم مقتصرا على ان يعطيهم كغيرهم مواد العمل وأدواته مثل كتاب في النحو ومعجم في اللغة وكان من وراء ذلك انهم لم يلبثوا ان ساووا أقرانهم في درجتهم .

تعلم من ذلك ان شأن جيراننا في التربية كشأنهم في جميع الامور

الدنيوية وهو أنهم يرجون من عمل المرء بنفسه من الخير مالا يرجونه من وسائل المعونة والمساعدة كائنة ماكانت ، فشعارهم فيها هو « استعن بنفسك يعنك معلمك . »

ربما كان أهل ايقوسية أيضاً أكمل من الانكليز عناية بأمر التربية فقد اشتغلوا به كثيراً في هذه الايام الاخيرة

يوجد في ايدنبورج [1] على ماسمعت مدارس ابتدائية لا يكتفي فيها المعلمون بتعليم التلاميذ مواد العلوم بل يبذلون قصارى جهدهم في تأديب طباعهم وتهذيب أخلاقهم، فهم يعملون لتطهير نفوسهم من خبيث الرذائل كالاثرة والغش والظلم والكذب والقسوة على الحيوانات ،وليست طريقتهم في ذلك مجرد إلقاء القواعد والتعاليم المبهمة المجملة بل هم يرجعونهم الى وجدانهم الفطري ويذكرونهم بشرف الانسان وسمو منزلته على سائر أنواع الحيوان، فالاطفال في هذه المدارس هم الذين يحكم بعضهم على بعض في كثير من الاحوال ويقدرون بأنفسهم درجة أفعالهم في الحسن أو القبح

ولو شئت لسردت لك كثيراً من الحكايات في هذا الموضوع ولكني اكتفي بأن أقص عليك واحدة منها ليكون في ذهنك صورة لتلك الطريقة فأقول :

تأخر تلميذان ذات يوم عن الوقت المقرر لدخول المدرسة بربع ساعة وهما اخوان في الرابعة أو الخامسة من عمرهما فقرر المدير ان يسئلا عن سبب التأخر ويقبلا في فرقتهما بلا عقاب ان أبديا عذراً صحيحاً ، وجعل الحكم على صحة العذر وفساده للمدرسة بتمامها كما هي العادة عنده

(١) ايدنبورج عاصمة ايقوسية من بلاد الانكليز

في جعلها محكمة شرف تقضي على التلاميذ ولهم فيما يفعلون، فلما مثل المتهمان الصغيران أمام هذه المحكمة اعتذرا متعاقبين عن تأخرهما بأنهما صادفا في طريقهما دودة غليظة لم يكونا رأيا لها نظيرا في حياتهما فراعهما منظرها وملئا منها عجباً، لان هذه الحشرة كانت تتمثل في أشكال وأوضاع غير معهودة لهما، فكانت تارة تقف على ذنبها وطورا تمتد على الارض وآونة تكون ذات أثناء ملتوية، وأنهما بينما كانا يصرفان زمنهما في مشاهدتها، كانت تنساب حتى بلغت عوسجا فغاب عنهما أثرها فيه ـ فلم يمهلهما المدير ريثما يتمان قولهما بل سألهما: لماذا لم تقتلا هذه الدودة؛ فحدّق اليه الغلامان ولم يحيرا جوابا، فاستأنف السؤال قائلا: أما كان لديكما من الوسائل ما يعينكما على قتلها حتى كنتما بذلك تقطعان سبب ابطائكما في الطريق؛ فقال له أكبرهما « بلى كنا قادرين على قتلها من غير شك ولكننا لو كنا أتيناه لكان ذلك منا شراً وقسوة » فقوبلت هذه الكلمات من جميع الحاضرين بالاستحسان والتحبيذ [1] وحكم ببراءتهما من التقصير

من ذا الذي لا يرى في محاكمة الطفل الى لداته واقرانه جرثومة وضع المحلفين [2] الذي يعتبره جميع العارفين به معقلا يذاد فيه عن حمى الحرية بجميع أنواعها في انكلترة وايقوسية؛ فلا شك أن تلك المحاكمة أخذ بالناشئين في طريق الوصول اليه وإشراف بهم عليه من بعيد، ولا بدع فان جيراننا يزعمون ان التبكير في تربية وجدان التكليف في نفس الطفل لا إفراط

(١) التحبيذ المدح بقول حبذا (٢) المحلفون هيأة تتألف من عدد من الاهلين لا يقل عن اثني عشر ينتخبون ويحلفون طبقاً للقانون على أن يقرروا الحق فيما يعرض عليهم من الدعاوى

فيه يذم مهما توسع في التعجيل به ، ففي رأيهم انهم متى أريد أن تكون الحكومة على صورة مايجب ان تهيأ لقبولها نفوس الناشئين ، وأن مايحفظ القانون ويضمن بقاءه من أنواع الكفالات لا يستقر الا بارتياض الناس به من بداية عمرهم ودوام اعتياذهم اياه . ومما قاله لي الشيخ الايقوسي الذي حدثتك عنه « أنا لا أشير على أي بلد باختيار طريقتنا في التربية مالم يقارنه زرع مالدينا من ضروب الحرية في نفوس أهله . فنحن في بلادنا نحتاج الى رجال مطبوعين على حب الاستقلال موافقة لما تقتضيه قوانيننا وأوضاعنا ، أكفاء لإطالة مدة بقائها بما يكون منهم في سبيل ذلك من المجاهدة الشديدة ، وان طريقتنا في تربية الاطفال اذا اتبعت في غير بلادنا نشأت عنها رعية يتعذر حكمها وسياستها . » اه

الرسالة الثانية والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٢ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

انتقادها اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم والتماسها عة لذلك

أرى من البواعث الكافية ما قد يسوقني الى اعتقاد أن الكمال لا يخلو من نقص ، والحسن لا يعرى من قبح ، فما عاينته من أحوال الانكليز وأخلاقهم ينطبق انطباقاً تاماً في بعض المواضع على ماسمعته عنهم من السرجون سنت اندروز ، ولكن تصفحي هذه الاخلاق وترديد فكري فيها قد اضطرني الى الاخذ بالحزم في امتداحها وترك المجازفة

في اطرائها . لاكثر الامهات اللاتي ألاقيهن في بيت السيدة وارنجتون أولاد عديدون فما أعجب ماري في جميعهم من مقدار تحققهم بالخالطيهم من الاوهام وسرعة انطباع معتقداتهم الباطلة في نفوسهم ! فتراهم على قلة علمهم بالامور يفرقون بين مطلق رجل والسري المهذب من الرجال ومطلق امرأة والسيدة الكريمة من النساء ، فرقاً تاماً ويميزون من ولدوا لخدمتهم ممن يجب لهم عليهم الاجلال والتعظيم لأول نظرة اليهم غير مترددين في ذلك ولا مرتابين ، ويحافظون على شرف الاقتداء بعظماء الناس في سيرهم ، لا لأن ذلك مطلوب لذاته بل لعدم الاخلال بما تواضع عليه أولئك العظماء من الآداب ، واني على يقين من انك لو اطلعت على هذا العالم الناشئ لوجدت فيه شيئاً من التصلف ، فلشد ما ري فيهم من العجرفة وما يبدونه امام الاحانب من ظواهر الابهة الصبيانية .

وحقيقة الامر ان هؤلاء الانكليز أنفسهم على مالهم من الحرية الواسعة وما فيهم من كمال استحقاقها هم في غاية الخشية والخضوع لرأي الجمهور وشأنهم في هذا شأن باسكال [1] الذي يسمي ذلك الرأي ملك الدنيا على انني لاأدري أي تأثير له فيها يستحق به هذه التسمية ، ولكنني إخال ان له في انكلترة من السلطان والسيطرة ماليس مثله لفكتوريا [2] فان جيراننا ينشأون من صغرهم عبيدا مختارين لبعض مواضعات قومية فيوجبون على أنفسهم تعظيم ماعظمه جمهور المهذبين من قومهم بدون

(١) باسكال ويسمى بليز باسكال هو كاتب ومهندس فرنسي شهير ولد في كليرمونت فرّاند سنة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٢ ميلادية وله مؤلفات شهيرة منها افكار باسكال

(٢) فيكتوريا ملكة الانكليز السابقة

بحث فيه ولا نظر ، فكل منهم في سيرته وآرائه تبع لغيره معتمد على ما لهذا الغير من الاعتبار وعلو الكلمة ، وتراهم في منتدياتهم قليلي الكلام بل لاتخرج محادثاتهم عن حدود الامور التي قدسها استقرار العادة . فلهم جمل من المعاني والافكار كانها تحجرت في أخلاقهم وعوائدهم فأجمعوا على عدم المناظرة والجدال فيها .

إني الى الآن لم أعرف الانكليز معرفة تكفي لادراك سر هذه المباينات ،وانما الذي أراه في كبارهم انهم قد جمعوا بين غاية الاستقلال في أفعالهم وغاية التقليد في آرائهم ، واما صغارهم فانهم كذلك أحرار في حركاتهم وفي معظم ماتتوجه اليه عزائمهم من أعمالهم - لكنهم يحجرون على أنفسهم أن تتعلق هذه العزائم من الاعمال بما يخالف تقاليد أهاليهم وآثار سلفهم وعوائد الصالحين من مخالطيهم ، وربما كانت الحكمة في كل ذلك ان القوم قد رأوا طباعهم تجري بهم في بحر لجي من الحرية جري السفن مدت شرعها فاضطرهم ذلك الى طلب مرساة يوقفون بها جريها فالتمسوها في ضبط الاخلاق البيتية وفي العوائد القومية والاصول الملية . اه

الرسالة الثالثة والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٦ يوليه سنة —١٧٥)

اخباره باقتراب ساعة الوضع وبرؤيا رأتها

كاني أيها الحبيب بساعة الوضع قد اقتربت واني وان كنت لاأزال في كفاية من جودة الصحة فما أخوفني من هول تلك الساعة وما تأتي

به من الشدائد والمحن التي كان شهودك فيها وحده كافلاً تخفيف آلامها عني . رباه ! كيف لاتكون تقربي أيها العزيز إراسم وأخص وقت تكون فيه المرأة كالعشقة (شجرة اللبلاب) لزاما لمن تحبه وتعلقا به انما هو أمس ذلك اليوم المعروف بالعناء والخطر .

في الليلة الماضية رأيت رؤيا تحيرت في تأويلها : رأيتني أزور قبر والدتي لابسة الحداد فعظمت دهشتي لما رأيته هناك من شجر الورد والآس وغيرهما من الازهار لاني لم اكن أوصيت بغرسها ، ولما رأيت ان يدًا مجهولة قد عنيت بآخر منزل لمن كنت أحبها فزينته بهذه الازهار هاجت أشجاني وانهطلت عبراتي وأحسست بالبكاء في نومي وقلت في نفسي : ليت شعري من هذا الذي عرف كيف يتحبب اليّ ويسترضيني عنه ، ثم تبينت من جملة وقائع متتابعة مبهمة أنك أنت الذي غرستها فغرقت في شبه لجة من الفناء في حبك ، وما عسى أن أصف لك مما خطر في ذهني حينئذ ! فقد تمثلت لي جميع الاحوال التي تلاقينا فيها لاول مرة وماانعقد بيننا من روابط الحب الاولى تمثلا ليس كالذي يحصل عند ذكر المرء حوادث ماضيه ، بل كما يحصل في الحلم حيث تتشكل فيه الاشياء الحية وغير الحية بأشكالها الحقيقية . فما قولك في هذه الرؤيا ؟ وأما أنا فلو كنت من الموسوسات لاعتقدت ان فيها انذارا ببعض المصائب

أبشرك أيها الحبيب بأن أول مكتوب يأتيك مني بعدهذا سأكتبه إليك وأنا أم ، وكلما فكرت في ذلك تعروني هزة الفرح ونشوة الطرب ، فالآن أودعك وأقبلك بكل ما في نفسي من قوى الحب والشوق . اه

صحف مقتطفة من يومية الدكتور اراسم

(صحيفة يوم ٦ يوليه سنة — ١٨٥)

اقل شيء من العقبات المعنوية يعوق العقل عن الانبعاث في سبيل الحرية

دخلت فراشة تخدعي من السجن من حيث لا أعلم، ومكثت ربع ساعة تحاول الخروج من الشباك ، يدعوها الى ذلك ما وراءه من الضياء والفضاء والحياة بما تسمعه من الاصوات في جو السماء ولكنه على ضيقه كان محكم الاقفال، فانقضت عليه بنت الهواء أولا على جهل منها بحقيقة زجاجه اللطيف حاسبة انه لا وجود له امامها . ثم أخذت تصادمه وتلتصق به وتقاومه وكلما ردتها صلابته خائبة أعادت عليه الكرة .

هكذا يكون شأن الانسان مع العقبات المعنوية التي تعترضه في طريق حياته لا يحسب لها حساباً لانها لا تكاد تكون شيئاً يذكر فهي كسمك لوح من الزجاج مثلا، لكن هذا الشيء الذي لا يذكر - كوهم أو عقيدة أو معنى غير صحيح أو مغالطة - كاف في تعويق عقله عن التحليق بجناحيه في سماء الحرية ، فلا يجدي معه اشتداد العقل في اقتحام عقباته كما لم يجد تلك الحشرة اصطدامها بالزجاج واعياء جناحيها في مغالبته .

فلما رأيتها قد عجزت عن الخروج فتحت لها الشباك وقلت لها : امضي أيتها المسكينة في سبيلك ، وطيري بجناحيك كما كنت في خالص الهواء وحرارة الشمس، فهذا يكفيك من مسجون في حجرته . اهـ

﴿ صحيفة يوم ٨ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

لابد يوما ان يدال من المستبدين وان ترد الحقوق المغصوبة الى اهلها

كثيراً ماشاهدت ساحل البحر بين حركتي المد والجزر وأبصرت على سطح رماله المبللة الرطبة آثار كثير من الاقدام والعجلات ونعال الخيل ورسوما غريبة في بابها نقشتها على صفحاتها أيدي الاطفال، وأسماء كتبت بأطراف العصيّ وغير ذلك من الآثار الكثيرة المتنوعة ، فلما مدّ البحر محاها جميعها فلم يبق منها شيء يدل على سبق وجودها . كذلك شأن العدل والدهر فان لهما كالبحر مدًّا وجزراً . فاعملوا ما شئتم من تأليف الكتب وتحرير الصحف واقامة الابنية ووضع القوانين، وارسموا مقاصدكم على الرمال، كل ذلك يغمره مدّ العدل في يوم بل في ساعة واحدة فالبحر يقول في مده : إني أعود الى ماتركت من مكاني ، والشعب يقول في مده : إني أسترد مااغتصب من حقوقي . اه

﴿ صحيفة يوم ٩ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

من أعجب الظلم ان يداس العدل والحرية وتهضم حقوق الأمم
في سبيل تحصيل لذة الملك لرجل هالك

كان فيما سلف من القرون رجل من الفاتحين دمر الممالك ودوّخ الاقيال، ثم مات بعد ان تم له النصر في كثير من وقائعه وغزواته ، فوضعه رجال دولته على سرير رفيع محفوف بأكمل مظاهر الابهة والجلال مع

انه بالموت قد خلع من ملكه وأنزل من عرش سلطانه، فاتفق ان تهافتت على أنفه ذبابة فلم تستطع يداه ذودها عنه على ما كان فيهما من ادارة شؤون الممالك وقمع نخوة الجبابرة . ياعجبا ! أللوصول الى الغاية التي وصل اليها ذلك الرجل يوطأ العدل والحرية بالمناسم وتهضم حقوق الامم ؟ . اه

﴿ صحيفة يوم ١٠ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

تمثيل الحكومة المستبدة فى الامم الراقية بالدجاجة مع أفراخها التي استغنت عن ولايتها

أرادت دجاجة أن تغطي بجناحيها أفراخا تفقص عنها البيض وكبرت فقلن لها : لسنا في حاجة الى عنايتك فانك تزهقين أنفسنا بثقلك ، فكان جوابها على ذلك ان قالت لهن « مه فانكن لاتدرين في ذلك شيئا ، أما عدم احتياجكن الي فهذا ممكن وأما أنا فلا أستغني عنكن ، أولا لانه يلذ لي ان ألقي ثقلي على شيء فان هذا يرفع من شأني، وثانياً لاني آكل ماأعد لكن من الحب . »

هذه الحكاية تمثل الحكومة مع الشعوب التي بلغت من درجات الترقي مايكفيها في الاستقلال بحكم نفسها . اه

﴿ صحيفة يوم ١٢ يوليو سنة — ١٨٥ ﴾

بيان تمثل زوجته له فى اليقظة

كانت ليلتي هذه هائلة فظيعة فاني كنت في بعض ساعاتها أرى من خواطري ما كان يمثل امامي كما تمثل الاشباح فكاني صائر الى الجنون !

لقد رأيتها . . . . هي بنفسها لا في حلم بل في يقظة كأنها أخفى من النوم ألف مرة .

رأيت هيلانة قائمة على سريرها وكنت الاحظ نفسها المختنق وأجس نبضها الذي دلني على انها محمومة . واعجباً ! أخالني سمعت صوتا . ويلاه ! انها تئن وتتألم وأنا بعيد عنها . انما يدرك ثقل وطأة السجن ويحس بضيقه في مثل هذه الساعات التي تغلب على الانسان فيها حيرته وتزهق نفسه ، ولقد كنت أريد ان أكون قدوة لزوجتي في الثبات والصبر ، فهذه أول مرة غلبني فيها السجن على عزمي فانثنى رأسي وانجرح فؤادي مما ألاقيه من نقم القانون البشري .

لو كان حقا ما يقال من أن في قدرة الاموات ان يزوروا من كانوا يحبونهم في الحياة الدنيا لوددت أن أموت في هذه الساعة حتى أراها . اه

الرسالة الرابعة والعشرون

﴿ من الدكتور وارنجتون الى الدكتور إراسم في ١٢ يوليه سنة ـــ ١٨٥ ﴾

البشارة بوضع « إميل »

أبشرك أيها السيد العزيز بغلام جميل ولد لك في الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم بعد ما قاسته والدته من طويل العناء وشديد الالم، ولقد كنت عشية أمس مشفقاً من أن يحل بها مكروه لبعض علامات بدت عليها ولكن قد أعانتنا قوة طبيعتها وسلامة خلقها على النجاة من الخطر وأصبحت

صحتها من الجودة على ما كنا نرجوه لها ، وأما الغلام فجل مايبتغيه ان يعيش ليخلد به ذكرك ويعلو بنباهته قدرك ويعظم فخرك .

وهذه فرصة قد انتهزتها لمكاشفتك بما في قلبي لك من المنزلة الرفيعة وما في نفسي من جواذب الميل اليك ورجائك في أن لاتضن بي على أي خدمة يلزم لك أداؤها، وان لاتكتم عني حاجة يعوزك قضاؤها . ان قبلت هذا الرجاء استوجبت خالص شكري لانك بذلك تكون قد برهنت لي على أنك لم تنس صديقك القديم . نحن معشر الانكليز متهمون عندكم بان فينا شيئاً من الانقباض عن الناس والاحتراس في معاملتهم، ولكن ربما كنا خيرا مما اشتهر عنا ، وإنا على كل حال لنا قلوب تعطف على البائسين وتكرم المنكوبين اه　　صديقك المخلص

الرسالة الخامسة والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٢ اغسطس سنة — ١٨٥)

وصف القابلات في انكلترة ووصية الدكتور وارنجتون لها فى العناية بمولودها

لا بد لي ان أقص عليك تاريخي فيما يسميه الانكليز اعتكاف النفساء ملتزمة في ذلك طريق الايجاز فأقول :

استأجرت ممرضة كما هي العادة هنا وهي امرأة واسعة الخبرة في أمور التمريض والولادة أراك تقضي منها العجب لو سمعتها تتكلم في الطب والجراحة والقيام على الاطفال وغير ذلك مما يدل على كثرة درايتها فيما يلزم لمهنتها . والظاهر انه يوجد من هؤلاء القوابل في انكلترة قبيلة

بتمامها . وعملهن في حق الوالدات هو ان يرشدن من يكن منهن حديثات عهد بالولادة الى مايعود عليهن وعلى أولادهن بالنفع ، وينفذن مايصفه الطبيب من طرق التداوي ، وعندهن بحسب مايسمع منهن عدة من المركبات الدوائية لمداواة بعض طوارئ العلل لا يتخلف عنها الشفاء . وأما قصصهن في هذا الموضوع فانها لا نفاد لها ، ولو اني اعتقدت صدق كلامهن في جميع الاطفال الذين يدعين انهم نجوا على أيديهن من الموت لبطل عجبي من كون انكلترة قد وجدت من أبنائها العدد الكافي لعمارة استراليا وزيلاندة الجديدة وسائر مستعمراتها .

والتي تقوم عليّ منهن هي ـ فوق ماتقدم من الصفات ـ امرأة بارعة ذات فضل يظهر أن صفة الامومة العامة قد صارت غريزة من غرائزها ، وهي قصيرة هيفاء تلوح عليها سمات الاستقامة وكرم النفس ، شهدت في ماضيها ـ كما يقال ـ أياماً مثلي فإنها كانت زوجة لرجل كان ملاحظاً للاعمال في أحد مناجم كورنواي وقتل بسبب اندكاك هذا المنجم فترملت من بعده . وقد رزقت هي أيضاً عدة أولاد فارقوها من عهد بعيد وتشتتوا في البر والبحر ابتغاء الرزق ـ اثنان منهم ملاحان صالحان يصلانها حيناً بعد حين بصندوق من الشاي وقطعة نقد من الذهب ، وقد عرض عليها ان تكون ممرضة في مستشفى كبير فلم تقبل على مافي إبائها من المباينة لمصلحتها وقالت : إني أفضل أن أتلقى الوافدين الى الدنيا وأرجو لهم حياة طويلة فيها على توديع من يفارقونها فراقاً أبدياً .

كان الدكتور وارنجتون قد أوصى قبل سفره بأن يؤذن بدنو ساعة الولادة فلما حان الوقت أرسل اليه مكتوب فلم يلبث أن جاء من لوندرة

على أثره قبل ان يضربني الطلق وتنزل بي شدائد المخاض وأهواله ، ومما يحمد في خصال الانكليز أنهم اذا أسدوا الى غيرهم معروفاً لا يمنون عليه بل لا يظهرون له ان قصدهم بذلك خدمته أو إسداء المعروف اليه ، وذلك اما ان يكون منهم رقة طبع وكمال أدب أو كبرا وترفعا عن خدمة سواهم. يدلك على ما أقول أني لما شكرت هذا الدكتور على مجيئه وتركه مرضاه في لوندرة ، كان جوابه لي أن قال : رويدك فاني ما جئت من أجلك وانما جئت لزيارة زوجتي وأولادي، فهذا الجواب يعتبر في رأينا معشر الفرنسيات دليلا على قلة الظرف ويعده كثير من الباريسيات إهانة وتحقيرا ، وأما أنا فلم أنظر الا الى قصد قائله وهو جليل فانه على يقيني بأن الغرض من مجيئه هو غير ما يقول قد أراد ان يقنعني بان وجوده عندي انما كان اتفاقا لا تعمدا فلا يد ولا منة له عليّ أو أنه ان كان شيء من ذلك فلا ينبغي ان يتمدح به أو ان يذكر .

ثم إنه لم يقف في تفضله عليّ عند حد مساعدتي بعلمه وحذقه في فن التوليد على النجاة من الهلاك الذي كنت مشفقة من الوقوع فيه ، بل قد تكرم أيضاً بان محضني النصح شأن الصديق مع صديقته فيما يجب للمولود من ضروب العناية فقال « اني اخاطب الآن غرة لا خبرة عندها فلا تدهش لما سألقيه عليها من أفكاري فان أقل مزية لها ان أساسها التجربة والاختبار. قد نبه كثير من رصفائي أفكار الناس في جميع البلدان الى كثرة عدد الوفيات المريعة في الاطفال الحديثي العهد بالولادة ، ويمكن ارجاع هذه البلوى الى عدة أسباب كفاقة الوالدين وفساد أخلاقهما وعدم كفاية أقواتهما ، ولكني أعتقد أن أخص سبب يجب ان ينسب اليه ذلك هو

جهل الامهات بما تجب عليهن رعايته في شأن أولادهن ، فان الاساءة في بعض طرق العناية بالمواليد كاتخاذها في غير وقتها أو الخطاء في تدبيرها لا تقل عن اهمال شأنهم شؤما وسوء مغبة ، واني لست أقصد بهذا انه يجب على الامهات أن يجرين على ماتقتضيه الفطرة جري عماية وغفلة فانهن ان يفعلن ذلك يعصين الله (سبحانه) بتخليهن عن العقل الذي لم يهبه لهن الا لمراقبة سير الفطرة في مناهجها واقامتها عليها اذا حادت عنها ، وانما أعني بذلك أن الاوهام والعادات والمعارف الفاسدة هي أعدى أعداء المواليد فتجب محاربتها ومحو آثارها ، وينبغي ان تعتقدي اننا لسنا أسوأ من غيرنا حالا في تربية مواليدنا لان شعبنا يزداد زيادة ظاهرة حتى انه قد ضاقت عن سكناه أرجاء بلادنا ، وها نحن اولاء نرسله أفواجاً الى الاقطار السحيقة ليتوطنها ويستعمرها ، ومن هذا تعلمين ان ازدياد الاجناس لا يكون على نسبة عدد الاطفال المولودين بل على نسبة عدد من تخطاهم الموت منهم ، وعندي أن هذه النتيجة الحسنة الداعية الى الاغتباط في بلادنا ترجع الى ثلاثة أمور وهي : استعداد الدم الانكليزي السكسوني للحياة ، وانطباع نسائنا على حب بيوتهن والعناية بها ، وما لذوي العقول المستضيئة بنور العرفان من علمائنا من التأثير في نفوس العامة فان كثيراً من نُطُس الاطباء الطائري الصيت عندنا لم يأنفوا ان يقوموا ببث الافكار الصحيحة والآراء السديدة في فن القيام على المواليد بين أفراد الشعب » ولم يكد الدكتور يفرغ من كلامه حتى باشر العمل بنفسه ورتب ما رآه غير مرتب في غرفة نومي ، من ذلك انه وجد مهد (إميل) قد وضع خطأ تجاه (الشباك) فغير وضعه وقال لي « اني رأيت أطفالا أصبحوا عميا أو حولا بسبب تعريضهم بعد ولادتهم بأيام لضوء

شديد» هذا وسأتحفك بنصائح أخرى وعيتها عن هذا الرجل الفاضل لما رأيته فيها من كمال الحكمة والسداد ولم أخل بشيء منها ، واني لا أرتاب في أنه قد تكلف من المشقة والتعب ما لم يتكلفه لغيري من النساء اللاتي يدعى لتوليدهن، وعاملني كما يعامل الرجل زوجة صديقه. على ان الناس قد أكدوا لي ان الاطباء المولدين هنا لا يرون أن عملهم قد تم بمجرد انتهاء الولادة بل يرشدون الوالدة بعد ذلك الى جميع ما يلزمها في تربية وليدها . اهـ

الرسالة السادسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٣ اغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

مشابهة « اميل » لابيه وحكاية في التماثل بين صور الاحياء والاموات

كلما رددت النظر الى « إميل » رأيت مثالك محققاً فيه، ولا بد لي أيها العزيز اراسم ان أحكي لك بهذه المناسبة حكاية طبق ذكرها الآفاق في البلد الذي أسكنه. ذلك ان قسيساً بروتستنتيا قاطناً في جنوب انكلترة وجد اتفاقاً في كورنواي يوما من الايام فطلب ان يزور قصرا عتيقا جدا في ضيعة هناك كانت لأسلافه في غابر الازمان ولذلك كان كثير الاهتمام برؤية أماكنها، فلما حل بها ملأه العجب وأخذ منه الاندهاش كل مأخذه اذ رأى في الرواق المعلقة فيه صور أهل هذا البيت السالفين صورة كأنها تمثله بذاته مرسوماً على قماش قديم لابساً عدة الحرب كما كانت سنة الناس في القرون الوسطى، لا بملابسه السوداء التي يلبسها اليوم، وبينما هو يتأمل

في هذه الصورة وفيما يليها من الصور اذ وقع بصره على صورة أخرى زادته ارتياعاً ودهشة ، فتقهقر خطوتين الى الوراء وهي صورة تمثل ابنه البكر وهو فتى في الثالثة عشرة من عمره وكان معه في هذا الرواق . فماذا تظن في هـذه الصور الوراثية ؟ وأما أنا فاني أكاد أفزع عند ما أتصور ان رجلا من الاحياء يعرف نفسه وابنه في شخصين مجهولين من أهـله ماتا من عدة قرون .

فليت شعري هل نحن راجعون الى الدنيا بعـد الفناء كما روى لنـا التاريخ ذلك عمن يؤمنون بالرجعة والتناسخ ؟ اه

الرسالة السابعة والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٤ اغسطس سنة ـ ١٨٥)

ظنها ان « إميل » انشأ يعرفها وبيان فضله عليها في تحسين خلقها

لا أزال أشعر في نفسي بكثرة الضعف حتى إني في تحرير هـذا المكتوب اليك لم أستطع ان أكتبه مرة واحدة بل كنت أراوح فيه بين الكتابة والاستراحة عدة مرات ، فقد كنت لزمت الفراش اثني عشر يوما موافقة للعادة المتبعة في معظم جهات انكلترة ، والآن أصبحت قادرة على القيام والمشي في البيت قليلا وصرت مثلك اجيـل ناظري وفكري وأسيح بهما فيما حولي ، وإني أجد لذة في حبسي لاني أنوي به مشاركتك في حبسك .

أراني لا أكون واهمة ان حسبت أن إميل مالبث ان عرفني . فاني

لا أجيز لنفسي مطلقاً ان تعتقد أني لست في نظره « الا ثدياً مملوءاً لبناً » على قول أحد العلماء ، على أني اعترف اعترافاً تام الصراحة بأن هذا المولود الضعيف الذي يكاد ان يكون جماداً محتاج الى أن يأخذ كثيرا من غيره ولا يكاد يعطي شيئاً . نعم ان لنا فيه قرّة عين وانشراح صدر ولكنه ليس له في هذا اختيار فهو كالزهرة ترتاح لها النفس ويبتهج برؤيتها الناظر على غير ارادة منها ولا قصد ، ومهما كانت حاله فأنا أشد منه أثرة لاني أنا المغتبطة بحبي إياه ، ثم اني كيف يسعني أن ارتاب فيما له من الاحسان اليّ فانه قد أعاد لي سكينتي وكف عني ما كنت أجده من غربي[1] ذلك ان خاقي — ولا أخفي عليك — قد خالطه من بضعة أشهر شيء من الحدة بسبب العزلة والاغتراب ، ومن هذا تعلم العلة في غضبي على جورجية قبل الآن بايام على انها أحسن النساء وأكثرهن التفاتا لواجبها . وحقيقة الامر انها تستثقل القابلة ولا تطيق النظر اليها ويوجدها عليها ان تراها قد استحقت نصيبا من شكري لانه من المفروض علينا ان نشكر لمن يخدمنا . فهذه الغيرة المنبعثة من قلب مخلص لم يستضئ بنور العلم هاجت غضبي عليها فلم أستطع كظم غيظي ولا كف بوادر لساني في تلك الساعة . فما كان أشدني اندهاشاً وارتياعاً اذ ذاك ! فاني لم أكد أفرغ من تقريعها حتى أبصرت وجه إميل قد صار أحمر كالارجوان وطفق يصرخ صراخا شديداً ، فمن ذلك اليوم ملت الى الاعتقاد بان انفعالات الام تؤثر في نفس الطفل فيكون بكاؤه وتغيره رجعاً لصداها .

وسواء كان هذا الاعتقاد صحيحاً أو فاسداً فقد عاهدت نفسي على ان

---

(١) الغرب الحدة

أعتبر بهذه الواقعة ، وأصبحت الآن كلما عرض لي ما يكاد يذهب بحلمي أنظر الى إميل فيسكن غضبي على الفور إجلالاً لولدي، واذا كنت قد صرت أحسن خلقاً وأوسع صدراً وأملك لنفسي مما كنت قبل فليس ذلك إلا بسببه وبيمن وجوده . اه

الرسالة الثامنة والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٥ أغسطس سنة ـــ ١٨٥ ﴾

سؤالها اياه عن حقيقة التربية وزمني بدايتها ونهايتها

تلقى الدكتور وارنجتون مكتوبك [1] وأطلعني عليه فرأيتك قد تجنيت على نفسك اذ قلت : إنك ملوم على ماجلبه لي تعيس حظك من الخمول والذل، وإنك لست جديراً بأن تكون والداً . رويداً ! هون عليك الخطب فاني من عهد ان جمعتنا عقدة النكاح كنت راضية بكل ماوقع لنا. فهل كان ذلك مني كما تقول ناشئاً من شرف نفسي أو من رعاية واجبي؟ لا ! بل كان سببه ما في قلبي لك من صادق الحب وخالص الود ،فمن الجبن والعار أن تأسى اليوم على ماقد كان،واعلم اني لست أشكو أبداً ما بتلينا به من الشدائد والمحن،بل أزهى بها وأفتخر باحتمالها ، وأما ولدنا فقد ان لنا ـ على ماأرى ـ أن نشرع في تربيته ، فماهي التربية ومتى تبتدئ ومتى تنتهي؟ أنا في انتظار جوابك عن ذلك

حاشية ـ إميل مستغرق في نومه وقد قبلته قبلتين في وجنتيه على حبك . اه

(١) هذا المكتوب لم يعثر عليه

الكتاب الثانى

(في الولد)

الرسالة الاولى

(من إراسم الى هيلانة في ١٠ اغسطس سنة — ١٧٥)

بيان الصعوبة في تحديد زمني بداية التربيـة ونهايتها وتعريف التربية

تسألينني في خاتمة رسالتك الاخيرة عن التربيـة متى يكون ابتداؤها فأقول :

يصح أن يبتدأ فيها قبل الولادة بزمن طويل لانه من المحقق الذي لا مساغ للريب فيه ان في أجيال البشر أنواعاً من الاستعداد الوراثي تنتقل من الآباء الى الابناء ، فابن المتوحش يولد متوحشاً وولد البربري يخلق بربريا ومن كان من أبوين متمدنين فانه يولد مهيأ للتمدن .

كل من عرف ذلك يرى فيه أن هناك قوى سابقة لخلق الحياة في الانسان تحدد لكل فرد من أفراده درجة ملكاته ومقدارها نوعاً مّا من التحديد ، وما نسميه بالتصورات الغريزية والقوى الحدسية والمواهب الخلقية والفيض الخفي وغيرها ربما لا يكون شيئاً آخر سوى ما نتوارثه

من حالة العمران، أعني نتيجة عمل العقل في من سبقنا من القرون، فنحن الراجعون الى الدنيا بعد الفناء كما تقولين .

ان ظهور أثر أعمال السالفين وأفكارهم في احدى مثاني مخنا على غير علم منا وتنقل المادة الحية من قرن الى قرن مرتقية على الدوام في صورها بعمل العقل ، وخروج المولود من غيابة الرحم الى عالم الشهادة باعضاء كملها التقدم وسواها الترقي- جميع هذه الامور يغلب على ظني أنها من أسباب النمو التي يصح ملاحظتها في التربية ، ولكن لما كانت عزائمنا ليس لها على مثل هذه الاسباب أدنى سلطان لعمومها وخروجها عن حد الضبط كان من العبث البحث فيها .

لكن هنالك أحوالا طبيعية يتأتى للعلم -فيما أعتقد- ان يتناولها ويغيرها خلافاً للاسباب المذكورة ، فلا شيء يمنع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء - مثلا - ان يصلوا يوماً ما الى تحديد مالسن الرجل والمرأة وحالتهما الصحية وطريقتهما الغذائية من التأثير في التناسل . وقد وجه فريق من نابغي هذا العلم الذائع الصيت أنظارهم الى هذه الغاية وأعملوا أفكارهم في سبيل الوصول إليها، فاذا أدركوها وتقرر أنها أصبحت من ثمراته صار علم منافع الاعضاء فرعاً من فروع علم التربية النفسية .

اذا علمت مما تقدم أنه من الصعب جداً تحديد الزمن الذي تبتدئ فيه التربية اتضح لك ان تعيين الوقت الذي تنتهي فيه أصعب وأكثر مجازفة لانها تستغرق العمر كله .

وأما حقيقة التربية -وهي أول شيء تسألين عنه- فمن الميسور لي أن أجيبك عنها جواباً سديدا وهو : انها على ما يؤخذ من معنى لفظ التربية

اللغوي- عبارة عن تكميل عقل الناشئ وتهذيب نفسه باظهار جميع ما استكن فيه من ضروب الاستعداد وأنواع القوى وانمائها ، لان ذلك اللفظ مأخوذ من ربا أي زاد ونما ، لكني خشية أن تخالي في هذا التعريف ابهاما اعجل بكشف معناه وتقريبه الى ذهنك فأقول :

أراد جمهور علماء الاخلاق بالتربية الوصول الى ما تصوروه في الانسان من معنى الكمال، فغرضهم منها ايجاد الانسان الكامل وهو غرض يظهر لأول نظرة انه موافق للعقل تمام الموافقة لكنه مثار لاعتراضات كثيرة . فلقائل أن يقول : ان الانسان الكامل ليس له الا صورة خيالية لا تحقق لها في الوجود الخارجي قطعاً، فنحن اذن نحلم به كل على حسب تصوره، فايانا والتشبث بهذه الصورة الوهمية التي يريد بها الخيال أن يتغلب على الواقع المحقق، فانه لا شيء أيسر علينا من تخيل ذات عاقلة ونعتها بالآلاف من نعوت الكمال الخيالية حتى تكون نموذجاً لجميع الفضائل، ولكن من لنا بانزال هذه الذات من السماء وابرازها لنا الى عالم الظهور ؟ .

مثل هذا الاعتراض على مسألة التربية يكون وجيهاً لو أن الانسان كان ذاتاً واجبة الوجود، لكنا في الحقيقة نراه على خلاف ذلك متغيرا لا يستقر على حالة واحدة ، فانه وهو في الرحم تتناوبه أطوار جنينية مختلفة ولا أريد أن أبين لك ما يتقدم ولادته من الحوادث، وإنما أقول : ان حياته من أولها الى آخرها ليست الا سلسلة استحالات متفاوتة في الحصول سرعة وبطأ . أنظري الى شعره (الذي لا يوجد عادة حين الولادة) كيف يتغير لونه عدة مرات، والى لون جسمه وسمات وجهه وبنيته كيف انها تتجدد كلما كبر . تأملي في الغلام الصغير عند ما تبتدئ ثناياه اللبنية بالزوال تجديه قد صار شيخاً بالنسبة الى ابن الرابعة

والخامسة الذي لا تزال لثته محلاة بجميع لآلئها ، فقد خلق الله (سبحانه) لجميع الكائنات الحية في دور نموها أعضاء وقتية تتلاشى بعد انقضاء مدتها، وأعد لها أعضاء أخرى تنمو في هذه المدة لتخلف الاولى . كذلك القوى الجسدية والملكات النفسية تتعاقب ويخلف بعضها بعضاً على نظام محدود ، فان المولود يذوق قبل أن يبصر ويبصر قبل ان يسمع ، والذاكرة فيه تسبق القوة الحاكمة ، ووجدانه يكون قبل فكره بزمن طويل . فالحياة من الولادة الى الشبيبة ومن الشبيبة الى الشيخوخة مظهر قوى تتعاقب ويغذي بعضها بعضاً ، والانسان من مهده الى لحده يسلك طريقاً تفرقت فيه رفاته وبددت في جوانبه بقاياه .

أنى يكون لنا بعد ذلك موقف في هذه الحركة الدائمة ، وكيف السبيل الى غاية ننتهي اليها ؟ فالذي أراه هو أن لكل يوم ما فيه ، وان أهم ما تجب به العناية في علم التربية هو اختيار ما يناسب كل سن من أنفع طارق النمو وأمثلها فأنا الآن أقتصر على الكلام عن التربية في زمن الطفولية . اه

الرسالة الثانية

(من إراسم الى هيلانة في ١١ أغسطس سنة ١٨٥ —)

عمل الام في الشهور الاولى من حياة الطفل وانتقاد ما يفعله الامهات بأطفالهن في هذه السن

اعلمي ان تربية الطفل في الاسبوعين الاولين من حياته بل يصح أن أقول في الشهرين الاولين منها تكاد تنحصر في مجرد وقايته مما عسى أن

يؤذيه من المؤثرات الخارجية فهي ترجع الى نوع من انتظار الفطرة ومراقبتها في عملها واعانتها عليه عند الحاجة .

المولود يدخل عند ولادته فيما اصطلح علماء منافع الاعضاء على تسميته بالحياة المستقلة، ولكن ما أضعف استقلاله وأقل حريته! فانه بما أُودع فيه من غريزة التغذي لا يكاد يرى الا ملتقما ثدي أمه، فتكون معه كالغصن المطعم بآخر، فهو اذن تابع لغيره فقير اليه في غذائه وسد حاجات معيشته المادية، وما أخفى معنى الاستقلال وأشد إبهامه فيه وهو في هذا الطور من الحياة! فانه لما كان مغمورا في شبه سحابة من الجهالة لم يكن فيه أول أمره على ما يرى من حاله أدنى إدراك ظاهر لما يضطرب حوله من الاشياء . مسكين ذلك المولود الاعمى! فانه لا يجد ثدي امه الا بتلمسه، نعم ان له عينين لكن لا يبصر بهما واذنين لكن لا يسمع بهما ويدين لكن لا يعرف ان يبطش بهما. هذا المولود الذي هو وثن لامه تعبده وتخصه بفرط محبتها قريب الشبه بالآلهة[1] الزمنى الذين سخرت منهم التوراة، لكنه على ما فيه من الضعف والعجز قد عهد اليه عمل ذو شأن يؤديه في العالم، الا وهو النمو.

يكاد عمل الأُم ينتهي الى عدم اعاقة هذا العمل الفطري الخفي والتحرز من تشويشه، واني طالما أعجبت بما تهديه اليها في ذلك أنثى الطير من الاسوة

(١) لعل هؤلاء الآلهة هم الذين سخر منهم سيدنا الياس عليه السلام لما أراد أن يتحدى أُمته بقبول الله قربانه اذ طلب اليهم أن يقربوا ثوراً لآلهتهم ويقرب هو آخر لالهه ليظهر أي الآلهة يقبل قربان عباده فقربوا ثورهم ودعوا بعلا إلههم من الصباح إلى الظهر لينزل ناراً تأكله فلم يجبهم فسخر منهم نبي الله وقال : ثابروا على الدعاء فلعله نائم .

الحسنة، فانها لشد ماتعتني بحجب ذخرها الحي عن دنس الانظار ، وتبالغ في اخفائه بعشها المستتر تحت أغصان الاشجار ،والمرأة أقل منهادراية بما يجب للاولاد لاننا كثيرا ماناراها تتخذ مولودها ألعوبة لشفقتها وحنانها .

وماذا نقول في امهات ماينفككن يرين الاجانب أولادهن فيدرنهم من يد الى يد ، ويهجن انفعالاتهم بما يتصنعنه لهم من الحركات والاشارات، ويعذبنهم بالملاطفات المنبعثة عن جنون الشغف بهم . أقول قولا لاأود منك اذاعتـه وهو : أني أخشى أنهن في ذلك ينظرن الى تسليهن أو الى زهوهن أكثر من نظرهن الى مصلحة الطفل .

والحذر الحذر أيضاً من بعض الاوهام الشعرية فان شعراء هـذا العصر وكتابه قد بالغوا في اطراء الطفل ، فانهم قد حبب اليهم الخيال أن يروا فيه ملكاً نزل من الجنة تاركا فيها جناحيه ، نعم اني في الحقيقـة لا أعرف من أين أتي، ولكن رأيي فيه هو انه اذا كان قد رأى عجائب في عالم آخر فقلما يذكر منها شيئا ، وانه انمـا يحصل علومه جميعها بيننا وسأبين لك في الرسالة التالية كيف يحصل هذه العلوم . اه

الرسالة الثالثة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ١٢ اغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

أول علوم الطفل تأتيه من طريق الحواس – تربية الحواس — تأثير الحضارة في قواها تفضيله تربية « اميل » في الريف وسببه ـ عمل الام في تمرين حواس الطفل

ان اول زمن في حياتنا نكون فيه اكثر تعلما واشـد تحصيلا هو ذلك الزمن الذي لا يعلمنا القائمون علينا فيه شيئاً تعليما نظامياً ، فجميع

الامهات يعرفن ان الطفل يترقى في تحصيل العلوم من الشهرين الاولين من حياته الى أن يبلغ ستة أشهر ترقياً غير معهود في هذه السن ، وقد حسب له بعض علماء منافع الاعضاء ما يكتسبه من العلوم وهو في سن شهرين الى أن يبلغ سنتين أو ثلاثاً من عمره ، فوجد انه يكتسب منها ثلث مايكتفي بتحصيله أوساط الناس . هذه التربية الأولى لاينكر ان لأمه دخلاً فيها ، ولكن أخص مؤثر في تحصيله تلك العلوم هو ملامسته لما يحيط به من الاشياء وتناول مشاعره اياها، فهذا الينبوع الاصلي من ينابيع العلم الانساني ـ وأعني به الاحتكاك بالاشياء وتناولها بالحواس ـ هو الذي أريد توجيه فكرك اليه .

ولننظر ابتداء الى مايجري في الواقع ، فالمولود في مدة الأسابيع الاولى من ولادته يكون مخه لا يزال في غاية الرخاوة وأعضاؤه المعدّة لمعيشة الاختلاط بما حوله في نهاية العجز عن اجابة داعي مايحتف به من الاشياء اجابة يكون من ورائها عمل، فانه يرى جميع هذه الاشياء كأنها شفق فلا يميز منها شيئاً ،ويسهل لك الاقتناع بذلك ماترينه فيه من الغفلة عن وجودها وعدم المبالاة بها، ثم تتدرج انفعالاته بعد ذلك في التيقظ لها، فيكون مثله في هذا التيقظ بعد خموده كمثل صنم ممنون [1] يكون ساكتاً فاذا انصبت عليه أشعة الشمس جعل يصوّت كما تعلمينه . هذاهو

(١) ممنون في أساطير اليونان هو ابن الفجر وابن تيتون ملك الحبشة وهو أيضاً اسم لتمثال (معبود مصري) كانوا يعبدونه في طيبة وكان صنعه على طريقة علمية بحيث ان الشمس لما كانت تطلع عليه كان يسمع له صوت ناشئ من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس

شأن الطفل فانه ينتعش بما حوله انتعاش ذلك الصنم بالشمس ان صح ان يسمى هذا انتعاشاً .

هل يتعلم المولود الابصار والسماع أم يأتيانه عفوا؟ تلك مسئلة يصعب كثيرا على المشتغلين بعلم منافع الاعضاء الاتفاق على الاجابة عنها فلهم فيها أقوال مختلفة ، ولكن الذي أجمعوا عليه أن المولود يتعلم بالتمرين إجادة هذين الفعلين فليكفنا ذلك من جواب هذه المسألة . والحكمة في هذا ان من السنن الإلهية ان كل عضو يحسن عمل ما واظب عليه، وفوق ذلك ان قوة الانفعالات عند الطفل تزداد يوماً فيوماً بنفس ما يجده من اللذة في استخدام ما أوتيه من وسائل العلم الصغرى ، فقد قال بسويه[1] : ان لذة الاحساس قوية جدا .

الإحساس في الغالب يحصل في المولودين عفوا من غير معاناة تعليم، فلا يحتاج معظمهم الى تعلم اللمس والذوق والابصار والسماع ، بل هم يجدون فيما وهبهم الله من الغرائز ما يلزم من القوة لاجراء هذه الافعال التي هي من مقتضيات الحياة ، ولكن من الميسور ان تعاون الفطرة على أدائها ، بل اقول : ان في قوة اقتداء الطفل بغيره ومباراته إياه وفي تحلية الاشياء المحيطة به تحلية تزداد بها رونقاً يجذب نظره اليها ـ ما يساعد على تنبيه مشاعره ودفعها الى القيام بما خلقت لاجله . نحن نرى في البهائم ان

(١) بوسويه هو يعقوب بنيني بسويه المولود في ديجون ١٦٢٧ والمتوفى في سنة ١٧٠٤ ميلادية كان أسقفاً لكندوم ثم « لمو » ثم صار مربياً لولي عهد لويز الرابع عشر وهو من اكبر كتاب فرنسة وأعظم واعظ نبغ فيها .

أُنثاها لا تكف عن ارشاد صغارها الى استخدام حاستي السمع والبصر وحملها على الانتفاع بهما، وهذا الارشاد هو السبب - على ما أُرى - فيما يوجد من القوى المدهشة لبعض الفصائل الحيوانية .

كذلك المتوحش - كما تعلمين - يكاد يكون نصيبه من التربية قاصرا على المشاعر ، ولشد ما برّز علينا بهذا السبب في بعض القوى . فالعادة والرياضة البدنية وطريقة المعيشة تنمي في الاجيال البدوية عدة أنواع من الادراك خارقة للعادة في دقتها وسعتها ، واذا سأل سائل عن سبب فقد الانسان بعض هذه المواهب الاصلية بتمدنه ، اكتفينا في الجواب عن ذلك بتوجيه نظره الى ما حصل في بعض أنواع الحيوان من ضروب التغير عند انتقالها من حالة التوحش الى حالة الاستئناس ، فمن ذا الذي كان يظن ان الارانب اذا تربت في خابية نسيت بعد ثلاثة بطون طريقة احتفار الاجحار للسكنى فيها ؟ وهذا الخروف الذي نعتبره مثالاً للذل وسلاسة الانقياد والغباوة لم يكن كما نراه اليوم في جميع الازمان ، فان أصله الذي تولد منه وهو الكبش الوحشي على عكسه في الطباع لانه حيوان جريء يزهى بالمخاطرة بنفسه في جبال قورصة[1] ويقاوم من يبتغي صيده من الصيادين ، فجعله الانسان خروفاً أهلياً بزربه (أي ببناء زريبة له) وتكليف راع القيامَ عليه وكلاب حراسته .

كذلك الانسان كلما تهذبت أخلاقه بالمدنية وتحضر تدرج في التخلي عن بعض خواص معيشته الوحشة ، فلا تبقى له حاجة في أن يكون دائم التيقظ للمحافظة على نفسه اذا كان غيره يسهر لحفظه وكلاءته ، فمراقبة

(١) قورصة جزيرة بالبحر الابيض المتوسط وهي احدى مقاطعات فرنسة على بعد ١٧٠ كيلو مترا من شواطئها .

الحيوان المؤذي من بعيد وإلصاق الاذن بالارض تعرفاً لخطا العدو من بعد ألفي أو ثلاثة آلاف ميل لاضرورة لهما الا في حق سكان أمريكة واسترالية الاصليين، وأما نحن ففي حالتنا العمرانية مايغنينا عن ذلك ، فان لنا الشرطي والجندي اللذين نستأجرهما ليدفعا عنا مانخشاه من أذى المعتدين وكيد الخائنين . فاذا زال الخطر الملازم للمعيشة البدوية بالتحضر وجب حتماً أن يزول معه ما كان لحاستي السمع والبصر من الدقة العجيبة التي هي عون وجدان المحافظة على النفس .

كأني بك تقولين: ان هذه المزايا الجسدية لم تكن شيئاً مذكوراً في جانب القوى التي خلقها الانسان في نفسه بارتقاء الحضارة ـ ان صح أن ينسب له الخلق ـ وأنا بلا شك موافق لك في هذا ، فاننا والحق يقال قد ربحنا من الحضارة أكثر مما خسرنا، ولكن هيهات أن يقنعني هذا الفكر لاني أرى أنه كان يجب على الانسان في العصر الحاضر أن يستجمع في شخصه جميع المواهب التي كانت لمن عمروا الارض من قبله، وكوني على يقين من أنا لو بلغنا هذه الغاية ماعد ذلك منا إفراطاً في الغنى ولا وصلنا في الحياة مطلقاً الى درجة تكفي لان نمثل فيها كل ما من شأنه أن يحيا، وان قوى الادراك الحسية تكاد تكون في لزومها لفهم معنى وجودنا مساوية للقوى الفكرية.

أما كون الحضارة مما يزيد الثقة في المعاملات بين الناس ويقوي روابطهم الاجتماعية ويغالب الفطرة دائماً مغالبة يقلل بها جداً عدد البلايا التي تجعل البدوي على خطر من حياته ـ فهذا كله في غاية الحسن ، وأما كون الشرطة تحفظ الارواح والاموال فهو أمر لا أجد مساغاً للطعن فيه وانما كل ما أستنكره من ذلك هو أن طريقة الحفظ هذه تصير مدعاة

كسل وخمود لمشاعرنا ، وقد أدركت ذلك الامم المتمدنة أنفسها تمام الإدراك ،فانها قد أبقت من عاداتها القديمة بعض الرياضات البدنية التي لم يبق لوجودها أدنى موجب ـ ان لم تكن قد اعتبرتها من وسائل احياء قوى الفطرة الاصلية، ـ وذلك كالصيد وألعاب المبارزة والمصارعة مثلا. ولو ان رجالا تلاكموا في الطريق لقبض عليهم الشرطيون وساقوهم الى المحاكمة ، مع انهم لم يفعلوا الا مايفعله الملاكمون من شبابنا في ملاعبهم الرياضية (محال الجنباز) واني أرى ـ مالم اكن واهما ـ انه كلما ترقى مجموع الآلات التي نستخدمها لسد حاجاتنا، صار من الضروري تكلف استعمال القوى العضلية بمجتمعاتنا ، والا أصبح الانسان عما قليل بسبب احلاله الآلات محله في مشيه وعمله وكفاحه شبيها (بباشا) غشيه خدر الترفه وغرق في فتور البطالة [1] فلا بد لمنع تطرق الفساد الى النسل من انهماك الناشئين في كل أنواع اللعب التي هي في الظاهر غير مفيدة لكنها في الحقيقة معدة لحفظ قوة الجسم، ولولا هذه الألعاب المقاومة للضعف والانحلال لكانت اختراعاتنا نفسها سببا في انحطاط الدولاب [2] الانساني من عرش سيادته .

العلم أيضا يفرغ جهده وينفد مهارته وحذقه في تكميل نقص أعضائنا بما يوجده لها من طرق المساعدة في أداء أعمالها واني لكثير الاعجاب لجميع الناس باكتشاف المرقب (التلسكوب) لانه جم الفوائد ،ولكن

---

(١) ليتأمل القارئ اعتقاد علماء الافرنج في أعاظم رجال الشرق (الباشاوات) وليحكم فيه بانصاف {٢} المراد بالدولاب الانساني جسم الانسان بما فيه من الاعضاء والقوى فانه شبيه بالدولاب

المتوحش الامريكي ذا الجلد الاحمر لا يحتاج في اكتشاف نقطة فوق الأفق الى شيء يطيل به بصره سوى ما استقر فيه من اعتياده ارسال أشعة بصره المجرد لتنفذ في المسافات السحيقة وتأتي اليه بصور ما فيها من الاشياء . ان في اعانة المشاعر بالآلات على القيام بأعمالها رفع جزء من ثقة الانسان بفطرته التي قضت بأن يفوق الوحشيُّ المدني ولو من بعض الوجوه ، ولست اريد بهذا ـ كما لا يخفى عليك ـ وجوب الاستغناء مطلقاً عن مكتشفات العلم والصناعة ، وانما أريد به أن لا تتخذ مزايا المدنية ذريعة إلى انشاء الطفل المدني مترفاً جباناً قصير النظر ، فانه لو اعتاد الاعتماد في كل شؤونه على ترقي وسائلنا الصناعية ولم يجعل لنفسه وقوة أعضائه نصيباً من الاعتماد عليهما لصار الى ذلك .

قد يسأل سائل : هل من وسيلة لاسترجاع بعض الخواص الاصلية التي أضاعها منا الانغماس في ترف المدنية ؟ فأجيبه : ربما وجد لذلك سبيل فاني كثيرا ما فكرت فيما للاصناف الانسانية ـ التي نعتبرها أحط من صنفنا لوقوفها عند أخلاق الطفولية ـ من الشأن الاجتماعي ، وسألت نفسي غير مرة عما اذا لم تكن هذه الاصناف معدة لسد خلل فينا وهو الفضاء الذي يحول بيننا وبين حالتنا الفطرية .

الصنف الاسود في كثير من ولايات أمريكة الجنوبية هو الذي يعهد اليه خاصة بتربية مولودي الصنف الابيض ، فنساؤه مراضع بارعات لهؤلاء المولودين ، والرجال يمرنونهم على اجادة النظر والسمع ، ولذلك كانت تربية الاحداث الامريكيين أوفق لمقتضى العقل بكثير من التربية عندنا

فان المربين هناك يجتهدون في أن يعطوا الاطفال مشاعر قبل أن يعطوهم عقولا ، على ان التعبير بالاعطاء هنا خطأ لان التربية لا تعطي شيئاً للطفل ، وانما تنمي ماهو موجود فيه ، فكم من قوة جسدية لا يشك في وجودها فيه تبقى كامنة لمجرد اغفال استعمالها ؟ .

نعم ان مجتمعاتنا المؤلفة من أشخاص كبار في السن متأنقين لا تخلو من منبهات للمشاعر ، ولكن أنديتنا وزخرفنا لا تلائم حالة الطفل الملاءمة المطلوبة ، فانه يولد محباً للاستطلاع مقلدا لما يراه ، ففي ايجاده في مثل هذه الأندية جذب له الى أذواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه ، وقلما يكتسب من يتربى من الاطفال في هذه البيئة الصناعية الذوق الفطري فيما بعد ، فانا أفضل كثيراً أن يتربى «اميل» في الريف حيث يوجد كل شيء على حقيقته ويصل الى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعاتنا شيئاً من صورته .

جميع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء معترفون بما لتربية المشاعر من الاهمية ، بل قد أوصى بعضهم باتخاذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها في الصغر ، ولكني لا أخفي عليك أن مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تثق بها كثيرا فان كل ما يذكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه ، فالواجب — على ما أرى — أن يعتمد في تنبيه مشاعر هذا المخلوق الصغير على ما يروق نفسه ويجذبها من غير أن يظهر فيه قصد التعليم والتربية ، والأم هي التي من أعمالها اختيار الانفعالات التي تنشأ من الأصوات والأشكال والألوان والروائح والطعوم ، وتنويع هذه الانفعالات وتدريجها ، فعليها ان تجري في ذلك حسب مقتضيات الاحوال ، والعالم الخارجي

لا يقتضي سوى الولوج الى نفس الطفل من طريق مشاعره فيكفي في ذلك أن يبقى هذا الطريق مفتوحاً مع تنبيه الطفل عند مسيس الحاجة الى مايستحق التنبيه .

ان بين القوى الجسدية والقوى النفسية ـ وان كانت متمايزة منفصلا بعضها عن بعض ـ رابطة تربطها ، فان صحة أنواع التصورات ليست بمعزل عن صحة التصديقات ، وان الذهن بما يتمثل فيه على التعاقب من صور المدركات يهيئ مواد الفكر ، فيجب أن تكون تربية المشاعر ابتداء مقصوداً بها تربية العقل . » اه

الرسالة الرابعة

(من إراسم الى هيلانة في ١٣ اغسطس سنة ١٧٥ــ)

شعور الطفل من أول نشأته بأنه أرقى من الحيوان الاعجم واستخفافه بالعالم لانتسابه الى الانسان ـ بيان أن له نفساً ـ توصية زوجته بمراقبة « اميل » لتعرّف طباعه وذكر اهمال المربين فى ذلك

الطفل يتلقى علومه الأولى من العالم الخارجي ، ولكنه هيهات أن يرضى بمجرد الانفعال بالمؤثرات الاجنبية كغيره من الحيوانات التي تخضع لما يقرر لها من أحوال المعيشة ساكتة عليه ، غير مفرقة بين ضاره ونافعه ، فانه لا يكاد يخرج من ظلمة الرحم الا ويكون قد أثبت حريته بصراخه الذي يعارض به ملمات الالم وفواعل الطبيعة ، فتراه يبكي ويتبرم ممن حوله من الناس والاشياء ويوجد عليهم ان لم يجروا على مقتضى

رغائبه وهو على عزله وعجزه يلج في الشكوى من سلطان القدر ويتذمر عليه بحسب حاله .

وبعد بضعة أسابيع أو أشهر من ولادته تنفتح عيناه وأذناه تدريجاً في مشهد الكون ، ولم يكن في حسبان أحد أن هذا الجسم الضئيل الصغير لا يرتعد لما يراه يثور حوله من قوة الفواعل الكونية . بلى ! هو لا يحسب لها حسابا فلا يلبث أن يتأمل في هذا الدولاب الارضي العظيم ويرجع فيه بصره الرائق وهو هادئ البال آمن ، مع أن أقل اداة فيه ربما كانت كافية لسحقه ومحقه . وهو وان ولد أسير الفطرة لا يلبث ان يكون حاكمها المستبد . فيطلب الى أمه بلغته المبهمة الخفية الدلالة أن تجمع له بين الحر والقر والمطر والصحو ، بل ربما استسهل ان يسألها انزال القمر والكواكب من السماء تحصيلا للذته . ولما لم تكن الأم في نظره على كل حال الا مثالا حياً للنوع الانساني كان شعوره بالقوة انما يستمد من انتسابه لهذا النوع فتسبق الى ذهنه العاجز عن الفكر غريزة السلطان الذي لتلك الذات المختارة على العالم ، فلا يبقى تلقاء هذه القوة المعنوية — التي لا يدركها الا حدساً غير بين — أدنى تأثير في نفسه لعظم تسلط المادة.

ليس الطفل كما يقال لوحاً مصقولا مجردا من الادراك ، بل له نفس تشعر بالوجود ولا تلبث ان تثبت وجودها بما لها من الطريقة المخصوصة في المعيشة والاحساس وبما يصدر عنها من الانفعالات اختيارا وبما لها من الغرائز خالقة . وكما ان مشاعره قد جعلت بينه وبين ما حوله من الاشياء اتصالا ، كذلك أمياله ورغائبه تتدرج في تعريفه من يعيش بينهم من الناس وتقريبه منهم . ثم ان معظم انفعالاته النفسية تأتيه في أول الامر من

الخارج فيكون حبه لغيره وضحكه وكلامه ناشئة من حب ذلك الغير اياه ورؤيته يضحك وسماعه يتكلم ، لكنه عما قليل يبدي ما يستقر في نفسه من ضروب النفور والميل والترجيح . وجملة القول ان طبعه يستبين وسأتكلم عن هذا الموضوع في بحث آخر .

أنا لا أعتقد مطلقاً اني قد أجبت في رسالتي هذه عن أسئلتك التي سألتنيها في التربية ، فان توفية الاجابة حقها تستلزم زمناً، وانا قد عدوت فيها عدواً أسرع ما يكون ، فوصيتي اليك ان تفرضي على نفسك أنت أيضاً مراقبة « إميل » فان أبعد الاشياء عن نظر القائمين بأمر التربية الى الآن وأكثرها اغفالا هو اختبار الطفل ومعرفته .

كلما فكرت فيك وفي « اميل » كان مثلي كمثل الخنفساء الطيارة يمسكها التلميذ ويربط أحد أطرافها بخيط ويرسلها فتطير في الشمس ناسية رباطها وتسبح في الهواء وتطن فلم يكن الا ان يجذب التلميذ الخيط حتى تسقط على الارض ، فهاهوذا السجان يدعوني لان هذا الوقت هو وقت التنزه على أسوار السجن، فأودعك وأرجو ان يبقى الحب بيننا وثيق العرى . اه

الرسالة الخامسة

(من هيلانة الى إراسم في ٢ اكتوبر سنة — ١٨٥)

حسن رأيها في ولدها . قول الدكتور وارنجتون في سياسة الاطفال .
وصف الاقليم والاشجار

« اميل » أجمل غلام في الدنيا . أقول هذا القول وأنا عالمة حق العلم

ان جميع الأمهات يدعين ذلك مثلي لاول مولود يرزقنه، وهذا يدلك على اننا نرى أيضاً بقلوبنا اكثر مما نرى بأبصارنا.

المرأة تتعلم الحب وتتعلم كيف تكون أما. ففي كل يوم تبدو لي شواهد على ذلك بما يبعثه في نفسي هذا الغلام المحبوب من الرحمة والحنو المتزايدين، لكن لا يدعونَّك هذا الامر الى أن تخاف عليّ الاستعباد لوجداني والعجز عن القيام بما فرضته على نفسي من تربيته فاني اتباعاً لنصائحك ونصائح صديقك أقدم مصالحه الحقيقية على ما يقتضيه ميلي وذوقي ، وقد أقام لي الدكتور على وجوب ذلك دليلا مستوفي الشرائط، فقال بما تعهده فيه من أدب المنطق وحسن اللهجة :

« خلق الله لسائر الحيوانات أعضاء تقوم لها مقام الاسلحة في الذود عن أنفسها ، وأما الطفل فلاسلاح له الا ضعفه وصراخه ، ولكن ماأشد مقاومته لنا بهما وما أكثر ما يستفيد منهما ! فهو وان كانت أنواع الاحساس فيه لا تزال مبهمة قد طبعت فيه غريزة حب العدل من نشأته فلا يلبث أن يميز بها مايصدرعنا من الافعال في حقه صوابه من خطائه. فاعلمي وثقي بما أقوله لك .ان الواجب في سياسة الاطفال خاصة هوأن نكون نحن المحقين لا هم لانه لو انعكس الامر فجعل الحق والسلطة لهواهم واستبدادهم لخسرنا كل شيء . ذلك ان الطفل يبكي أحياناً للحصول على ماعوده أهله اشتهاءه ابتداء موافقة لهواهم . فاذا هم لم يبادروا الى ارضاء شهوته إما إغفالا منهم لها أو غضباً عليه ، فانه يستمر في بكائه ساعات كاملة بل قد يبكي حتى يشارف الموت، فاذا انتهى الامر بالإذعان الى رغبته كان ذلك أيضاً شرا من مخالفته لانه يتبين منه ان والديه خلوٌ مما يدّرعانه

لمقاومة شديد اهوائه . فلا ينبغي أن يعارض الطفل في شيء مما يشتهيه الا اذا كان في المعارضة خير له واذ ذاك يجب أن تكون عزيمتنا كالقانون ثباتاً وصرامة . »

هذا ماقاله لي وإني لأخاله عقودا من الذهب يلفظها من فيه، فقد اتفق لي ـ ولا أخفي عنك ـ اني كنت أنسى أحياناً الأخذ بنصائحه في سياستي «لإميل» وفي هذه الحالة كنت أنا وهو نتألم من عاقبة هذا النسيان.

قرأت الفصل الأول من كتابك وهو على ما أرى كتاب تؤلفه في التربية وأنا في انتظار قراءة باقيه لأكاشفك برأيي فيه ، فاعتقد تمام الاعتقاد ان تربية « اميل » ستكون على وفق آرائك ورغائبك، ولكن لا يعزب عن فكرك ان خط المعاني على الورق أسهل من نقشها في صحف الحياة ومجاري الواقع .

أنشأ ورق الشجر هنا يحت ويسقط لكن فصل الخريف في هذا البلد جميل وان كان غزير الامطار ، فهو كوداع العزيز ابتسام في بكاء ، وتأتي فيه أيام قد يتوهم الانسان فيها انه لا يزال في فصل الصيف، ومما يزيد هذا الوهم قوة إن زنجينا البارّ قد غرس في حديقتنا المربعة المقابلة لشباك حجرة نومي أشجار العود والصبار والمانوليا (١) وأراد بهذه العناية اللطيفة أن يهديني شيئاً من جنى أرض بلاده التي يحفظ لها في فؤاده أشد ذكر .ويؤكد الناس ان بعض نباتات المنطقة الحارة يمكن اذا حيطت ببعض ضروب من العناية أن تغرس هنا وتنمو ولا ينالها من فصل الشتاء أدنى أذى ، فقد قال لي بستانيّ السيدة وارنجتون ما نصه : « ليس

(١) الصبار هو التين الشوكي وليس بعربي والمانوليانبات أمريكي بهي الازهار

السبب في هلاك هذه النباتات في غير اقليمها هو فقدانها ما كانت فيه من الحرارة ، بل هو ماتلاقيه من الجليد في الأقاليم الأخرى ، فهي حينئذ تنجح في كورنواي لأن اقليمها معتدل اذ ليس فيه أفراط في الحرارة ولا في البرودة . »

كم من امرأة تعيش معيشة هذه النباتات مطوحاً بها عن مطلع شمس محبتها فلا تموت لتستريح من عناء هذه المعيشة ! . اه

الرسالة السادسة

﴿ من هيلانة الى اراسم في أول يناير سنة — ١٨٥ ﴾

تلقيح « اميل » بمادة الجدري وبيان وهم الطبقة السفلى من أهل كورنواي في التلقيح بهذه المادة — ذكر ما بلغته من تعرف أحوال « اميل »

قد حيرني سكوتك وانقطاع رسائلك عني ، فقد مضى زمن طويل جدا لم أحظ فيه بشيء من أخبارك فلعل السر في ذلك ان دخول المكاتيب في السجن أيسر من خروجها منه واني على يقين بأنك لا ذنب لك في هذا ، ولكني لبعدي عنك تراني أوجس خيفة من كل شيء .

فشا في كورنواي منذ بضعة أسابيع مرض معد أودى بكثير من الأنفس ، ويقال انه وفد علينا من جنوب انكلترة . ترى هل أكان يدور في خلدك أن مسقط رأس الطيب جنار [1] يصح ان يكون أحد بلاد أوربة التي فيها طبقتا العمال والمزارعين هما أشد الناس مقاومة لنشر الفوائد التي

---

(١) جنار طبيب انكليزي هو المخترع للتلقيح بالمادة الجدرية في أوربة حوالي سنة ١٧٧٦ م

نجمت من اكتشاف ذلك الطبيب؟ فكثير من البيوت (العائلات) يرفضون تقديم أولادهم للتلقيح اما بلادة فهم أو حذرا أو وسوسة ، بل منهم من يعتقدون ان في ابعاد المرض باتخاذ الوسائل الواقية منه معارضة لمشيئة الله (تعالى) . ثم ان مصلحة الطبيبات في هذا البلد وهن طائفة من القوابل يطببن في القرى على شاكلتهن (طريقتهن) تنحصر في ترويج مثل هذه الاوهام. فان هؤلاء النساء لما كان معظمهن يجهل طريقة التلقيح وكان شأنهن القيام على من يصابون بالمرض فلا يستغرب بعد هذا ازدياد عدد وفياته . لم يكتف الدكتور بتلقيح «اميل» بل أراد ان يجدد تلقيحي للتوقي من الخطر المحدق بنا .

اني ولا أخفي عنك عند ما أفكر في الجدريّ آنس من نفسي رعباً واشمئزازاً لا يحيط بهما الوصف وخصوصاً اذا تمثل في خاطري انه لم يسلم من آثار هذا المرض الشنيع الا القليل من رجال القرن الماضي ونسائه. وإن الانسان ليقضي يومه تألما وكدراً اذا خطر في ذهنه ان كثيرا من اخدان الملوك كالآنسة لافاليير [1] والسيدة دوباري [2] وغيرهما من ربات الحسن

---

(١) الآنسة لافاليير واسمها فرنسيسة دوقة دولا يوم لوبلان هي ابنة حاكم قلعة اميواز ولدت على مقربة من تور بفرنسة سنة ١٦٤٤ وماتت سنة ١٧١٠ ميلادية وأدخلت بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسة لتكون من قرينات العروس ليلة الدخول بها فعشقها الملك وعشقته ثم رزقت منه بولدين ثم انتهى أمرها بترك بلاط الملك والاقامة في دير تسمت فيه لويز الرحمة وكتبت هناك كتابها المسمى اعترافات مدام لافاليير

(٢) مدام دوباري اسمها مريم حنا كونتيسة جوماردوفوبرنيه ولدت في فوكولور سنة ١٧٢٦ وماتت سنة ١٧٩٣ كان أبوها كاتباً في مصلحة العوائد وكانت هي من العملة في باريس ثم أدخلت حاشية غليوم دوباري بواسطة أخيه حنا دوباري وخادم فراشه ثم تزوجها غليوم ثم صارت حظية للويس الخامس عشر ثم نفاها لويس السادس عشر ثم حكم باعدامها لاتهامها بتأليب الناس على الجمهورية ونفذ عليها الحكم في ديسمبر سنة ١٧٩٣

اللاتي طارصيتهن بالجمال لتعاسة حظهن كن جميعاً مجدورات بدرجات متفاوتة في القلة والكثرة ، وأما أنا فاني أشكر لعلم الطب نعمته على الانسان وهي تحرير وجهه واعفاؤه مما كان يؤديه من الجزية لذلك الداء المريع في أغلب إغاراته، فلقد كانت الفتاة منا معشر النساء ترى أملها في أن تحب قد انقطع بما كان ينمحي بسببه من محاسنها ، واني ولست الآن فتاة أقول : لو جعلت لي الدنيا بما فيها على أن أخسر مالي من بقية الجمال القليلة مارضيتها منها بدلا ، فإني إخال انني لو فقدت تلك البقية لانكرتني وانقطعت عنك معرفتي .

انك بما كلفتني من مراقبة أحوال الطفولية واستعراف شؤونها في شخص « اميل » كأنك قد بعثتني لاكتشاف بلد مجهول ، فانه من المحقق الذي لا ريب فيه وجود عالم للاطفال على حدته ، لان جميع من رأيتهم منهم لا يكادون يختلفون في شيء من طرق احساسهم وابداء انفعالاتهم ، ولكن من الصعب جدا الرجوع الى دخول هذا العالم بعد الخروج منه . فاذا رجعنا الى ماذ كره من ماضينا ابتغاء معرفة شيء من أموره تبينا انه الجنة الارضية التي لم يخرجنا منها الا مجرد نمونا وكبرنا . وانه يكون من العبث البحث عن موقعها في خارطة ذاكرتنا ، وربما ملت الى الاعتقاد بان الطفل ساكن تلك الجنة التي هي مطلع فجر حياته ودار هدوه وسكونه يعرف من أمرها أكثر مما نعرف ، ولكن اذا كان الله (سبحانه) قد استودعه سرها فهذا السر هو في غاية الحفظ لا يطلع عليه أحد ، اذ كيف يصح تخمين مايقع في نفس ذات صغيرة عاجزة عن بيان لذاتها وآلامها؟ـ اللهم الا بلهجة مبهمة وأصوات غير معروفة المخارج . وقد تبينت

بما ألاحظه في الاطفال كل يوم ان لهم لغة تكون قبل الكلام بكثير ، ولكن ماأبهمها وأعسر فهمها حتى على الامهات أنفسهن !واني إخالني أفهم بعض رغبات «اميل» وأدرك أفراحه وأتراحه وهذا لايكفي في معرفته

منتهى مايمكنني ان أقول فيما وصلت اليه من استعراف أحواله : هو أني لاحظت فيه حصول استحالات كبرى ، فانه في مدة الشهرين الاولين من ولادته كانت معيشته كلها في نفسه (ان صح تسمية هـذا معيشة) فلم يكن له ارتباط بالعالم الخارجي ، وأما الآن فهو يميز بعض ما يحيط به من الاشياء تمييزاً فيه نوع من الوضوح ،وفوق ذلك فهو يتبسم لي.

يومنا هذا هو عيد أول السنة الجديدة ، ولـكن ماأشد حزني فيه وأعظم كدري ! . وأنت تعلم ان من عادة الناس في مثل هـذا اليوم ان يرجوا لمن يحبونهم من الخير ما يشاؤون ، وأنا أرجو لك شيئاً واحداً وهو ان تعود اليك نعمة الحرية .

حاشية — هديتي اليك في هذا العيد هي خصلة من شعر إميل أرسلها في طي هذه الرسالة . اه

الرسالة السابعة

(من هيلانة الى اراسم في ٣ ابريل سنة — ١٨٥)

بيان أن سبب فتور مشاعر الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لاضعف المشاعر نفسها ووجوب تنبيهه اليها — تدريب الطفل على المحافظة على نفسه بنفسه

قد جاءني السيد ..... بشيء من أخبارك بعد طول تطلعي اليها فاطمأن قلبي قليلا بما قاله لي عنك وزال بعض ما كنت أجده من الجزع عليك .

لا يخطرن ببالك اني نسيت ماتلقيته من نصائحك وتعاليمك في تربية «اميل» فاني باذلة قصارى جهدي في تعريفه بما حوله من الاشياء ، وفي هذا المقام أقول : إني أحسبني قد تبينت ان فتور مشاعر الطفل ينشأ من عدم التفاته الى المحسوسات أكثر من حدوثه من ضعف تلك المشاعر ، فان في قدرته أن يدرك أصوات كثير من الاشياء الخارجية والوانها تمام الادراك لو أراد ان يكلف نفسه الإصغاء والنظر اليها ، ولكن لما كانت هذه الاشياء لا تستميله كان يغفلها إغفالا تاماً . وجملة القول في ذلك انه لا بصر له ولا سمع الا فيما يحب إبصاره وسماعه ، واذا كان هذا شأنه فكيف السبيل الى معرفة مايروقه من الاشياء وما لا يروقه ؟ أعترف وانا صاغرة بأني كثيرا ما أخطأت في استعراف تلك الاشياء ، فليس كل ماأتخيره منها لتنشيط حاسة اللمس في «اميل» يحب أن يجيل فيه يديه الصغيرتين ، ثم ان أبهى الالوان وأجملها في نظري تمر امام عينيه مرور الظلال فلا تلفته أدنى لفت ، وأنا أظن اننا معشر الامهات مدفوعات في هذا الامر وفي غيره الى إحلال أذواقنا محل أذواق الاطفال ..

وجورجية - على كونها أقل مني ارتياضاً بالعلم - كثيرا ماتكون أنجح مني في سياسة « اميل » فانها تجد بغريزتها مايعجبه ويسليه وينبه قوة الاستطلاع فيه ، وربما كانت تستعرف رغائبه فتسعى في تحصيلها له ، وسبب ذلك أنها - كما تعلم - قد كانت والدة لثلاثة أولاد حرمها منهم الرق على التعاقب ، ولا تدري أين هم الآن ، فلا بدع إذن في شدة تعلقها « باميل » ومحبتها له ، وانا في وجد عليها من حبها اياه أكثر مني ، وحاشا ان يكون ذلك حسدا فانه مستحيل ، وانما الذي أحسدها عليه هو قدرتها على أن تكون طفلة مع

الطفل وكأن هذا هو الذي تعنيه بكلامك في استعداد المرأة الزنجية للامومة.

لا اخالك تصدقني ان قلت لك: ان (اميل) قد صار أصدق التابعين لزورواستر[1] أعني انه يعبد الشمس . من أجل ان تعتقد ذلك ينبغي ان تراه لتنظر كيف ينبسط ذراعيه الى ضيائها فرحاً برؤيته .

كان الشتاء عندنا في غاية السهولة فلم ينزل فيه الثلج الا مرتين، على انه كان فيهما يذوب بمجرد ملامسته الارض ، ولا تزال الاشجار مجردة من أوراقها، فالريف العاري من الخضرة كالبيت الخالي من الفراش والاثاث. على ان نفحة من الحياة أنشأت تدب وتسري في مادة السكون جميعه ولن تلبث ان تملأ ما خلفه الفصل المنقضي من الفراغ ، وقد أمست الآصال عندنا في غاية الصفاء واللطف، ولذلك ترى (اميل) اذا رأى الجو صحوا أبدى من القلق مايدل على رغبته في أن يحمل الى الحديقة ، ولما كانت الشمس في كورنواي خصوصاً زمن الربيع لا ضرر فيها على أحد بل هي تلائم الاطفال والشيوخ اعتادت جورجية أن تفرش سجادة على الحشيش الجاف وتجلس عليها (اميل) ليلعب ويمرح كما يشاء ، ولما رأيته يعتمد علينا في حراسته مدة وجودنا معه قصدت أن أعلمه شيئاً من الثقة بنفسه والارتكان عليها، فاوعزت الى جورجية بالتنحي عنه واختفيت أنا أيضاً عن بصره من غير أن يغيب عن عيني، فلاحظت أنه في مبدإ الامر خاف

(١) زورواستر هو شارع ديني للامم البكترييانية وهم سكان قسم من آسية كان يدعى قديما بكتريانية وهو الآن تركستان، وهذا الرجل هو المؤسس للديانة البرسية التي تدعو الآخذين بها للاعتقاد بالهين وهما الضياء والظلام أو منشأهما وهما روحا الخير والشر ، ويسمى الاول اوروموزد والثاني اهريمان أو اهرمن وهذا هو أصل مذهب المانوية

عند ماشعر بوجوده وحيداً وأبدى بعض القلق ، لكنه ما لبث ان تشجع وقوي قلبه ، فكنت حينئذ أراه يفتح عينيه ويلتفت الى كل ما يحصل حوله ، ويحرك يديه الصغيرتين كانه يذود ذبابة تطن فوق رأسه ، فأخذت على نفسي من هذا الوقت أن أكف عنه مراقبتي حيناً بعد حين ، حتى اذا أحس بقلة حمايتي له تعلم كيف يستغني عن مساعدة غيره .

كلما فكرت في فروض الامومة بدا لي منها معنى قلما يشابه ما يفهمه غيري من النساء ، فاني أرى أنه من الواجب علي بمجرد أن يكبر (اميل) ان أحرم نفسي من لذة مكاشفته في كل وقت بأني مهتمة به ، لان أكبر شيء يعوق نمو المشاعر في بعض الاطفال ويعطل استقرار طباعهم انما هو — فيما أرى — طريقة القائمين عليهم في تربيتهم ، فانهم بكثرة حياطتهم اياهم بضروب من العناية البالغة غايتها من الظهور والناشئة عن فرط الاهتمام بهم — يعودونهم أن يعيشوا غير مهتمين بأنفسهم ، فان الطفل اذا كان غنياً متعجرفاً لا يتكلف أعمال ملكة الاحتفاظ بنفسه ، بل يكون شأنه كملوك الشرق الحمقى الذين يهون عليهم أن يسموا مشيري دولهم «أبصارهم وأسماعهم» طيبة بذلك نفوسهم ، لانه يعتاد أن يستعين في إبصاره وسماعه بالمربيات القائمات عليه المكلفات خدمته وتعرّف حاجاته لقضائها ، ولا شك ان هذا الطفل المبالغ في حفظه اذا رأى نفسه يوما مّا بعد ان كان محوطاً بأمتن أسباب الوقاية ، قد خلي بينه وبين أقل خطر يلم به ، يكون أسوأ الناس حالاً وأكسفهم بالاً ، بل يكون هو الشخص الذي يحكى عنه انه كان يخاف من ظله

يدعوني (اميل) بأفعاله وأحواله الى التفكر في كل شيء ، فقد ذكرني

بالامس شخصاً من المذكورين في أساطير الاقدمين . ذلك ان الاطفال لا حساب للمسافات عندهم ، وهذا الامر فيهم منشأ لكثير من الاغاليط البصرية ، فقد كنت في الحديقة وكانت جورجية واقفة ازاء شباك من شبابيك المنزل المشرفة على مكاني وهو على يديها ، فلم يكن إلا أن رآني حتى بدت عليه علائم الابتهاج ومد اليّ يديه كالجناحين ، على ان الشباك الذي كان يطل منه هو في الطبقة الاولى من البيت ، فلما لم تصل اليّ يداه ظهر عليه الانذهاش ، ثم أفضى به الامر الى أن غضب واحمر وجهه ، والذي كان يبتغيه مني - بحسب ما يحلو لي اعتقاده - هو ما أبديه له من صنوف الملاطفة والمداعبة ، بل كان يريد أيضاً التقام ثديه لانه لم يكن رضع من بضع ساعات ، فلم يكن لهذا المحبوب المسكين مثيل في عذابه هذا الا طانتال ؟ (١)

(اميل) يعرفك بل يعرف صورتك التي أريه إياها ذاكرة له اسمك ، ولا أخالني واهمة في ذلك فانه بحملقته في مثالك وابتسامه له ومده يديه نحوه يظهر عليه انه قد عرف والده تخميناً .

---

(١) طانتال في أساطير الاقدمين هو ملك فريجية التي هي قطر من أقطار آسية الصغرى ، وكان قدم للآلهة اشلاء أولاده طعاما فعوقب بالجوع والعطش في جهنم ويضرب بعذابه المثل فيقال : فلان يعذب عذاب طانتال . اذا كان على الدوام يعتقد انه قد صار من رغائبه بمكان اللامس وهو في الحقيقة عاجز عن ادراكها

الرسالة الثامنة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ١٥ يونية سنة — ١٨٥ ﴾

تصويب رأيها في تعرف أذواق « اميل » وانتقاد الوالدين اللذين ينشئان الطفل على مثالهما في الطباع والاذواق، وبيان ماهية الطبع وانفعالات الطفل وأسبابها ودوائها، ووجوب مقاومة التربية لأهوائه الفاسدة، وبيان أن لهذه المقاومة طريقين أحدهما إلهاؤه عنها، والثاني جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها

لاسبب لانقطاع رسائلي عنك ألا ترقبي فرصة تمكنني من إيصالها اليك، وقد تلقيت مكتوباتك الاخيرة فأخذ ماذكرته فيها عن (اميل) بمجامع لبي وبعث فيّ دواعي الحنان والرحمة ، ولم اكن الى الآن أعرف شيئاً من ذلك في حياتي التي قضيتها في العلم ومناظرة الحكماء ومقارعة خطوب الدهر ، ولا غرو فاني ولدت مستعداً للابوة وأودّ لو أرى ولدي ولو بذلت في ذلك جميع ما أملكه من الحطام . وأني مخبرك بأمر — وان كان لا ينبغي مكاشفتك به — وهو أني كنت عزمت عدة مرات على دعوتك الى الحضور اليّ به على ما بيننا من البحار الزاخرة والمسافات الشاسعة ، لعلمي بأن مافيك من الاقدام ورباطة الجأش تتضاءل دونه العوائق، فلا يثنيك منها شيء عن تلبية دعوتي، وكأني بك بعد هذا تسأليني عن السبب الذي منعني من هذه الدعوة ولا يزال يمنعني منها ، فأقول: انني قلت في نفسي قد يكون من الاثرة أن أحمل بسجني ذاتين هما من أحب الناس اليّ واخفض من حالهما ، ولا حق لي في أن أستلب من هذا الطفل غرارته وغفلته وبواكير سروره وابتهاجه، بإلصاقه بي في محنتي التي خصني بها القدر، فلذا

الله أن يكون مني ذلك، فليشبّ وليترعرع حراً مغتبطاً في جناح والدته وكنفها.

أراك محقة في اهتمامك بتعرف أذواق (إميل) ، فان الوالدين في الجملة ينشئان أولادهما على مثالهما في الطباع والاذواق، على ان هذا الامر هو الذي كان ينبغي اجتنابه ، لان الطفل اذا كان ألعوبة في أيدي كبار المتوطنين بسياسته، وآلة تنفعل بمشاربهم وأفكارهم ، فانه يعتاد موافقتهم في جميع الامور ، وهذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالا صحيحا في هذه الايام . واننا اذا فتشنا عن العلة في وشك زوال ما فينا من أنواع الاستعداد والقابليات الخاصة والسير الثابتة ، فربما وجدناها في تربيتنا الاولى فانها مثار آفاتنا ونقائصنا النفسية .

ولنبحث ابتداء في ماهية الطبع فنقول : جرى اصطلاح العلماء باطلاق هذا اللفظ على مجموع من القوى المؤتلفة التي لاشك في أنها ترجع بأصلها الى الفطرة ، ولكنها على الدوام في تغير وتجدد لاسباب باطنية وظاهرية، فمن الاسباب الباطنية الارادة فان لها شيئاً من التأثير في اهوائنا وشهواتنا ومحباتنا ، وكأني بسائل يقول : وهل هذه الارادة نفسها خلقية أو مكتسبة؟ فأجيبه : انها تجمع الوصفين على ما أعتقد لانها تكاد تظهر في الطفل بمجرد ولادته، وكلما شب وكبر قويت وتحددت وجهتها بالتدرب عليها والممارسة لها ، وأما الاسباب الظاهرية فيكفي أن نمثل لها بالبيت (العائلة) والتربية والاختلاط بالناس ومعاشرتهم . فلو ان الفرنسي المسيحي ولد في الصين من أب نشأ على آداب كونفوشيوس[1] وتعاليمه لكان مغايرا لنا في آرائه وسيرته.

---

(١) كونفوسيوس هو أحد مشاهير فلاسفة الآداب وعلماء الاخلاق في الصين ولد في سنة ٥٥١ ومات في سنة ٤٩٩ قبل المسيح

القوى المؤلف منها طبع الطفل تكون في الايام التالية لولادته كأنها محجوبة بإدراك مشاعره وهو في هذا الوقت يشعر بوجود ذاته، بل هذا الشعور قد يكون أحيانا هو الغالب عليه، ولكنه قلما يبدو منه الا حركات إرادية ، وأعني بهذه الحركات ضروب الرعدة والهياج بل وأنواع الصراخ التي تصدر عنه ، فان كل ما من شأنه أن يولد ألماً أو يحدث غضباً يكون فيه مدعاة الى ظهور هذه العلامات الخارجية، وكثيراً ما تبدو منه حركات نخالها مختلة مغايرة للعقل لعدم تدقيقنا النظر في السبب الذي يحدثها ، ولو دققنا النظر لظهر لنا انها لا تكون منه الا طلباً لتحصيل لذة أو تخفيف ألم ونحن بذلك جاهلون وعنه غافلون . فالغلام الذي في الثانية أو الثالثة من عمره اذا طلب من مربيته شيئاً فمنعته إياه فاستلقى على الارض وأنشأ يتمرغ وينتف شعر رأسه غيظاً تكون أفعاله هذه معقولة في حقه لانه يجد فيها بطريق الإلهام شفاء لاعصابه من تهيجها فيتلاشى بها حنقه وتنكسر حدته ، وكذلك الشأن في البكاء وغيره من الوسائل التي يزول بها عن أعضاء الجسم ما تجده من الالم بسبب توتر أعصابها .

على أن بعض هذه الحركات الغريزية يبقى ملازماً لنا حتى في زمن الرجولية ، فان كثيراً من الناس من يضرب بيده على جبهته اذا بلغه خبر سيء ، ومنهم من يزغزغ انفه ، ومنهم من اذا جاءت الامور على غير مراده انبطح فوق فراشه . ومن هذا تعلمين ان أعقل الرجال تصدر عنه غالباً وهو في شدة انفعاله حركات لا تصدر الا عن مجنون ، وأنا لا أماري في انه يفقد ماله من السلطان على نفسه في هذه الحالة، ولكني أقول:

ان في هذه الافعال التي تصدر عن غير روية حكمة وان كنا لا نرى فيها الا جنونا وحمقاً. ذلك أن للنفس حالات تقتضي من الجسم أوضاعاً مخصوصة لعلة محجوب عنا علمها، فمن الآلام النفسية ما يميل بنا الى الهجوع والسكون، ومنها ما يدفعنا الى المشي والحركة، ولا سبيل الى اكتناه علة هذه البواعث الوقتية التي تدفع بعض أعضائنا الى التحرك عند حدوث شيء من الاضطرابات العقلية الا الاعتراف بأن الوصول الى معرفة هذا السر مما ليس في مقدورنا وهو سر آخر جدير بالتفتيش عن سببه .

أول حرية تجب علينا للطفل هي أن يكون مختارا في حركاته ومقتضيات غرائزه، واني وان كنت كغيري من الناس لا أحب ان أرى ولدا مسكيناً يحمر وجهه من الغضب ويبلغ به الانفعال الى درجة الجنون — أرى ان الاغضاء على بوادر ذلك الغضب أخف ضررا من قمعها بالافراط في التسلط أو القهر، فانه لا شيء أردأ مغبة في الغيظ من اكراه صاحبه على كظمه، ولا أسوأ في الطباع ولا أخس في الخلائق مما يقمع دائما ويرغم صاحبه على إخفائه . على أن الطفل سيتعلم في مستقبل أيامه ان من موجبات كرامته ان يملك نفسه عند الغضب ويكف سورة انفعالاته، وان البكاء وحركات الضجر وخفة الفرح الخارجة عن حد الاعتدال مما لا يليق بالرجال قطعاً، بل سيكون كآلاتنا البخارية تحرق ما يتولد من دخانها، ولكننا يجب علينا ان ننتظر في بلوغه هذه الغاية ريثما ينمو عقله وتقوى ارادته .

ولست أعني بهذا ان يترك الطفل وما يعتوره من الانفعالات لعدم وجود ما من شأنه أن يزيلها، كلا! فان الاطباء قد اخترعوا لعلاج الجنون طريقة سموها التلهية النفسية يمكن اتخاذها في تربية الاطفال على ما أرى .

على انها معروفة للمراضع من زمن لا تاريخ لمبدئه، فقلما توجد واحدة منهن لا تعرف كيف يسكن غضب الطفل بصرف وجهه الى ما يلهيه ويشغل فكره. ويمكن تعميم العمل بهذه الطريقة، فان من الاطفال الحديثي السن جدا من يكون لهم شغف بالموسيقى من صغرهم، ومنهم من يسهل إلهاؤهم بمجرد النظر اليهم، ومنهم من يجد في رؤية الحيوانات لذة مخصوصة، ومنهم من يجد هذه اللذة في رؤية بعض الاشخاص، فينبغي النظر في هذه الاذواق الخلقية لان جميعها من الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها في تربية الطبع فيهم .

أنا لا أعتقد ان في الانسان خلائق شرا محضاً، ولكن يوجد من خلائقه ما اذا غلبت عليه وأسيء تصريفها فانها ربما تؤدي الى عواقب وخيمة، فاذا سأل سائل : هل يجب اعدامها ؟ أجبته : ليس هذا من رأيي لاننا مع تسليم امكان الوصول الى هذه الغاية نكون قد خالفنا مقتضى الفطرة مخالفة ظاهرة، وانما الذي ينبغي علينا عمله هو معارضة تلك الغرائز بمشارب وأذواق أخرى .

أجد في نفسي ميلاً الى اعتقاد انه لا يوجد طبع مهما كان فساده الا وقد انطوت فيه وسيلة للخلاص منه، فلو ان القائمين على التربية حذقوا في التدرع بتلك الوسائل لمكافحة الطباع السيئة ومغالبة الاخلاق الرديئة في الوقت المناسب لذلك لحفظوا على المجتمع الانساني كثيرا من أفراده الذين خسرهم خسرانا مؤبدا في السجون ومعاهد العقاب بالاشغال الشاقة، ولست أضرب لك تأييدا لهذا القول الا مثلاً واحداً اقتبسه من مذكراتي الخصوصية : حدثني لص انه انزبق ذات ليلة في ملهى موسيقي فجلس على أحد مقاعده لا ليسمع المغنين بل ليرتقب فرصة تمكنه من سرقة ما عسى ان

يجده في جيوب مجاوريه، فان هذا الامر كان مهنة له ، ولكنه كان هو المسروق في تلك الليلة لانه كان ذا كلف بالموسيقى فلم يكن الاان سمع أول رنة للكمنجة حتى أحسّ بان عقله قد سلب ، ولما أنشأ المغني دوپريه[1] يغني صار الى حالة أسوأ من ذلك لفنائه عن نفسه فيما وجده من اللذة في ذلك اللحن المعروف بلحن الشيطان روبرت الذي في الفصل الخامس من تلك القصة الغنائية ، حتى انه ليخيل له انه لايزال يسمع رجع صداه، وجملة القول انه نسي الاشتغال بمهنته تلك الليلة ، فلما كان مساء اليوم الثاني عاد الى ذلك الملهى نفسه عاقدا نيته على أن لا يفتتن ببنت البحر[2] ولكنه في هذه النية لم يحسب حساب نزيله الذي بين جنبيه ، أعني ميله الفطري الى سماع الألحان، فخرج في هذه الليلة أيضاً ممتلئ الاذنين صفر اليدين، ومن أجل هذه الخيبة أقسم أن لا يعود فيضع قدميه حيث يكون المغنون قائلا انه ان فعل خسر به ميله الى حرفته ، وهو قول دال على قحته واجترائه على القبائح .

الأهواء الفاسدة في الانسان هي قوى مستبدة يبعثها نموها الفطري أو المكتسب على أن تملك قياده فتتغلب على ما فيه من ضروب الوجدان أو الافكار ، فمن البديهي ان هذه الاهواء هي التي يجب أن تقاومها التربية من أول النشأة، وهذه المقاومة يصح أن تكون على طريقتين أولاهما

---

(١) دوپريه هو جيلبيرت لويس مغن فرنسي شهير ومعلم لفن الغناء أيضاً وله فيه تآليف (٢) بنت البحر في أساطير الاقدمين هي ذات خيالية نصفها الاعلى نصف امرأة والاسفل نصف سمكة كانت تفتن السائحين بلذيذ غنائها فتجذبهم الى شعاب صعبة حيث يهلكون والمراد هنا المغني ففي الكلام استعارة

الرجوع الى أنواع التلهية التي تشغل الطفل عنها وتصرف ذهنه الى غيرها كما سبق لي بيانه . وثانيتهما جعله بمعزل عن البواعث الخارجية التي تهيج من غرائزه مايغلب على الظن ان في تحريكه وبالاً عليه ، فان في بعض الاشياء شيطاناً رجيما كما ستعلمين من حادثة جرت في ايقوسية [1] أقص عليك خبرها لتفهمي ماأريده بالبواعث الخارجية التي تهيج الغرائز :

وهي أن أمرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد حوانيت الطُّرَف ، فلما انتقت ماأرادت ابتياعه وحان وقت دفع الثمن ــ وكان في نحس طالعه كربع ساعة رابليه ــ [2] أخرجت من جيبها ورقة مصرف (بنك) قيمتها خمسة جنيهات انكليزية فلما نقدها كاتب الحانوت لم يلبث ان عرف تزيفها،فبهتت المرأة المسكينةوأخرجت له أخرى لكنها لم تكن بأحسن من الاولى،فارتاب الرجل في أمرها وسلمها الى الشرطة،ولم يكد التحقيق يأخذمجراه حتى ظهر انها كانت خادمةفي بيت استوجبت احترام أهله اياها بما لها من حسن السيرة والصدق في الخدمة ، وان الايقوسي الذي كانت في خدمته كان قبض من أحد معامليه قبل هذه الحادثة ببضع سنين هاتين الورقتين المزيفتين وأخطأ في عدم تمزيقهما لتعاسة حظ هذه المحدودة ، وانها لاعتيادها دخول حجرته في كل صباح للقيام بمقتضيات الخدمة كانت تراهما مختلطتين بأوراق قديمة فلم تعبأ بهما كثيرا أول

---

(١) ايقوسية جزء من الجزائر البريطانية (٢) رابليه هو كاتب قصص فرنسي مشهور واسمه فرنسيس ولد عام ١٤٩٥ ومات عام ١٥٥٣ م اتفق له ان حل في نزل وجلس يأكل مع جماعة فلما جاء وقت المحاسبة على ثمن الاكل لم يكن معه ما يدفعه في حصته فخرج صدره وكأن الساعة كانت دقت الربع اذ ذاك فضرب بوقته هذا المثل لنحس الطالع

الامر ، ولكن لما تكرر حضورهما أمام بصرها من يوم الى يوم ومن اسبوع الى اخر ومن شهر الى تاليه ـ أنشأت تمعن النظر فيهما وكأن هاتين الورقتين اللتين كانت تخالهما ـ على بلاهما ـ صحيحتين كانتا ترنوان اليها من طرف خفي وتخدعانها وتناجيانها بنصائح غريبة ، فرفضت بادئ بدء فكرة أخذهما وابعدتها عن نفسها فراسخ ، لكنها لم يبق في وسعها ان تكف النظر عنهما متى وجدت في الغرفة التي هما فيها ، ثم انها في ذات يوم لمستهما بيديها وبسطتهما وأخذت تقلبهما ثم ردتهما فورا الى اضبارة الاوراق البالية التي كانتا فيها كأن فيهما نارا كانت تحرق اصابعها وما زال بها هذا الاغراء حتى غلبها وأوقعها فيما علمت .

فاذا كان هذا تأثير الاشياء في الكبار ، فما ظنك به في الصغار ؛ نعم انهم ولله الحمد ليسوا كلهم لصوصاً ، وفوق ذلك قلما تعرض لانظارهم أوراق المصارف صحيحة أو مزيفة ، ولكن توجد عدة من الخلائق الاخرى ، التي يهم المربين ان لا يقوّوها فيهم بنظر مايوقظها من الاشياء ، فان رذائلنا وفضائلنا ليست مجرد معان ذهنية بل لها بالخارج ارتباط قوي ، فهي تطابق فيه أمورا وأحوالا شتى يكون بها تأثرها وعنها انفعالاتها . فالشراهة مثلا تتحرك في الانسان بنظره الى الطعوم وشمه روائحها ، والغيرة تتيقظ فيه بسماعه مايقال لغيره من رقيق الكلام ، ورؤية مايعامل به من صنوف الملاطفة . فأول واجب على المربي هو البحث عن طبع الطفل ومعرفته ، والواجب الثاني هو ان يقطع عنه مواد الفتنة أعني البواعث المادية التي تتخذ مشاعره ذرائع لاغراء طبائعه السيئة وإثارتها ، فلكثير من الاطفال الحق في ان يقولوا للقائمين عليهم : ناشدناكم الله لاتُدَلُّونا بغرور .

ثم لا ينبغي أن يعزب عن ذهن المربي هذا الناموس الفطري وهو: أن الطبائع والغرائز كما انها تقوى وتنمو بالممارسة هي تضمحل وتزول بعدمها ، فبه نملك قمع بعض المشارب الشديدة التي تظهر في الطفل على أذواقه الفطرية الاخرى ونمنعها من بلوغها غايتها . فأكبر عمل للانسان في اصلاح نفسه منفردا هو مكافحة ما يتغلب عليه من سيء الاخلاق ورديء الطباع، كما ان أجل سعي في اصلاح شأنه مجتمعاً هو ردع المعتدين وكسر نخوة الطغاة الظالمين .

كأني بقائل يقول : هل يكفي في تربية الطفل ماذكرته من جعله بمعزل عما يثير فيه غرائز الشر وايجاد التوازن والتساوي بين طبائعه؟ فأجيبه: لاشك في عدم كفاية ذلك، فان طريقة التربية هذه سلبية والواجب علينا هو أن ننبه في الطفل بمجرد أن يشب ضروب المحبة وعواطف الخير. وقبل الخوض في هذه الطائفة الجديدة من المسائل يجب عليّ أن أبحث أولا فيما يتخذه الناس من الطرق عادة في تربية طبع الطفل كحمله على الامتثال المطلق وتخويفه بالعقوبات وترغيبه في المكافآت ، وكقوة القدوة والاعتقاد الديني وقواعد علم الاخلاق ، وأسائل نفسي عما تساويه هذه الحيل المختلفة . اه

الرسالة التاسعة

(من إراسم الى هيلانة في ٢ يونيه سنة ١٨٥—)

ضرورة استعمال السلطة في سياسة الاطفال والتعجيل بالكف عنها متى تيسر ذلك وبيان ضرر قهر الطفل على الامتثال

لامراء في وجوب الاستعانة بضروب السلطة المطلقة في تربية الاطفال

اذا كانوا حديثي السن جدا رعاية لمصلحتهم ، فيؤمر الطفل منهم بالاقبال فيقبل ، و بفعل كذا فيفعل ، وينهى عن الانطلاق الى جهة كذا مع قرن هذا النهي بفعل يحول بينه وبين الذهاب اليها فلا يذهب . مثل هذه الاوامر الصريحة التي تصدرها الأم لولدها مع تلطيف شدتها بنغمة الصوت فيها ومباشرة ائتماره بها بنفسها مما لا بد أن يقبل عذرها فيه لانها انما تخاطب بها ذاتاً مجردة من العقل. على أن الافضل التعجيل بالكف عن الإلزام والقسر متى صار ذلك ميسورا .

قهر الطفل على الامتثال وإلزامه إطاعة الاوامر يستلزم حتما إخماد وجدان التكليف في نفسه، خصوصاً اذا طال أمر ذلك القهر ، فانه اذا كان غيره يتكلف الحلول محله في الارادة والحكم المطلق على الخير والشر والانصاف والجور لم تبق له حاجة في الرجوع الى وجدانه واستفتاء قلبه. وعسى أن لا يكون هذا شأننا مع «اميل» لان الحلول محله في عمله أعني إلزامه اتباع أوامرنا يميت فيه قوى عزيمته الشخصية، فمن اجل ان يكون له قيمة حقيقية يجب أن يصير خيرا صالحا باختياره لا رغم انفه، وان تكون افعاله صادرة عن ارادته، واود كثيرا ان يكون من صغره عارفا بخصائصه ونقائصه ليزيد في الاولى ويتجرد من الثانية بتقدمه في سبيل الحياة. فعلينا اذن ان لا نتعامى من اول الامر عن حقيقة ولايتنا عليه وحدودها ، فان الطفل لا يصير صالحا بعمل الغير بل يكون كذلك بنفسه ، وكل ولايتنا في تربيته تنحصر في ارشاده الى استخدام وجدانه ، ويجب علينا ايضاً في سبيل إرجاعه عما يقع منه من الهفوات في سيرته، ان نفهمه مضرة الاشياء القبيحة بما في تلك الاشياء من البراهين الذاتية على ضررها لا بالنامن الحجج

المتسلسلة ، ولو اني أسعدني الحظ فتوليت تربيته بنفسي لما طالبته بطاعتي فيما آمره به، بل متى تمكنت من مخاطبة عقله نصحته بأن يسير على مقتضى القوانين التي تجري عليها شؤون الكون المعنوية وحوادثه المادية .

يجري معظم الآباء مع أبنائهم على هذه الطريقة في الاستدلال وهي: « اعتقد صدق ما أقوله لك وافعل ما آمرك به ، وسأثبت لك بعد ذلك انه هو الحق والعدل » وأنا لا أسير عليها ألبتة ، بل اجتهد في اقناع «اميل» بأن الامر الذي أنصح له باتباعه أو باجتنابه هو حسن أو قبيح لا لأني أراه كذلك بل لانه قد يكون مفيداً للناس أوله أومضرًّا بهم، وكأني بك تقولين ان ذلك يقتضي أن يكون للطفل المربى مزايا عقلية خاصة به يقل وجودها في غيره من الاطفال . فأقول : لا ! بل لا يقتضي الا ذوقا كبيرا وبساطة كلية فيمن يتولون تربيته وتعليمه ، فليس الذي يؤثر في ذوق الاطفال السليم هو كثرة الكلام الذي يرمى به جزافا ، أو طول الشرح في القول ، وانما الذي يؤثر فيهم هو حسن النيات ونبل المقاصد لانهم أقوى بصيرة مما نتوهمه الف مرة .

الطاعة الصادرة عن حرية واختيار ترفع طبع الطفل ، والاذعان الناشئ من القسر يحطه ، فللأم ومعلم المدرسة كلمة يقولانها عن الطفل العنيد العاصي لاوامرهما وهي قولهما « سأذلله » والحقيقة هي أن الناشئين على طريقتنا الفرنسية في التربية مذللون دائما . نعم قد يقال ان في اتباعها مصلحة للاحداث وللمجتمع الانساني، ولكن سائس الخيل له أيضاً أن يقول للحصان الذي يروضه «لا تجزع فاني انما أفعل هذا بك لمصلحتك» على ان اطلاق

الترويض على الحصان أصلح من اطلاقه على الانسان لان هذا الحيوان لايخسر بترويضه باللجام والمهماز الا حدته الوحشية، وأما الانسان فانك اذا أخذته بالقهر وسسته بالإرغام والقسر تذهب بحب الكرامة من نفسه ، وتبخس قيمته في نظره ، على ان الخوف وازع ضعيف فانه لا لص ولا فاتك الا وهو يرجو النجاة من العقوبة على جريمته حال ارتكابها، ولا طفل يعصي مايأمر به قيمه ومعلمه أو يعمل الشر الا وهو يتخيل في نفسه مهارة في الخلاص من تبعة ذلك ، فاذا نجح في هذا ولو مرة واحدة يحمله هذا النجاح على الثقة التامة بنفسه في خداع القائمين بتربيته وتهذيبه ومواربتهم. والطفل الذي يعامل بالقسوة ويؤخذ بالعقوبة يستجمع قواه ويستجن بكبره وعناده على حقارتهما ليقاوم سرا حملتنا عليه بولايتنا المعنوية .

لاشيء أسهل على الوالدين من إلقاء نير استبدادهما على عنق الطفل، كما أنه لاشيء أصعب عليهما بعد ذلك من استرداد مايفقدانه من ثقته بهما ، ومتى شعر بأنهما يسوسانه بالهوى والاستبداد، لايخضع لهما الا بالضغط والالزام، وفي هذه الحالة ترى عليه أمارات الانقياد والطاعة، ولكنه يطوي جوانحه على نوع من التذمر والعصيان يستره الرياء ، وتترقب ارادته ـ اذا انقبضت في ظل السوط ـ الوقت الملائم لاستعمال الخداع والمكر ، فان الخداع هو سلاح الضعيف يمده للاحتماء به من شر القوي، ولكون الطفل عاجزا عن مكافحة أهله تجده يبحث دائما عما يخلصه من ولايتهم، وطالما عجبت من خبثه واجترائه على الاختلاق في مثل هذه الحالة ، فان كثيرا من الاطفال لا يبلغون السابعة أو الثامنة من عمرهم حتى يحاكوا في المكر

أسرى بلوت[1] واسقابيني موليير[2] بل وفيجارو بومارشيه[3]

ومن عواقب القهر الوخيمة انه يغيض ينبوع الفرح والسرور في نفوس الاطفال ، فما أشبه الطفل المحروم من حريته بفصل الربيع الذي لاتشرق فيه الشمس ! أتحسبين ان هذه العواقب تنتهي بانتهاء سن الطفولية فلا يكون لها أثر في مستقبل حياة الطفل ؟ كلا ، إنني لأعرف لأول وهلة من رؤية الرجل ما كان من نعمته أو بؤسه في طفوليته . ترين الذين يربون بالقهر جبناء عابسي الوجوه كاسفي البال ، ويكون لذلك ظلمة في عقولهم وعصل في طباعهم (أي اعوجاج بصلابة)

وانا أسأل الله (سبحانه) ان يخلصنا من المتعالمين والمعلمين ، فانهم هم الذين يفسدون اخلاق الناشئين .

الرسالة العاشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٣ يونيه سنة ــ ١٨٥)

وجوب اجتناب تخويف الطفل بالعقوبات الالهية والخوض معه في المسائل الدينية وتركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات

أظن أن ما ينسب الى الاعتقاد الديني من التأثير في طباع الناشئين

---

(١) بلوت شاعر هزلي لاتيني برع في أشعاره زمن الحرب البونية الثانيــة وكتب عشرين رواية كان من الممثلين في بعضها جماعة من الاسرى جعلهم مظهر الخبث والخداع (٢) اسقابيني وموليير هم أشخاص من الممثلين في بعض روايات موليير الكاتب الفرنسي الشهير جعلهم عنوانا للدسائس والخبائث (٣) فيجارو بومارشيه أشخاص من الممثلين في روايات الكاتب الفرنسي الشهير بومارشيه ناطهم بتمثيل الدسائس والفتن

وأخلاقهم مبالغ فيه كثيراً [١] وعلى كل حال نقول: ان التصديق بأن الانسان يوفّى جزاء أعماله في دار أخرى بعد هذه الدار يعرض صاحبه لانواع من خيبة الآمال، تكون آلامها صعبة الاحتمال، فانه اذا هبت عليه أعاصير الشبه في مستقبل أيامه فزعزعت اركان عقيدته التي بنيت عليها الفروض

(١) حاشية المترجم : معظم ما كتبه المؤلف في هذه الرسالة غير مسلم وهو يدل على ضعف يقينه بدينه وعدم اكتراثه بتكاليفه التي لا يعتبرها الا من الامور التي جرت بها العادة، وكانه لم يبلغه خبر الامم التي وصلت بدينها الى أوج الكمال النفسي وغاية التقدم الحسي، فأي شيء أخرج الأمة العربية مثلا من ظلمات الجهل الى نور العلم، ومن رذائل التوحش الى فضائل المدنية سوى دينها القويم الذي جاء به الرسول الكريم ؟ ولست أدري كيف ان الاعتقاد بالدار الآخرة وما يكون فيها من الثواب والعقاب يدعو الى خيبة الآمال ؟ لا شك ان القائل بهذا منكر للبعث وهي ضلالة جره اليها التطرف في النظر كما جر اليها كثيراً من أمثاله . ولا أراه الا مبالغاً في انتقاده على بعض المسيحيين ما يصدر منهم لاولادهم من التهديد بالعقاب الالهي ولا نسلم أن هذا التهديد يكون له من الاثر ما يتوقعه، وكانه يعتقد أن الله سبحانه لا يتصف الا بالرحمة والاحسان وينبو عقله عما وصف به نفسه من القهر والجبروت والانتقام، وليس الامر خاصاً به بل قد لاحظته فيما كتبه غير واحد من أهل النظر وهو خطأ بين يدل عليه العقل والنقل، وترجيحه تخويف الاطفال بالاغوال المشوهة على تخويفهم بالعقاب الذي أعده الله لمخالفي أوامره للعلة التي ذكرها من خطل الرأي فيما أراه لاطلاقه القول فيه دون تقييده بسن معينة، لانه لا ضرر على الطفل المميز من تحذيره من غضب الله عليه اذا خالف أوامره مادام انه يرغب ايضاً بنيل رضاه ورحمته اذا أطاعها على ان عبارة المؤلف في تعليل هذا الترجيح بينة الفظاعة لا تليق بمقام الربوبية، ثم أي ذنب للاديان التي لا يؤمن بها أربابها أو يكون ايمانهم بها ناقصاً فيدعوه الى تحاميها والحذر منها ووصفها بأنها « أضر الاديان بكرامة الانسان » ألا ترى ان أقوم دين واصحه في نظر العقل وأدعاه الى سعادة الآخذين به وفلاحهم قد تحول دون الجري على صراطه غلبات الهوى وعمايات الضلال فيقع أربابه في مهاوي الوبال، فكيف تلقى تبعة ذلك عليه ؟ اللهم ان هذا بهتان عظيم فانه لا دين الا ما أرسلت به رسلك وليس فيه الا ما يرفع شأن الانسان ويعلمه أن يضع نفسه في ذروة الكرامة والمجد =

والواجبات فلا تلبث دعائم تربيته الاولى ان تنهار انهياراً تاما ، فكيف نرجو اذن في هذا العصر الذي ثارت فيه الشكوك وأطلقت حرية النظر ان لاتؤثر عوارض الشبه في عقائد الطفل اذا كبر وهي انما تفرغ في مخه حال صغره افراغاً وتلصق به لصقاً ؟ إن صح ان يقال ذلك .

فالذي أعناه « لاميل » هو ان يكون له وجدان مستقل عن الايمان ، وليس يهدأ لي بال ولا يطمئن لي قلب على سلامة شرفه وتهذيب نفسه الا بحصول هذه الامنية .

كثيراً ما سمعت بعض المسيحيين اذا عصى أولادهم أوامرهم يهددونهم تهديدا وحشياً وهم في شدة حنقهم بقولهم لهم : سيعاقبكم الله ويهلككم . كنت كلما سمعت منهم ذلك تقلص جميع دمي من عروقي الى قلبي غيظاً وغما . فليت شعري هل الاستغاثة باحكم الحاكمين على تنفيذ عقوباتنا السافلة في الاطفال والاستصراخ بالذات العلية لتشفي غلنا بالانتقام لنا منهم واقتضاء فعل الشر من الله ليسكن بذلك وجدنا عليهم — هل كل ذلك هو مايعبر عنه بتأسيس علم الاخلاق على الاعتقاد الديني ؟

= حاشية أخرى للمنار: أبان كلام المؤلف عن عدم عنايته بالدين كما تقدم بالهامش ولكن له وجها في شيء واحد وهو تلقين الطفل كثيرا من أمور الدين في وقت لا يعقل منها شيئاً فما تكون الا كلمات يعتادها لسانه ولا يكون لها أثر في نفسه : مثال ذلك الايمان التي يحلفون بها امامه أو يكلفونه الحلف بها ومنها — التخويف الذي ذكره — فاذا كبر وفهم معاني ماتلقنه بالمعاملة والمعاشرة تكون عند العمل كسائر العادات التي يفعلها من غير ملاحظة معناها وبدون تأثر بها بخلاف ماذا كان لا يلقى اليه شيء من أمور الدين الا اذا استعد لفهمه وتدبره ولذلك حكمت الشريعة الاسلامية بان لا يعلم الطفل الدين (أي العمل بشيء منه) الا في سن التمييز ولا يكلف هو شيئاً منه الا اذا بلغ رشده

أنا لا أجيز في أي حال من الاحوال الاستعانة في تربيــة الطفل بالمخوفات الالهية، بل أفضل تهديده بالاغوال ومشوهي الخلق من الناس على جعل الإله ذاتا مزعجة، فالتهديد بالاغوال والمشوهين يعتمد فيه على روايات خيالية يزول وهمها في يوم من الايام بتقدم الطفل في السن وأما التخويف بالله فيخشى منه ان ينتقش مبــدأ الحياة العامة في مخيلتــه من صغره على صورة طاغية أو غول

كأني بك تقولين انك لم تختر من أمثلة التربية الدينية لتوجيه انتقادك الا أردأها وأحقها بالطعن فأقول: نعم ولكن هذه التربية على كل حال فيها عيب شنيع جداً وهو إلزام الناشئ في سيرته بأعمال لا يدرك عللها، فلو أني قلت للطفل: يجب عليك أن تكون مؤدباً عاقلا لتكون محبوباً عند الله لكان ذلك مني بلا شك إلغازا وتعمية لانه لا يعرف ما الله ولا يعرف علامة يميز بها ما يرضيه وما يغضبه، واما إن قلت له، يجب عليك التزام الادب لتحبك أمك فانه يفهم هذه العلة أكثر من سابقتها بكثير .

من تكلم في الدين مع طفل حـديث السن جدا فانما يريد منه أن يفسد معنى ما يؤديه اليه من الافكار الدينية ويقلب المراد منها، فلو ان الام أشارت بيدها الى السماء دلالة لولدها على انها هي محل الذات الذي يجب أن يتوجه اليه بدعائه لتوهم ان هذه السماء الدنيا المادية هي الــه .

أنا أعلم ان كثيرا من الآباء لا يهتمون بهذا الامر كثيرا ولا ينظرون فيه نظرا بليغاً ولكونهم ممن يشكون في كل شيء تريهم يلزمون أولادهم أداء بعض الاعمال الدينية التي لا يؤدونها هم أنفسهم أو انما يؤدونها امامهم فقط، فكأنه لا شأن للصواب والخطأ في حق هؤلاء الاطفال ولا نتيجة

لهما ، وان أهم شيء في حقهم هو ان تكون باكورة أعمالهم في أول حياتهم اتباع ما جرى عليه الناس من العوائد مع ارجاء النظر فيها الى المستقبل . فمثل هؤلاء الآباء يتسببون في افساد وجدان أبنائهم وقوتهم الحاكمة بخفتهم وطيشهم أو عدم اكتراثهم بشأنهم ، فأنا أتحامى الاديان التي يكون شأن الآخذين بها فيها كشأن من لا يؤمنون بها بالمرة او من لا يؤمنون بها الا ايماناً ناقصاً فانها أضر الاديان بكرامة الانسان [1] .

فاحتراماً « لاميل » ولطائفة من المعاني التي يجب ان ينظر فيها متى كبر بفكر خال من التأثر بغيرها ـ أود ان يجتنب في تربيته زمن طفوليته الخوض في المسائل الدينية فاننا مؤتمنون على عقله وعلى حرية ضميره ومسئولون عن ذلك ، فاذا نحن عجلنا بحرمانه من حق النظر فقد ثلمنا امانتناه.

---

(١) يقول محمد رشيد ناشر الكتاب : انه تحامى الاديان التقليدية التي لا يؤمن بها منتحلوها وإنما هي جنسية لهم أو يكونون كانهم كذلك ومايؤمن بها منتحلوها إيماناً ناقصاً وبقي الدين الذي يمكن أن يؤمن به أصحابه إيماناً راسخاً ويكونوا منه على بصيرة كما قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم «١٢ : ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» ولعل المؤلف كان يظن ان هذا النوع من الدين لا وجود له فلذلك لم يذكره. هذا الدين لا يحرم على أصحابه شيئاً الا اذا كان ضاراً باجسامهم أو أرواحهم أو عقولهم أو أموالهم أو أعراضهم، فهو يرشدك الى ان تعلل كل ما تأمر به الطفل وتنهاه عنه بمنفعة المأمور به ومضرة المنهي عنه مع اعلامه عند مايعقل ويرشد بأن له حياة بعد هذه الحياة أعلى منها وأشرف لا يسعد فيها الا من ارتقت نفوسهم بالايمان والفضيلة والاعمال الصالحة، ولا يشقى فيها الا من سفلت نفوسهم بالوثنية والرذائل والشرور «٩١ : ٩ قد افلح من زكاها ١٠ وقد خاب من دساها » فاذا كان كتاب هذا الدين يعلل الاوامر الادبية وغيرها والنواهي عامة بالمصالح والمنافع ودفع المضار والمفاسد فكيف لا يجيز ذلك المربي؟ يقول «٤١ : ٤٣ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» فيهديك الى ان تقول « أطع أمك لتحبك »

الرسالة الحادية عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٣ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان عدم فائدة أصول علم الاخلاق في التربية

معظم من كتبوا في علم التربية يغالون باصول علم الاخلاق ويرفعون من شأنها وأنا مثلهم اعتقد ان المواعظ الحسنة وقواعد التهذيب المفيدة قد تبعث العزائم في بعض الاحوال على القيام بصالح الاعمال، ولكني لا أعتقد ان مايلقفه الناشئون منها من أفواه معلميهم في دروسهم يغير طباعهم تغييرا حقيقياً، وهيهات ان اعوّل عليها في ذلك فاننا نرى كل يوم في المجتمع الانساني أناساً من الظرفاء الاكياس جفاة غلف القلوب على انهم لم يحرموا من النصائح العامة الداعية الى التحاب والتراحم المرغبة في لذة الاتصاف بها، فما من فاسق أو شرير أو بخيل الا وقد سمع الف مرة من ألسنة الوعاظ قولهم « كن حكيما مهذباً تكن عزيزا مغتبطا »[١] لا تفعل بغيرك مالا ترضى ان يفعله بك[٢] « لا تجعل لحطام الدنيا حظا من قلبك »[٣] الى غير ذلك من النصائح والحكم .

---

(١) الحكمة واردة في أمثال سليمان عليه السلام في التوراة بهذا النص وهو « الرجل الحكيم في عز » (٢) نص الكتاب المقدس في هذا المعنى هو « كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا » راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١ (٣) نص الكتاب في هذا المعنى هو « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ » راجع الاعداد ١٦ و١٩ و٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى .

الانجيل كله مواعظ رائقة وأمثال شائقة ، فليت شعري من ذا الذي يراعيها ؟ هل تجدين كثيراً من الاغنياء أنفقوا جميع أموالهم على الفقراء بعد سماعهم آية « ان دخول الجمل في سَمّ الخياط أيسر من دخول الغني في ملكوت السموات » ؟[1]

هل تلاقين ولو في القسيسين أنفسهم عددا كبيرا ممن يفضلون عبادة الله (سبحانه) على عبادة الدينار والدرهم ؟ هل يرضى أوائل الناس أو الذين يعتبرون أنفسهم كذلك أن يعاملوا معاملة الاواخر ؟ هل يسهل على الحاكمين أن ينقلبوا محكومين ؟ لا ! بل نرى علماء الدين يغالطون في فهم نصوص الكتاب مخادعين وجدانهم غاشين ضمائرهم ، وما أكثر ما يؤلونه منها تخلصاً من قضائها عليهم وفراراً من عواقب الاخذ بصريحها !.

جاء المسيح يدعو الى السلام في كل قول من أقواله ، فهل رأيت الممالك أصبحت أقل قتالا ؟ ندب الى التآخي بقوله الجميل « كلكم اخوان »[2] فهل هدم هذا القول دعائم الاستعباد ومحا من النفوس ميلها الى التسلط ؟ توعد من يصلت سيفه بغياً وعدواناً بالهلاك فقال ما معناه « من سل سيف البغي به قتل »[3] فهل ردع هذا الوعيد من كان بيدهم الحول والقوة عن انتهاك حرمة القانون بالبغي والفساد في الارض ؟ قال « من أخذ قميصك

---

(١) راجع (١٩ : ٢٣) من انجيل متى « وأقول لكم أيضاً ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله » (٢) راجع ٢٣ : ٨ من انجيل متى « وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لان معلمكم واحد هو المسيح وأنتم جميعاً إخوة » (٣) عبارة متى في هذا هي (٢٦ : ٥٢) « فقال يسوع رد سيفك الى مكانه لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون »

فأعطه رداءك »[1] فلو ان أحداً منا معشر الفرنسيين المتشددين في التمسك بالدين اتبع هذا الامر وجرى على نصه حرفيًا لسجن في شارنتون[2] خصوصا اذا كان له من أقاربه وارثون.

لم يختص المسيحيون بهذه المواعظ الحسنة فان لليهود أيضاً والصينيين والفرس كتباً فيها حكم بالغة، وكلم نابغة، ولكنهم لم يصيروا بها أحسن منا حالا، فانه لو كان يكفي في تحسين أحوال الناس وتهذيب نفوسهم وجود كتاب مفيد فى علم الاخلاق لكانت الدنيا قد بلغت غاية الكمال من زمن طويل، لانها والحمد لله لم تخل من علماء الأخلاق يوما، على اننا لا نسمع في جميع ارجائها الا أصوات آلام المنكوبين والمكروبين، وتحريق الأرّم[3] من المقهورين المتغيظين.

أرى انه لا ارتباط بين مذهب المرء وبين عمله غالباً الا في الخيال والوهم، فلو أن الخير كله والشر كله كان كل منهما بمعزل عن الآخر في مجرى الحياة وسياق أعمالها لسهل على الناس الحكم فيما اختلفوا فيه من آرائهم ومذاهبهم، ولانقطع من بينهم سبب الخلاف بأسرع ما يكون، ولكن هيهات أن يكون الامر كذلك وقد علمت انه لا يعمل منهم بعلمه الا الشذاذ. أنظري الى أصول الاخلاق الانجيلية مثلا تجدي ان من لا يؤمنون

(١) نص متى (٦:٤٩) «ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً» (٢) شارنتون اسم لقريتين من قرى فرنسة احداهما تدعى شارنتون ليويه وهي أشهر قرية في إقليم السين بقضاء سو واقعة على نهر مارن والثانية تسمى شارنتون سورشير وهي أشهر قرية في اقليم شير بقضاء سانت امند مونت روند وفى الثانية مستشفى للمجاذيب (٣) تحريق الارّم كناية عن شدة الغيظ والارّمُ الاكل وهو من فعل الاسنان ومعنى ذلك يسحق بعضها ببعض

بألوهية المسيح هم في الغالب أكثر اتباعا لها ورعاية ممن اتخذوا الايمان بتلك الالوهية مهنة لهم .

أنا لا أعني بجميع ماقلته هنا ان علم الاخلاق لا فائدة له في التربية ، وانما الذي أريده بهذا الكلام هو أن أحسن ما لهذا العلم من الاصول في الدنيا بأسرها لا ينشئ رجالا كملة مهذبين ، وقد فهم ذلك حق الفهم واضعو الشرائع فعززوا مادوّن من تلك الاصول في الكتاب بأوضاع تامة للثواب والعقاب .

ثم ان الطفل لا يستفيد مما يلقى عليه من دروس الاخلاق الا اذا كان من الاستعداد والكفاءة بحيث يقدر أسباب أعماله وعواقبها ، فأنَّى له اذن ان يفهم هذا الاصل الوجداني وقد حجبه عنه ادراك مشاعره الظاهرة واشتداد أهوائه وشرة غرائزه ؟ وأنى له أيضاً أن يكون جميع ما يراه من الأُسى والامثال من شأنه ان يأخذ بزمام عزيمته الى الخير ويصرفه عن الشر ؟ وليت شعري هل تجري أمه دائما على مقتضى ما ترشده اليه من صالح الاخلاق وجميل الصفات ؟ نرى الوالد يلقي على ولده خطبة طويلة في وجوب مواساة الفقراء والاحسان الى المساكين ، ثم هو لا يلبث ان يلومه اذا أعطى لفقير درهماً من الفضة ، فهو بذلك يبذر باحدى يديه في ذاكرته أصول الانجيل ، وينقش بيده الاخرى على قلبه صور النفاق والرياء (*)

(*) المنار : محصل كلامه ان تعليم الاخلاق والادب قليل الجدوى اذا لم يترب الانسان عليها عملا وهذا صحيح ولم توضع أصول التهذيب لاجل الدراسة وانما وضعت ليجري عليها المربون فعلا . اقرأ قوله تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » فلم يكتف بالتعليم بل أضاف اليه التزكية وهي التربية العملية على أصول الخير والفضائل

الرسالة الثانية عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٤ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان نفع القدوة وشرطه ، ومطالعة قصص الحيوانات في تربية الاطفال
ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه

يعوّل علماء الاخلاق كثيرا في تربية الاطفال على قوة القدوة وتأثير الاسوة ، وأنا في هذا موافق لهم ولكن : أي والد يصح له أن يتبجح بانه على الدوام قدوة صالحة لاولاده ؟

نحن في الجملة نسعى في غش الاطفال وخداعهم بما نتزين به لهم من لباس الرياء الذي يجعلنا في أعينهم أحسن مما نحن عليه في الحقيقة والواقع، وبما يصدر عنا كثيرا امامهم من الاقوال والآداب المغايرة كل المغايرة لمعتقداتنا وآرائنا الذاتية،وحقيقة الامر اننا نقصد ان نربي طباعهم على ما نشأنا عليه موافقة لحسن رأينا في أنفسنا ورغبة في تحقيق غيرنا بهذا الرأي، وان نكسوهم من الفضائل ما نتظاهر لهم باننا متحلون به ، ولكن هيهات ان ينخدعوا بهذه الحيل ، ومن ظن بهم ذلك فقد أخطأ في فهم معنى سذاجتهم وصفاء قلوبهم خطأ بيناً . ان الاطفال يعرفون كال المعرفة ما يعتمدون عليه في كشف مقاصد آبائهم والوقوف على شؤونهم، وهم يدركون بالحدس والتخمين ما يجتهد هؤلاء في كتمانه عنهم ، واني لفي شك من ان هذا الكتمان وان حمدت أسبابه يزيدهم في نفوسهم اجلالا وتعظيما .

عاقب والد ابناً صغيرا له لم يتجاوز الخامسة من عمره على اكذوبة

قالها ولم يكد ينتهي من عقابه حتى دخل عليه خادمه مخبراً له بأن زائراً ثقيلاً ينتظره في الخارج فقال له ذلك الرجل الوقور «أخبره بأني لست هنا» فياله من درس يستفيد الطفل منه الصدق والاخلاص!.

أنا على يقين من أن «اميل» لن يجد فيك الا أحسن أسوة وا كمل قدوة، وهذا هو الذي يملأ قلبي اطمئناناً عليه، ولكن أقول لك الحق غير مداج فيه ولا مدار ، وهو ان غرضي من تربيته أن يكون ذا طبع مستقل لا مفرغ في قالب طبع آخر مهما كان لهذا الطبع من الكمال، وأذكر لك هنا واقعة حضرتني الآن تدلك على أني محق في قصدي ، وهي اني رأيت ذات يوم طفلا في السادسة من عمره راجعاً مع والدته من تشييع جنازة، وهو من الاطفال الناجحين المتقدمين جدا على حسب اعتقاد الناس ،وكان يبكي أو يتباكى فارتبت في أمره وظننت انه مخطئ في معرفة من فجع به لان المتوفى لم يكن الا ابن عم بعيد له (على أن الاطفال لا يفهمون حقيقة الموت كما تعلمين) فسألته عن سبب بكائه وكدره العظيم فكان جوابه لي أن قال «لا سبب سوى أني رأيت الآن والدتي تمسح عينيها بمنديلها فبكيت» فأضحكني منه هذا التأثر التقليدي وان كان صادراً بلا شك عن طبع ساذج وقلب سليم . لا أريد أن يكون «اميل» مثل هذا الغلام في تأثره، بل أودُّ أنه متى بلغ السن التي يرق فيها لمن تصيبه مصيبة ويعطف عليه يكون ذلك منه ناشئاً عن غم كارث ألمّ بنفسه وحزن ممض يضطرم في قلبه.

هل يجب أن يلحق ما يرى من أعمال الحيوانات وسيرها في حياتها بما للقدوة من التأثير في التربية ؟ وكيف لا ونحن نرى كُتاب الأمثال عندنا على بعد مجتمعاتنا من معاهد الفطرة تزدان تآليفهم وتزدهي دروسهم بما

يودعونها من سير الحيوانات وأخلاقها، وان الطفل من أولادنا لا يكاد يقدر على النطق المفهوم والحفظ حتى يحمل على حفظ اسطورة من أساطير لافونتين [١] كأسطورة الصرصار والنملة مثلاً . أنا لا أنكر ان في حياة الحيوانات عبراً كثيرة وعلوماً شتى يجب علينا تعلمها ،ولكني أقول :ألا ينبغي لهذا العالم الصغير الذي يحفظ سير هذه المخلوقات الممثلة رواية الكون الكبرى في مشهده الاعظم أن يعرفها ليهتم بشأنها اهتماماً حقيقياً ؟ فكم نرى أطفال نشأوا في حواضرنا الكبرى وقرأوا أساطير ذلك الكاتب الشهير لم يروا في حياتهم تلك المخلوقات التي يحكي لهم قصصها ويمثل لهم أحوالها الا قليلا ! فهم على جهل تام بأخلاقها وعوائدها . وفي رأيي أن سليمان (عليه السلام) أعقل من واضعي التعاليم الحديثة اذ قال للكسلان « عليك بالتعلم في مدرسة النملة » [٢] فانه دله بهذا الارشاد على ينابيع علم الاخلاق الفياضة لا على حياضه التي لبعدها عن تلك الينابيع لا توجد فيها الا صبابة لا تروي ظمأ ولا تبرد غلة .

---

(١) لافونتين واسمه جان دولافونتين من أشهر كتاب الاساطير في فرنسة ولد في شاتوتيري سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥م (٢) عبارة الامثال في هذا المعنى هي: اذهب الى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيما «هي» التي ليس لها قائد أو عريف أو متسلط وتعد في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد أكلها . راجع الباب ٦ من أمثال سليمان والاعداد ٦و٧و٨

الرسالة الثالثة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٦ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة

اعلمي ان أخص ما يجب الرجوع اليه في انشاء طبع الطفل هو علم منافع الاعضاء، واذا كانت هناك وسائل أخرى يستعان بها في ذلك فلا ينبغي اغفالها .

الوليد يرى في أول أمره محبًّا لنفسه منقبضاً عن غيره لضعفه وعجزه عن الاختلاط ، فعمل المربي معه هو أن يعمد الى ماوهبه الله (سبحانه) من الغرائز المحمودة الكافلة حفظه فيجعلها أصلا يفرع منه بالتدريج صنوفاً من الوجدان أرقى وأشرف من محبة النفس والانقباض عن الناس ـ تربطه بأمثاله وتعطف به على أضرابه ، ولا اعتداد عندي بما تسمى به هذه القوى السامية الطبعية فلنسمها أو أصر أو عواطف مثلا ، وانما الذي اعتدّ به ويهمني ان أقوله لك هو أنها ليست خيالات ولا صوراً ذهنية بل هي حقائق ثابتة لها أصول راسخة في نفوسنا وفي الخارج، فكل عاطفة من تلك العواطف النفسية لها ارتباط في الخارج بطائفة من الوقائع، فالشفقة مثلا توجد عند رؤية آلام الغير ومصائبه ، والشكر يوجد عند الاحسان واسداء المعروف ، وحب الوطن منشؤه اعتياد الثواء بالامكنة والانتفاع بما فيها من الاشياء ، ومحبة الناس تنشأ وتقوى بحسن المعاملة ولطف المجاملة .

جميع العواطف الشريفة والسجايا الحسنة توجد في نفس الطفل ، لكنها تكون كالنبات في طور البذر ، فالعالم النباتي مملوء بانواع من البذور ، ربما لاتتهيأ لها ذرائع النجوم والنبت طول حياتها، لما يعوزها من أشعة الشمس والارض الصالحة للإنبات والماء بنسب مخصوصة. كذلك شأن أصول العواطف والوجدانات الانسانية فانها تحتاج في ظهورها ونموها الى مستقر ملائم ومؤثر خارجي .

كلنا يعلم ان طبع الطفل ينمو بالمؤثرات الخارجية أكثر من نموه بالبواعث النفسية ، فإن ما نفعله امامه من الافاعيل ، وما نرمي به من الاقاويل، هو الذي يبعث فيه الفرح تارة والترح أخرى خصوصاً في أوائل أيامه، على أن مالنا من التأثير في طبعه مباشرة لا يكاد يكون شيئاً يذكر الا ماتحوطه به امه من ضروب العناية ، وما تبديه له من أنواع الحنو والرعاية، فانه يدعوه من غير شك الى حبها، ولكن الطبع كما علمت يتألف من قوى متمايزة كل التمايز يقتضي كل منها باعثاً خاصاً - إن وسعني ان أقول ذلك — فليس الانسان ذاتاً بسيطة بل هو على ما أعتقد أكثر تركباً في نفسه منه في جسده [1]

المشاعر الباطنة كالمشاعر الظاهرة في كيفية التأثر فالثانية كما تعلمين لاتتأثر الا في أحوال وبشروط خارجية مخصوصة لان مشعر اللمس مثلا لا يتأثر الا متى لاقى أشكال الاجسام وجهاتها ، ومشعر الذوق لا ينفعل الا بما يقع عليه من الطعوم ، كذلك الاولى لاتنبعث الا عند اجتماع أمور واقعية مخصوصة، فان حلول الخطر مثلا يولد احساس الخوف ولكنه

(١) هذا مصداق لقولهم فيه انه العالم الاصغر

لا يبعث وجدان الانصاف مباشرة . ورؤية الطفل مايغمره به أهله من صنوف البر قد تاتي في نفسه وجدان محبتهم والميل اليهم، ولكنها قلما توقظ فيه احساس الاحتشام والتواضع. والاحوال التي تحرك في النفس عاطفة المروءة أو الشجاعة لا تؤثر في رقة الطبع كما ان الصوت لا يؤثر في العين والضوء لا يؤثر في الاذن ، فكل مشعر باطني أو عاطفة نفسية تقتضي شيئاً يناسبها ويلائمها ، والطفل كالآلة الموسيقية كله أوتار تهتز اذا نقرت، ولكنها لا تهتز اهتزازاً حقيقياً الا بما يقع عليها من الاشياء ، ولا تتأثر بجميع الاشياء على السواء ، وانما لكل انفعال قلبي طائفة منها تلائمه .

فاذا أردنا مثلاان نلقي في نفس الطفل الذي في السابعة أو الثامنة من عمره وجدان الاحسان الى الفقراء والزمنى [1] فإيانا والخطابة والوعظ لان أحسن مواعظ الانجيل لاتفيده في ذلك شيئاً ، بل علينا ان نذهب به الى خص حقير يكون فيه شيخ هرم أبات الايام قواه ونهكت الحمى جسمه، وقد رقد على حصير ومد يده يسأل عواده قدح ماء بارد ، وننظر مايكون منه في ذلك الوقت ، فاذا هو لم يبادر بنفسه الى ملء جرة من أقرب مورد وتقديمها بين يدي الرجل المسكين فقد حق اليأس منه، وأما اذا تحرك الى هذا العمل الخيري فايانا أن نسأله عن قصده به وعما يرجوه من الثواب عليه، فان في شوب انبعاثه الصالح الى البر بمثقال حبة من الفائدة الذاتية افسادا له .

قد بانت لك مما قدمته الغاية التي أرمي اليها في قولي وهي أنه اذا

(١) الزمنى أصحاب العاهات

كان يوجد في الطفل قوى كامنة تتنبه بالمؤثرات الخارجية التي تدعوها الى الشخوص الى العمل وكان لهذه المؤثرات ارتباط ببعض الامور والوقائع الخارجية — فالواجب علينا هو ان ننبه فيه بهذه الامور تنبيهاً مّا عواطف الحفاوة والسخاء واحترام النفس والناس والنزاهة وغيرها من السجايا الحميدة ، فطريقة تربية المشاعر الباطنة لا تختلف كثيراً عن الطريقة التي بينها علماء منافع الاعضاء في تربية المشاعر الظاهرة ، بل لا يوجد لتربية جميعها الا طريقة واحدة لانها كلها تجري على قانون واحد ليس هناك غيره .

يوجد فرق واحد بين التربيتين وهو ان الانفعالات في تربية المشاعر الباطنة وما يولدها من الاشياء تخالف ما يقابلها في تربية المشاعر الظاهرة ، فان الشيء الذي تنفعل العين برؤيته مثلا لا تنفعل به النفس دائماً ، فعلى الأم أن تختار نوع الآثار التي تريد إحداثها في نفس ولدها وتجعلها صنوفاً وأشكالا ، وليس يعوزها في الحقيقة شيء من الاحوال الملائمة لذلك ، فان حياة الانسان ليست الا مشهداً لسلسلة من الحوادث المؤثرة ترى فيها كل حين آلاماً تحرك عاطفة الرحمة ، وعقبات تدعو الى التدرع بالشجاعة ، ومحن أعدت ليبتلي بها الصبر ، ولكن ينبغي لها ان تكون سليمة الذوق كثيرة الحذق في اغتنام الفرص التي تهيؤها لها الحوادث . ثم اعلمي أن الكتب قليلة الجدوى جداً في هذا الموضوع ، فالذي عليك ان ترجعي اليه في سيرتك مع «اميل» هو قوتك الحاكمة وما تمليه عليك الوجدان من ضروب الإلهام . ولما كان الطفل لا يلتفت الا الى الاشياء التي له فيها عمل كان من الحسن أحياناً ان تدس له فيها المراقيب (الحيل) لإثارة عواطفه الذاتية ، ولكن ينبغي هنا

أيضاً الاحتراس الكلي من ظهوره على مايتخذ في ذلك من الحيل فان شعوره بخداع المربي له هو الخسارة الكلية .

اخترع المربون أنواعاً من الرياضة البدنية موافقة لإنماء الاعضاء وخاصة بها . والذي أعرضه عليك أنا هو فن من فنون الرياضة النفسية تقوى بها الغرائز والاخلاق ، لان خصائصنا ونقائصنا تقوى بالمراس والاعتياد ، فالفضيلة تكتسب بالتعلم ولكن هيهات أن تتعلم الا بممارستها والارتياض بها . وقد جاء في الامثال « بطرق الحديد يصير الانسان حداداً » فكذلك هو لايكون خيِّراً الا بعمل الخير فالعمل العمل مادام حياً.

أرجئ البحث في قانون الاخلاق الحقيقي لاني لابد لي من النظر فيه عند الوصول الى محله، وأكتفي الآن منه بذكر قاعدة في غاية الايجاز والبساطة وهي: إن الطفل يصلح طبعه وتتهذب نفسه كلما زالت منه غرائز الاثرة وحلت محلها العواطف التي تأخذ بقياده الى الصالح العام ، ولكن هيهات أن يكننه هذا الناشئ أسباب سيرته مع غيره خصوصاً معنى الواجب ، فانه من الغموض والخفاء بحيث لا ينفذ اليه ذهنه الضعيف ، وغاية مايمكنه ادراكه هو رضاه عن أعماله ورضى الناس عنها . على أنه لما يجده في الأعمال الصالحة من اللذة التي لاتقل عن لذة الاعمال السيئة لايلبث أن يختار الاولى ويرجحها على الثانية متى ساعدناه قليلا بتوسيط البواعث الخارجية ، فان الاشياء كما يوجد فيها شيطان رجيم على ماعلمت يوجد فيها أيضاً في بعض الاحيان ملك كريم ، فاذا كان بعضها يحرك فينا دواعي الطمع فان بعضاً آخر منها يبث فينا وجدان البر والخير .

يجب علينا أن نعين الطفل على تربية مشاعره الباطنة ، ولكن علينا

أيضاً أن نحترم ارادته ولا نغفلها . فلواني أوتيت القدرة على تدبير مايحتف «باميل» من بواعث العواطف وعلى مراقبته في سيرته مراقبة تامة وأمكنني بالاجمال اختراع طريقة للتربية النفسية تسمو بمقاصده حتما الى الكمال لما عولت عليها في انشائه مهما كان فيها من الحسن، فاني أرجو من صميم فؤادي أن يكون يوماً من الايام رجلا خيّرا لا حيوانا خيّرا، وأعيذه بالله من فضيلة لا يكون كسبها بسعيه وهمته، ومن سعادة لا يكون هو الذي حصلها لنفسه، فانه ان أوتي عفواً هذه السعادة التي هي الامتياز التعس لمن خلقوا لها يكون قد ابتاعها بثمن غال جدا وهو خسارة اختياره . كل فرد من أفراد المجتمع الذي أعد ولدنا للمعيشة فيه مسوق على الدوام الى الجلاد والمغالبة في ميدان الحياة، فيجب عليه أن يقاوم مقاومة البسلاء آراء الناس وتأثير الأسى وجميع مؤثرات العصر الخادعة، والا خسر معرفته قدر نفسه واقدار الناس. لان شرف الانسان وفضله مشروطان بأن يكون ذا ارادة تصدر عنها أفعاله، وما عليّ ان تكدر بعض الناس من هذا الشرط اللازم مادمت أنا مسرورا به، فاذا لم يكن للمرء وجود مستقل ووجدان ففيم يكون شرف حياته ؟ . اهـ

الرسالة الرابعة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ٢٠ سبتمبر سنة — ١٨٥)

موافقتها له في طريقته في تربية النفس وبيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطاً من كرامتها وبيان ان للاطفال حاسة غريبة يميزون بها بين الحب الصحيح والحب المموه

إخالني فهمت طريقتك في تربية النفس وأراني مرتاحة من عظم العمل

المعهود الي به والصعوبات التي تعترضني في سبيل إتمامه، لان أمر الطفل بفعل مايجب عليه فعله أهون بكثير من تصفح الاشياء لايجاد مايبعثه منها الى صالح الأعمال . على اني سأحاول العمل على هذه الطريقة فإني على يقين تام من أن الكلام والنصائح والمواعظ لاتكفي لتهذيب الطبع وتقويمه، بل قد وصلت من هذا اليقين الى حد ان أحدث نفسي بأن في التبكير بتلقين الطفل بعض المواعظ وايداعها ذاكرته حطاً من شأنها ونقصاً من قيمتها مهما كانت حسنة مفيدة ، فانه يسهل عليه بذلك اعتياد تلمس الفضيله في الكلام واعتبار الوجدان أستاذ مدرسة .

على اني الى الآن لم أبلغ مع « اميل » هذه الدرجة ، فانني لو كلمته في علم الاخلاق لألفيته بلا شك في غاية العجز عن فهم ما أقوله ، ولكنه على صغره له دين كما يدل عليه اتخاذه اللعب التي يعطاها آلهة يخصها بفرط محبته ومزيد عنايته ، فلو أني أردت من الآن تغيير الاحوال المقارنة لسنه وفطرته في بضع سنين لأضعت وقتي عبثاً ولما نجحت الا في تبديل تماثيله بأوثان أخرى .

لاتزال عواطف «اميل» في غاية القصور كما رأيت فأصبت في رأيك، على أن للاطفال مهما كانوا صغاراً حاسة عجيبة يفرقون بها بين الصحيح من أنواع ميل الناس اليهم وعطفهم عليهم والمموه منها ، فهم يحبون من يحبهم وقلما يخدعون بضروب الرياء والاستمالة وأنواع التدليل والملاطفة ،ومما يشهد لذلك اني في معظم أوقات زيارتي للسيدة وارنجتون ألاقي عندها امرأة ترملت في شبابها وهي تزعم انها تعشق الاولاد عشقاً ،وتقول: لم لم يهب لي الله (سبحانه) ولو ولداً واحداً ! وتدعي انها كلما فكرت في ذلك

يكاد يغمى عليها ، ولكني في ريب من أن قلبها كقلوب الامهات لان « اميل » لا يطيق النظر اليها .

لا مناص لنا من الانفعال بما يحيط بنا من المؤثرات الخارجية ـ كما تقول ـ والا فما السر في أنني أحب التنزه في طريق مخصوص كلما تلقيت مكتوباً من مكاتيبك ؟ وكيف ان بعض الاشجار يجذبني اليه ويدعوني الى تفيئه والجلوس تحته في حال ثوران أشجاني خاصة ؟ وبماذا أفسر ما اجده من الارتباط بين رؤيتي لصخرة ، وما أحس به اذ ذاك من نقص في عزمي ووهن في ثباتي ؟ فلا شيء يطابق جميع حالات النفس ويلائمها سوى البحر على ما أرى . اه

الرسالة الخامسة عشرة

(من هيلانة الى اراسم في ٣٠ اكتوبر سنة ـــ ١٨٥)

تفاهمها مع « اميل » بالاصوات وظنها انها أصل اللغات

لا يزال « اميل » عاجزاً عن التكلم غير ان كلاً منا يفهم مراد صاحبه ، لان الاطفال قبل أن يصير في مقدورهم إخراج الحروف من مخارجها زمن طويل يعبرون عما يعروهم من الفرح والدهشة والخوف والالم بضروب من الصياح والصراخ الفطري يندر أن تخطئ الام في فهم معانيها ، وهي ان لم تكن لساناً معروفاً فأقل ما فيها انها لهجة تفصح عما في نفوسهم من الوجدانات والافكار ، وأنا في شك من أن الكلام يكون في إعرابه لي عن انفعالات ولدي أكثر من هذه الاصوات بياناً ، على انني

لا إخال ان صورة أخرى من صور التعبير عما في النفس توافق حالته موافقة هذه لها .

لم يقتصر « اميل » على هذه اللهجة بل قد اخترع من بضع أسابيع طريقة للمحادثة معي،فاذا أراد ان يكلمني عن كلب البيت قلد نباحه بقدر ما في أعضائه الضعيفة من الاستطاعة ، واذا حملته جورجية وخرجت به للتنزه على ساحل البحر فانه عند عوده يخبرني بهبوب الرياح، وذلك بأن ينفخ فيحدث صوتاً مخصوصاً ،واذا صادف في طريقه قطيعاً من البقر أو الغنم قص عليّ ما رآه بأصوات أفهم ما يريده بها ، واني على ما أجده في قصصه هذه من اللذة قد أنشأت أقلق لحالته وأحدث نفسي بأني أفرطت في اغفاله واسلامه الى الفطرة ، وأنه ربما كانت عاقبة ذلك حدوث بعض عاهات في قواه النفسية أكون أنا السبب في حدوثها . استفتيت في هذا الامر السيدة وارنجتون وكاشفتها بما أجده من الخوف لانها لما كانت زوجة طبيب كان لها هي أيضاً بعض الدراية في الطب ، فاجتهدت كثيرا في محو هذا الفكر من نفسي وفي تسكين روعي وقالت لي : إن هذا الامر عام في جميع الاطفال الذين يربون في الارياف .

وعلى كل حال فما أدرانا أن هذه الاصوات ليست هي أصل اللغات الانسانية ؟ أقول هذا وأنا عارفة أنه ربما أضحكك ، ولكن ما المانع من أن الانسان وهو في زمن طفوليته اذ كان يسكن الآجام والكهوف كان يتلمس مبادئ الكلام في ألغاط الغابات وأصوات الحيوانات وغيرها من المخلوقات . اه

الرسالة السادسة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ١٠ نوفمبر سنة — ١٨٥)

استعدادها لتعليم « اميل » بالبحث في أحوال النبات

لست أدري أيها العزيز اراسم متى يتيسر لي ايصال بقايا هـذا المكتوب اليك ، فقـد توالت عليّ الايام وتعاقبت الشهور في ارتقاب فرصة تمكنني من ذلك،ولا ريب في أن ما اكتبه اليك خلو من كل مامن شأنه أن ينفر الحكومة ويزعجها،فان أخص موضوع أحب مكاتبتك فيه هو الحديث عن « إميل » وشؤونه : وأنت تعلم ان « إميل » ليس من المؤتمرين بالحكومة المغرين بالخروج عليها ، على انه لاشيء في عواطفنا وآمالنا يدعو الى ملاحظة أو يستوجب مؤاخذة ، وأنا أراعي في مكاتيبي الحياء والاحتشام حتى اني لأفضل احراقها على اطلاع غيرك عليها .

هاج غضب« إميل» صباح اليوم هياجا شديداً بلا سبب معروف، ولا بدع في ذلك فاننا مع تبجحنا بالعقل والرزانة لانعرف على الدوام علة جزعنا وغضبنا، فقد يكفي في اساءة خلقنا ان نرى في السماء غيما كريه المنظر ، أو في ملبسنا انثناء مضايقاً ، أو نسمع ذبابة تطن في اذننا ، وأيًّا ما كانت علة غضب « إميل» فان جورجية لما رأته في هذا الهياج قدمت له مرآة جعلتها نصب عينيه فأثر ذلك فيه تأثير السحر باسكان غضبه كانه خجل من نفسه أو خاف من صورته..

أنا منجزة ماوعدتك به فتجدني الآن أطالع وأبحث وأعمل لأتمكن

يوما ما من تعليم « اميـل » وانك لو رأيتني في هذه الحالة لنكرتني لما صرت اليه من الوقار والرزانة .

انك تعلم اني ما برحت أتوق الى علم النبات ، فتراني الآن من بضع شهور مشتغلة بدرس أزهار الكتان لاني وجدت من ظروف الاحوال ما ساعدني على ذلك ، فان النباتات الطالعة هنا على رمال الساحل في غاية الكثرة والتنوع على أن لها بالبحر ارتباطا كثيراً ، ويوجد أيضاً على مقربة من قرية للصيادين اسمها (نيولين) مغارة شهيرة بدقة ورق السرخس النابت على جدرانها وجماله ، فان الظل والرطوبة اللذين فيهـا يشكلانه باشكال متشعبة مشوشة تدعو الى اعجاب الخبيرين باحوال النبـاتات ، ولكن لسان حاله ينطق بتألمه ومرضه ، فهل من الآلام والامراض ما يكسو الصور رونقاً وبهاء ؟

بينما كنت راجعـة هـذا المساء من نزهة قضيتها ارتيـاداً للنباتين المعروف أحدهما عند النباتيين بالقوريجيول الشاطئي والثاني بالارنجيون البحري أو لحية التيس[1] - بصرت ببنت صياد ملتصقة باحدى نوافذ بيتها تنفخ في زجاج هذه النافذة ثم تكتب بظفر أنملتها الصغيرة اسم معشوقها على مايظهر في صفحة الزجاج من الكلف ، فاستمالني ذلك اليها وخاطبتها فعلمت منها أن لها خاطباً في استرالية وانها تترقب مجيئه ولا تعلم متى يجيء لتحظى بلقائه ، فعسى أن يكون ذلك قريباً لاني أعلم ما يقاسيه الانسان من مضض الغرام . اه

(١) لحية التيس نبت كورق الكراث لكن يرتفع

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة الى اراسم في ٢٥ نوفمبر سنة ــ ١٨٥)

تبشيره بنبت سنين « لاميل »

بعد هذا الانتظار كله قد تعهد أحد من تعرفهم بايصال مكتوبي هذا اليك فأسلمته اليه واستودعته الرياح العاصفة والبحر المضطرب وحوادث الايام الكثيرة لانه لامحيص من ذلك ولكني لن أستودعها أبداً حبك فانه في حيازة ما لايعتريه التحول ولا التقلب .

بشرى فقد نبت « لاميل » سنان . اه

الرسالة الثامنة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ١١ يونيه سنة ــ ١٨٥)

بيان رأيه في تفكر الطفل وفي أصل اللغات وفي تعليم اللسان للاطفال وسوء طريقة المربين في ذلك

قطع مكتوبك ولله الحمد جميع العقبات التي كانت تحول بينه وبين الوصول اليّ وهو الآن بين يديّ أرى فيه شعاعا من شمس الحرية قد اتصل بي . وها أنا ذا ألاحظك بفكري في تريضك على شاطئ البحر وأبصر

« اميل » من خلال ماتبدينه من ضروب التأثر والانفعال وإخالني أعرفه.

رباه ! كيف اكون والداً من سنتين كاملتين ولا أتمكن من تقبيل ولدي الى الان

أترك هذا الاسف الذي لاجدوى له وأعاود الحديث معك فيما ينبغي أن يكون أهم مايعنينا في هذه الدنيا فأقول : ان من أغلاط المشتغلين بالتربية صرفهم جل عنايتهم في تقويم القوى والملكات العقلية وقلة التفاتهم الى غيرها مع انه لايسعهم انكار ما بينها وبين قوى الادراك الحسية والنفسية من الارتباط، ولكني في هذا المكتوب أحب أن أوجه فكرك الى تربية الادراك العقلي بنوع خاص

كاني بك تقولين: هل يتفكر الطفل؟ فأجيبك ان ذلك لازم له لانه حي ولان العلم اذا كان كلما نفذ في أسرار حياة النباتات والحيوانات كشف لنا فيها بداية احساس بل ربما صح أن يقال بداية ادراك، فكيف يكون الطفل اذاً أقل حظا من هذه الكائنات التي هي أضعف خلق الله (تعالى)؟ نعم ان مخه في الاسابيع الاولى من ولادته يكون في نظرنا كالبيداء المظلمة التي وصفها الشاعر اللاتيني بأنها مملكة عفاريت الجن ، ولكنه يتدرج في تمييز الاشياء بعضها من بعض والقياس بينها وانتزاع بعض الاحكام عليها، وانك لاتكادين تجدين طفلا في الشهر الخامس عشر أو السادس عشر من عمره اذا رأى صورة انسان الا وهو يفكر بأنها لشخص معروف .

من الاسباب التي تعين على إنماء عقل الطفل بعد تربيته بما يحتف به من الاشياء تعليمه اللسان

وأنا ارجح ماتقولينه من أن الانسان في عهد طفوليته كان يتلمس مواد الكلام الاولى في أصوات الكون المحيط به ، وقد يدلنا على ان هذه الاصوات هي أصل اللغات الانسانية ماتجده في جميعها خصوصاً ما كان منها قديماً جدا من آثار التوافق الناشئ عن التقليد ، وما أجل مع هذا كلام الانسان وأعظمه ! ومن العبث أن أقتنع بقولي: ان أسلافنا الغابرين قد جمعوا في بداية نشأتهم الاصوات المبهمة المنتشرة في جميع ارجاء الكون وصيروها لغة، فان هذا القول لا يكشف لي جميع ما في كلام الانسان من المعاني، لانك تجدين لكل شيء في هذا العالم كلاماً، فالمعدن يتكلم لانه اذا نقر صوت تصويتاً يخبر بماهيته نحاساً كان أو ذهباً ، والحيوان يتكلم لانه يدل في كل حين بما يبديه في صوته من الكيفيات المختلفة على حاجاته ووجداناته وشهواته، والهواء والبحر والرعد تتكلم لان الفاظها تنبئ عما يقع بين الفواعل الكونية من الكفاح والمغالبة ، ولكن شتان بين كلام هذه المخلوقات جميعها وكلام الانسان ولو كان طفلا، فان الطفل متى قدر على النطق ببعض الكلمات ولو مع التلعثم فيها واستطاع مثلا أن يقول « أنا » مثبتاً بذلك استقلال الانسان وقيام الحياة العامة به رأيت ان جميع ما في الكون امامه قد دخل في شبه عبودية وخضوع .

أصوات المادة معلومة للحوادث التي توجدها وأصوات الحيوانات ناشئة عن الغرائز المستقرة في أنواعها ، وأما لفظ الانسان فهو حتى في حال عتمة الطفولية دال على ذات شأنها الحرية والاستقلال .

على انه لا ينبغي أن نعمى عن الفائدة الحقيقية من أساليب الكلام من حيث كونه ركناً من أركان تربية الادراك . ذلك لان الطفل لا يتلقى

عنا وقت الكلام معه الا أصواتاً فمن أجل ان يكون تعليمنا مفيداً له يجب ان تكون هذه الاصوات التي يسمعها مقرونة في نفسه بمدلولاتها .

أنت تذكرين تلك الفتاة التي جاءت بها الي والدتها في يوم من الايام تستفتيني في أمرها ، فقد كانت شبيهة بتلك المغارات المقفرة تردد جميع الاصوات غير فاهمة شيئاً منها ، وكنت أعتقد انها لجمالها الرائع لو كانت شهدت قدماء اليونان لاتخذوها إلاهةً لصدى الاصوات لانها لفرط ماأوتيته من قوة السمع الميؤس من تعديلها وغريزة التقليد المتعاصية على الترويض كانت على الدوام ترجع ما كنت أوجهه اليها من الاسئلة بدون ان تجيب عن شيء منها ، وقد عالجتها بجميع طرق العلاج النفسية فلم يفدها ذلك شيئاً .

فأنا أخشى كثيرا ان لا يوجد بين هذه البلهاء المسكينة التي لا تفهم شيئا مما تردده من الكلام وبين كثير من الاطفال الذين يرددونه على قلة فهمهم اياه أو على فهمه مقلوبا الا فرق خفيف .

على أني أرى أن الميل الى التكلم بغير فائدة مرض من أمراض العقل عند الانسان ، فكم من نساء يجتهدن في اماتة مايجدنه من الضجر والسآمة بأغاني ليس فيها شيء من المعاني المعينة ! ، وكنت أعرف مسجونا كان على قصور ادراكه جدا كلما وضع في السجن المظلم عقابا له على ما كان يرتكبه من الذنوب يجتهد في مخادعة العزلة والظلام بأحاديث خالية من المعاني .

يوجد في الشعائر الدينية القديمة لكثير من الامم صيغ من العزائم والتعاويذ هي عبارة عن كلمات أوجمل مرتبة تلتذ بسماعها الاذن ولكن لو

أراد سامعها البحث عن معانيها لكان محاولا عبثا . وما لنا وللرجوع الى تلك الازمان الغابرة نستشهد بما كان فيها على مانقول وأمامنا كنائسنا الكاثوليكية نسمع المؤمنين يدعون الله فيها بأدعية لاتينية لا يفهم معانيها إلا النزر القليل منهم .

على اني أرى أن عدم صرف اللسان عن هذه الوجهة الفاسدة وأعانته على الجري في مضمارها من الامور الشديدة الخطر على العقل ، فاذا لم يحترس منهما أصبحت الالفاظ خلوا من معانيها وصارت عوذا للعقل .

الطفل فيه شيء من خاصية الببغاء ولا وجه للشكوى من ذلك فإنه بهذه القوة التقليدية يتيسر له الاختلاط بمن حوله ومعاشرتهم ، ولكن حل عقدة لسانه أيسر من فتح مغلق عقله ، فالالفاظ لا تؤدي دائما الى فهم الاشياء التي وضعت لها . وفي لغة الخرس مزية لاتوجد في لغتنا معاشر الناطقين ، ذلك ان الاشارات عندهم هي رسوم للمعاني والوقائع ، وليس الامر كذلك في النطق الذي هو عبارة عن أصوات متنوعة وأجراس مختلفة كما يعلمه كل منا . ثم اعلمي ان محادثة الاطفال مما لا شك في فائدته فإنها من دواعي ابتهاجهم وانشراح صدورهم ، ولكن على شرط أن تكون الكلمات وسيلة الى انتقال أذهانهم الى مدلولاتها ، فيجب عند تلقيهم للدوال اللفظية ان ينبهوا الى ماتدل عليه ويفهموا ما بين الدال والمدلول من الارتباط ، فبهذه الطريقة تعود اذهانهم الاستقرار وعدم التشتت .

لست أدري لماذا نهتم كثيرا بمقاومة مايجده الاطفال من اللذة في تقليد أصوات بعض الحيوانات ، فما أسعد حظ امرئ يكون فيه من المواهب الالهية مايؤهله لفهم جميع مايعيش على وجه البسيطة ! ولا أقصد بقولي هذا أن من يحاول

محاكاة أصوات بعض الحيوانات يفهم معنى لسانها ، ولكني أريد به أن مثل هذا السعي في التقليد يدل على ان صاحبه قد وصل الى درجة ما من النظر والملاحظة ، فالطفل الذي يحاول تقليد صوت الكلب أو الديك مثلا قد لاحظ ان في هذا العالم مخلوقات أخرى غيره وان لها في التعبير عما في أنفسها من الوجدانات طريقة خاصة بها .

اللغة الانسانية وان كانت وضعية فأصولها على التحقيق فطرية . انظري الى الاطفال تجدي لهم لغة معروفة في جميع أقطار الارض وهي — وان اختلفت يسيرا من أمة الى أخرى — تتألف في الاصل من أصوات آحادية المقاطع ، فأصول الكلام الملفوظ عند جميع الامم لا تخرج عن حرف ساكن وحرف لين يتكرران بحركة الشفتين مثل « بابا ، ماما ، تاتا ، دادا » وغيرها ما عدا بعض تنويعات خفيفة . والطفل يقضي من دور طفوليته زمناً طويلا لا يعرف فيه اداة التعريف ولا الضمير ، وأما الفعل فلا يدرك منه الا المصدر ولا ينفذ ذهنه الى فهم صيغ الماضي والمضارع والامر وغيرها من المشتقات ، ولا يعرف من النعوت الا قليلا وأقل منها معرفته بحروف العطف فلغته شبيهة بلغات الاجيال الاولى .

روى لنا أحد السياح أنه يوجد في أفريقية قبيلة يتألف لسانها من اثنتي عشرة كلمة لا غير ، وقال : ان أفراد هذه القبيلة على قلة ألفاظ لغتهم الى هذا الحد يتفاهمون جيدا فيما بينهم باضافة الاشارات الى الاصوات ، وكم يوجد من أطفال يفهمون أمهاتهم ما يريدونه بما هو أقل من كلمات تلك اللغة ! مثل تحريك الاعين او الاشارة اوما لا يكاد يكون شيئاً يذكر مع افصاحه عن افكارهم واظهاره لمقاصدهم .

وهنالك أمم أخرى تكاد تكون أمية ولكنها تبرّز علينا في علم ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها ، فالعرب القاطنون في ما بين النهرين (الدجلة والفرات) لا يكادون يقرأون شيئاً من الكتب لانه لا مدرسة لهم سوى الصحراء ، ولكن من المحقق ان البدويّ منهم اذا رأى آثار الخُطا على الرمل حكم فورا بأنها آثار انسان أو حيوان ، وان كان انسانا عرف قبيلته وكونه عدوا أو صديقاً ، وقدّر تاريخ مروره سواء كان قديماً أو حديثاً ، واستنتج ما عسى أن يكون قصده من سفره ، وحكم أيضاً ببعض علامات يراها منتشرة في الطريق على البعير هل كان حاملا شيئا أو خاليا ، شبعان أو جائعا ، مستجم القوى أو مهزولا ، وعلى صاحبه هل هو من سكان الحضر أو البدو . فاذا تأملنا قليلا في سبب وجود هذه المعرفة عند هؤلاء القوم ظهر لنا أن طريقة البدويّ في ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها هي بعينها الطريقة المعروفة في العلوم الصحيحة .

من الجلي ان أحدا لا يسعه انكار مكانة اللغات وما لها من الفوائد في تربية عقل الانسان ، ولكن مما ينبغي الاعتراف به ان الالفاظ اذا كانت تعفي من النظر في الاشياء وملاحظتها كما هو الشأن فيها غالبا فهي مضرة بالادراك لا مفيدة له . فالطفل وان قدر على تسمية الفرس بخمس لغات مختلفة لا يعرف في نهاية الامر الا حيوانا واحدا ، فلو اتفق انه لم يره في حياته كان لم يعرف شيئاً .

أراك تذكرين ما اشتهر عن هاملت [١] من تعجبه من تشبث الناس

(١) هاملت أمير شبه جزيرة الدنيمارك المسماة جوتلاند تظاهر بالجنون ليأخذ بثار أبيه الذي قتله أخوه

بالالفاظ حين قال: ألفاظ ألفاظ ألفاظ : فهذا الامير كان درس في المدارس، وكأنه بهذا الاستغراب ينتقد طريقتنا في التربية ، فان المشتغلين بهذه الطريقة يوجبون على الطفل من أجل كمال تربيته أن يحفظ أفكار غيره ويرددها ، مع ان الواجب عليهم أن يسألوه دائما عن أفكاره ويبادروه بالحث على النظر في الوقائع والقياس بينها وتمرين نفسه على الحكم عليها.

قد رأيت فيما سبق أن العمل هو اللازم في تربية العواطف الفاضلة وضروب الوجدان الشريفة، فكان الواجب على المربين أن يكون مرجعهم هنا أيضاً الى العمل لاحياء جرثومة الادراك في الطفل وتلقيحها لتنتج الثمرات المطلوبة . اه

الرسالة التاسعة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ١١ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان ان التفكر مما يتعلمه الطفل وخطأ المربين في عنايتهم بالألفاظ دون المعاني ووجوب تعويد الاطفال النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكر

قد يسأل سائل، هل التفكر مما يتعلمه الطفل؟ فأجيبه : هذا ما اعتقده، غير انه ينبغي التمييز التام بين ما يتلقاه من غيره من الافكار، وبين ما يستنتجه هو منها بنظره الى الاشياء ، ونحن في تخاطبنا معه لا نفعل شيئاً سوى تأدية أفكارنا اليه على وجه التمام أو النقص، مع أن الذي كان يجب علينا أن نصرف همتنا اليه هو ايقاظ ذهنه واستنباط أفكاره وآرائه .فاذهان من يعاشرون

الكبار من الاطفال محشوة بجمل من الكلام لا يفهمون منها في معظم الاحيان الا معاني في غاية التشابه والالتباس ، وليس شحن أذهانهم بهذه الجمل مما ينمي فيهم قوى الادراك والفهم بحال من الاحوال ، ولكنه ابهاظ لها، بما ليس من حقه أن يكون فيها . وكم لاقيت في سالف أيامي أطفالا يشتهرهم الناس بكونهم آيات في الذكاء والفطنة ! فرأيت ان كل ما يدّعى لهم من العقل ينحصر في انطلاق ألسنتهم بما لا معنى له من القول ، وكنت عند نظري اليهم - وهم في تنوّقهم واعدادهم أنفسهم لنيل الشهادات المدرسية - يعروني من انقباض النفس وضيق الصدر ما لا أجد سبيلاً الى دفعه، كالذي يعروك لرؤية المتصنعين المدعين ما ليس فيهم، وكنت أقول في نفسي : إن المشتغلين بتربيتهم يسلبونهم اليسير الذي آتاهم الله (سبحانه) من المواهب الخلقية بتعليمهم اياهم أفانين القول وأساليب الكلام ليسموهم بسمات العقل الذي لما يبلغوا رتبته . أما والله لو كان لي الخيار لاخترت « لاميل » أن يصدر عنه فكر ساذج ولو واحداً فقط يكون منبعثاً عن محض اختياره وكسبه ! ولفضلت هذا على كل ذلك الزخرف القولي والثرثرة التي لا نسبة بينها وبين العقل .

اذا نظرت الى الكون رأيته مملوءاً بأناس يتكلمون بما يوجد في الكتب، فان كل من يسمعهم يذكر انه طالع فيها جميع ما يقولونه، والخطأ في هذا الامر راجع الى تربيتهم لانهم قد تعلموا من نشأتهم أن يرددوا آراء غيرهم.

الام بالنسبة الى ولدها هي المجتمع الانساني بل المثال الحي لآثار السلف، ولا يشك أحد في انها مكلفة أن تعلمه كثيراً ، ولكن يجب عليها في تعليمها هذا التلميذ الصغير أن تكون على غاية الحذر من أن تلقي في

نفسه الخضوع للالفاظ والاستعباد لها، ذلك أن هذا الامر ليس من شأنه ان يفتح مغلق عقله بل فيه اغاضة لينبوع المعارف الحقيقية، ولا بدع في ذلك فأنت ترين الناس قد سموا أعمالاً كثيرة قدستها العداة فروضاً مع رفض العقل اياها وعدم تسليمها، وترين الحق يدمغ جميع الاباطيل على التعاقب، والقوة في كل زمن تسلب الحق ماله من موجبات الشرف والاعتبار. فمن لم يبلغ به علمه الى الاحتراس من غرور القول وباطله والسير في ظلمات اللغة الانسانية على هدى فذلك الذي يعيش دهره مفتوناً بزخرفها اسيراً في ربقتها.

فالذي يجب علينا للطفل هو تعريفه بحالة الكون المحيط به تعريفاً يكون بلا شك في غاية القصور على الظواهر والاقتصار على مالا بد له من معرفته، فان الكون كله معان، واريد بذلك ان كل شيء مؤثر من شأنه ان يفعل في عقل الانسان ويولد منه فكرا. ومن ظن أن الاطفال بعد انقضاء سنتين او ثلاث من عمرهم لا يكونون مفكرين فقد ظلمهم وحط من قدرهم. نعم إن افكارهم ليست كافكارنا في جميع الاحوال، وذلك مما يدعونا ايضاً الى اعتبارها وعدم اغفالها، وقلما يوجد طفل لا يهتدي بنفسه الى مالا يعلمه القائمون عليه اياه اذا تكلفوا اقامته على طريقه. فعليهم ان يستعينوا بالتجربة والتمرين على ازالة بعض ماتقع فيه مشاعره من الاغلاط، وان يحثوه بالاشارة والكلام على النظر والملاحظة، فاذا فعلوا ذلك سهل عليه بما يجريه من الاقيسة ربط الحوادث بعضها ببعض وارجاع بعضها الى بعض، كارجاع استطالة ظل الرمح مثلا الى انحدار الشمس عن اوجها، واصبح القياس بهذه الطريقة ملكة راسخة في نفسه على ما يفيده إياه من العلوم الاولية، فان في اسناد الحوادث بعضها الى بعض تعلما للحكم عليها.

الرسالة العشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٠ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

(محاولته الهرب من السجن مع المسجونين وعدم انلاحهم وخوفه انقطاع المراسلة)

قد هم المسجونون بالهرب من سجن ...... وشرعوا في ذلك فعلاً فانكشف امرهم، وستقرئين في الصحف تفصيل هذه الواقعة وكانت الاحوال كلها مساعدة لنا على هذا الهرب، وناهيك بليل غاب بدره، وريح اشتدت عواصفها ، ومطر انهمرت سيوله على جدران السجن ، ولكننا اخفقنا بعد ان قطعنا اصعب العقبات واشدها، واوشكنا ان نفوز بالنجاة،

وسيكون من نتائج هذه الحادثة بحسب الظاهر زيادة التشديد في مراقبة المسجونين، وان تصير المراسلات مع ما كانت محتفة به من العوائق على خطر الانقطاع مدة طويلة ، ولست ادري هل يصل اليك هذا المكتوب ام تحول دونه الحوائل ، وارجو ايتها العزيزة هيلانة ان لا يوجدك عليّ هذا الامر فاني لم استطع ان اصم اذني عن نداء الفطرة التي تدعوني اليك والى ولدنا . اه

الرسالة الحادية والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في دسمبر سنة — ١٨٥ ﴾

بيان شغل « اميل » وان الاعمال الصبيانية ليست باطلة برمتها بل منها ماقد يكون مفيدا

كتبت للحكومة ثلاث مرات استطلعها شيئاً من اخبارك، فصدرفي

كل واحدة منها أمر رسمي باجابتي انك بخير ، وذلك تهكم وسخرية .

أنا لا أطيق هذا السكوت الذي طال أمده بيننا ثمانية عشر شهراً ، فانه قد أمضني وأحرج صدري ، ولكني أراني قد اهتديت الى حيلة لايصال مكتوباتي اليك سترى حتما مايكون من نجاحها ، وسواء علي أفلحت فيها أم لم أفلح فاني لن آلو جهداً في ملازمة جدران سجنك ومحاصرتها على النحو الذي أعرفه .

انقضت كل هذه المدة ولا سلوان لي عن همي الا في « اميل » أوّه ! اني لأبذل أنفس ما عندي لمن يأتيني بك الساعة لتراه يغدو ويروح في البستان مكشوف الساقين الى نصفهما عاري الذراعين مرسل الشعر ، فان شهر ديسمبر هنا كما أخبرتك فيما سبق غاية في اعتدال الاقليم ، ويقول صديقك الدكتور ان شد أعضاء الاطفال وتقويتها بتعريضها لهواء الجو يعود بالفائدة عليهم في أبدانهم . ثم اعلم ان « اميل » غلام متعب فانه كاف بلمس كل شيء يقع بصره عليه ، فهل ينبغي منعه من ذلك ? وليتك ترى مايحدثه كل يوم في البستان من ضروب الاتلاف التي كان قو بيدون في بداية الامر يتوجع منها ويشكو . فلما أعيته الحيل انتهى بالضحك عجزا ويأساً . ذلك لان ولدك له في الاشتغال طرق شتى هو مخصوص بها ، فهو يقلب الارض بمقلب صغير من الخشب ، ويغرس الاشجار ، أستغفر الله بل أظنه يبني أيضاً ، ولعلك تقول انه يبني له قصورا في اسبانية [1] — لا ! وانما هو يقيم بالحصى منارات وكهوفاً . ثم ان الذي يضحكني ويسليني منه انه يسمي تلك الألاعيب شغلا وهي تسمية تشير الى ان الاطفال

(١) مثل يضربه الفرنسيون لمن يتشبث بالاماني الوهمية ويفتتن بالخيالات الكاذبة

مجبولون على تعظيم أعمالهم في أنفسهم وتقديرها بأكثر من قيمتها. على أن مايصدر عن سذاجتهم وسلامة طباعهم من أنواع هذا التقدير ليس بجملته باطلا بطلاناً تاما، فان ثمرة البلوط مثلا اذا سقطت على الارض من يد صبي صغير لم يحسن القبض عليها لا ينافي ذلك ان تصير يوما ما شجرة عظيمة (فكيف اذا هو غرسها في الارض) اه

الرسالة الثامنة والعشرون

(من هيلانة الى اراسم في ١٢ يناير سنة — ١٨٥)

أنس «اميل» بالدواجن وانسها به وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الانسان الفطرية التي كانت تدعو تلك الحيوانات الى الثقة به

اتخذ «اميل» له خليلة ولهذه المناسبة ينبغي أن أقص عليك حادثة وقعت عندنا فارتعنا جميعاً بسببها ارتياعاً عظيما: ذلك ان قوبيدون لما كان قليل الثقة بشرطة الحكومات المدنية في حفظ الانفس والاموال لما هو لاصق بذهنه من أفكار متوحشي افريقية ـ قد عثر من حيث لا ادري على كلبة ضخمة طويلة، الا انها من أشد انواع الكلاب توحشاً فسميناها (الدبة) وهو اسم ينطبق عليها كمال الانطباق في شعرها الاسود وقوتها العظيمة وغرائزها العدائية، وقد وضعت منذ شهرين خمسة جراء تماثلها الا انها من حين ولادتها بدت عليها سمات الدمامة والبشاعة فاسكناها في بيت الدجاج وكان من وراء وضعها ان زاد توحشها الفطري بسبب حنوها الأمي كما يحصل ذلك غالباً من الحيوانات الضارية، فقد تخيلت ان تخفي جراءها في سقيفة

كانت تحرس مداخلها وتمنعها بنفسها لظنها بلا ريب اننا نأخذها منها ، وقد كنت امرت بأن لا يدخل « اميل » بيت الدجاج بعد سكناها فيه لاني كنت اخشى عليه مقابلة هذا الحارس الجهنمي ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ وهو مع كونه لم يتجاوز التهادي في مشيته يتسالل ويتدخل في كل مكان. ففي عصر ذات يوم افتقدناه في البيت والبستان فلم نجده، فأرسلت قوبيدون في طلبه، ثم رأينا بيت الدجاج مفتوحاً فلم يبق في نفوسنا ريب في انه دخله ، ولكن ضاع بحثنا فيه سدى، فأول خاطر مرّ بفكر الزنجيّ هو ان الكلبة افترسته وهو خاطر فيه ريح التوحش حقاً .

لم تكن دهشة قوبيدون بأقل من ذعره اذ دخل السقيفة مخاطرا بنفسه فرای «اميل» رقد رقد على الدبة واخذ بأذنيها الطويلتين المتدليتين يجذبهما اليه. واكثر من هذا خروجا عن مألوف العادة وابعد منه عن معهودها ان ذلك الحيوان كان يتسامح له فيما كان يفعله به ويتحمل منه لجاجته في محكه بشهامة وعلو نفس لا يتصف بها الا الآخذون بطريقة زينون .[1] فلم يلبث قوبيدون ان فهم وهو مندهش ان الكلبة قد اتخذت (اميل) خليلا واكرمت وفادته فقبلته بين اولادها ، لكنها لم تمنح الزنجيّ شيئاً من هذه المراعاة لأنها لما راته انشأت تهرّ وتكشر عن انيابها زجرا له، فرأى من الحزم الفرار من امامها نخرج داعياً (اميل) الى اللحاق به فتبعه جزلا مبتهجاً غافلا عما كان قد اقتحمه من الخطر . ومن هذا الحين

(١) هو المسمى بزينون السيتيومي نسبة الى سيتيوم مدينة في جزيرة قبرص ولد في سنة ٣٣٨ ومات في سنة ٥٦٠ قبل المسيح وهو صاحب مذهب مخصوص فى الفلسفة أساسه الصبر على المكاره

انعقد التعارف بين « اميل » وبين الدّبة ، وكانها توهمته جروا صغيرا لم تحسن امه لحسه فكانت من أجل ذلك تعتبره ممن تجب لهم حمايتها ، وتلحس ما انكشف من أعضائه بلسانها العريض ، وعلى كل حال قد ظهر لي أنها حميدة المقاصد فلم يبق لي من موجب للخوف منها على ولدي .

لم يقتصر (اميل) على مصادقة الدبة بل له أصدقاء غيرها لجميع سكان بيت الدجاج معارفه ، ومن العجيب ان تراهم في غاية الائتلاف والوئام ولست أخفي عنك اني مهتمة بهذا العالم البيتي الصغير ومشتغلة بشأنه كل الاشتغال .

يوجد على القرب من بستاننا بركة فيها وشل (ماء قليل) يزداد بما ينصب فيها من ماء المطر المتحاب من سطوح المنازل ، فخطر ببالنا ان نضع فيها بطاء وتعهد بذلك قوبيدون فاشترى ثلاث بطات من كفر مجاور لنا ، وأصبحنا نتسلى برؤية ريشها الاخضر الجميل الممثل لفلذ المعادن ، ونبتهج بما تبديه لنا من ضروب المرح واللعب في الماء وبما تسمعنا من البطبطة وترينا من الائتلاف الصحيح الذي جمعها وشائجه ، ولكن الزنجي لم يلبث ان لاحظ عدم التناسب والتلاؤم في تألف هذه الجماعة فانه وجد فيها ذكرين لانثى واحدة مع ان البط على ما يظهر يميل الى تعدد الزوجات على نحو ما عليه الترك يتزوج السلطان الواحد منهم كثيرا من النساء . فمن أجل مداواة هذه العلة التي جزم قوبيدون بمخالفتها لمقتضى الفطرة [1] قد اشترى زوجا آخر من هذا

(١) يدل هذا القول على جهل الاوروبيين بحال المسلمين وقول قوبيدون ان التعدد مخالف للفطرة أنما سرى اليه من سيدته وأمثالها نغفل عن الفطرة في قومه وانما هي فطرة أراد الانسان المدني تهذيبها

النوع بعد ان تأكد هذه الدفعة من انوثته وتحراها كما ينبغي وبذلك أصلح الخطأ الاول بعض الاصلاح ، وبقي أمر ما كان يخطر لنا على بال قبل شراء هذا الزوج فانعكس فيه تقديرنا وخاب حسباننا ، وهو استقبال البطات القديمة لهذا الزوج فانها بمجرد ان رأته ولته ظهورها مصرة على مجانبته وكلما حاول القرب منها نهرته وأوسعته نقراً ، فاردنا التوسط في الصلح بين الفريقين فلم يجد ذلك نفعاً ، لاننا ما كدنا نفارقهما حتى عقدت الثلاث القديمات مجلساً للشورى بينها بمعزل عن الحديثتين وانشأن يبطبطن طويلا ، ولم أعرف مادار بينهن من التداول والتشاور بنصه لعدم معرفتي لسانهن ، ولكن معناه كان ظاهرا فكأنهن كن يقلن : اننا قد سكنا هذا المكان قبلهما ، ولنا الحق من أجل ذلك ان نعتبرهما دخيلتين ، فاجدر بنا ان نشوى على السفود شيئاً وان نجهز باللفت طعاماً للآكلين من ان نقبلهما في جماعتنا ، فنحن بط ، واما هما فليستا الا من السقط .

لما لاحظ قوبيدون أن أحد أفراد هذه الجماعة ـ وهو ذكر أبيض ذو قنزعة طويلة ـ كان أشدها لجاجة في النفور صمم على ذبحه على نصب الوفاق فداء للاتحاد والتآلف فلما فعل أنتج هذا القربان ـ مع أسفي عليه ـ أثره المطلوب ، فأخذ كل فريق يتدرج في التقرب من الآخر حتى انتهيا بأن صارا جماعة واحدة ، وان كانت البطة القديمة هي السلطانة الحظية ، فما رأيك في ذلك الشمم والترفع في هذا الجنس الحيواني ؟ أترى ان الميل للسؤدد والشرف هو الاصل الثابت في الفطرة ، وان المساواة بالمعنى الذي نفهمه منها أمر عارض عليها اكتسبه الانسان بالعدل ؟

لو شئت لقصصت عليك أيضاً وقائع كثيرة في عوائد الحمام وأخلاقه هي بالنسبه اليَّ جديدة ، فقد تبين لي من النظر في معيشته في برجنا ان أموره لا تجري تماماً على ماتصفه الكتب من جعله في الجملة مثالا للصداقة والوفاء بعقد الزوجية ،لاني رأيت ذكرا عتيقاً متزوجاً بحمامة فتية كان حظه معها حظ اولئك الشيوخ الضعاف الذين تمثل الروايات الهزلية خضوعهم وتسليمهم قيادهم لمن يخالطونهم ، فتركته في يوم من الايام واستبدلت به ذكراً فتيا متصلفاً استمالها منه بلا ريب رقيق كلامه ، وجميل تحيته وسلامه ، وكأني بك تقول: أي الزوجين كان مخطئاً ؟ الزوجة لانها طائشة وسريعة التحول والانقلاب ؟أم الزوج لانه أغفلها ولم يراعها كما ينبغي ؟فاجيبك انه ينبغي الحذر من المجازفة في الاحكام على غير علم ، ومن أجل ذلك أمسك قبل كل شيء عن الحكم وأقول : ان الزوج المخون على كل حال قد تلقى سقوط حرمته بعلو نفس يدل على الشجاعة الحقيقية ، فكان اذا اتفقت مقابلته لزوجته الخائنة في طريق يمر بجوارها بدون أن يظهر عليه أنه رآها وان يبدي أقل أمارة على حنقه عليها ، الا أنه لم يكن البتة على هذا التسامح مع من اغتصبها منه لانهما عند ماكانا يتقابلان كانا يتبادلان النقر الاليم الوقع كما كان منيلاس وباريس يتبادلان الطعن والضرب في حومة الوغى [1] ولما قضت الحمامة المطلقة زمن العشق وحان وقت حضانة البيض لم تحسنها

---

(١) منيلاس هو ابن اتريه وأخو آغا ممنون صار ملكا لاسبارطة بتزوجه بهيلانة بنت بندار وباريس هو ابن بريام وعقيبه وكان السبب في انتشاب حرب تراوده الشهيرة بخطفه هيلانة زوجة منيلاس ملك اسبارطة وقتل في هذه الحرب اشيل وقتل هو أيضاً بسيف بيروس

لانها ورفيقها كانا من فرط اشتغالهما بدواعي الحب بحيث لم يكن ليتيسر لهما ان يكثرا من التفكر في فروض البيت، ولم تعزب هذه الحالة عن ذهن الزوج المهجور، فاننا رأيناه ذات يوم يخرجهما من احدى المحاضن حيث كانا مشتغلين بتربية أفراخهما وهما والحق يقال ما كانا يأتيان بها على وجهها، وكأنه كان يقول لهما وقت اخراجهما «أف لكما أنتما لا تعرفان من التربية شيئاً فخليا مكانكما» فلم يكن الا ان خلياه بعد مقاومة ضعيفة وجعل هو يحسن العناية بشأن ادعيائه وسمة الظفر والفخر بادية على وجهه، فنبهت فكري هذه السيرة الشريفة الى أمر من المحتمل ان يكون هو سبب شقائه بزوجته وهو ان صفة الابوة فيه غالبة على صفة الزوجية .

«اميل» كما لا يعزب عن فكرك يجهل كل هذه الاعتبارات المختلفة التي لاحظتها في معيشة الطيور، وبودّي أن لا يفهم كل ما فيها، وانما الذي أعجب به هو ما استقر بينه وبين معظم سكان بيت الدجاج من الالفة والارتباط. هذا واننا كثيرا ما تساءلنا عن السبب في أن تأنيس الحيوانات كاد ينقطع من عهد ان وجدت المجتمعات المدنية، ولا شك أن علة ذلك ليست هي أعواز الحيوانات المتوحشة، فان في الصحراء كثيرا من أنواعها النافعة التي يكون من فائدتنا الظفر بها لو زال المانع من ذلك، فاذا كان الامر كما أقول فقد يكون السبب في وشك انقطاع التأنيس هو كون الانسان في عصرنا الحاضر لم يبق فيه من سذاجة الفطرة ما يكفي لثقة الحيوانات المتوحشة به وان صفات الطفولية هي اللازمة لذلك . اهـ

الرسالة الثالثة والعشرون

(من هيلانة الى اراسم في ١٤ يناير سنة — ١٨٥)

تأثير الجمال في الاطفال واحتياجهم الى كثرة التعلم

لاحظت ان اميل كلما صحبني الى دار السيدة وارنجتون ووجدهناك نسوة من المدينة اصطفى لمعرفته منهن عادة أحسنهن خلقاً، وربما دل ذلك على أن للجمال تأثيرا في نفوس الاطفال .

وبدا لي منه أيضاً أنه يحب الشيوخ ولعل السبب فيه احتياج الاطفال الى كثرة التعلم وميل الشيوخ الى الاكثار من التكلم .

لكن لا يدعونك هذا الى أن تتصور فيه أنه مثال لا تراب به، على أنني لا أريد أن افتات عليك بالحكم في هذا الامر فأدعه لك تحكم فيه بنفسك. أنا ألوم نفسي وأبكتها على استمتاعها دونك بما تجده في منتآي من السكينة والدعة ، وقد عزمت من أجل هذا على أن أبذل نفسي لك كما بذلت من نفسك فاستأجرت مخدعا في سفينة ستقلع من بنزانس الى . . . فمليك اذن أن ترتقب لقاءنا . اه

الرسالة الرابعة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ٢٠ منه سنة — ١٨٥ ﴾

أخبارها بصدور أمر بنقله الى سجن آخر واقناعها بالعدول عن السفر اليه

ترددت حينا في الكتابة اليك لاني لم أجد في نفسي من الاقدام ما

يبعثني على أخبارك بآخر بلاء أصابني وأنا على ماأعلمه الآن من أنك قد تطالعين خبر هذا البلاء في الصحف أفضل أن انبئك به على كل حال، ذلك انه قدّ صدر من حيث لاأدري أمر بنقلي الى . . . .

ليس شأني كما تعلمين شأن المقضي عليه بعقاب فهو يذوق عذابه لان هذا في قبضة القانون، وأما أنا ففي قبضة القوة تصرفني كيفما شاءت، فلست أدري من ذا الذي قضى عليّ وأمر اتهامي سر يعلمه الله، واذاسألت: ماذا يراد بي ومتى وأين ينتهي عقابي وهل هذا النقل الحديث آخر مرحلة من مراحل سفري الاليم الممض؛ فلا أجد جوابا لواحد من هذه الاسئلة.

على انه لا ينبغي ان ترتاعي لهذه المحنة الجديدة فالبحار تعرفني وأنا أعرفها ولاعتيادي المعيشة في أقاليم مختلفة أصبح في استطاعتي احتمال حرارة الشمس ورطوبة السواحل

وعليك الآن ان تكفي عن التمسك بأمل اللقاء فان بيننا بحرا كالصحراء وأرضين وبيئة، وان تبذلي نفسك في سبيل تربية ولدنا، وعلينا جميعاً أن ندأب في عملنا وان نتلقى كل مايعترضنا من العقبات بعزيمة صادقة وقصد ثابت .

أرجو موافاتي باخبار «اميل» متى تيسر لك ذلك .

فيما انطوت عليه احشائي أمران لو اجتمعت قوى البشر على ان تسلبني اياهما لردت بالخيبة والخسار الاوهما فكري وحبك، فيكفيني مالديّ من البراهين اليقينية على أني محق في تقويتي على احتمال ما ابتليت به من الاضطهاد والظلم . اه

الرسالة الخامسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٦ مايو سنة ١٨٥ ﴾

تعليم الاطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الزمنى بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقي

كانت عاقبة جدي في السعي ان فزت بوصل حبل المراسلة من وراء ما بيننا من المسافات الشاسعة بعد طول انقطاعه ، ولست أعد من الترسل ماتناوبناه منذ ثلاث سنين من المكتوبات [١] غير المهمة التي كان دأب كل منا فيها الاقلال من القول جهده ، فانا محتاجة في تخاطبي معك الى مناجاة قلبك بفكر تام الاختيار وضمير كامل الحرية .

لا أرجع الى ما مضى من الحوادث فالكلام فيه عديم الجدوى وانما أقول:

اني قد عراني لخبر نقلك من سجنك الى غيره من الالم مالج بي في التصميم على اللحاق بك لحاجة لم أحس بمثلها من قبل ، ولم يمنعني من المضي معها سوى ماغلبني من الاحساس بوجوب طاعة أمرك وسماع نصائح صديقك الدكتور ورعاية مصلحة ولدنا فانصعت لذلك الاحساس آسفة مرتقبة تحقيق أملي في اللقاء

علمت مما سبق من رسائلي ماعليه (اميل) من صحة البدن ، وأريد

---

(١) هامش الاصل — لم نورد تلك المكتوبات التي ذكرتها لاننا لم نر فيها مصلحة للقارئ فان اكثر فائدة فيها إنما هي تكميل عدد الرسائل

الآن أن أحدثك عن تقدمه في اكتساب العلم فأقول : ليس ولدنا بدعا من الاطفال ـ وهو أمر أعترف به وأنا في غاية الاستكانة والغضاضة ـ بل يجد الناس هنا فيه شيئاً من توحش سكان أطراف العالم ، ولكني أحبه كما هو لأني أرى جميع مافيه منبعثاً عن الفطرة،ولم أُعْنَ حتى الآن بتعليمه مواضعات المعاشرة وآداب الاختلاط لان جل عنايتي كان مصروفاً الى النظر في أخلاقه وأحوال نفسه والاجتهاد في تقويم طبعه وتربية ادراكه ، وسأسرد لك من تجاربي معه ماتحكم به على مبلغ نجاحي في ذلك

لاحظت أن فيه نهامة وهي عامة في جميع الاطفال فلم يسلم منها أحد منهم، ولكن قد أتت عليّ معه ساعة ارتعدت فيها فرائصي خوفاً عليه من تلوث نفسه برذيلة أفظع من النهامة وأشنع منها كثيراً ألا وهي الكذب، ذلك أن جورجية كانت تخبز ذات يوم قرصا فطيرا فلما استوى أخرجته من الفرن ووضعته ساخناً على الخوان ثم دعتنا شؤون مختلفة للخروج الى البستان فتركناه وخرجنا الا « اميل » فقد لاحظت منه أمرا دهشت له وهو اجتنابه الذهاب وراءنا . فلما عدنا الى المطبخ لم نجد للقرص أثرا فاستولت علي ريبة شديدة في أمره، ولكنني تجاهلت السارق والتفت الى جميع الحاضرين مظهرة اني أخاطب الكل فقلت: ليت شعري من ذا الذي أخذ القرص من فوق الخوان ؟ فاما قوبيدون وجورجية فانهما لم ينبسا بكلمة لعلمها البراءة من أنفسهما ، وأما «اميل» فلما لم يكن شأنه كذلك لم يسعه الا أن خجل وصاح قائلا : الدُّبة هي التي أخذته

فلما سمعت منه هذا الجواب انجرح فؤادي غما،وأنت تعلم من أحد مكتوباتي السالفة أن الدبة هي كلبة البيت، ولما أعلمه بينه وبينها من الالفة والارتباط

رأيت أن هذه فرصة سنحت لايقاظ وجدان العدل في نفسه فصممت على اغتنامها وقلت: ان كانت الدبة هي الآثمة فلا بد من جلدها ، وأشرت الى قو بيدون بتنفيذ هذا الحكم وكنت كل هذه المدة أتأمل في وجه «اميل» وأحس بان فؤادي يطير شعاعاً، ولا غرو فأي شيء كنت أرجوه منه اذا كان أصر على الكتمان وانكار الحق؟ أدرك الزنجي بلاريب موجب جزعي وفهم ماقصدته فتقدم الى الدبة المجني عليها تلوح عليه سمات جلاد ممن تمثلهم القصص المحزنة، وكانت قد بدت عليها منذ حين علائم الانس بمن في البيت والسكون اليهم لفراغها من اداء واجب العناية والحماية لجرائها ، وكأنها أدركت جميع ماحصل لانها كانت تنظر الى «اميل» نظر المستعطف الآمل ولسان حالها يخاطبه بقوله « أهكذا تدعني أعاقب ظالما »فاضطرب الغلام من هذا النظر ثم أجهش بالبكاء واستلقى بين يدي قائلا :كلا! ليست الدبة هي التي أخذته بل أنا الآخذ! اعند ذلك سُرّيَ عني ما كان أبهظ نفسي من متراكم الكدر ، ولكنني رأيت ان من الواجب علي في هذا المقام الثبات وعدم التعجل في اظهار الحنوّ فصحت قائلة له: من حيث انك تجنيت على الدبة مالم تجنه فهي التي ينبغي الرجوع اليها في طلب العفو، ففهم أنه في الحقيقة قد فرط منه في حقها هفوة يجب الاستقالة منها ، فعمد الى جيب صدرته فأخرج منه نصف القرص لانه لم يكن تيسر له أكله كله ومد يده به اليها قائلا: خذي ، فتدللت عليه في بداية الامر ولكنها لما رأت أن استماحته العفو منها صادرة عن قلب سليم ازدردت تلك اللقمة اللذيذة وسمات الرحمة والبشر بادية على وجهها ، فبعثنا ذلك على أن قهقهنا جميعاً .

أنا وان كنت لاأقوّم طاعة الاطفال لوالديهم باكثر مما تراه فيها

أجدني في بعض الاحيان مضطرة اضطراراً شديداً الى قمع أهواء « اميل » والحيلولة بينها وبين الوصول الى ماقد يضره، ورأيت من الواجب عليّ أن استعين في هذا الامر باستعداد فطري يوجد قطعاً في جميع الاطفال على السواء . ذلك أن «اميل» لما يحصل في ذهنه من حوادث العالم الخارجي الا صورة مبهمة ، فتراه يعتبر مايتعاصى عليه من الاشياء ولا يوافي رغبته ذا قوة متمردة وارادة متصرفة . خذ لذلك مثلا وهو ان له كلفا بأن يقلب مربعاً من البستان بمقلب صغير ، فاذا باشر هذا العمل سلاني وأضحكني منه ان أراه يسحق مايخرج من المدر برجليه الضعيفتين مبدياً دلائل الابتهاج بالظفر كانما في كل مدرة منها عدو له قد أرغمه وأذله، واذا اخترق الاسوجة النباتية فأصابه فرع منها في وجهه تناوله بيده وجعل يهزه ويعبث به ولسان حاله يخاطبه موبخا له بقوله « علام تؤذيني أيها الغصن الحقير » وإني لاخاله يجلد البحر اذا أغرق مركبه الصغير على نحو مافعل به كزرسيس . (١)

هذه الشكاسة التي في الاشياء — وانما أسميها بذلك موافقة لافكار الاطفال — تدعو « اميل » الى اظهار الطاعة للكبار الذين يعلمون من نواميس الكون وسننه أكثر مما يعلم . فان خضوع العالم لتلك النواميس والسنن هو الذي ألزم الانسان المحافظة على رعاية أحكام التجربة واقتفاء آثار السلف، ولذلك قد اتفقت مع قوبيدون على طريقة بها يعاقب «اميل»

(١) كزرسيس هو ابن داريوس الاول أحد ملوك الفرس خلف أباه في سنة ٤٨٥ ق . م . ومات سنة ٤٧٢ ق.م اراد اتمام فتح البلاد اليونانية الذي كان شرع فيه والده فارسل اسطوله اليها فاضطرب البحر وأغرق قنطرة كان اتخذها من السفن فامر بجلده ثلثمائة جلدة كما يعاقب الاسير العاصي

كلما عصى أوامري وأغفل الاخذ بنصائحي بحيث اني لاأتولى عقابه بنفسي بل أكله للجمادات المحيطة به ، فانه بذلك يعتاد أن يلتمس في الطاعة جُنة تقيه شر ضعفه وشر ما للفواعل الكونية من الطغيان والعتو .

جريت معه على هذه الطريقة بعينها في ضرب آخر من ضروب سيرته ، واني وان لم أصل بها في جميع الاحوال الى النجاح المقصود إخالني على الطريق الموصلة اليه . ذلك أني رأيته شغفاً بالاندلاق من البيت ، وكثيرا ماأنذرته بان في خروجه منه وحيدا ضررا عليه فلم يجد ذلك نفعاً ، فلما رأيت منه قلة الاصغاء الى نصائحي في هـذا الامر أوعزت الى قوبيدون بأن يغري به بعض أطفال القرية ، فكانوا كلما رأوه في الخارج تظاهروا له بأنهم يحسبونه وليدا ضل بيته وقبضوا عليه وردوه الي قهراً ، فأدرك من ذلك الحين الموعظة التي أردت أن أعظها اياه وهي ان الانقياد والطاعة أمثل من القسر .

على اني رأيتني قد عرفت فيه أنه لم يخلق لان يعيش وحيدا ولا لأن يقضي جميع زمانه مع الكبار لانه مادام ذا عقل وكان مقصورا على مخالطتنا يشيخ قبل بلوغه سن الشيخوخة ، وأما اذا اختلط بلداته وعاشر أترابه أشرق في وجهه نور الفرح بابتهاجهم ، وسرى الى نفسه روح السرور منهم ، ولهذا رأيت من مصلحته أن يتخذ له رفقاء من أطفال القرية جعلت أمر اصطفائهم موكولا الي حتى لا يكون له فيهم أُسى سيئة ، ولم ألاق في هذا الامر صعوبة لان الناس هنا لاشتغالهم طول النهار بتحصيل رزقهم يرون في تسليم أطفالهم لمن يقوم بشأنهم تخفيفاً من حملهم ، فاصبح بيتنا من هذه الجهة شبيهاً ملجأ من ملاجئ الاطفال . اذكر لك من أخصاء « اميل » اثنين فقط وهما غلام اسمه « وليم » يكاد يساويه في سنه ، أعني انه في الخامسة

أو السادسة من عمره، وفتاة في السابعة من عمرها عليها مخايل الحسن تسمى «ازابلا» ولكن الناس يختزلون هذا الاسم اختزالا لا شبهة في وجه مناسبته فيدعونها بلاّ (كلمة تليانية معناها جميلة)

أخص ماأعني به في شأن أولئك الاطفال الثلاثة هو ايجاد رابطة اختلاط وعشرة بينهم. فتراني اذا صرحت لهم بالانطلاق الى التنزه أوزع عليهم ثلاثة أصناف من الطعام، ولكني أراعي في هذا التوزيع ان يكون الخبز كله لواحد منهم واللحم البارد مثلا للثاني والفاكهة للثالثة فاذا حانت لهؤلاء المتبطلين ساعة اشتهاء الاكل — وقلما تتأخر لانهم يأكلون أكل صغار الذئاب — دعا من نال الخبز منهم رفيقيه الى مقاسمتهما اياه على شرط ان يقاسماه أيضاً مامعهما من اللحم والتفاح مثلا فتقبل منه هذه الدعوة عن طيب نفس لان لكل منهم مصلحة فيها، وبهذه الطريقة يتعلمون بالغريزة الجري على سنة المعاوضة التي هي على ماأرى حقيقة معنى المساواة.

من أصول الرذائل الخبيثة التي أصرف في استئصالها من نفس «اميل» جل اهتمامي الاثرة فان الاطفال مجبولون على الاستئثار بكل شيء، وهذا الاستعداد الفطري مبني في الغالب على الشره والحرص. ذلك ماأراني لاحظته فيهم وأود ان اكافحه وأغالبه. ومما رأيته أنه لاينجع فيه زخرف القول وبلاغة المنطق، وان الواجب عليّ — كما رأيت — فأحببت ان أشخص لولدي ماأسوقه له من العبر في الاعمال. ولعلك سائلي عما فعلته للوصول الى هذه الغاية فأقول: انني انتقيت من بين الاشجار المثمرة في بستاننا ثلاثاً جعلت لكل من غلماني واحدة منها مدة السنة ولكوني أنا التي توليت توزيعها عليهم أعطيت «لاميل» كرزة «ولوليم» خوخة «ولبلا»

اجاصة طعمّها قوبيدون ولما تثمر واحدة منها لتأخر فصل الصيف ، وأنا والحق أقول في شك من وفرة احمالها هذه السنة. وعلى كل حال أرى ان هؤلاء البستانية الصغار الثلاثة مهتمون بملاحظة ماوضعوا عليه أيديهم ، وقلما يفترون عن ذود الدود وغيره من الحشرات المهلكة عنه. وليس يبعد على « اميل » في إبان الكرز أن يأكل جني شجرته جميعه دون أن يعطي منه شيئاً لرفيقيه. ان فعل ذلك فصبراً لانه لابد ان يأتي يوم مقايضة الجزاء بمثله . ذلك أنه متى أنشأ الخوخ والاجاص ينضجان ذكر « وليم » و « بلاّ » معاملة « اميل » لهما وقابلاه بنظيرها مالم يكونا أكرم منه نفساً وأسخى كفاًّ فيرضيا مقاسمته ما لهما على ما فيه من الميل مع الاثرة ، وفي كلتا الحالتين عقوبة له .

من السهل كثيرا على الاطفال أن يدركوا معنى الملك في حق أنفسهم، ولكن من الصعب جدّا إقناعهم بان للغير ملكا يجب احترامه .

يشهد لذلك ماسأقصه عليك وهو أن مما يزرع في انكلترة الراوند وهو نبات بهي المنظر شديد النمو، يعرف في مزارعه بعرض أوراقه وعلو سوقه ، يدخله أهل هذه البلاد لنُدرة الفواكه عندهم في عمل أقراص ومربيات يغالون بها كثيرا ، سواء أخطأوا في هذه المغالاة أو أصابوا ، فترى أطفال القرى بسبب بقاء أذواقهم على حالها الفطرية كافين باكل هذا النبات حتى أنهم لا يحتاجون في تعاطيه الى تسويته بالنار ولا الى ادخاله في الاقراص بل هم يأكلون سوقه الغضة نجة ويجدون لها طعما مزا . من أجل هذا حصل ان تلاميذي (لاني اعتبرهم كذلك) بينما كانوا يتنزهون وحدهم في ضواحي

بنزانس لحوا حقلا من حقوله فحركتهم اليه كما حركت حمار الاسطورة [١] دعوة الفرصة لهم الى اغتنامها وغضوضة النبات وطراءته وبعض نزغات الشيطان ، فلم يكن الا أن تخطوا ما يحيط بالحقل من الحواجز الواهية ثم انقضوا بقوتهم على بعض أشجار منه رأوها أطري من غيرها فأكلوا منها كفايتهم ولكن لم يلبث وجدانهم بعد هذا ان أخذ يناجيهم فيما ارتكبوا ، فقال « اميل » وقد بدا خجله : أنحسبان أننا قد أحسنا فيما فعلنا ؟ فاضطر رفيقاه

(١) تشير الى حكاية الحمار والكلب من اساطير لافونتين وها كها منظومة من كتاب العيون اليواقظ :

عطارنا واسمه فلان	قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجحش	واسم ذا الجحش مرزبان
واتخذ الكلب حين ولى	والكلب هذا اسمه امان
فحلوا غابة خطوا	لراحة زانها المكان
ونام مولى الجميع لما	رأى مروجا بها الامان
اما الحمار اعتراه جوع	وحوله النـد واللبان
فصار يرعى وما توانى	وآن من حظه الاوان
قال له الكلب ياحبيبي	الخبز في الخرج والدهان
ارقد على الجنب منك حتى	آكل فالجوع لي هوان
فاطرح القول ثم ولى	ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم ان آتاه ذئب	له لاطع الدما لسان
فقال للكلب قم اليه	فانني معك لا أهان
قال له الكلب كيف هذا	لافاتك الضرب والطعان
احرمتني الاكل في نهاري	والجوع لاشك ترجمان
ذق غصة الموت وامض عني	فالموت أولى به الجبان
واغتاله الذئب وهو يجري	ولم يدافع ولا أمان
وهكذا في الاصول قالوا	كما يدين الفتى يدان

الى الاعتراف بأنهم جميعاً قد أساؤا .

ثم استأنفوا الكلام فقال «وليم» قول القدري الرزين: لقد كان ما كان فلم يبق في قدرتنا اصلاحه . فأجابته « بلا » — وهي لكونها أكبر منه سناً أعرف بطرق المعاملات منهما — « بلى ان لنا سبيلا للخروج من تبعة هذا الخطإ لانه يصح لنا في كل حال ان ندفع ثمن ما أتلفنا » فكان لما قالته لرفيقيها لمعة ابتهاج أشرق بها ضميرهما لانهما عولا على اصلاح التلف وبذلك يؤبون الى بيتهم هادئي البال .

على انهم لم يلبثوا ان وقعوا في حيرة عظيمة لانه لم يكن مع وليم و « بلا » من النقود فلس واحد . واما « اميل » فانه كان غنياً بوجود بني[١] (عشر سنتيمات) في جيب صدرته ولم يتردد في اخراجه ليدفعه ثمناً لما أكلوه، ولما لم يروا في الحقل أحداً يقوم مقام مالكه في قبض الثمن أدتهم سذاجتهم الى ان وضعوا قطعة النقد على ورقة عريضة من أوراق الروائد وانصرفوا .

علمت بتفصيل هذه الواقعة من بدايتها الى نهايتها من الجناة أنفسهم لاني لما كنت لا أعاجلهم بالعقاب على ما يقترفونه كانوا يحسبونني كاحد معلمي الاعتراف فيقرون لي بما يقترفونه من الذنوب طيبة به أنفسهم، ولما خفت ان يكون ما تركه الاطفال من الثمن غير كاف في تعويض ما أتلفوه تراضيت مع المالك على قيمته ودفعتها له على انها لم تكن كثيرة، وبذلك حسمت هذه المسألة بنفقات قليلة وكنت أبذل كل ما يطلب مني في مقابلة

---

(١) البني عملة انكليزية هي جزء من اثنى عشر جزءا من الشلن الذي هو جزء من عشرين جزأ من الجنيه الانكليزي وقيمته بالعملة المصرية اربعة مليمات

ما أشرق في بصائر أولئك النهابين الصغار من بريق العدل في الوقت المناسب له ، ولو كان « اميل » هو الذي صدرت منه فكرة رد قيمة ماسلب لكان سروري بذلك أعظم ـ كما لا أخفي عنك ـ وفرحي به اكبر ، على ان له فضلا ببذل ما كان معه على قلته .

كيف يكون تفهيم الاطفال ان كل ما ينبت على وجه الارض ليس مباحاً لجميع الناس ؟ .

أرى ان من أحسن مدارس الاخلاق للصغار الذين هم في سن « اميل » المدرسة الخلوية فانه يتعلم فيها من نظره الى ماينهمك فيه أهل القرى من الاشغال الشاقة أكثر مما يتعلمه بجميع البراهين الممكنة ، لانه يرى في كل يوم أن القمح لا ينبت الا اذا بذرت الناس حبوبه ، وأن أجود أرض لاتصلح للزراعة الا اذا قلبت وحرثت .

ثم ان الحيوانات أيضاً تعلمه اختصاص كل منها بما يملك . أذكر من ذلك مثلا فأقول : يوجد في ضواحي بنزانس على شاطىء جدول يجري بعض أميال ثم ينصب في البحر لفيف من الاشجار يحوم على واحدة منها منها في غالب الاوقات طائر يقل وجوده في هذه الناحية وهو المسمى عند الانكليز بملك جوارح الطير ، وعند الفرنسيين بالخطاف الصياد (لعله الذي يسمى بالعربية الزمج)

لفت هذا الطائر الجميل أنظار أولادنا في أول الامر ببهاء لونه ، ولكني نبهتهم الى أن شهرته بالمهارة في كسب قوته ، ليست بأقل من شهرته بجمال سرباله ، ذلك لان هذا المسكين يكد في كسبه وينصب فانه يجثم ساعات كاملة في مكانه أي وراء غصن من الاغصان يحجبه عن الاعين ولا يعترض

بصره حيث يراقب كما تعلم بعينيه اليقظاوين اللتين لا يفوتهما فائت مرور السمك في الماء ، فإذا سنحت له واحدة منها انقض عليها انقضاض السهم واصطادها ثم ارتفع بها معلقة في منقاره القوي الى محله ، وبعد أن يمزقها كل ممزق ويلتقمها يعود الى ما كان فيه من الترقب الشاق لعلمه أن الحظوظ نادرة ، وأن شهوة الطعام حاكمة عليه . في ذات يوم شهد الاطفال قتالا عجيبا وقع بينه وبين جارح آخر أراد أن يختلس ثمرة صيده فلم يلبث «اميل» ان فهم ان هذا الطائر الثاني هو السارق لانه أراد أن يسلب خصمه ما كسبه بجده وسعيه .

من العواطف التي أريد أيضاً أن أغرسها في نفس ولدنا احترام مايصيب الناس من العاهات . وقد رأيت ان القاء المواعظ عليه في ذلك مما يضيع به الزمن عبثا ، ولاحظت أيضاً ان كثيراً من الآباء والامهات يخطئون بتمثيلهم عيوب الخلقة وضروب التشوه الفطري لأولادهم في صورة عقوبات الهية ، ومن الامثال على ذلك ان فتاة تسكن النزل الذي أنا فيه شبت على هذه الاوهام الشنيعة فكانت تعتقد اعتقاداً راسخاً في عجوز من جيراننا شوهاء قوساء ان الشيطان يسكن حدبتها . فالذي أريد اقناع « اميل » به هو عكس ذلك بالمرة . أريد أن أفهمه من غير افراط في تنبيه عاطفة الشفقة فيه ان من سلبهم الله من عباده محاسن الخلقة عوضهم منها مواهب لم تقسم لغيرهم . علمت بأنه يوجد على مقربة من قرية مرازيون غلام اكمه يعيش من ثمرة كد والديه اللذين هما من صلحاء الفلاحين ، فرأيت فيه فرصة حسنة لتجربة الفكر الذي تصورته ، وطلبت من تلاميذي الثلاثة أن يقبلوه رفيقا لهم فرضوا بذلك . لانه متى كان المقصود للاطفال التسلي والانشراح لا يعتبر

عددهم كثيرا بالغاً ما بلغ . وقد يكون لرضائهم بصحبته سبب آخر وهو أن الانسان لا يكره مطلقاً ان يكون له رفيق يظهر علو درجته عليه لعلة فيه ككونه محروماً من بصر يضيء له سبيله وان كان ذلك الرفيق في الحقيقة أشد منه قوة وأكبر سناً ، فاننا كثيراً مانشوب حنونا بشيء من الكبر والصلف ، والاطفال مثلنا في ذلك وان لم يكونوا عالمين به على انه لا حاجة بي الى استقصاء أسباب أعمالهم .

يتسلى عَرَمة الاطفال هنا في فصل الربيع باصطياد طائر من الطيور الخاصة بكرنواي وهو الغراب الاعصم[1] ولكون هذا الطائر نفورا في حالته الفطرية تراه لا يسكن غالباً الا الاماكن المهجورة ولعلمه بشدة رغبة الناس فيه لندرته يدعوه ادراكه الى ان يتخذ وكنه[2] في وسط ما لا يكاد ينال من الصخور ، ولكن الصغار البحاثين المنقبين لا يفلت شيء من أيديهم ، فبعضهم مدفوع في بحثه بما فيه من حب الاستطلاع ، وبعضهم يحركه الى ذلك طمعه في الربح لأن هذا الغراب غالي القيمة . ثم ان أكثر وجوده في ضواحي بنزانس بالشعاف الوعرة المنتشرة حول خليج الجبل حيث يعتصم في صخور الصوان المتصدعة المنقلبة بسبب ما انتابها في غابر الأزمان من الرجفات والزلازل . ويوجد بالقرب من هذا المكان المنعزل الوعر قرية للصيادين تدعى (موس هول) ومعناها جحر الفأر وانما سميت بذلك لتعلقها على الساحل كانها جحر فأر في جدار .

(١) الغراب الاعصم هو الاحمر الرجلين والمنقار الذي في جناحه ريشة بيضاء

(٢) الوكن بالفتح عش الطائر في جبل أو جدار أو مقره في غير عش

أنا لا أستحسن بحال صيد هذا الطائر لاسباب مختلفة ، ولكنّي ربما توهمت أن في التعجيل باظهار مذهبي في ذلك لتلاميذي خروجاً عن مقتضى السياسة والحزم لأنهم يرون لهم أُسًى في أطفال القرية تحركهم الى هذا الفعل ، ومن أجل ذلك لم أمنعهم من الذهاب للصيد . فانطلقوا في بكرة ذات يوم يصحبهم الاكمه ويتبعهم قوبيدُون من بعد على غير مرأى منهم لخوفه عليهم أن يحل بهم خطر في تسلقهم الصخور . وليَم وبلا يتناوبان العناية بشأن الأكمه المسكين ويقودانه فانقضى نهارهم على ما يرام ولم يكن تنزههم على القنن الصوانية الا سبباً لازدياد شعورهم بعلو درجتهم على الاكمه لأنه كثيراً ماكانت تزل قدمه في أقل العقبات. وقد أنستهم كثرة اشتغالهم انقضاء الزمن بحيث إنهم لم يفرغوا من تناول طعامهم الشظف الذي تناولوه معاً حتى رأوا الشمس على وشك الغروب فدهمهم الليل وهم لايزالون على مسافة بعيدة من البيت ، وكان أصعب ماعليهم في ذلك الوقت تمييز طريقهم الذي صعدوا الجبل منه ، فلما رآهم قوبيدون في هذه الحيرة اشتدت رغبته في أن يظهر لهم ويسكن روعهم ولم يمنعه من ذلك الا اخلاصه في اتباع ما أرشدته اليه فانتظر حتى يرى كيف يتخلص هؤلاء التائهون من ورطتهم .

أتدري انه لما جن عليهم الليل انعكس الأمر فيهم كل الانعكاس فأمسى الاكمه بصيرا لانه بما حفظت ذاكرته ودقة لمسه (التي هي من خواص العمي) من مواقع الطريق ميز الشعاب التي مرّ بها في الصباح كل التمييز فبات قائداً بعد أن كان مقودا . فلما رآه الاطفال على هذه الحالة يسترشد في الطريق بأطراف أصابعه كأن له فيها أعينا كادوا يعتبرونه في

ذلك الوقت أرق منهم . فهم في ذلك كالمتوحشين يسهل انتقالهم من شعور متجاوز حده الى شعور اخر ليس أقل منه خروجاً عن الحد . وقد يدلنا هذا على ان عبادة بعض الشعوب القديمة لذوي العاهات من الناس مبنية على مثل هذا السبب .

على أن ميل (اميل) ورفيقيه الى الاتيان بمثل ماأتى به ذلك الاكمه قد بعث فيهم روح الاستطلاع . فالموهبة التي أوتيها الأعمى قد يصح لغيره من البصراء أن يكتسبها بالتمرن لا نك ترى الاطفال يدلهم حدسهم الفطري على بعض طرق من شأنها أنها تنمي فيهم قوة السمع ودقة اللمس أكثر من غيرها ، فمن ذا الذي اخترع اللعبة المسماة بالمسّة ؟ [1] لا إخال ان مخترعها هو حاوي [2] أو غيره من أعضاء المجتمع العلمي (اكديميه) فان هذه اللعبة التي يسميها الانكليز هنا جلدة الاعمى ليست الا تعامياً تتعرف به الطرق التي للأعمى في معرفة ماحوله . أنشأ (اميل) ورفيقاه يمارسون فيما بينهم كثيراً من الألعاب وطرق التدرب التي تقتضي الالتفات وأعينهم مغطاة ومع كون الفضل كله للابصار بالعينين كانت أثرتهم التي هيجها فيهم ما رأوه من فعل الاكمه توحي اليهم أن النظر الدقيق هو النظر باللمس ، وأنا في شك من أنهم ينالون من هذه الجهة بكسبهم ما للاعمى من

(١) المسة لعبة للاعراب يقال لها الضبطة فاذا وقعت يد اللاعب من الرجل على بدنه أو رأسه أو كتفه فهي المسة واذا وقعت على رجله فهي الاسن ـ كذا في معاجم اللغة ويظهر أن هذه اللعبة طبيعية توجد عند جميع الامم ولها كيفيات وأسماء كثيرة

(٢) حاوي واسمه والنتين هو عالم فرنسي ولد في سنة ١٧٤٥ م ومات في سنة ١٨٢٢ م استبدل بالحروف الخطية الحروف المجسمة لتعليم أحداث العميان القراءة والكتابة وأسس مدرستهم المشهورة في باريس

النظر الطبيعي ولو قضوا في مزاولة ذلك طول حياتهم، غير انه من فائدتهم ان يتعلموا في اللعب ما بين المشاعر من التعاون وقيام احداها محل الاخرى، ولست أنسى ما كنت تقوله لي كثيرا من انه لا يعرف طرق السمع والبصر حق المعرفة الا من تعاوره الخرس والعمى .

يجب عليّ الآن ان أعود الى ما كنت بصدده من حكاية اصطياد الغراب الاعصم فأقول : لم يعثر الاطفال على وكر مّا في الصخور وذلك لان (اميل) ووليم لا يزالان من الضعف بحيث إنهما لا يستطيعان الوصول الى الشعاف الوعرة التي يلجأ اليها ذلك الطائر، واما بلالا فلكونها بنت رجل يدين بمذهب المرتجفين[1] ترى ان استلاب أفراخ الطير من امها من فعل الشر . هذا المذهب الديني كما لا يخفى عليك يورث أصحابه ميلا عظيما للاحسان الى الحيوانات. والكون قو بيدون أقل تحرجا منها في هذا الامر وأحرص دائما على فعل ما يرضى (اميل) كان أمهر منهم وأسعد حظا في بحثه لانه بتلك الخفة في التساق التي تمثل انسان الآجام في شخصه كان قد اصطاد من بين القنن الصوانية والادغال زوجاً من هذا الطائر صغيراً نبت ريشه لكن أجنحته لما تطل لتستطيع الطيران، فلما رأى الاطفال الزنجيّ دهشوا دهشة عظيمة لانهم ما كان يخطر لهم على بال أنه بهذا القرب منهم يتدخل في كل مكان وهو كالليل في السكون فابتهجوا برؤيته وزادتهم

(١) المرتجفون لقب لجماعة الاخوان في انكلترة وهم طائفة من رجال الدين أنشأها جورج فوكس المولود في سنة ١٦٢٤ م . وأول من لقبهم به هو جورج بنيت في دربي (من أعمال انكلترة) لان جورج فوكس المذكور خاطبه وخاطب من حضروا معه بقوله : ارتجفوا اذا سمعتم كلام الله . هكذا جاء في جريدة جورج فوكس نفسه .

فرحا رؤية الفرخين اللذين كانا شبيهين بكرتين من الزغب ركب فيهما منقاران أحمران حتى إن « بللا » نفسها أبدت من البشر والارتياح في هذه الساعة مادل على انها نسيت مذهبها القديم .

ولعلمي مايعامل به الاطفال الطيور عادة اذا وقعت في أيديهم بقيت وحدي غير مشاركة لهم في هذا الابتهاج العام الذي ولده اصطياد هذين الفرخين، ولكن ماذا كان في وسعي أن أفعله أو أقوله ؟ فلو أني قلت لهم خلوا سبيل أسيريكم لاطلقوهما ولكن مع الكراهة والاسف . من أجل هذا رأيت أن الامثل بي الرجوع الى طريقة أخرى وهي أني وضعت الفرخين في حجرة سفلى من حجرات البيت كنا نضع فيها أدوات البستان فاتخذتها بيتاً للطيور ثم أخذت أبين « لاميل » أنه يجب عليه أن يتولى بنفسه تغذيتهما لانهما أصبحا محرومين من أمهما التي كانت تعولهما وبالغت له عن قصد فيما يستلزمه ضعفهما الشديد من ضروب العناية ليقوم ذلك مقام ما كان يكنفهما من رعاية وليهما الطبيعي ، فكان من ذلك ان حبس نفسه طرفا من النهار في بيت الطيور ولم يلبث بهذه الطريقة أن عرف أنه قد أصبح أسيراً لاسيريه وصارت كراهته لهذا العمل أمرا محتما . والذي استفاده فيه من العبرة هو أنه لايتأتى للانسان حرمان غيره من حريته الا بفقد جزء من حرية نفسه ، ولذلك لم تمض بضعة أيام حتى جاءني راجياً اطلاق الفرخين ليمضيا في سبيلهما .

لما رأيتني نجحت في سوق العبرة «لاميل » في الاكه صممت على الاستمرار في تجاربي فعلمت ان في ضواحي قريتنا راعياً صغيرا مشهورا بالبله يسخر منه جميع عرمة الاطفال في القرية ويهزأون بسذاجته وكنت

أرتعد خشية أن يفعل « اميل » فعلهم لان القدوة شديدة العدوى ، والضحك مما ينبغي الرثاء له واحترامه هو من ضروب القسوة التي في الاطفال ، ولكن أعانني ولله الحمد على ما كنت بسبيله ما أعملته من الفكر وما سنح لي من الفرصة . ذلك اني قابلت هذا الراعي الصغير ذات يوم في الحقول فتبينت فيه انه يميز كل شاة من شياهه على حين ان قطيعه كله لم يكن في نظري وفي نظر «اميل» الا شاة واحدة مكررة مئة مرة، فتلك إذن مزية له علينا عاهدت نفسي عهدا أكيدا على الانتفاع بها في سياستي «لاميل» فعرضت عليه في اليوم التالي لتلك المقابلة ان يصحبني الى الكثبان إذ علمت بوجود ذلك الراعي هناك فلما رآه قال « وَيْكأَنّي به المجنون!» وهو الاسم الذي يطلق هنا على السخفاء والبُله، فتظاهرت له بعدم الالتفات الى ماقال ووجهت نظره الى خصيصته في تمييز شياهه بعضها من بعض بمجرد نظره اليها على ضعف عقله مع تشابهها علينا كثيرا ، فكان ذلك باعثاً لدهشته وموضوع محادثة مع ذلك الابله تبين لنا منها انه على علم تام باسنان شياهه وطباعها بل بأقل الشيات الظاهرة فيها ، فتسنى بذلك (لاميل) أن يقتنع في نفسه بأن هذا الجاهل المسكين أعلم منا في بعض الامور الخاصة به . ولكي أستفيد من هذا الاقتناع طلبت من الابله قبول ولدي في مدرسته بضعة أيام يعلمه فيها ما أوتيه من العلم فقبل ذلك طيبة به نفسه منتظرا من ورائه مكافأته ، بل ربما كان أيضاً مملا نفسه بحسن ظن الناس بصلاحيته لبعض الامور وكان هذا بحسب ماظهر لي من حاله أول اكرام ناله في حياته .

وأما (اميل) فانه كان على مايظهر لي أقل ارتياحاً منه بكثير لهذا

الامر لانه بسبب حبه لنفسه وعجبه كان يتألم من أن يكون تلميذا لشخص يعتبره هو ورفقاؤه أحمق ويرى أن في ذلك غضا من كرامته ، ولكني لم أجد وسيلة أخرى للوصول الى مقصدي . على انه لاشيء عليه في ذلك فلشد ماسيفتخر على أقرانه بابداء ماتعلمه لهم وان قل ، ويظهر لهم من الشمم به مثل ما كان للاحمق عليه . استفدت له من هذا التعليم فائدتين : أولاهما ان ملكة تمييز أدق الفروق التي بين أفراد القبيل الواحد لا تقصر على استعمالها فى الغنم بل متى حصلت صح أن تتعدى الى جميع ماتكلم عنه علم التاريخ الطبيعي من صنوف الموجودات . والفائدة الثانية وأراها أنفس من الاولى هي أن يعلم بأننا على الدوام محتاجون الى التعلم حتى من أضعف الناس عقلا .

يتوهم (اميل) انه لايكون رجلا الا اذا لعب كما يلعب الجندي ولذلك تراني أبيح له شيئا من هذا اللعب موافاة لميله ومراعاة لسنه ، ولكني منذ بضعة أيام رأيت منه في أثناء هذا اللعب ماراعني وأطار لبي اذ رأيت فتيان القرية منقسمين الى فئتين متحاربتين وهو في وسطهم يحمل لهم اللواء

نعم كانوا يقتتلون بسيوف من الخشب ولكن لو أنها كانت من الصلب وكانت هذه الايدي الصغيرة العاملة بها ذات أعصاب قوية لتمثل أمامي قطعا مشهد من مشاهد تلك المذابح الفظيعة التي تصبغ أديم الارض بالدماء ويسميها الناس حروبا ، فقمت أنا وبالا مما كان يعمله قدماء السابينيين [١] أعني اننا توسطنا بين الفريقين المتحاربين وحجزنا كلا منهما عن الآخر

(١) السابينيون أمة قديمة كانت تقطن الجزء المتوسط من ايطالية أقام قسم منها في رومية مع تايتوس وبقي القسم الآخر في الجبال حتى أخضعه توربوس داتاتيوس

رأى (اميل) مني حتماً أنني تألمت لهذه الحادثة لانه لما رآني شحب لونه وألقى بنفسه بين يدي طالباً مسامحته .

واني في الحقيقة ولا أخفي عليك قد انجرح قلبي لهذا المنظر وان كنت أعلم انك في يوم ما ستعلمه من غير شك ان هنالك حروبا مبنية على الحق والعدل، وان من أجمل مايتصف به الانسان ويحمد عليه الذود عن حوزة بلاده والموت في سبيل الدفاع عن رأيه ، ولكنه في السن التي هو فيها الآن لايفهم هذه الدقائق ولا يرى في الكفاح على أي حال الا مايراه معظم الناس من كونه وسيلة للشهرة والتمايز وذريعة الى ظلم الاكفاء والنظراء ، وسواء اتخذ الأطفال لواءهم من الورق أو الخرق البالية تراهم كالجنود منقادين الى وجدان واحد لاتقوى فيه ولا ايمان، فتبعثهم غرائزهم الوحشية على أن يرفعوا أيديا لا ينقصها من أول نشأتها الاقوة القتل ليضربوا بها اخوانهم . اذا كانت الحروب تنتشب بين الحكومات فليس ذلك الا لان غريزتها قد سكنت قلب الانسان من أمد بعيد، وكيف لاتسكنه ونحن نرى القائمين على الاطفال يصرفون عنايتهم الكبرى في اعلاء شأن عطش الانسان الى شرب الدم الذي يجعلنا كالوحوش الضواري؟ فأي اسم من الاسماء الجميل ظاهرها كالشرف والظفر وحب الوطن لم يقرن بذلك الميل الذي تعبده الناس كما كانوا يعبدون وثن ملوخ [1] ؟ وانا أستعيذ بالله من ان يكون قلب ولدي مغرساً لهذه الشهوة التي كلها كذب وقسوة .

لما انتهى أمر هذه الواقعة أخذت (اميل) بيده وانطلقنا فاتفق ان رأيت في طريقي تلك الساعة كلبين ضئيلين يقتتلان ويعض كل منهما الآخر

« ١ » ملوخ هو معبود الفينيقيين والقرطاجيين وكانوا يقدمون له الاطفال قرابين

على عظمة قد قرض نصفها ، فقلت له : تأمل فتلك صورة جميع ميادين القتال ،
ولست على يقين من أنه أدرك هذه المرة معنى ذلك الكلام ، ولكن أقل
مافي هذا الامر انه فهم سبب تأثري لانه وربك كان بالغاً مبلغاً عظيماً .

أنا مع يقيني بما في تقبيح هذه الاوهام السيئة في نظر « اميل »
وتشهيرها من الفائدة له لا أرضى أن يكون جباناً ولو أعطيت في ذلك
مافي الارض جميعاً . ترى الوالدين في الجملة يفرطون أثناء تربية أبنائهم
في اساءة التصرف بمافيهم من وجدان الخوف فانهم يجتهدون في ارهابهم
بكل مافي وسعهم من طرق الارهاب ، فيخوفونهم من السماء بحجة ان
سحبها تقل صواعق الانتقام ، ومن الارض بقولهم « ان الله سبحانه قد لعنها
وغضب عليها بسبب خطيئة آدم » ومن الحياة لان أعمالهم فيها ستعرض على
حاكم يحصيها جميعها ، ومن الموت بجعله محفوفاً بمخاوف لا تنقضي الى الابد .

هذه التربيـة التي أساسها الارهاب والتخويف انما تلائم الارقاء
تمام الملائمة ، ولكني في شك مريب من أنها تنشئ رجالاً أحراراً ، فاذا كان
لا بد « لاميـل » أن يرتاع ويفزع فليكن ارتياعه وفزعه من وجدانه
وسريرته ، ولكني خلافاً لاولئك المربين اجتهد في تطمين قلبه وتسكين
روعه من هذه المخاوف المبهمة الخيالية التي كثيراً ماتلازم أذهان الاطفال ،
وأود لو أراه شجاعاً جريئاً على الاشياء وديعاً مخفوض الجناح للناس . فالواجب
أن تكسي الشجاعة حلة الشرف الحقيقي لا أن تتحلى منه بالبهرج الكاذب .

رأيت « اميل » كغيره من الغلمان الذين في سنه يخاف من الليل
ومن كل ماليس معروفاً له ، فوجد في أقصى البستان روضة من شجر البندق

المتوسط في الكبر لا يجرأ على دخولها وحده بعد غروب الشمس كأنه يخشى أن يؤكل بغتة ، وعلى أي حال ليس في الامر ما يدعو الى الافراط في الاستغراب فان الاطفال لم يكونوا ليشتغلوا بأحدوثة الاصيبع (١) كل هذا الاشتغال الذي نعلمه منهم لو لم يبق فيهم أثر من الانسان الوحشي الذي كان يعيش محوطاً بجميع ما في الكون من الاغوال ، وربما كان الذي يمنع « اميل » من الدخول في تلك الروضة مساءً هو اشفاقه من أن

(١) اسطورة الاصيبع احدى اساطير شارل بروات الكاتب الفرنسي الشهير المولود سنة ١٦٢٨ المتوفى سنة ١٧٠٣ م التي وضعها للصغار وسماها اساطير الجن وملخصها : أن حطابا ضاقت به الحال لان زوجه كانت نثورا اقل حملها التوأم فاجتمع له سبعة ولد لاكبرهم عشر سنين ولأصغرهم سبع وولد هذا ضئيلا كالاصبع فسمي « الاصيبع » وكان غصة لوالديه مهضوما عندهما على كونه أذكى أخوته وادهاهم . أصابتهم سنة شهباء اضطرت الوالدين الى التواطؤ ليلا على اضلال الاولاد في غابة لكيلا يشاهدا موتهم جوعا فسمعهما الاصيبع فبات مسهدا وبكر الى الشاطئ فملأ جيوبه حصى ابيض وكان يلقي كل بضع خطوات من طريقهم الى الغابة حصاة ولما أضل الوالدان الاولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الاصيبع الطريق وسلموا، ثم تواطأ الوالدان أخرى ولكن لم يتمكن الاصيبع من الخروج لاخذ الحصى فادخر الكسرة التي أصابته من الخبز ففتتها وألقاها في طريقهم الى الغابة ولكنه لم يهتد اليها بعد الاضلال لان الطير أكلتها فصعد الى شجرة فآنس بصيص نار في الظلام فأمه بأخوته فاذا هو بيت الغول فقبلت زوجه ضيافتهم في غرفة بناتها فجاء الغول وشم ريحهم وحاول اغتيالهم فاستمهلته الى الصباح وسمع الاصيبع فاستبدل تيجان البنات الذهبية بقبعاتهم فاشتبه الامر على الغول فذبح بناته ليلا وتسلل الاخوة لواذا ثم تبعهم الغول بنعله ذات الفراسخ السبعة فأووا الى كهف أدركه الغول من الغد فنام فوقه ليستريح فسرق الاصيبع النعل وعاد بها الى زوجه قائلا إن اللصوص قبضوا عليه وطلبوا منه الفداء فأرسله بالنعل ليحضر له جميع ما قاله فصدقت العلامة وعاد بالمال الى اخوته فحملوه الى البيت وحسنت به حالهم . وموعظة الكاتب المقصودة هي أن الناس يكرمون الجميل من ولدهم ويمتهنون الدميم مع أنه قد يكون سبب سعادة جميع أهله .

يقابله فيها ذئب القبيبعة الحمراء [1] وبالجملة فهو نفسه لا يعرف أن يعبر عما يرهبه والحقيقة انه يخاف من ذلك الشيء الذي يسمع عنه انه يجول في الظلام.

لما رأيت أن آثار الخوف ألصق بالنفس من جميع الآثار والانفعالات، وان التظاهر بمقاومتها لا يزيدها الا ثباتاً اقتصرت على أن حسنت «لاميل» دخول الروضة المذكورة مستصحبا الدبة لانها لا ترهب شيئا ولا ستعدادها في كل وقت لاقتفاء أثره، فلما رأى بهذه الواسطة أن له رفيقا لم يمتنع من الدخول ولم يلبث أن عرف ان الذي كان يشوش ذهنه الى تلك الساعة انما هو وحشة المكان وخلوه من الانيس. ولم تفتني الاستفادة من هذه العبرة أنا أيضاً لاني قد فهمت بها جميع ماقد زاد في نفس الانسان من القوة بسبب اختلاطه بالحيوانات المستأنسة في اعصره الاولى.

---

(١) يشير الى اسطورة أخرى من أساطير ذلك الكاتب ملخصها أن جارية بارعة الجمال البستها أمها قبيبعة حمراء زادتها جمالا فعرفت بها وأرسلتها يوما لجدتها وكانت مريضة بقرص وصحفة زبدة فصادفها الذئب في الطريق ولكن صده عن افتراسها حطاب فاستبان الذئب مقصدها فدلها على طريق بعيد وسلك القريب الى جدتها فاكلها ونام في فراشها فلما جاءت الجارية دعاها الى النوم معه مقلدا صوت جدتها ففعلت وراعتها أعضاء جدتها التقليدية نقالت: أي جدتي ماأطول يديك. قال ذلك لاحسن معانقتك. فقالت: وما أطول ساقيك! قال: ذلك لاحسن العدو. فقالت: ما أعظم عينيك! قال: لأجيد النظر. فقالت: ما أطول أنيابك. قال: انما خلقت كذلك لآكلك. وافترسها.

قصد الكاتب أن الاطفال الحسان ولا سيما البنات مخطئون في الاصغاء الى كل من يكلمهم ولا غرو ان يأكل الذئب كثيرا منهم، وما كل ذئب ذئب القبيبعة الحمراء فان من الناس ذئابا يبصبصون ويتملقون للفتيات ويغازلونهن متبعين خطواتهن في الازقة والشوارع ولكنهم على مايظهرون لهن من اللطف والحب أضر عليهن من جميع الذئاب لانهم يفترسون شرفهن الذي هو اكرم من أجسادهن

أنا الى اليوم ملتزمة مع « اميل » عدم الخوض في المسائل الدينية موافاة لرغبتك ، ولكن قد حصلت بيننا واقعة في الاسبوع الماضي ينبغي أن أقصها عليك : ذلك أننا رأينا في عصر ذات يوم من ذلك الاسبوع هيدبا [١] من السحاب رصاصي اللون كان أول ما رأيناه قزعا [٢] ثم تراكم حتى صار مكفهرا ثم اختلط فصار قطعة واحدة مظلمة أناخت على الماء بكلكلها ، وكنا نرى شعاعاً أكدر من أشعة الشمس لا يزال يخترق هذا الستار الحدادي في بعض جوانبه ولم يكن الا قليل حتى غاب في شبه دجنة مخيفة منذرة بالمطر ثم انقطع هبوب الريح فلم يبد منه أقل نفحة ، وقلما كنا نسمع من بعد تنفسَ الخليج بامواجه وهي تعلو وتنخفض متثاقلة كأنها صدور المكروبين اللاهثين ، ونظرنا الى الشاطئ فلم نر فيه عود حشيش واحد يتحرك ، فكان الكون في سكونه هذا كالمشدوه الغائب عن رشاده يتوقع حصول أمر عظيم له ثم لم يكن الا أقل من ساعة حتى عصفت العاصفة بعد كمونها ثم صدع البرق قبة السحاب المتراكب صدعا متمعجا وقصف الرعد لاول مرة قصفا اهتز له جميع البيت فارتعدت فرائص « اميل » واسرع الي محتميا بي مستندا الى صدري كأن في قدرتي أن أمنعه من هياج الفواعل الكونية ، ثم تعاقبت البروق والصواعق وأنشأ ماء الخليج يغلي وهو اكدر مزبد كالسكب (البرنز) صهر في مرجل ثم أخذت الريح بعد ارتفاعها فجأة تبدد سيول المطر مزمجرة ، وكنا نسمع هزيم الرعد في السحاب من بعيد ونرى وميضاً فجائيا متتابعاً ثم تبع ذلك كله الهدوء والسكون

---

(١) الهيدب السحاب المتدلي الذي يدنو من الارض مثل هدب القطيفة (٢) القزع قطع السحاب الصغيرة المتفرقة

ولما كان «اميل» أكثر من في الارض مسألة سألني وهو متأثر قائلا: «اماه! ماهذا الذي أثار غضبه فوقنا ؟» تحيرت هذه المرة حيرة شديدة في اجابته ، لاني لو قلت له: ان ذلك هو الله لكنت قد ألقيت في ذهنه معنى سخيفاً لذلك الذات الكامل القدرة البالغ الحكمة المبرإ عن الانفعالات ، فاقتصرت على ان فسرت له بأحسن عبارة مناسبة لفهمه سبب هذه الظواهر التي أزعجته . على ان الغلام قد أدرك بحدسه من هذه الاصوات الشديدة التي سمعها من العاصفة ومن هذا الجو المملوء بالمفزعات الإلهية، بل ربما أدرك أيضاً من عيني اللتين كانتا على رغمي أكثر من لساني كلاما ـ نعم أدرك من كل ذلك ـ ان من وراء هذه الآثار شيئاً آخر وذلك ان الله (سبحانه) ليس ظاهراً للعيان، فيشار اليه بالبنان، ولكنه موجود يحس به الوجدان، ويعرفه الفكر والجنان، من أجل ذلك قمت أنا «واميل» وأدينا فرض العبادة لذلك المريد الذي لاحد لارادته القادر الذي بيده مقاليد السموات والارض وان كان عقلنا لا يصل الى ادراك كنه ذاته .

كل يوم تبدو لي صعوبة العمل الذي شرعت فيه ، فان طريقة التربية بالعمل التي أسير عليها تقتضي أن يكون في المربي معارف أنا خالو من كثير منها ولكن هذا لم يمنعني من اعتقاد أنها هي الطريقة الوحيدة في تقويم خلق « اميل » ثم اعلم ان حياتي بدونك انما هي فراغ أجتهد في ملئه بالقيام بذلك الفرض العظيم ، ولم يبق لي من غرق سفينة آمالي الا ولدنا الذي أتشبث به تشبث الغريق بلوح النجاة وأحبه لذاته ولك . على أن بعض هواجس مشؤومة تمر بخاطري من حين الى حين فتكدر صفاء ما في قلبي من نفيس عواطف الحب ، ذلك اني أقول في نفسي: ماذا يكون الحال

اذا كان هذا الطفل بعد مابذلناه له من صنوف العناية يخون في مستقبل أيامه عهود والده وينكر مبادئه ويدوسها تحت قدميه ولا يكترث بما عراه من الآلام طول حياته ؟ اذاً لاقتلته . . . كلا! بل أقتل نفسي ولكن تحقق هذه الهواجس من المستحيل ، وأرجو أن يصلني كلمة منك تزيل عني هذه المخاوف المكدرة التي بلغ تشويشها لي الى أعماق نفسي . اه

الرسالة السادسة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ٣٠ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

وجوب اعتراف المربي للطفل بجهل مايجهله وانتقاد المربين دعواهم العلم بكل شيء
وانتقاد التعليم الديني والسياسي واستحسان طريقة زوجته في التربية
وبيان بعض شروط التربية التي منها ان ينسى المربي ما تعلمه
ليعود الى تعلمه مع الطفل

أنا أيتها العزيزة هيلانة أعرف فرط حبك لي وجميل انعطافك نحوي وأقدرهما حق قدرهما، ولكني لست معك فيما يخامر قلبك من المخاوف في شأن مستقبل «اميل» فاني وان كنت والده لاأرى لي حقاً بحال من الأحوال في ايجاب أن يكون تلميذاً لي، فمن ذا الذي يصح له ان يتبجح بأنه قد وصل الى الحق المطلق وان حسنت منه النية في البحث عنه واعتقد أنه يذوق المكروه من أجله. نعم انه ليؤلمني ألماً شديداً أن أراه في مستقبل حياته مخالفاً لي في آرائي غير آخذ بمعتقداتي، ولكني أكون أنا المخطىء الملوم في ذلك دونه لانه قد يكون سببه عدم حذقي في ايصال أفكاري

الى نفسه أو حكمه على هذه الافكار بما عسى أن يكون هو الحق فيها ، أعني أنها أغلاط عقل صادق في بحثه عن الصواب مخلص في تلمّسه طريق الرشد.

على أنه لافائدة في الاشتغال بالمستقبل فان الذي يعنينا هو الوقت الحاضر .

تقولين : إن « اميل » محب للاستطلاع كثير المسألة فأبشرك بأن هذه أمارة حسنة على نجابته ، ولكني أنصح لك اذا سألك عن شيء تجهلين حقيقته أن تعترفي له بجهلك اعترافاً خالصاً من المواربة وإن كان ذلك مخالفاً لما عليه معظم الوالدين ومعلمي المدارس الذين لديهم كما ورد في الأمثال « لكل فتق رتق ولكل مسألة جواب » فكأنهم يتوهمون أنه يكون لهم بهذا نوع من السلطان على عقول تلاميذهم وأنت بحمد الله في غنى عن التذرع بهذه الذريعة الخطرة لاثبات ولايتك على « إميل » أقول: إنها خطرة، ولا أحول عن وصفها بذلك، فان في تعويد الطفل اعتقاد أن لكل شيء معنى محققاً يمكن ان يتناوله من غيره بسهولة مبادرة إلى اخماد قوة الذهن ودعوة لها الى التبلد، لأنه متى سبق اليه الوهم بأنه يوجد في الناس علم كافل بازالة جميع الشكوك التي تعترض الذهن في فهم معاني الاشياء لايجد موجباً لتكلف البحث والملاحظة ، واما اذا اعترفت له بأنك لم تمعني النظر فيما يسألك عنه إمعاناً يكفي لابداء رأيك فيه فانك تكونين قد عجلت بتعليمه أن اصابة الحق هي ثمرة عمل الجادّ ونتيجة بحثه ، وأي جواب يساوي هذه الموعظة ؟

ثم ليحذر الوالدون والمعلمون أن يكون في ادعائهم لانفسهم نوعا من العصمة في العلم استدباراً للغاية التي يسمون اليها . ذلك أن الناشئ اذا

كشف له المستقبل بغتة مايقع فيه اولئك المصرفون لعقله من الاغلاط تزعزع اعتقاده فيهم مرة واحدة وزالت من نفسه الثقة التي أرادوا أن يجعلوها محلا لها، وليس ماأخشى مغبته على «اميل» من أنواع الريب هو الحذر النافع الذي يكون فيمن تعلموا من صغرهم البحث في الامور وعدم التسليم بها قبل اتضاح وجه الحق فيها، وانما الذي أخافه عليه هو مرض زوال الاعتقاد .

مما ينبغي التصريح به أن الصبغة الاعتقادية التي نراها في طريقة التعليم عندنا ناشئة من جميع مقومات أوضاعنا الاجتماعية، فانه متى اعتبر أن القائمين على الدين وعلى السياسة قد فكروا في مصلحة الامة لزم بطريق البداهة أن تنزل من سماء علاهم طائفة من العلوم مقررة فيفرض على عقول الاحداث قبولها بلا نظر ولا مناقشة، فأنت تجدين في التعليم الديني أسرارا يتعاصى على عقل الانسان اكتناهها، وأعمالا وعادات ليس في مقدور أحد من الناس تغيير شيء منها، وأحكاماً لاتقبل العرض على محك النظر بل تقيد قوة الادراك الى الابد، فلا تجد سبيلا الى الجولان فيها[1] واما التعليم السياسي فهيهات أن يكون ما يلقيه فيه الاستاذ على

(١) انما دعا اراسم لتوجيه هذا الانتقاد الى التعليم الديني كونه من غلاة أهل النظر وله ولامثاله بعض العذر في هذا الانتقاد لما دخل على الاديان من الفساد الذي دعا الى اختلاط الحق بالباطل، والدين الحق لايخالف النظر العقلي لان الاسلام يعلمنا ن أساس الدين العقل وما أخبر به الكتاب الالهي من أمور الغيب ليس فيه شيء ممنوع في نظر العقل. ومن لم يصدق الا بما يراه لايمكنه أن يثق بقول مؤرخ لا طبيب ولا كيماوي ولا طبيعي اذا قالوا أو اكتشفوا شيئاً حتى يراه بعينه ويكتشفه بنفسه وذلك يدعو الى أن يكون كل انسان أجهل الجاهلين .

تلاميذه أقل مما ذكر إلزاماً لان الاستاذ لما كان أجيراً للحكومة كان بالضرورة صدى يردد أصوات أحكامها، فبخ بخ لهذا النظام الذي لولم يكن مؤدياً الى استعباد النفس لما رأيت لي وجهاً في انتقاده، وإنما كان مؤدياً الى ذلك لانه بما له من الاثر في اماتة عزيمة الناشئ يحصر فائدة التعليم في مجرد تمرين الذاكرة ، فوارحمتاه لذلك المسكين الذي هو كالبعوضة حُمِّلت من تواريخ القرون الماضية وعلومها وأقوال الثقات فيها ما أبهظها فعاقها عن الطيران .

على انه يندر – والحق يقال – أن يصل أرباب هذا الحصر والتضييق النفسي الى تمام الفوز الذي كانوا يؤملونه من ورائه، فان تأثير الزمان الذي يعيش فيه الطفل أو ما يوجد في طبعه أحياناً من المقاومة والمعارضة، أو ما يتلقاه من آراء أهله الذين يتربى بينهم يخلف في كثير من الاحوال ظنون القائمين على التعليم الرسمي ويأتي بعكس ما كان في حسبانهم ، ولكن لا بد من الاعتراف بأنه لا ينجو من وحدة هذا القالب الذي تصاغ فيه الاجيال الناشئة على الشكل المطلوب الا العدد القليل، وأما السواد الاعظم فإن مدار تعلمه يكون على التسليم والاعتقاد والوقوف عند حد ما تلقاه عن معلمه الذي يعيد عليه ما أخذه عن أساتذته، فالتربية في مثل هذه الاحوال سلاح ذو حدين يتسنى به استعباد العقل كما يتسنى به تحريره ، ومرجع الحكم في ذلك الى المصادفة والاتفاق، واني لن أرضى ان اكل مستقبل « اميل » الى مداحض مصادفات يتردد بينها الحق والباطل ، وتعتورها الحرية والاسترقاق، ولو أوتيت في ذلك أنفس شيء في العالم كله .

على اني أعوذ بالله أن أجحد مالآثار السلف من المزايا والفوائد إلا أنّ في الاخذ بهذه الآثار كما في الاخذ بغيرها من الامور حداً وسطا يصعب تمييزه ، فالطفل الذي لا يتلقى شيئاً من المجتمع الذي يعيش فيه يصير إما متوحشاً وإما أحمق،وأما الرجل الذي يتلقى منه كل شيء بالتسليم مرتكناً على ثقته به مجتنباً مشقة النظر فيما تلقاه منه بدعوى أن من سبقوه قد كفوه مؤنة ذلك وكانوا أصح منه نظراً فانه لا يكون أبدا الا ضعيف العقل معجلا بوقف نفسه على جميع ضروب الاستعباد.

ثم اعلمي أن معظم أغلاطنا ومعتقداتنا الباطلة مبني على آراء يتداولها الناس ويرون تسليمها واعتبارها حقائق معصومة من تطرق الباطل اليها أسهل عليهم بكثير من استئصالها واستجلاء الصواب فيها بنور العقل ، فمثل هذه الآراء تسري الى نفوسنا من أول نشأتها وينتهي أمرها الى أن تكون من الامتزاج بها بحيث يلزم لاستئصالها في المستقبل بذل جهد عظيم في إعمال القوة الحاكمة والاستعانة بشيء من الاقدام والبسالة . نعم إنه من الصعب جداً أن لا يعلق بنفس « اميل » شيء من تلك الافكار الفاسدة ولكن الذي يهمنا هو أن يكون مايتصل به منها أقل مايمكن وأن يجد في مستقبله من حرية نظره وسيلة لتمييزها والخلاص منها .

وجملة القول أن طريقتك في تربية « اميل » قد نالت من رضائي واستحساني اكمل حظ ووقعت من قلبي أجل موقع فان التربية عمل ملاكه بذل النفس وقوامه الحب،وأنا أعرف من كبار الرجال من دأبهم الاحتراس والانقباض في معاشرة الاخصاء ومخالطة الاصفياء، فامثال هؤلاء لا ينبغي أن تعهد اليهم تربية الاحداث لانه يشترط فيمن يتولونها

أن يكون فيهم من انبساط النفس ما يأخذ بقلوب الناشئين اليهم ، وأن يكونوا من المحدثين (١) فيها المبعوثين عليها ببعض البواعث الفطرية ، فمربي الطفل ومعلمه الحقيقي المستكمل لهذه الشروط انما هو امه .

ثم إني مستحسن كذلك مارأيته من ادامة الدرس والمطالعة ليتيسر لك القيام بهذا الفرض الذي قدر لك ، ولكني أعظك بأن تجعلي هذه الحقيقة دائماً نصب عينيك ألا وهي : ليس أول شرط في التربية أن يكون المربي عالما وانما هو أن ينسى جميع ما تعلمه ليعود الى تعلمه مرة أخرى مع الطفل . اه

الرسالة السابعة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ٢٣ اغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

بيان وجوب التدرج في تعليم العلوم للاطفال بافت أذهانهم الى ماحولهم وانتقاد الكتب التعليمية

أذكر أن رجلا فاضلا من أصدقائي كان قد وجد في نفسه انبعاثاً الى التربية فاوجب عليها الاشتغال بها ، ثم إنه ندب لادارة مدرسة كان غيره أنشأها فألفى نظام التأديب فيها بالغاً من الشدة غايتها ، اذ رأى فيها أفرادا من التلاميذ يخصون بالعقوبة دون غيرهم فيقضون ساعات الاستراحة في فنائها كل يوم جُثِيًّا أو قياماً في مواقف الجزاء ، ولم يكن يعوزها شيء مما تشرف به من طرق العقاب كالتكاليف بمضاعف العمل والحبس والمنع من الخروج لانها كانت سائرة على الاصول القديمة القويمة ، فما لبث

(١) المحدثون بصيغة اسم المفعول هم الملهمون

صديقي هذا أن أبطل كل ذلك النظام التعذيبي دفعة واحدة لعلمه بأنه لا يرهب الا الجبناء ولا ينشأ عنه أثر للتهذيب في نفوس المتعلمين ، وقال للتلاميذ: أنا اعلم من سيعاقبكم بعد الآن ان أنتم أسأتم .ذلك هو وجدانكم الذي لاينجو من سوط عذابه من أعفي من ضرب العصا .

كان شعار هذا المربي في تعليمه « لاقلنسوة لعالم ولا لحمار »[1]

وكان التلاميذ قبل وجوده في المدرسة لا يتسنى لهم ان يخطوا خطوة في دهاليزها الطويلة وفي عرصاتها وقاعاتها الفسيحة الا وهم مصطفون مثنى مثنى تحت رعاية كبير لهم يسمونه ضابط الرجالة تهكما به ويكرهونه من صميم أفئدتهم ولا يفترون عن مماحكته وابتلائه بضروب الحيل والخبث، فجمعهم المعلم الجديد ليلقي عليهم نبأً عظيماً فقال لهم : اعلموا أنكم من الغد أحرار لا سيطرة لاحد عليكم وانه لن يرعاكم في سيركم وسيرتكم سوى عين الواجب الذي تشعرون به . ولا أراني بعد هذا في حاجة الى القول بان كلا منهم بمجرد سماعه هذا التنبيه قد اعتبر طاعة النظام من أمس الامور به وألزمها له .

وبينما كان في يوم من الايام مجتازا حديقة المدرسة بصر بتلميذ تسلق عريشة كرم ممتد على جدار عتيق يتدفق من فوقه ضوء الشمس ، وأنشأ يأكل من قطوفه أكلاً لماً ، فتظاهر له بالغفلة عن فعله ورجاه ان يلتمس له أمين المدرسة ، فاتاه من فوره يتبعه الغلام النهاب والريبة تدب الى نفسه ، فقال المدير للامين، كيف يصح أيها السيد أن لا يعطى هذا الغلام من الطعام

(١) القلنسوة في نظام التعليم الاوروبي شارة العلماء ينالها من أتم المدارسة وأدى الامتحان فيها

كفايته فانه لم يكد يخرج من قاعة المائدة حتى جاء الى الكرم وطفق يجني قطوفه خلسة ، فارجو أن تأخذه الآن بنفسك وترده الى المطعم ليأكل مايكفيه .

كان هذا المربي أقل الناس شبها بمديري المدارس ، وكان من أجل ذلك محبوباً لتلاميذه ، فاني كثيرا مارثيت لحال معلم الاطفال الذي هو شهيد الشهداء لمقتهم اياه مع إحسانه اليهم، وعلى كل حال لست أدري هل كنت مخطئاً في ذلك أو مصيباً فلا إخال الطفل كفورا بنعمة معلميه ولكنهم هم الذين أرادوا أن يطعموه من باكورة العلم صابا وعلقما، كيف لا وفي التعلم سعادة المتعلمين ! وفي التمرين والتدريب حياة لكل قوة من قوى الانسان !ولاشيء الاوهو يطلب الوجود والظهور والنمو !وهكذا شأن التلميذ، وانما القهر هو الذي يحيل فرحه الى ترح ومرحه الى خمود، فانه يجيء الى المدرسة وللحياة فيه دوي كدوي النحل فيجد مديرها عابس الوجه متمسكا بالكتب واثقا بها ثقة الظالم الغاشم، فياله من تنشيط للاحداث وترغيب لهم في التعليم !

الكتاب الذي ينبغي أن يتعلم منه الحدث هو صحيفة الموجودات والمدارس خلو منها .

انك اذا دخلت غرفة من غرف المدارس لا تجدين فيها سوى مكاتب ملطخة بالمداد ،ومقاعد من الخشب غير مستوية القوائم، وجدرانا أربعة عارية من الزينة ،وسقفاً مرفوعاً على خشب غليظة خشنة يمتد بينها نسيج العناكب التي هي عوامل الضجر المحزنة ، فاذا نظرت خارج تلك الغرفة من نوافذها المفتوحة رأيت الطيور مطلقة السراح مغردة في الجو

كأنها تسخر من التلاميذ ، فان الكون الخارجي كله أصوات وأضواء وأشكال وألوان تدعو الطفل الى التعلم بواسطة مشاعره ، وأما هذه الغرفة فلا شيء فيها يلفت نظره، فقلما يوجد فيها صورة وشيء من خوارت تقويم البلدان، وما عساه يوجد من الصور فدميم قبيح ،ومن الخوارت فهو يشبه خط قدماء المصريين في غموضه وتجرده من الرونق وقصوره عن تمام البيان، فأقسم بالله على المتولين أمر التربية أن يدخلوا في هذه المقابر التي أعدوها للاحداث نفحة من نفحات العالم الخارجي وشعاعاً من أشعة الحياة .

كل أمة تعني بالتربية حق العناية ينبغي أن لا تخلو مدرسة من مدارسها من منظار معظم (ميكروسكوب) لمضاعفة أجرام الاشياء التي لا ترى بمجرد النظر ، ومن مرقب (تليسكوب) تسهل به رؤية أشكال أقرب الكواكب الى الارض ، ومن كرة جوفاء تمثل في باطنها أقسام الدنيا (جيوراما) ومن مَرْبًى للحيوانات والنباتات المائية، ومرآة للصور الماثلة (استيريوسكوب) وبالجملة يجب أن يوجد فيها جميع الادوات اللازمة لتحصيل معنى الكون وآياته الكبرى في أذهان الناشئين .

اعلمي أن اللفظ والخط طريقتان قاصرتان جدا عن ايصال العلوم الى نفس الحدث، وان اللازم له انما هو رؤية الاشياء، فلمربيه توجيه فكره ولو قبل تعليمه القراءة الى أمور كثيرة لا تخرج بحال عن متناول ادراكه، ورأيي فيما عليه المربون الآن: هو انهم يفرطون في التعجيل بتعليمه بعضاً من فروع العلم كان حقها التأجيل وفي تأجيل بعض آخر كان أولى بالتعجيل، وكان يجب عليهم في اختيار العلوم وترتيبها أن يرجعوا الى درس القوانين

التي يجري عليها الانسان في نمو جسمه ونفسه وعقله .

قولهم «لما يجيء وقتي» كلمة تصدق على معظم قوى الانسان في ساعة مّا من عمره، فالطفل الذي وصل الى أن يدرك من الاشياء أبعادها وعلاماتها الظاهرة يكون عقله في غاية القصور عن الاحاطة بما بينها من الروابط، ويكون أيضا أشد قصورا عن النفوذ فيما تجري عليه من القوانين، ويقصر عقله خصوصا عن تتبع سلسلة الاسباب التي نشأت عنها، فاليافع يتأثر بالقضايا الشعرية وترتاح نفسه اليها، ولا يميل الى القضايا المنطقية والاصول الحكمية، ومن حاول استمالته اليها فقد عبث، والسبب في هذا ان ضروب الاستعداد المناسبة لهذه العلوم العقلية لما توجد فيه أو أنه لم يوجد منها الاجرائيمها، فالادراك لفظ عام يدخل في مفهومه عدة قوى متمايزة كل التمايز لا تنمو الا بالتدريج، ولكل منها طور كمون ثم تظهر تابعة في ذلك لجملة من الحوادث تتغير بتغير الاشخاص وما يحيط بهم ولكنها على التحقيق محدودة بنواميس الكون والزمان، فأفكارنا ووجداناتنا ولها أعمار كاعمارنا .

الشيء الواحد يقتضي أن يتعلمه الانسان عدة مرات ومن وجوه مختلفة . خذي لك مثلا. الطفل لا يرى في الوردة بادئ بدء الا وردة ثم اذا نمت فيه قوة الادراك قليلا انتزع من شكلها ولونها ورائحتها مثالا عقليا ممتازا يعرف به الوردة كلما وقعت في يده وهو في هذا الطور من الحياة لا يهتم بمرتبتها التي عينها لها علماء النبات في ترتيبهم ولا بتركيبها ومعيشتها، فتلك طائفة من الشؤون والافكار يجب على مربيه الاحتراس التام من الخوض معه فيها اذا كان يعنيه ان لا يضل مدركته، وكذلك الشأن في جميع الموجودات .

اذا أردت أن اعلم «اميل» علم طبقات الارض (الجيولوجيا) مثلا وهو العلم الذي يعتبره العارفون أبا العلوم فاني أنبهه أولا الى ما يوجد في الاحجار بل في حصا الطرق من أشكال المخلوقات العضوية المنطبعة عليها، فان حبه للاستطلاع وميله للاستئثار بالمعرفة مع مساعدة الفرص يعودانه في أقرب وقت تمييز أهم العلامات التي توجد في دفائن الارض من بقايا تلك المخلوقات لجميع ذلك مناسب لسنه أو قريب منها . ثم بعد ذلك ببضع سنين ادعوه الى ان يقيس ما يكون قد جمعه من هذه النموذجات بعضه ببعض وان يرتبها على حسب ما بينها من التشابه ، وفي هذا الوقت دون غيره أتلطف في تسريب معنى أطوار الأرض وعصورها الى ذهنه ، وأقص عليه تاريخها مستعيناً بتلك الحصا والحجارة ، فقد قال شكسبير « ان في الحجارة لموعظة وذكرى » وأنا أقول ان فيها ماهو أسمى من ذلك فهي وحي يعلمنا كيف خلقت الأرض. ثم اذا بلغ « اميل » الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره ـ أي صار في سن تؤهله لفهم كل ماأقوله له حق الفهم استعنت بعلم طبقات الارض على تعليمه حكمة التاريخ فهو أمثل مقدمة لها .

فيما كاشفتك به من أفكاري هذه غناء عن تعريفك اننا لاينبغي لنا في تعليم « اميل » ان نعوّل على شيء من المؤلفات الموجودة ، فالوجيزة منها والصغيرة والكتب المدرسية التي بين أيدي الاطفال جميعها وضعت لغير الوجهة التي نقصدها ، فانها مختصرات علمية توهم واضعوها انها تكون ملائمة لادراك الاحداث بسهولة عباراتها ، وليس العيب ههنا في شكل الكتب وانما هو في أصل وضعها ، فإن أول شيء يتسنى للطفل ادراكه

من نظام الكون هو ما كان يدركه منه الانسان في أول نشأته قبل تقدم العلوم وتقسيمها ، فالمعلمون لا يفتأون ينسون ان التعاريف والتقاسيم والقوانين لم توجد الا بعد التجارب ، كما ان علوم اللغة متأخرة عنها في الوجود وكذلك علوم الدين ، ويغيب عن أذهانهم أن علوم الانسان لم تكون البتة بالصورة التي يتعلمها عليها الاحداث الآن ، فان الانسان لم يصل الى ايجاد طائفة من العلم محدودة الا بالانتقال من حادثة جزئية الى أخرى ومن سلسلة من الحوادث مرتبط بعضها ببعض الى غيرها ، وبعد ان وجدت له طائفة منها أنشأ يستنبط لها القوانين التي تضبطها ثم تفرعت دوحة المعارف وتمايزت فروعها وانفصل كل علم من الآخر .

فالجري في تعليم الطفل على غير هذه الطريقة قلب لنظام عقل الانسان فالمعلمون انما يلقون عليه نتائج العلوم وخلاصاتها قبل أن تؤسس قوته الحاكمة بمبادئها وتدعم بمقدماتها فتريهم ينحدرون مرة واحدة من الذروة التي رقي اليها العلم في عصرنا بعمل الاجيال الماضية الى ماهو فيه من حضيض الجهل ، والذي يستحسن أولئك المعلمون تسميته مبادئ العلوم انما هو في حق الطفل من ثمرات العقل المبالغ في تحضيرها ومن نتائج ربط الاشياء بعضها ببعض .

أنا لا أجري على هذه الطريقة في تعليم « اميل » فاني أود قبل أن اعلمه تاريخ الموجودات أن أعرفه بما في الكون ، فاجعل له به انسا بأن أوجه نظره الى حوادث الحرارة والضوء والكهرباء قبل تعليمه قوانين علم الطبيعة ، واعلمه شيئاً من أوصاف أشكال الأجرام السماوية ومواقعها

من قبة الفلك قبل الخوض معه في علم الهيأة ، بل قصدي الى ان أشرح له في المستقبل ما أعلمه من نواميس الكون أقل بكثير منه الى ايقاظ وجدان الملاحظة فيه، فان تعليم الطفل ليس بشيء يذكر وانما الامر الخطير هو أن يؤتى وسيلة التعلم بنفسه وتحرك فيه دواعي الاقبال عليه ، فدروسي «لاميل» كلها لا يكون فيها الا ماله شأن في تنبيه عقله وتقويته لانه مرجع جميع علومنا على اختلافها .

رأيت مما قدمته لك أنه قد قضي عليك أن تكوني «لاميل» كتابا يأخذ عنه علمه فلا تستعيني بشيء من صغار الكتب وموجزاتها ومختصراتها، وعليك أن تلتمسي له أبسط المعاني وأليقها بحالة ادراكه مع التدرج في ذلك بحسب ارتقائه في الفهم وان تجعلي تعليمك مطابقا لاحوال سنه .

الرسالة الثامنة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٥ اغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

(فوائد التصوير والمعارض في التربية)

لو أني عهد الي ببناء مدرسة كبرى للناشئين في أمة من الامم العظيمة لبذلت وسعي في أن أبث في جدرانها من العلم روحاً وعقلا .

ذلك لان القائمين على التعليم لم يزالوا في سبات من الغفلة عما كان لمعاهد التربية من التأثير في خيال المتعلمين خصوصاً في سنيهم الاولى .

ولقد كان القدماء أنفذ منا ادراكا في سر التعليم بالمشاهدة ، جروا في ذلك على نواميس الفطرة الانسانية الحقيقية .

ليست المعابد والبيع عند جميع الامم الا مدارس اتخذها الكهنة والقسيسون في الاديان القديمة والحديثة صحفاً لمجموع عقائدهم ومذاهبهم بما وجدوه لذلك من الوسائل الكبرى في فن العمارة ونحت التماثيل وصناعة التصوير، وبقاء العبادات الى الآن يدلنا على درجة انتقاش الرموز والصور الاعتقادية في أذهان العامة، فان مخترعات الخيال التي يبرزها الرسم للوجود الخارجي في صور فخمة تبقى شائعة بين الناس بعد فناء الفكرة التي أنتجتها بعدة قرون، يشهد لذلك بقاء مظاهر المعتقدات الجمادية مع أن الامم قد كفت من عهد بعيد عن توهم أنها لا تزال على عادتها في عبادتها .

اذا كنا قد رفعنا هياكل للآلهة الباطلة كالحرب والروع والظفر بالاعداء وجميع بلايا الانسان ومصائبه فما لنا لا نرفع للعلم هيكلا؟ وأي كلفة في هذا العمل على أمة عظيمة ؟ لا يقال ان أول عائق دونه هو قلة المال وغلاء المواد اللازمة لاقامته لاني أرى اننا في غنى عن الذهب والمرمر والخشب النفيس، وفي مقدورنا ان لا نتعرض في انشائه لشيء من صنوبر لبنان ولا من نفائس المعادن التي تم بها العظم والجلال لهيكل سليمان فان في الجبس بل في الورق المقوى غناء عن ذلك كله في سبيل التربية اذا وجد له أناس صُنُع اليدين يهيئونه ويستخدمونه في الدلالة على المعاني، وقد أصبح اليوم من الميسور تحصيل أهم مثل الاشياء الخلقية والصناعية بنفقات زهيدة، وذلك بفضل ما اخترع من طرق افراغ المواد في القوالب وان فيما يوجد بمعاهد التمثيل عندنا من تماثيل الزينة وصورها لبرهانا ناطقا بأن في قدرة المصور أن

ينقل الرائي الى رومية[١] وأثينة[٢] ومنفيس[٣] ببعض جولات يحرك بها قامه وبشيء من المغالطات البصرية لانه متى أتقن تمثيل مايمثله من الاشياء في شكله ولونه كاد ان يحدث في الخيال مايحدثه أصله من الاثر فلا عبرة بالمادة وبما يتخذ من الوسائل لبث الروح فيها مادامت الصورة تنبه المشاعر وتؤدي الى العقل معنى صحيحاً لما يراد تعريفه اياه .

كل دين اذا استكنهناه رأيناه يرجع الى فهم ماذهب اليه أربابه من الآراء في خلق العالم ونظامه[٤] لكن فهم هذه الآراء هو في الغالب غاية في الصعوبة، وانه لولا الاستعانة بالرموز في ادراكها لنبت عنها عقول العامة نبوًّا كليا. وأما الهيكل الذي أقصد رفعه للعلم فهو معرض تتجلى فيه الحوادث على الناشئين، بل هو تاريخ حيّ محسوس للعالم الذي يعيشون فيه مواده كلها موجودة لكنها متفرقة فيما عندنا من المتاحف والمكتبات والمجموعات ونحن عنها غافلون، فليس من الحق ان يكلف اليافع التماسها في أماكنها لان مافي هذه الاماكن من العظام النخرة، والحيوانات المصبرة، وجذاذ الاوثان المكسرة انما يفيد العلماء، وأما الاحداث فاللازم لافادتهم ايجاد مشهد تجتمع لهم فيه المثل الحية الكبرى للانسان وغيره من المخلوقات

(١) رومية هي عاصمة ايطالية الآن وكانت في غابر الازمان عاصمة مملكة الرومانيين ثم عاصمة لولايات السلطة الروحية ومقرا للبابا كما انها مقره الآن (٢) اثينة هي مدينة شهيرة من القدم في بلاد اليونان وهي الآن قاعدة حكومة تلك البلاد (٣) منفيس مدينة كانت عاصمة لمصر في الازمان الغابرة اطلالها قريبة من القاهرة

(٤) هامش للمنار : « ان ماقاله المؤلف في الاديان غير مسلم على اطلاقه ويظهر انه لم يطلع على الدين الاسلامي الذي هو دين الفطرة والمرشد الى سننها في التربية والتعليم وان كان يستنير باشعة شمسه من حيث لا يشعر

على صورة جاذبة لنفوسهم .

هذه معارضنا العامة التي تقام في باريس ولوندرة قد تعلم منها الجهلة ـ وهم في كل أمة سوادها الاعظم ـ من مناشئ الصناعة وتوزع الاجيال على سطح الارض وأحوال الترقي في الامم المختلفة اكثر مما يتعلمونه من جميع الكتب التي وضعت في التدبير السياسي وتقويم البلدان ، فكيف اذا عززت مشاهدة الاشياء وكملت بتعليم خاص. تلك المعارض لا تتسنى اقامتها مسانهة وهي فوق ذلك لا تحتوي الا على طائفة من الوقائع والامور المخصوصة واذا كنت قد نوهت بها فانما قصدت بذلك أن أبين لك ما يعود على الاحداث من الفائدة اذا أقيم لهم معهد آخر للعلوم تمثل لهم فيه صورها .

أصبح علم الكرة الارضية خلوا مما يستميل نفوس المتعلمين مورثاً للسآمة والضجر بين ما رسمناه له من الخوارت وألفناه فيه من الكتب ، أفلا يكون الحال على خلاف ذلك لو ان هذه الخوارت استعيضت بنسيج تصور عليه الارض وما فيها تصويراً اذا جال النور في ارجائه ضاعف مغالطة بصر الطفل فخيل له انه على الجانب الآخر للمحيط مثلا ؟ وليس يلزم لذلك الا مصور صادق في عزيمته باذل نفسه من أجل البلوغ الى غايته .

قام بفكر أمريكي شجاع اسمه « جون بانفارد » يوماً من الايام أن يصور مجرى نهر المسيسبي [1] فركبه وحده في قارب مكشوف مصرا على انفاذ فكره غير مبال بما كان يعترضه من الصعوبات الكثيرة ويعتريه

(١) المسيسبي نهر عظيم في أمريكة الشمالية يصب في خليج المكسيك بالقرب من مدينة نوفل أورليانس وطوله ٥٥٠٠ كيلو مترا

من الآلام الشديدة فيبست يداه وخشنتا بسبب استعمال المجذاف واحترق جلده بحر الشمس فصار عما قليل كواحد من هنود أمريكه في لونه وقضى أسابيع كاملة بل شهوراً لم يصادف فيها انسانا يكلمه ، ولم يكن له رفيق سوى قرينته فقد كانت هذه الرفيقة تتكلم بأعلى صوت كلاماً حقا لا خطأ فيه يفهم بعضه طيور النهر والاجمة . وكان يخرج في كل مساء من قاربه الى البر ويوقد نارا فيشوي عليها ما يصطاده ثم يرقد ملتفا في غطائه مكفئاً فوقه القارب ليكون له جنة دون الحيوانات الوحشية وسقفاً يقيه طل الليل ، وكان عند شروق الشمس يهب من نومه ويمضي عامة يومه في اختياز النهر من شاطئ الى آخر على التوالي طلبا لمنظر جديد ، فكان يسترعي طرفه في مكان خليج عميق وفي آخر اسراب من الطير وتلفته في ثالث جزيرة صغيرة علتها خضرة نضرة وهو لا يفتر عن تسويد ما يلاحظه فلم يغادر شيئاً مما يستحق التصوير الا رسمه خطفا واختلاساً ، ولما فرغ من تقييد اشاراته وملاحظاته اتخذ له في المدينة المسماة « لويسفيل » بولاية « كنتوكي » [1] بيتاً من الخشب حيث أنشأ يصور ماقيده على النسيج ـ وما كان أطوله! ـ فقد بلغ ذرعه ثلاثة أميال. لاشك ان ذلك المصور كان أهلاً لان يأتي بطرفة من الطرف وان كان رسم مناظر المسيسبي ليس في الحقيقة الا حكاية صادقة لسفره خطها قلم الرسم خطا بطيئاً ، ونحن على كل حال نرجو الله (سبحانه) أن يقيض لنا من يحتذي مثال «جون بانفارد» من المصورين وأن يهبهم من الاقدام والاخلاص للعمل ماوهبه فانه لو تحقق

---

(١) كنتوكي هي احدي الولايات المتحدة في أمريكة الجنوبية سكانها ١٦٨٥٤٥٠ نفسا وعاصمتها فرنكفورت

ذلك لاصبحنا بسطح الكرة التي نسكنها أعلم منا الآن بكثير

وليت شعري ! أي مانع يحول دون انفاذ عمل كهذا يكون تاريخا للارض ومن يقطنها من الامم ? ربما قيل: ان ذلك هو ما يقتضيه من انفاق المال الكثير فأقول: هذا مسلم ولكنا ننفق في تبديل سلاح بآخر أو طريقة من طرق القتال بغيرها أو في بناء بارجة أو اقامة حكومة جديدة مدة بقائها ثمانية عشر شهراً على الاكثر ننفق في هذا أضعاف ما تقتضيه منا طريقة التربية على نواميس الفطرة الانسانية اه .

لاشأن لنا في ذلك وعلينا التسليم والامتثال فان هيكلا كالذي وصفته تتجلى فيه الوقائع والمعاني انما هو صورة من صور الخيال لا وجود له في الخارج ولن يوجد بلا شك فيجب علينا اذاً بناؤه في المستقبل في ذهن « اميل » بمواد أخرى اه

الرسالة التاسعة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٣ فبراير سنة — ١٨٥ ﴾

التربية والتعليم بالفانوس السحري والتمثيل والمعارض

وهمت أيها العزيز في دعوى ان ذلك الهيكل الذي تمنيت اقامته للعلم لا يوجد ولن يوجد فانه موجود بالفعل في سايدنهام [1] على غاية القرب

---

(١) سايدنهام قرية من قرى انكلترة واقعة على بعد ثمان كيلو مترات من لوندرة بني فيها القصر البلوري للمعرض العام الذي أقيم في سنة ١٨٥١

من لوندرة واسمه القصر البلوري وفي نيتي أن أزوره أنا « واميل » متى أمكنتني الفرص وصار في سن تؤهله لادراك ما فيه من مواد التعليم، نعم اني لست على يقين من مطابقة طريقة بنائه لآرائك تمام المطابقة ، ولكن أقل مافيه على ما سمعته عنه أن القصد من انشائه موافق لقصدك ، وقد يدهشك أن تعلم ان ليس للحكومة يد في بناء هذا القصر العامي (وانما أصفه بذلك لان المقصود الاصلي من اقامته انما هو تربية طبقات العامة) فان كل مافيه من البساتين الواسعة والبناء البلوري والآثار القديمة والتماثيل وجل الاشياء المفيدة ملك لجماعة من المتساهمين ، وقد عهد برفعه الى مشاهير العلماء والصناع والاثريين فكانوا يباشرون بأنفسهم افراغ المواد في القواليب وتحصيل مثل الاشياء . ذلك لان الانكايز اذا قصدوا تحقيق غرض مفيد أو انشاء معهد جديد لمنفعة عامة اعتمدوا على أنفسهم بسبب ما آتتهم ضروب الحرية ووسائل العمل الذاتية من قوة العزيمة وشدة البأس غير راجين من الحكومة مساعدة مالية ولا قولية لعلمهم أن العمر ينقضي دون الوصول الى ما يرجون، فهم متى أرادوا أقاموا تماثيل لعظمائهم ورفعوا هيا كل لفكرة يبديها الواحد منهم .

أراك تشكو من عدم وجود معاهد للتمثيل عندنا خاصة للاطفال، فاعلم ان لاطفال الانكايز واحدا منها، ذلك أنك في صبيحة عيد الميلاد تجد معظم تلك المعاهد كانها قد انفكت عن الاختصاص بالقصص الجدية والهزلية ولا يقبل فيها من الكبار الا من كان مولعاً بسماع الاساطير

كاسطورة اهاب الحمار (١) واسطورة الاصيبع فكل واحد منها يصح ان يعنون بعهد الرءوس الشقر لان الاطفال في شهرين أو ثلاثة من السنة يكونون هم المتصرفين في اختيار نوع الألاهي العامة والمتمتعين بكل ما في المعاهد من المقاعد المخملة والموسيقى وضروب الغرور والفتنة، ويؤكد لي الناس هنا أن كثيراً من تلك المشاهد يحصل فيه التمثيل مرتين في اليوم

(١) اسطورة إهاب الحمار هي من اساطير شارل بروات الذي سبق التنويه بذكره في الرسالة الخامسة والعشرين وملخصها أن ملكا كانت له زوجة يحبها جدا ورزقت منه بنت فائقة في الجمال ثم مرضت وعند احتضارها استحلفته أن لا يتزوج الا بمن تكون أجمل منها فلم يجد في عقائل مملكته من تحقق فيها الشرط الا بنته فانضى اليها بميله الى تزوجها فأنكرت عليه الامر فصمم فاشتكت الى جنيتها فارشدتها الى ان تطلب منه حلة كالزمن في لونه فاستصنعها لها فاوعزت اليها بطلب أخرى كلون القمر، فما كان أقرب من تقديمها لها ثم بثالثة كلون الشمس فكان ما طلبت، وكان لأبيها حمار يحبه كثيرا لأنه كان يجد تحته كل يوم مقدارا وافرا من النقود، فلما أعيت الحيلة تلك الأميرة وظنت أن لا خلاص لها امتلأ قلبها حزنا فأوحت اليها الجنية بأن تطلب إهاب الحمار (جلده) فقدم لها بعد استغراب فزادها ذلك جزعا، فقالت لها الجنية كفى فهذا وقت خلاصك فالبسي إهاب الحمار وأخرجي فانه لا يشعر بك أحد وسأتبعك بحليك وحللك أينما قصدت فخرجت في ذلك الاهاب وساحت في الارض فدخلت مملكة أخرى فاستخدمتها زوجة مزارع في رعاية الديكة وكنس معالف الخنازير لرثاثة حالتها وقذارتها، فرآها ابن ملك تلك الجهة من خصاص كوخها وقد تعرت عن إهاب الحمار ولبست حلة من حللها ففتن بها وذهب الى أهله مدنفا سقيما وحار الاطباء في أمره وقالوا إنه لا مرض به الا الفكر، وبعد الحاح من والديه طلب ان تصنع له الخادمة التي تلبس إهاب الحمار قرصا ففعلت ودست فيه خاتمها لانها قد فهمت حقيقة الامر فلما تناول الخاتم في فمه قال لوالديه إني أريد أن أتزوج بصاحبة هذا الخاتم فنودي في المدينة بأن أية فتاة يوافقها هذا الخاتم الذي في بيت الملك تكون زوجة لولي عهده وكانت نتيجة ذلك أن تزوجت به وعاشا في نعيم ورغد . واسطورة الاصيبع تقدم تلخيصها في هامش الرسالة الخامسة والعشرين

احداهما بعد الظهر لمن يتعجل في النوم من الاطفال الذين لا يقوون على السهر والثانية في العشي للبافعين والآباء والامهات وللشيوخ الذين حفظوا للشباب في ناحية من أذهانهم شعاعا من ضيائه ولمعة من بهائه ، وينبغي على ذلك ان أول شرط يلزم تحققه في النظارة ان يكونوا صبيانا أو مستصبين ، والا فكيف يروقهم سماع ما روى هنالك من أقاصيص الجن وما يمثل من الاضاحيك؟ نعم إن مواضيع تلك الألاهي البهجة هي في الجملة غاية في الابتذال ، وانك لتأسف على مايضيع في سبيل تربية الادراك بهذه الاماكن من نفقات الزينة والثياب وغيرها من عتاد التمثيل لان مايحصل فيها من تغيير المناظر قلما يفيد الا إثارة وجدان الاعجاب والدهشة ، ولكن ماأشد ماي يبديه الاطفال عندها من دلائل الفرح المنبعث عن السذاجة! وما أبلغ مايظهر من تشوفهم اليها! وأعظم مايكون من بريق أبصارهم وحملقتها بسبب استغرابها والافتتان بها! خصوصاً اذا جاء دور ذلك المنظر المعروف المسمى منظر الانقلاب والتحول ، فلشد ماتخفق القلوب هنالك خفة ومرحا

ومهما كان في تلك المرائي من الابتذال فلا ينبغي أن يستخف بما يتجلى للاطفال فيها من تلك القصور المسحورة وامطار العسجد والشرر والانوار المشتملة على جميع ما يرى في الفجر القطبي من الالوان المتباينة والجزر السعيدة (الجزائر الخالدات) والنساء العائشة في السحب وفي الاشجار والازهار ، وبالجملة لا تصح الاستهانة بتلك المخترعات الخيالية العامية التي تمثل في أضاحيك المناظر فانما طار بنا الخيال وان على أجنحة من الورق المقوي ولم يرفعنا الا قليلا فانه يفكنا ساعات مما يبهظنا من اغلال العوائد والحاجات . تلك المناظر الغرارة لن تنفك أن تكون محبوبة للعامة والاطفال لانها تفتح

لهم جزءاً من أبواب الكمال المطلق البالغ أقصى غاياته .

لما رأيتني لا أملك الآن الذهاب « باميل » الى القصر البلوري ولا الى معهد التمثيل عولت على الاستعانة بآلة يطاف بها هنا في المدن والقرى وهي الفانوس السحري ، وكأني بك تضحك من ذلك ، ولكن أي مانع يمنع من أن تكون تلك الآلة المستعملة لتحصيل اللذة والاعجاب من وسائل التعليم أيضاً ؟ فليس ذنباً للفانوس السحري انه قلما استعمل الا لتمثيل الصور المضحكة الغريبة في دارة مضيئة بل هو لا يكون الا مفيدا اذا قصد به الجد ، ولو ان العلماء تفضلوا على المصورين بارشادهم الى ما يختارون من مواضيع العمل والى طريقة التصوير على الزجاج لادى الفريقان للاطفال - فيما أرى - فوائد حقيقية ، وقد سمعت ان المتولين أمر التربية في انكلترة سبقوا الى اتخاذ هـذه الطريقة في بعض المدارس لتأدية شيء من معاني علم الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الى عقول الناشئين .

أنت تعلم ان علماء الفلك قد رسموا صور الاجرام السماوية الكبرى وخططوا آثار ذوات الذنب والشهب والخسوف والكسوف أو انتزعوا صورها بآلة التصوير الشمسي (الفوتوغراف) فلو أننا أردنا ان نجعل الفانوس السحري الذي هو الآن مشهد الاوهام والمغالطات مشهدا للحقائق أيضاً كفانا في ذلك ان ننسخ على زجاجـه رسوم السماء وما فيها مصورة على الحالة الفطرية تصويراً مضبوطا .

اذا كان المراد تمثيل الارض في هذه الآلة فلست على يقـين من صلاحيتها لتحصيل صور جميع مافيها من سلاسل الجبال الكبرى ومجاري الانهار العظمى ومجاهل الصحاري المريعة وأشكال السواحل الوعرة المغمورة

بالمحيط، ولا حيلة لنا في ذلك فعلينا ان نكتفي بمبلغ طاقتنا من تصويرها فيها. على ان الطفل يروقه نظر الاشياء تفصيلا أكثر من النظر فيها جملة فهو اذا نظر الى صور الاقاليم وهيئاتها فانما يلتمس أثرا يريعه ويدهشه كصخرة غريبة الشكل أو نبات أجنبي أو حيوان عجيب أو انسان مغاير لنا بلون جسمه.

وأما التاريخ فلا شك في صلاحية الفانوس السحري لتعليمه فانه يتأتى به إحضار خيالات من يتحدث عنهم من الماضين فلا مانع من ان ترسم على صفحته صور الشجعان الغابرين بزيهم وبزتهم وصنوف ماوجد من الصور الغريبة كابي الهول والثيران ذات الاجنحة وذات الرءوس الانسانية واللحى السوداء والجنيات والآلهة وغيرها من الصور الخرافية لانها اذا كانت خرجت من الليل فلا عجب ان تعود اليه .

أنا لسوء حظي لست عالمة ولا مصورة ولكني أرسم رسما مناسباً لحالتي، وكنت أرى منك أحياناً استحسان رسومي الكثيرة الألوان، نعم اني لا أحسن طريقة التصوير على الزجاج فانها حرفة تتعلم وكمال سأفتخر بأن يكون «اميل» هو صاحب الفضل عليّ في كسبه، وأصعب ما عليّ في ذلك ـ فيما أرى ـ إنما هو الحصول على مُثُل متقنة لأني اخال أن الواجب على المربي هو أن يكون دقيقاً فيما يعلمه الطفل وأكره أن لاأبرز الاشياء لولدي في صورها الصحيحة، وقد وعدني الدكتور «وارنجتون» وهو موافق لي في كثير من أفكاري أن ينتقي لي من لوندرة صوراً منتزعة بآلة التصوير الشمسي (الفتوغراف) أو رسوماً أخذت من علماء الطبيعة وعلماء الآثار والسياح، وانا بفضل معونته على أمل من انشاء مشهدي الصغير عما قليل. اهـ

الرسالة الثلاثون

(من هيلانة الى اراسم في ١٢ فبراير سنة — ١٨٥)

تعلم الاطفال الضرب في الارض ومعرفة جهاتها بالعمل وتعلمهم الصناعة بمعالجة ما يشترى لهم من اللعب

أحب أن أصف لك «اميل» فأما صورته فقد عرفتها في الرسم الذي أرسلته اليك منتزعاً بآلة داجير التصويرية (الفوتغرافيـة) وأما سيرته وأحواله فهي التي أريد أن أحدثك عنها فأقول :

أرى له جراءة على السير والتجوال لا توجد في أترابه ففيه ما أظنك تسميـه بغريزة خرت الارض [1] وقد بلغ تمكن هـذه الغريزة من نفسه مبلغاً ما أراني فيه قادرة الى اضـلاله ولا هو يحتاج في الاهتـداء اذا أنا أضللته الى إلقاء الحصى وفتات الخبز في الطرق لتكون كالصوى والاعلام [2] لانه يهتـدي بنفسه ولا يلبث أن يميز بمهب الريح وحركة السحاب الجهة التي ينبغي أن يؤمها وأرى أن الذي أظهر هذا الاستعداد فيه هو ما استفاده بالعمل من صحبة (قوبيـدون) فانت تعلم ان في عيني هذا الزنجي ورأسه بيت ابرة مغناطيسية .

لا أنكر أن مثل هذه العلوم من الاوليات، وذلك يؤكد وجوب أن يتعلمها الاطفال وكلامي في ذلك عن خبرة وتجربة فاني تربيت في مدرسة

---

(١) خرت الارض (كنصر) عرفها ولم تخف عليه طرقها ولعل لفظ (الخارطة) أو الخريطة مأخوذ منها (٢) تشير الى أسطورة الاصيبع التي سبق ذكرها

داخلية كان التلميذات فيها غافلات عما وراء المدرسة من شؤون الحياة ومتاعبها . وكنت بعد ذلك اذا خرجت الى المزارع والرياض لا أعرف الشمال من الجنوب ولا أميز بين الشرق والغرب، وأخجل ذلك الخجل الضار أن أسألك عنها خشية ظهورك على جهلي . ولو كان هذا الجهل خاصا بمثلي لكان الخطب سهلا ، وأراني صادقة اذا قلت: ان كثيرا من أهل النهاية في العلم ليسوا بأوسع علما مني ببعض، واضيع مساحة الكرة الارضية العملية . أنا لا أدري بالضرورة ان كان كتب على «اميل» أن يكون سائحا وجوّاب آفاق ، ولكني أرى أن الناس محتاجون في جميع أطوار الحياة الى معرفة الجهات والامكنة احتياجا تختلف درجاته ، فبعضهم أحوج الى التوسع فيها من بعض وان صدق النظر اذا تعزز بالتجارب كان للانسان ركناً من أركان الحرية .

يأكل «اميل» على المائدة كالانكليز أعني انه يأخذ السكين بيده اليمنى والشوكة بيده اليسرى يأكل بها ، وقد أنكرت هذه العادة أولا ثم تبين لي انها أسهل فان استعمال كلتا اليدين معاً يمكن من القطع والتناول فضل تمكين ، فالانكليز عسر (جمع أعسر) في الاكل دون الاعمال الصناعية ولست أدري ماهو عذرنا في ترك تمرين عضو من أعضائنا على العمل ، فهل كانت أعضاؤنا زائدة عما نحتاج اليه في استعمار الارض ومقاومة مايعترضنا من العقبات المادية في سبيل الحياة فنستغني عن بعضها ونغفله ؟

قرأت في ترجمة حياة (جمس وات) المهندس الانكليزي الشهير انه كان يستعمل في طفوليته أدوات والده النجار في اختراع لعب لنفسه أو تحويلها من شكل الى شكل . ويقال ان هذا التمرين ساعده كثيرا في

تدريب يده على الصناعة وقوى ما كان في نفسه من الاستعداد لعلم الآلات (الميكانيكا) حتى صار ملكة راسخة فيه . ولست أطمع أن يكون «اميل» مخترعاً لآلات جديدة ، ولكني أرغب أن يكون ماهراً في تحريك أصابعه ولهذا لا أمنعه من تكسير لعبه ليرى ما في جوفها — كما يقول — اذا تعهد لي بارجاعها الى أصلها .

على اني لاحظت أمراً أحب أن أعرضه عليك ، وهو أن لُعَبَ الاطفال تكون مناسبة لطبيعة البلاد التي ينشؤن فيها . فأهل السواحل يلعب أطفالهم بما تحدثه في نفوسهم صناعة الملاحة . وقد أجاب (قوبيدون) الذي هو كالقرد في الخفة والمهارة رغبة «اميل» ورفيقيه فصنع لهم بسكين مركبا شراعياً صغيرا أنزلوه في خليج الجبل باحتفال حافل فكان بذلك قدوة لهم في هذه الصناعة البحرية حتى انهم أنشأوا لهم أسطولا مؤلفاً من طرادات وسفن من ذوات السارية ومن ذوات الساريتين وقوارب وزوارق ، وبعض هذه السفن مسلح بمدفع من الخشب ، فكأن لسان حالهم يقول : ها نحن أولاء مستعدون ، فليهاجمنا المهاجمون ، وكنت اذا سئلت عن قيمة هذه الاشياء السابحة على وجه الماء أظهر ترجيح ما يصنعه الاطفال من سفن اللعب على ما يبتاع من التجار من نوعها وان كان أحسن منها صنعاً .

يحب «اميل» العمل ويميل الى سماع القصص كما هو المعهود من مثله . وأنا موافقة لك في انتقاد توسع الناس في مخاطبة الاطفال خصوصاً مخاطبتهم بما يعلو ادراكهم وأفهامهم وينبو عن مشاربهم ، وهذا من آفات التربية التي يجب تجنبها ، وما أعظم الفوائد والمزايا التي يستفيدها الاطفال من

تعليم أمهاتهم الشفوي ان تجنبنها . وانما حدا بي الى هذا الفكر النظر في ما يؤثر عن جميع الامم قبل اختراع الكتابة والتصنيف مما كان الاعتماد في حفظه على الذاكرة فقد قرأت في كتاب لاأذكر اسمه الآن ان بعض اليونانيين كانوا يعارضون قدموس [1] في وضع الحروف الهجائية لهم محتجين بأن اعتياد الناس اثبات حوادث التاريخ على الالواح يضعف الذاكرة بالتدريج، وكان لهم وجه في هذه المعارضة فهي تشبه المعارضات التي توجه الآن الى كل ضرب من ضروب ارتقاء الانسان .

نرى الاطفال قبل تعلم القراءة والكتابة ينتحلون كثيراً من الافكار والآراء فأهم شيء يبتدئ به المربي هو النظر في اختيار أمثل مايودعه في نفوسهم من المعارف، ثم في اختيار أمثل الطرق لايصال ذلك الى أذهانهم الخالية ونقشه في ألواح نفوسهم الصقيلة، وكثيراً ماخرجت مع « اميل » عن أساليب لغتي وقواعدها لاجل ذلك، وما كان أشد اغتباطي وسروري عند ما كنت أراني قد ملكت سمعه بتكلمي بلغته! والنجاح في هذا يتوقف على اخلاص القلب ونسيان النفس وهذان الامران انما يحصلان بالرياضة والمزاولة على ما أرى .

من الثابت المقرر ان للاطفال شعراً خاصاً تعرفه الامهات حق المعرفة ولكننا نحكم فيه شعرنا وخيالنا، فكيف السبيل الى حفظ هذه القوة الشعرية وبقاء غضاضتها بحيث لا يسقط عبثنا بها زهرها، ولا يذويها ويذهب بنضرتها لاحلال شعرنا محلها !

---

(١) قدموس هو الرجل الفينيقي الذي أنشأ مدينة طيبة ونقل الحروف الهجائية من مصر الى بلاد اليونان

الدنيا مملوءة بالحكايات التي يدعى انها وضعت للاطفال وأمثلها حكايات (بروات) وأرى ان مافيها من الصنعة والحذاقة يخرج بها عن عهد الطفولية الى مستوى الكهول ومرتبة الشيوخ. وأفضل الحكايات في استمالة (اميل) وتحريك رغبته وميله ليس مما يعهد في الشعور العام والحس المشترك أعني مما يجول في أذهان البالغين دون الولدان الذين في السادسة أو السابعة. فالحكايات الخرافية القديمة جدا التي لم يجفف الدرس والصنعة مافيها من معاني الشعر الفطرية هي التي تقع من نفسه موقع القبول في مثل هذه السن .

فمن الحكايات المتداولة في البلد الذي نسكنه مافيه ذكر المردة والاغوال والجنيات والتنابيل (القصار جداً) وهو مايذهب بنوم الاطفال في ليالي الشتاء ويجذبهم الى السّمار[1] لسماع تلك القصص محدقين بابصارهم الى السامر . ولي أن أعتقد أن هذه الحكايات مختزلة من أسمار وقصائد قديمة ضاع أصلها وتناقلت الناس مابقي من معانيها مرضع عن مرضع وأم عن ام حتى انتهت الينا في شكل يخالف شكلها الاول قليلا أو كثيراً .

زعم عالم من كرنواي ألاقيه أحياناً في منزل صديقنا الدكتور أن لديه وسيلة هو واثق بانها توصل الى معرفة أصل هذه الخرافات ومناشيء تلك الحكايات، والذي فهمته عنه من هذه الوسيلة هو أنه يستعين على تلك المعرفة من حيث هو عالم أثري باحث تلك الحكايات ونحواها من حيث مشابهتها المخترعه من الحكايات وعدم مشابهتها اياها فهو يرى انه كلما كان معنى الحكاية بعيدا عن تصورنا واختراعنا كانت أوغل في القدم. فاذا بحثنا في شأن

---

(١) السمار بتشديد الميم جمع سامر وهو الذي يتحدث في الليل

الجنيّات في هذه الحكايات نرى انها في الاعصر القديمة كانت توصف بأنها مجردات منزوية عن الناس ، شرسة صعبة المراس ، وقوى طبيعية رفعت الى مرتبة الآلهة وألبست شعار الدين . ثم مازالت تقرب من الناس وتتشكل بشكل الانسان قرناً بعدقرن وتأنس به حتى صارت اناثاً يتزوج بها الرجال . ومما يروونه في هذا أن رجلا تزوج بجنية وعاشا معاً عمرا طويلاً في كوخ . وقد كان من طول أنسه بها أن نسي كونها جنية إلا أنها فرت ذات ليلة متعلقة ببعض أشعة القمر. كذلك شأن المردة فانهذه الكائنات الوحشية المشوهة كانت تعرف في الزمن القديم بأنها مثار الوساوس المخيفة والهواجس المفزعة وبكرور الزمان ومرور الايام اقتربت من الانسان في أحوال معيشته وضعف سلطانها في نفسه وتأثيرها في وهمه وخياله وتحول الرعب الذي كان مقرونا بذكرها وتصورها الى الضحك والسخرية وهكذا تنتهي دولة الخرافات وتزول .

لاريب انك واقف على قصة يعقوب مواثب المردة وقاتلهم الذي كان يعيش في كورنواي على ما يروى في الاساطير (فأميل) يحب حديثي عن غزوات هذا الشاب الشجاع ابن أحد الزراع. وأشهر وقائعه التي سار بخبرها الركبان مايروي انها وقعت في جبل ميخائيل قديس انكلترة وهو صخرة تكاد تكون بازاء منزلنا وكان المارد الذي يخطف الناس والبهائم قد تبوأها منزلا واتخذها مثوى له . وقد كان أعظم خدمة قام بها حماة الحق في عصور الهمجية ـ إن لم أكن واهمة ـ هي مقاتلتهم السلبة والوحوش الضارية وقتلهم لهم فانهم بذلك قد طهروا الارض من العتاة والبغاة الذين كانوا يعيثون فيها فساداً. وبهذا الاعتبار نرى اليونانيين قد أنصفوا في

رفع مكانة هرقل [١] وتيزيه [٢] وجعلهما من أنصاف الآلهة كذلك فعل يعقوب بالمارد فانه هاجمه في مغارته وانتصر على تلك القوة الوحشية الفاتكة بالحيلة فكان جديرا بأن يكون خلفا لأولئك الشجعان الاقدمين .

لهذه الخرافات فضل وقيمة ولو انها الغيت من التعليم القولي لاسفت كثيرا فان امام الطفل في هذا العصر الذي كله حقائق زمناً طويلا يتسنى له فيه التحقق باخلاقنا وعوائدنا الحقيرة، فلنغتنم فرصة فجر حياته القصير الامد الذي ترتاح فيه نفسه للاحاديث الخرافية وتتأثر بغرائب الاساطير لنودع فيها أنواع الوجدان الاعلى، ونبعثها على حب الاعمال الجليلة والسجايا الفضلى، فان طبع الطفل يتكون وينشأ في قوالب المثل التي تكون لها مكانة في نفسه عند ما يلقى اليه خبرها وتمثل له صورها. نعم ان (اميل) لن يكون قاتل مردة — وأين المردة اليوم — ولكن قصارى ما في قص هذه القصص عليه من الفائدة أنها تهز نفسه وتحرك أريحيته بما فيها من ذكر غزوات عصر الابطال ولو كنت أجد منه انقباضاً وشكا عند ما أقص عليه تلك الوقائع التي أبالغ عن قصد في بيان اخلاص أبطالها وعلو نفوسهم وأمانتهم لساءني ذلك وأحزنني .

نحن في شؤون الحياة لا نزال دون غايات الكمال المبتغاة فيجب علينا ـ ان لم أكن واهمة ـ ان نعجب بما يروى عن اولئك الابطال من فضيلة

---

(١) هرقل أو هرقول اليوناني كما هو في أساطير اليونان (ميثولوجيا) ابن جوبيتر (المشتري) كبير الآلهة من زوجه ألكمين وأعظم الشجعان الذين كانوا يقتلون التنانين والضواري والافاعي العظيمة . (٢) تيزيه من شجعان اليونان المشهورين وهو ابن (اجيه) ملك أثينا قتل مينوتور وهو بحسب خرافاتهم وحش نصفه آدمي ونصفه ثور واشتهر في وقائع عصر الابطال

الشجاعة وان بعد احتمال وقوعها حتى لا نكون في أسفل دركات الجبن.

في نفسي أمر أنا في أشد الحذر من الافضاء به الى (اميل) لسببين أحدهما انه لا يفهمه والثاني انه يذهب بما لهذه الخرافات من الشأن الرفيع عنده ، وهو ان تلك المردة التي هي موضوع تلك الاساطير ليست سوى أشخاص هذه الصخور الكثيرة في كورنواي . فالحق والحق أقول ان هذه الاجرام الصوانية الهائلة تحتمل في كل يوم أقصى ماقدر في هذا العالم على كل قوة ذات مقاومة غير مألوفة أن تحتمله. ذلك ان تنباً لا كان يتسلق تلك الصخور العظيمة المحيطة بذلك المكان الذي يسمونه نهاية الارض « Land's End » وينقر باداة من الحديد نقرة يضع فيها قرطاسا من البارود ذا فتيلة ويشعل الفتيلة ويكر راجعاً فيكون الانفجار ويتصدع الصخر وتتزلزل الارض ويضطرب البحر . فيعللون في الاساطير مثل هذا التزلزل والاضطراب بسقوط المارد .

يتراءى لي أن محو الخيالات من أذهان الاطفال لا يفيد المربين شيئاً فأين تلك الحكايات والقصص الغريبة التي كان الاطفال يفتنون بها لما فيها من السذاجة والغرابة؟ لقد ضاعت ونسيت وصار عصرنا هذا وهو عصر القصص والروايات الخيالية أبعد الأعصر عن القصص والاساطير المذكورة، فان القصص التي ندونها في هذا العصر لا تمثل الا الوقائع المعهود للناس نظيرها ، لاننا بما كنا من أهل الحقائق المعتمدين على الوقائع الثابتة ومن سكان المدن الآهلة والحواضر البعيدة عن الوهم والتخيل كانت عنايتنا في التربية محصورة في ايداع جميع أذواقنا ورغائبنا في نفوس أولادنا . أقول ماقلت لا لاني أدعي الحكمة والفلسفة وأعوذ بالله من

دعوى الاشراف على الغيب والحكم على الاستقبال ، ولكني اسائل نفسي عن حال هؤلاء الاطفال الذين صاروا شيوخا وهم في سن اللبان، وقد قطعنا عليهم طريق الوهم والخيال، فنحن نعلمهم قيمة الفضة وهم في طور يجهلون فيه الحسن المطلق والجمال الذاتي . ومن العبث ان يقال ان ماتصفه لنا الاساطير من الاخلاق الفاضلة والمزايا العظيمة لاأثر له في الوجود، فان عدم وجود اولئك الرجال والنساء الموصوفين بما ذكر من الاخلاق والمزايا في أنديتنا وسمارنا، وعدم تجوالهم في أسواقنا وشوارعنا، يجب ان يكون من الاسباب التي تحملنا على عدم اخراجهم وطردهم من جنة الطفولية حيث يتنعم الاطفال ، في عالم التصور والخيال . فاستحلف القائمين بأمر التربية بالله (تعالى) ان يدعوا لهم متبوءا في البيوت . وأما أنت ياعالم الخيال ، من الجنيات والابطال ، الذي هززت قلوبنا في طور الطفولية ، وحركت نفوسنا للخيرات والفضائل النفسية ، بما كشفت من النقاب عن وجه الكمال، وأبرزت من مظاهر الجمال والجلال، فلا تزل ولا تحتجب عنا في جو هذا العصر الوخيم ،المثقل بضروب الحسبان والهموم، الذي شغلت أهله الاغراض المادية ، وطلب المنافع الجسمانية ، فاننا نصغر ونحقر اذا صرفنا أولادنا عن الاعتقاد بعظمتك الخيالية،التي علمتنا الحسن الذاتي والعظمة الحقيقية .

أرى من الخطأ ان تعاب هذه الخرافات ببعدها عن الحقيقة فان هذا وإن كان مذموماً بالنسبة الينا فهو محمود بالنسبة الى طور آخر من أطوار العمر . فما يظهر لنا بعيداً عن الحقيقة حقيقي في نظر الطفل . أخذت هذا الحكم من طبع (اميل) الذي انحج بأني سبرته واختبرته، فهو على عدم

سماعه شيئاً من الدين متدين بطريقة خاصة به، وله قوة عجيبة في ابتداع الصور الخيالية التي يمتاز بها الانسان في طور الطفولية وتضعف في سائر أطواره بالتدريج، فانه يرى وراء كل حادثة كونية كالمطر والريح وغروب الشمس قوة حية بل ذاتاً مشخصة، فقد فرّ منذ أيام من البستان مذعورا لانه رأى سحاباً مركوماً ظهر في السماء باشكال غريبة وقال لي إنه رأى فيه رأس شيخ ذي لحية بيضاء . أليس لمثل هذا التأثر الناشيء من الخوف خوف الاجلال والاعظام الفضل في ادراك معنى الالوهية الاول الذي فهمه الانسان .؟ اه

الرسالة الواحدة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٥ مارس سنة — ١٨٥ ﴾

تعليم القراءة والخط والرسم

لما يتعلم (اميل) القراءة ولا يكاد يعرف حروف الهجاء وربما كنت أنا الملومة على ذلك لاني لم أحثه على التعلم الا قليلا. ذلك اني لا أنفك أذكر تلك الغضاضة والكراهة للتعليم الاول وما سببها على ما أرى الا الاكراه عليه وهضم ما كان يجب لطفل صغيرة مثلي من حق الحرية والاختيار . وأرى ان حملي « اميل » على التعلم لان غيره يتعلم كما كان يقال لي جناية عليه لان عاقبة هذه الحجة أن تطبع الناشئ على التقليد الاعمى والاقتداء بالناس في جميع عاداتهم من غير تفرقة بين الحسن والقبيح . ولم نختار ركوب الصعب في هذه السبيل ولدينا المركب الذلول وهو حمل الطفل على التعلم

بالتشويق والتنويه بما في المطالعة من اللذة فقد يستغني الانسان عن الاشياء التي يجهل فوائدها ومزاياها .

أنا جاهدة في تلمس الوسيلة التي تنبه اشتياق «اميل» الى الحروف المطبوعة وتبعث فيه الميل الى معرفتها . واذا علم أن القصص العجيبة والاساطير الغريبة التي أفكهه بملحها وأفاكيهها كلها مأخوذة من الكتب فلا بد أن يجدّ به الميل وتحمله الرغبة على أن يأخذ تلك الحكايات من مصادرها ويستخرجها من ينابيعها بنفسه في يوم من الايام . واذا تولدت هذه الرغبة يوماما فكل مابعدها يتبعها من نفسه وانني لا أفتأ أنتظر تولدها وانبعاثها الحسن فيه . وقد طال تأخرها .

نحن مع صيرورة القراءة حاسة سادسة لنا بما رسخت ملكتها فينا لم نحط خبراً بالعقبات التي تحول دون وصول الطفل الى معرفة الحروف الهجائية بسهولة ، وأنا باحثة عما عساه يكون منشأ لهذه العقبات الثابتة الراسخة ويشق عليّ الوقوف عليه وربما كان منشؤها ان مادون علم القراءة والكتابة من سائر العلوم يساعد بعضها على معرفة بعض ، ويعد متعلم أحدها ويؤهله لفهم الآخر اذا هو انتقل اليه لما بينها من الصلة واتحاد طرق الدلالة. وأما علم القراءة والكتابة فانه يخالفها في ذلك لانقطاع الصلة بين الاشياء وبين هذه الاشكال والرسوم الصناعية التي وضعت للدلالة عليها، فاذا انتقل المتعلم من مسميات الاشياء الى أسمائها المرسومة في الورق انقطع الاتصال به فجأة

لا يصعب على « اميل » ان يميز فيما رآه من صور الاشخاص المرسومة وجوه أصحابها اذا كان رآها لان الشكل في الصورة والمصور

أشعة أبصارهم قد خرقت تلك الحجب الجوية، وعلم الناس انهم ميزوا على بُعد من وراء تلك الامواج المتراكبة المصطخبة سواد سفينة قد وقعت في شعب مخيف فانكسرت ساريتها الكبرى وتحطمت جوانبها فسقطت تضطرب كحوت أصيب بجروح عظيمة فصار يتقلب على جنبيه وكان مما يثير الخوف ان الامواج التي كانت تهيجها العواصف فتعلو فجأة كالجبال ربما تتناول السفينة المتالفة من حين الى حين فتقذفها على تلك الصخور الصم. وصار يتسنى للانسان في ذلك الجو المطبق المحزن ان يميز في ضوئه السنجابي اللون أيدي الناس في السفينة تشير بقطع من الشراع .

لم يكن للناس حينئذ من أمنية الا نجاة هؤلاء الغرقى على أنهم ما كانوا يجهلون صعوبة انقاذهم وتعسره . نعم إن أهل كورنواي أولو شجاعة ونجدة ولكنهم مع ذلك أصحاب حذر وفطنة . هدأت الريح قليلا بعد شروق الشمس كامدة شاحبة والبحر مازال متماديا في طغيانه ، مصراً على عدوانه ، فكان يخيل لرائيه انه يتحرك بنفسه وأنه أخذته حمّى نافض من القاصف فاحدثت فيه هذه القوة العجيبة في الرعدة والاضطراب ، وكان بعض الصيادين المحنكين يرمون بأبصارهم الى الامواج يتتبعون حركاتها بأعينهم المدربة ثم ينغضون رءوسهم وتعلو وجوههم كآبة اليأس ، وكأن لسان حالهم يقول : لا حول لنا ولا قوة على انقاذ هؤلاء المساكين.

أتى على الناس نحو نصف ساعة وهم يتراوحون بين اليأس والرجاء كان عليهم كنصف قرن. ذلك انهم كانوا يرون بعض اخوانهم بين مخالب الموت ونابه وهم يرجون منهم النجدة فلا يجدون لإنجادهم سبيلا . وبينما في هذه الحالة اذا بزورق النجاة قد أحضر فصاح الناس صيحة واحدة

كانت منبعثة عن جميع الصدور ، وهذا الزورق يعده الملاحون للدواهي الكبيرة وقد أحضر بقوة السواعد والخيول ووضع في مكان من الساحل يرجى منه الوصول الى الغرقى ، وما عتم أن امتلأ بالناس على وهنه وخفته ، وعظم الخطر في ركوبه ، وقد تحمل « قوبيدون » الذي تطوع في هذه الخدمة منذ سنتين أو ثلاث كل مشقة في الذود عن مكانه وحفظ مجذافه وكان الذين ركبوا الزورق يحسدونه على شرف التعرض لمخاتل المحيط ونخاخه ، وما نجح في ذوده ودفاعه هذا الا بقوة حقوقه المكتسبة بسابق هذه الخدمة . أنزل الزورق في البحر وانحنى المجذفون الجريئون على مقاعد تعلو نصفها الامواج وأوغلوا في البحر وكان « اميل » على ما أرى يأسف أن لم يكن له من السن والقوة ما يؤهله لمساهمة رفيقه قوبيدون في هذه السياحة الدالة على جراءة الجنان ، وشرف الوجدان ، وأراه قد اكتسب في هذا المشهد من العبرة باخلاص المخاصين ، والاسوة باحسان المحسنين ، مالا أبيح لنفسي التعبير عنه بالكلام ، ومحاولة شرحه بفصاحة البيان ، لئلا أضعف من قوته ، وأشوّه من صورته ، فان حضور المشاهد العظام ، ورؤية الاخطار الجسام ، تعلمنا بغير كلام ، وتربينا بدون إلزام .

غاب الزورق ساعات والناس في قلق مميت واذا بصائح يصيح : هاهو ذا راجع ، وكان يقترب من الشاطىء حقا والناس في ريب من نجاحه في مسعاه الشريف . وما كان أشد شجاعته في مساورة غضب الامواج الثائرة ! وأنت ولاشك تعرف ما تأتي به صناعة الملاحة من هذه العجائب ، أعني الزوارق المنشأة من الهواء والبلوط التي هي في الخفة كالريشة وفي القوة والمتانة كما يحب الخير ويرضى . كان يخيل للرأي في كل لحظة

أن الفواعل الكونية المصطخبة ستبلع بقوتها هذه الصدفة الخشبية التي تطاولت بجراءتها الى منازعة البحر في غنيمته ، ولكنها تطاولت فطالت وحاربت فظفرت، فكأن هذا الزورق كان انسانا يسبح وقد أعطته جنية طلسمها ليتقي به مفزعات النوء، وما كان أبدع منظر رجاله والماء يتدفق من فوق قلانسهم المشمعة وثيابهم المزيتة وهم راجعون أعزاء ظافرين! وان كان الموج نال منهم وترك أجسامهم كاجسام الضفادع ونحوها من حيوان الماء، وقذف بهم أحيانا في مهاوي عميقة كبطون الاودية، وطفر بهم أخرى الى قنن عالية كشعاف الجبال يظهرون بها للابصار في ضوء الشمس السقيم ، وكلما غلبتهم الامواج على مجاذيفهم فنزعتها من أيديهم بادروا الى استرجاعها بقوتهم كما يأخذ الشجاع سلاحه من عدوه . صاح قوم من الملاحين كانوا على صخرة قائلين « نجوا »

فلما سمعت هذا الصياح شخصت ببصري الى الزورق الذي كان يدنو من الشاطئ دنوًّا غير محسوس، وأنشأنا نميز بين رجال الزورق ثلاثة من الغرقى شاحبي اللون شحوبا مفزعاً وفتاة صغيرة ليس فيها أدنى علامة على الحياة .

وصل الزورق بمشقة شديدة ورسا في مرسى من المراسي المحمية بالخليج فلم ألبث أن تلقفت بعض التفصيل عن حادثة الغرق فعلمت أن انقاذ الغرقى كان عسرا خطرا ، وانهم لقوا الألاقيّ الشديدة، ويظن انهم قضوا يومين على الطوى . وقد وجدوا معششين كالطير البحري حول بقايا أدوات السفينة التي لم يدمرها البحر كلها تدميراً، ولا شك انهم لما صاروا عرضة لجميع شدائد الجو تسلقوا هذا الموضع الحرج عند اغتيال

الامواج سطح المركب وثبتوا فيه بخوارق الشجاعة، وقد تعب منقذوهم في تخليص الحبال من أيديهم التي أيبسها البرد، وكانوا عاجزين حتى بعد نجاتهم عن مدافعة النعاس الذي كان ينيخ عليهم بكلاكله.

كان الناس يتساءلون: من هم ومن أين أتوا؟ ومما يزيد في سوء حالهم انهم ما كانوا يحيرون جواباً لانهم ما كانوا يفهمون خطاباً فحسبت انهم يعرفون غير الانكليزية فخاطبتهم بالفرنسية وبالالمانية بل استنفدت جميع ما أعرف من اللغات فلم أر في وجوههم أمارة على فهم شيء منها، وكان في الميناء بعض الملاحين الروسيين واليونانيين والنرويجيين فلم يكونوا أسعد مني حظا في مخاطبتهم. تجلت هذه الحادثة بشكل الامور الغريبة فكأن هؤلاء الغرقى في نظر الناس أموات بعثوا ولم يعرفوا لغات الاحياء.

وأما الفتاة الصغيرة التي يظهر انها بنت خمس فكانت نجاتها كمعجزة من المعجزات وكانت أبصار الملاحين قد زاغت دونها ولم تهتد في الضباب الذي أثارته الامواج اليها ولكن قوبيدون لمح بعينه التي تحاكي عين الفهد شبه كتلة معلقة في بقايا أدوات السفينة وخاطر بنفسه في التسلق لاكتشافها أشد المخاطرة فألفاها بنتا قد لفت في نسيج ولبوس وعلقت على ارتفاع عشرين قدما وسط الحبال المتقطعة وكانت مغمى عليها من البرد والجوع والخوف فأخذها وألقاها في الزورق فظلت في غيبة نعاسها كذلك الطائر البحري المسمى مويتا الذي يرى متخدراً طافياً على سطح المحيط.

أدرك هؤلاء الغرقى في الوقت الذي كان يجب انقاذهم فيه اذ لم يمض على ذلك بضع ساعات حتى هاج البحر هيجة حطمت بقايا السفينة وبددت ألواحها تبديدا وكانت القرائن تدل على انه لم ينج من ركابها الا هؤلاء.

أخذ الغرقى الى ملجإ الملاحين ليساعدوا على ضعفهم، وطلبت أنا ان تضم البنت الي والفضل كله في هذا البر لا خلاص فوبيدون، وليت شعري من أي البلاد هي؟ إن ملامح وجهها وشعورها الحالكة وجلدها الذهبي تدل على أنها من البلاد الجنوبية . هل هي يتيمة ؟ وهل غرق أبوها ؟ ومن هو صاحب اليد التي علقتها في بقايا السارية ؟ تلك أسرار محجوبة عني ولكن الظاهر أنها ليست لاحد الذين نجوا من الغرقى، ولا بد أن نقف قريباً على خبر السفينة ومن فيها، وسأكتب اليك بما أعلمه من ذلك وأستودعك الله قائلة إن من حبك أن أتأثر بمصائب الناس وأهتز لها .

(حاشية) عرف اسم السفينة وهو (أيا كوكو) وغرقاها من البيروفيين الذين يتكلمون الاسبانية غير الصحيحة . هذا كل ما علم الى الآن عن هذه الحادثة البحرية المحزنة . اهـ

الرسالة الثانية والثلاثون

﴿ من الدكتور اراسم الى زوجته في ١٨ ابريل سنة — ١٨٥ ﴾

التدرج الفطري في تعليم الرسم والخط والقراءة

تلقيت رسم « اميل » فاغتبطت به ولله ما تفضلت باضافته اليه من الشرح الذي كان كالمفتاح لمغلقه فلولاه لما نفذ ذهني في سر خطه البربائي، لاشك ان هذه البقعة الكبيرة السوداء تمثل العاصفة والبحر المضطرب والسماء المظلمة بالسحب وهذه يدي رهن لمن شاء، على أني أرى فيه السفينة

الغريقة وان كانت قوانين علم المرئيات لم تراع في الرسم بالتدقيق ، وذلك الشيء الطافي على وجه الماء لابد أن يكون زورق النجاة ، وأما هذا الوجه المصبوغ بالمداد فلا وجه للخطإ في معرفته فهو وجه قوبيدون، وكأني أرى بعين الارتياح في الصورة الصغيرة الملقاة على الارض تلك الفتاة المغمى عليها التي نجت من الغرق . أراك تجديني فهمت ذلك الرسم الذي لا أعرف من آثار ولدي سواه، وقد علقته هو وصورته على جدار حجرتي .

إن صناعة الاطفال تذكرنا دائما بطفولية الصناعة، وإن تصوير بعض أشكال هذا العالم الخارجي هو ملكة غريزية في نوعنا وربما كانت هي التي تميزنا عن غيرنا من سائر الحيوانات أجلى تمييز فان انسان (الغاب) الوحشي الذي لا تعرف لغته ولا تاريخه قد علم عنه اليوم انه كان في زمن ما ينقش بالظران [1] على الحجر أو على قرن الايل القطبي صورا اسمجة لا أثر للاتقان فيها كصورة الفيل القديم ذي الفروة المسمى « بالمموث » كما رسم بعض الحيوانات الاوابد الغريبة التي كان يغالبها في التسلط على الآجام والغاب

لدينا كذلك برهان على ان مجتمعات الانسان الاولى مارست فنون التقليد من قبل أن تضع لنفسها قوانين ثابتة تكفل لها حاجيات معيشتها.

أستنتج مما قدمته ان تعليم الاطفال ينبغي أن يبدأ فيه بالرسم وهذه هي الطريقة التي تلمسينها لنقل الطفل من التصوير الى الكتابة. قد أحسنت النظر اذ انتبهت الى ان حروف كتابتنا لا صلة بينها وبين ما وضعت للدلالة عليه بشكلها ، وانه ما ثم الا المواضعة والاصطلاح، فان الطفل مارأى

---

(١) الظران بالضم والكسر مع تشديد الراء جمع الظر وهو الحجر المحدد

في الكون شيئاً هو (ا) أو (ب) ولكن اختراع هذه الحروف هو من أعظم الآثار وضروب فوز العقل الانساني المخلدة في صفحات تاريخه. واذكر ان الامم القديمة كانت قد استعدت من زمن طويل للحروف الهجائية بممارسة الرسم ثم انتقلت منه اليها، فقد استمد الفينيقيون حروفهم من الخط الكهنوتي القديم، وأما أبناء هذا العهد فان هذا الاتصال بين الرسم والخط مقطوع في نظر الطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة بخطهم، فانه ينتقل فجأة الى عالم معنوي لا يجد فيه شيئاً يسترشد به ولا رابطة القياس والمماثلة. وبعد هذا يندهش معلمه من استثقاله ما يراه امامه من العقبات. ليس هو الذي يحق له المعارضة في مثل هذه الطريقة المضادة للعقل بل كل ذي ذوق سليم وحكم صحيح يحق له ذلك.

كل ما يتعلق بالخط يحملنا على اعتقاد أن الحروف الهجائية التي اخترعت أولا ربما لا تكون الا صوراً لبعض أشياء كانت تنسب اليها أكثر من غيرها، والخط ابتدئ باختصار في الرسم، وليت شعري هل محيت تلك الآثار البربائية تماماً من الحروف الهجائية للغات الحديثة؟ أقول ان هذا الامر محل للشك، وإني أعرف رجلا كيساً كان يرجع أشكال حروف لغتنا المطبوعة الى بعض الصور الخلقية. نعم ان مضاهاته كانت أحياناً تشف عن بعض التكليف، ولكني أود عن طيب نفس اتباع طريقته للتوفيق في ذهن «اميل» بين طائفتين من الاشكال تظهران لأول نظرة متباعدتين كأن بينهما بحراً رهواً. فاذا رسم مثلا مسطحاً مستديراً يمثل به الشمس اكتب في أسفل هذا الرسم اسم هذا الكوكب بالفرنسية «Soleil» معتنياً باظهار حرف O مكبراً فاذا كان الرسم «منزلا» «Maison» أو ثعباناً

«Serpent» أو طريقاً متعرجاً «zigzag» أو عيناً باصرة «œil» بذلت جهدي في بيان وجوه الشبه التي عساها توجد بين الحرف الاول من هذه الكلمات والاشياء التي تمثلها في الذهن فان « اميل » يفهم بهذه الطريقة أن الخط هو كيفية أخرى للرسم بها يبين الانسان مراده بأوضح مما يحاوله بالرسم وفي زمن أقل .

إن الذي يحير الطفل ويضله هو الزامه اتباع طريقتنا في النظر بدل أن نستدرجه من المعلوم الى المجهول استدراجاً سهلاً ، فترينا نبادر الى صب المعاني العقلية في ذهنه صباً على حين أنه لم يكتسب بعدُ ملكة تميز هيآت الاشياء المادية ـ نضطره الى ذلك بفضل ما لنا عليه من الولاية المعنوية على اختلاف درجاتها فينا ، ولكني أرى اننا بهذه الطريقة نجني على ذهنه جناية تقضي بالاسف ، فان الزامه التعلم وقهره عليه يسلبان معظم ميله الى الملاحظة والتعلم بنفسه ، وضرر الاستبداد في البيوت لم يكن أقل من ضرر استبداد الحكومة .

أرى ان الرسم والكتابة والقراءة هي ثلاثة ضروب من التمرين مرتبط بعضها ببعض بحيث لا ينبغي التفريق بينها في التربية الاولى ، على ان الرسم هو الذي تجب البداءة به فان في ذلك مزايا كثيرة أولها كفاية الطفل مؤنة ما للدرس من السآمة والملل في أول أمره ، فان معظم الاطفال يكرهون الكتب ، وما منهم الا له ميل الى الصور ، بل فيهم دافع طبيعي يحملهم في الغالب على أن يرسموا بأيديهم ما يقع تحت أبصارهم ، فالرسم عندهم ضرب من اللعب خصوصاً اذا مارسوه بدعوة الغريزة واجتهدوا

من تلقاء أنفسهم في أن يمثلوا أشد الاشياء استمالة لهم. ولا انكر ان ملكة التمثيل والمحاكاة لا يستوي فيها جميع الاطفال ولكن التأسي كاف في تنبيهها غالبا.

ليت شعري هل ولد الانسان رساما؟ هذا مالا أعلمه وانما الذي يثبته لنا التاريخ هو ان فنون الرسم كانت في جميع الامم سابقة لانتشار الكتابة والعلوم واذا كان الامر كذلك فالتاريخ يعيد نفسه في الاطفال كل يوم بأعيننا. ومن مزايا الرسم أيضاً انه يربي القوة الحاكمة في نفس الطفل، فان في فتح أبواب الكون له قبل فتح الكتب امامه مبادرة الى ارشاده الى ينبوع العلم. فمحاكاة الجماد أو الحيوان أو النبات توجه نظره دائما الى الصفات المقومة لماهية مايحاكيه وان جاء الرسم ناقصاً. الرسم هو تمثيل أشكال الاشياء وحدودها بخطوط فيجب ان يكون الراسم قد رآها وقام في نفسه معنى ما يميزها عن غيرها من العلامات والصفات الاصلية. وأما الكلمات المكتوبة فانها لا تقتضي هذا العمل في الملاحظة فانه متى عرف الطفل التهجية وتركيب الحروف يمكنه أن يسمي عدداً لا نهاية له من الكائنات الحية والجمادات التي ليس له بها أدنى معرفة، وتوجد له بذلك ملكة غاشة متى قويت وثبتت بالعادة أضاعت معظم العقول البسيطة التي لا همّ لها الا القشور.

لا يوجد الاستقصاء والتعمق في معرفة الاشياء الا حيث يوجد القياس والمضاهاة، فاذا لم يعتد الطفل التفكر فيما يرى وملاحظته يكون قليل الاهتمام جدا بفهم ما يقرأه.

آخر ما اذكره من مزايا الرسم انه إعداد أوّلي كبير النفع في تعلم الخط فان «اميل» بتخطيط صور الاشياء التي يستملحها تخطيطا حسنا

او رديئا يمرن اصابعه على الحركة ويكتسب نوعاً من الخفة والدقة لتكوين الخطوط التي منها تتألف حروفنا الهجائية. ولكن الغرض انما هو إعداد الذهن للانتقال من الرسم الذي هو كتابة الصور الى الخط الذي هو رسم المعاني فلو اننا تيسر لنا ان نربط في حكم «اميل» التمثيل الخطي للاشياء المشهودة بالعلامات المعنوية التي تقوم مقامها لكنا كأننا وضعنا على البحر الفاصل بينهما جسراً ، على انه لا شيء ايسر من تصغير الرسم في العمل فان «اميل» كلما رسم شجرة او ثمرة او حيواناً اقول له: إنك قد رسمت حروفا من حيث لا تدري غير انه توجد حروف اخرى اصعب من هذه رسما وقراءة يكتبها المتعلمون ، فاذا هجت فيه بهذا القول داعية الشوق وحب الاعجاب هيجاً شديداً اكتب له الكلمة الموضوعة للشيء الذي رسمه واحرضه على محاكاتها — افعل ذلك كله وانا اضحك .

سواء عندي نجح في ذلك ام لم ينجح مادام يجتهد في كتابة تلك الكلمة ولا شك انه يجتهد في ذلك اذا حمل عليه بالحذق والمهارة ولا بد من اعادة الكتابة عدة مرات قبل ان يكتسب شيئا من ممارستها ولكن الاصل باق على كل حال . وبهذه الطريقة يعرف (اميل) من هذا الحين السبب في الكتابة وكيف ان الناس قد استبدلوا برسم الاشياء حروفا اصطلاحية تدل على مايدل عليه الرسم وتفضله بكون مساحتها اصغر ووقت وضعها اقصر . هاتان هما مزيتا الخط على الرسم وهما اللتان اطيل له الشرح فيهما لانهما اقرب الى فهمه وادنى من علمه.

الطفل يجري في تعلمه تكوين الحروف عادة كما يجرى الدولاب فما احسنها طريقة للدخول فى عالم المعقول.

مجردا من ملكة الاختراع ولكن ينقصهم شيء من التفصيل وهو في الحقيقة هين ألا وهو شكل عقل الانسان في أطوار حياته المختلفة .

الطريقة الفذة التي أراها تلائم حالة التلميذ انما هي سلامة ذوق معلمه، ولا أقصد بذلك أنه لا موصل غيرها يمكننا ان تسترشد به في تيه التربية، بل اعتقد ان كثيرا من الطرق العامية التي استعملتها الاجيال الفطرية ولا يزالون يستعملونها ربما استعملت استعمالا مفيدا في تعليم الاطفال. لاشك أنك سمعت الحديث عن آلة (الحاسب الصناعي) التي أدخلت في بعض المدارس لتسهيل بعض عمليات الحساب على التلاميذ بواسطة استعمال كرات من العاج . هذه الآلة وان لم أقف على مزيتها تمام الوقوف أنا على يقين من أننا أخذناها عن الصينين وهي الحاسب الكروي المسمى في مملكة السماء (سوان بان) .

وعلى كل حال أعوذ بالله أن أنتقد مثل هذا الاخذ بل آسف من عدم رجوعنا كثيرا الى الطرق الصناعية والممارسات العملية للامم المتأخرة لتسهيل الوصول الى بعض العلوم الاولية على المبتدئين .

هؤلاء الاقوام المتأخرون هم أطفال التاريخ، وقد عرفت الآن بعض القوانين التي جرى عليها في جميع جهات الارض تكوّن اللغات والكتابة والفنون والديانات والصناعة، ولم نقف عند حد معرفة مناشئ العلوم فقط بل أدى بنا البحث في دوالّ المعاني أثناء أطوار الحضارة الاولى الى معرفة استعداد العقل البشري وطرقه المتعاقبة في الوصول الى العلوم ، فاما ان أكون مخطئا خطأ فاحشاً واما ان يكون هذا الترتيب الطبيعي في الترقي هو الذي ينبغي اتباعه في تربية الاحداث .

طرق التعليم عند الامم التي وقفت فيها حركة الترقي والتقدم عبارة عن شؤون دائمة وحالة وجود ومعرفة مستمرة فلا ينبغي أن تكون الا وسيلة وقتية للطفل في الاجيال المتمدنة فانه وان كان في الاصل جاهلا مثل هؤلاء الامم يمتاز كل يوم عن الوحشي والبربري بملكة التحول التي كأنها مرسومة في أعضائه، فهو يعرج بسرعة على معارج حالت بين الاجيال الدنيئة وبينها عقبات كؤود فلا يقف في عروجه هذا الا عند الحد الذي تضمه له استعداداته وملكاته الشخصية ونوع القوم الذين يعيش بينهم وتأثير الزمن فيه . فنسبة طرق التعليم الى التربية كنسبة الاوضاع والقوانين الى المجتمع فهي لا تلائم الا حاجة وقتية من حاجات العقل فيجب اعتبارها جميعها وقتية . فيكون من الحمق حصر عقل التلميذ في بعض الاشكال التعليمية كما كان من الجور في القرن السادس ارادة ابقاء الامم على قوانين القرون الوسطى وعقائدها .

الرسالة الثالثة والثلاثون

﴿ من إراسم الى هيلانة في ٢٢ ابريل سنة — ١٨٥ ﴾

تربية قوة الخيال والتلطف في محاورة الاطفال

أرى أن (اميل) على ما وصفته لي قد حييت اليه بدائع الخيال وغرائبه وأنا مسرور بذلك مهما بلغت درجته في نفسه لاني لا أحب من الاطفال من كان مشككا مرتابا فان الارتياب فيهم من دلائل نضوب

قوتهم الخيالية وعقمها . ولست ادري ان كان حنين الانسان الى ماوراء هذا العالم المشهود من اسباب شرفه او من امارات خسته وكلا الامرين في نظري سيان اذا كان هذا الحنين يرفع نفسه من حضيض هذا الكون المادي، ويسمو بها الى مايتمثل في الخيال من معارج الكمال الروحي، وانا اقاسمك الاسف على مايضيعه القائمون على الاطفال من قوة الخيال التي كانوا يجوبون بها مفاوز عالم الغيب وهم متعلقون بشعور جنياته. ذلك لان لله (سبحانه) حكمة في قسمة المواهب بين الناس حتى فيما هو اشدها خطرا وهو المواهب الخيالية فلم يهبها لنا عبثاً فليس لنا ان نسعى في اماتة قوة من قوانا لمجرد حكمنا عليها بأنها وهمية او خلو من الفائدة بل الاجدر بنا في شأنها ان نطلب لها مايقابلها ويوازنها ، فقوة الخيال مثلا سيأتيها الزمن بما يعارضها من قوة ملاحظة الحوادث الكونية وملكة التعقل والاستدلال فاستحلف المربين بحق الحياة وقدرها في نفوسهم ان لا يقسروا من قوى الاطفال وان لا يمحوا منها شيئا فان الانسان لم يبلغ من الغنى بها حدا تزيد فيه عن حاجته .

ان لنا في الكون لعبرة فلننظر الى حوادثه فاننا نرى جميع الموجودات في حركة واضطراب وتغالب وجلاد وترق وازدياد ونشاهد ان القوى المتعاندة تزدوج فتولد نظاماً ، والفواعل المتباينة تأتلف فتنشئ ملاءمة ووئاماً ، فأي ضرر يلحق الانسان اذا جرى في تربية نفسه على هذا المثال،

الرسالة الرابعة والثلاثون

﴿ من إراسم الى هيلانة في ٢٣ ابريل سنة — ١٨٥ ﴾

خطابه « لاميل » وحثه على تعلم الكتابة

اليك مكتوبا « لاميل » في طي مكتوبي لك وهو :

ولدي العزيز ! لقد أبهجني مكتوبك الذي أرسلته اليّ وانشرح به صدري كثيرا، غير اني انبهك الى أن هناك طريقة أخرى للكتابة هي الى الكلام أقرب من طريقتك اليه، واحثك على المبادرة الى تعلمها، فأسأل والدتك أن تعلمك طريقتها في قراءة رسومي القلمية التي تغاير رسومك بعض المغايرة . في نفسي أمور كثيرة أروم الإفضاء اليك بها ، فهل لديك ماتحب ان تكاشفني به ؟ فاني على عدم تمتعي حتى الآن برؤيتك، مشغول الفكر بك ، عامر الفؤاد بحبك ، فاذا وافتني كلمة منك استبشرت بها وهشت لها نفسي ، ولست أدري كيف أصف ما أجده من الفرح لو منّ الله عليّ بلقائك فضممتك الى صدري .

الرسالة الخامسة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢٠ يونيه سنة — ١٨٥ ﴾

الصحة في تغيير الهواء . وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء

كان « اميل » عليلا وكنت مشفقة عليه في بداية مرضه من الحمى

الحصبية، ولكنه لم يصب بالحصبة. والسبب في عدم اخبارك بذلك: هو أن الدكتور كان قد تعهد بأن يكاشفك بسير المرض، ثم انه لما لم يجد فيه أدنى خطر عليه رأى من العبث أن يوقظ مانام من همومك ويحرك ما سكن من دواعي قلقك، ولقد عجلت اليه العافية فلم يمض عليه خمسة عشر يوماً حتى رد له لباس الصحة، وثابت اليه أوابد القوى، واما أنا فكان شأني غير ذلك لان ماقاسيته من التعب في ليالي سقمه التي لازمت فيها السهاد، وما كان يساورني فيها من الحزن والاشفاق، قد تزعزعت له صحتي، ووهت به عافيتي، وللطب الانكليزي في مثل حالتي هذه دواء لا بد أن يكون هو سيد الادوية على ما أرى، وسندي في هذا الرأي ماأراه من ثقة الاطباء به في وصفه لمرضاهم، ومن اذعان هؤلاء له طيبة به نفوسهم، وهذا الدواء هو تغيير الهواء.

نعم ان الهواء الذي نستنشقه في مرازيون جيد، غير ان أخص ما يعول عليه أطباء الانكليز في ايصائهم المرضى بتغيير الهواء لتجديد قواهم انما هو الانتقال من مكان الى آخر والنظر في مجالي الكون ومشاهده وتغيير ما التزموه من عاداتهم، وإني والحق أقول قد أعجبت بهذا الرأي بعض الاعجاب لاني أعلم أن ضواحينا التي يتوارد عليها السياح كثيرا غاصة بضروب المحاسن الحقيقية، ولهذا السبب لم أعارض في هذا الرأي بل أذعنت له اذعان المريض المطيع الذي يجل أحكام العلم ويكبرها.

لم تكلفنا معدات السفر كبير عمل ولا مزيد عناية، فان السيدة وارنجتون بفضل خبرتها بطرق البلاد وجهاتها قد تكلفت بأن تشرع لنا طريق السير، وسقط قوبيدون على مركبة عتيقة من المركبات المكشوف

مقدمها مرت عليها أيام كانت فيها أسعد حالا بأصحابها ، وعلى فرس كبير السن لا يزال فيه على كآبة منظره من القوة ما يقدره على احتمال مشاق الصعود والهبوط في انجاد هذه الجهة وأغوارها الكثيرة ، فاستأجرناهما باجرة قليلة ، وفي صبيحة يوم ظعننا استوى الزنجي البارّ على كرسي المركبة استواء السائق المختال المعجب بنفسه .

كان وجه « اميل » ــ وقد زال شحوبه وعاد اليه لونه ــ يتلألأ فرحاً ويزهو بشراً وطلاقة ، لانه لا شيء يلذ للاطفال كتوقع الحوادث ، ولكنا لم نصادف في طريقنا شيئاً منها نقص عليك حكايته ، فلم نلاق سلبة ولا وحوشاً ولا أسارى مقيدين في مغارات الصخور ، مع اننا قد جبنا أرضين مقفرة تحدها سواحل قحلة مهجورة معرضة لجميع ما يطرأ من ضروب هياج البحر وطغيانه .

لم يكن خروجي الى التنزه لمحض التداوي بتغيير الهواء ، بل كنت أرمي الى غرض آخر أيضاً وهو أن ينفعل « اميل » عما يشاهده من المناظر الخلوية وصورها المدهشة فتنتقش لها في نفسه آثار حية ، فانه يقال ان أول شيء بعث في نفس بايْرُون [1] تباشير والعه ولهجه بالشعر انما هو منظر ما يوجد في هضاب ايقوسية من البحيرات وقمم الجبال ، ولست اعتقد أن (اميل) سيكون بايرون عصره بل لا أجد شيئاً من الحق في التطلع الى ذلك ، ولكني أتكدر واحزن ان رأيته من حيث هو انسان لا يتأثر عما هو مسطور في صفحات الكون من جيد الشعر وبديعه .

---

(١) بايرون هو اللورد بايرون الشاعر الانكليزي مؤلف القصص الكثيرة التي منها قصة الغلام هارولد وقصة الدوق جوان ولد في سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٢٤

قد وهمت فيما علقته على هذا السفر القصير من الامل الكثير في تنبيه القوى الحاسة في « اميل » وها أناذه أعترف لك بخطائي صاغرة إذ قد تبين لي أني تعجلت في هذا الامل، فاني رأيته لا يشوقه الا النظر الى الجزئيات واستطلاع وقائع الارياف وهو من حداثة السن بحيث يصعب عليه ادراك الاشياء في جملتها ومجموعها.

أرى ان الطريقة المثلى في تنبيه الاطفال وبث روح الملاحظة في نفوسهم هي ان لا نطلب منهم الملاحظة ولا نحملوا عليها، وقد سرت على هذه الطريقة في سياستي « لاميل » فلم أشذ عنها الا مرة واحدة. ذلك أننا كنا في رأس ليزارد [1] وما أكثر عجائبه! وان أردت تخيلها فمثل لنفسك صخوراً هائلة على جميع الاشكال بعضها قائم وبعضها ساقط وشيء منها متصل وآخر منفصل يهيج بينها البحر ويصطخب، ومنها ما غمره البحر فطوق جيده بقلادة من الزبد ولم يبد منه سوى رأس مخروطي أملس مصقول لا تفتأ الامواج تغسله، ثم تصور ان بصرك يتتبع من بعيد خط السواحل فيرى ما يتخللها من نقطة الى أخرى من الصدوع العظيمة والوهاد والمغارات المظلمة، فاذا وقف الانسان وسط هذه المشاهد الكبرى كانت حيرته في اختيار المكان الذي يشرف منه عليها. وقفت أنا واميل تجاه (كينانس كون) وهو أحد الخليج التي يرى فيها البحر أجمل ما يكون وسط الأطلال وقطع الصخور، وأخذت بيده ثم قلت له: انظر الى هذا المكان نظراً بليغاً وانقشه في حافظتك فلعلك لن ترى هذا المنظر بعد اليوم.

كأني بك تقول! هل القوة الذاكرة مما يأتمر بأمرنا فنأمرها بالحفظ

(١) هو رأس من رؤوس سواحل انكلترة في الطرف الجنوبي الغربي لقونتية كورنواي

والذكر ؟ فأجيبك بأن لي بعض الحق ان أعتقد هذا اذا رجعت الى مادلتني عليه تجربتي . ذلك اني أيام كنت فيما يقارب سن «اميل» سافر والداي الى مقاطعة أوفرني[١] وأخذاني معهما، وفي يوم من أيام اقامتنا هناك صعدنا على احدى شعاف الجبل المسمى « مندور» وهناك نشدني الله والدي جاهراً بصوته أن لا أنسى ما كنت أشاهده في تلك الساعة مادمت حية، ولا أراك الا سائلي عن نتيجة هذا الإقسام، فاعلم ان جميع ما كان ينبسط امام ناظري في ذلك الوقت من المشاهد المحدقة بي وهي مشاهد الجبال والربى والوديان لا يزال مرسوماً في لوح ذاكرتي، ومن هذا تعرف السبب الذي حملني على اتباع هذه الطريقة مع «اميل» نعم ان والديّ قد أوصياني بعد هذه المرة بحفظ منظر آخر لا أذكره الآن فلم يجد هذا شيئاً في الحفظ . وأنا أستنتج من ذلك انه ان تيسر في وقت ما ان يكون للمربي شيء من السلطان على حافظة الاطفال فلا ينبغي الافراط في استعماله لانه وسيلة فعالة .

اذا وكل «اميل» لنفسه كانت دهشته بالاشياء التي يراها أكثر من اعجابه بها، وهذا مما يحملني على اعتقاد انه لابد في رؤية الامور على حقيقتها كمال الرؤية من شيء من الخيال . خذ لذلك مثلاً وهو ان الطفل لا يعرف من البحر سوى دائرة الافق التي يحويها بصره وهي دائرة ضيقة بالنسبة الى الواقع، فان حجاب المسافات يحول بينه وبين ما وراءها من بقية البحر، فاذا كان الشاعر يفنى عن شهوده وترتفع نفسه اذا وقف أمام مشهد المياه الجليل فذلك لانه ينظر بفكره الى ماوراء الافق من امتداد المحيط فانه

(١) مقاطعة أوفرني هي اقليم قديم من أقاليم فرنسة قاعدته « كليرمونت فيراند » تكونت منه ومن جزء الهوت لوار « والكروز » مقاطعتا « كانتال وبوي دودوم »

متى انفك ساعة من ربقة عجز المشاعر الظاهرة اتسعت في خياله حدود العالم المشهود فيضيف الى هذه البقعة المائية المضطربة التي لا يرى منها الا جزءاً حقيراً مهما كانت دقة بصره صورة عدم التناهي والجلال وكلاهما من مدركات العقل لا دخل للحس فيهما، وبالجملة فانه يرى الجلال والعظم في ماهية البحر ومعناه الذهني لا في صورته المرئية .

نخلو نفس (اميل) من ملكة التفكر التي لا بد أن تظهر فيه بتقدمه في السن يكشف لي سر عدم اكتراثه بما يراه من مناظر الكون، بل تقليده غيره في الاعجاب بها ، كما يبين لي سبب انبعاث شوقه الى بعض جزئيات ما كانت تخطر ببالي مطلقاً ولهجه بها لهجاً شديداً . ذلك أن معظم الصخور التي يتكون منها رأسا ليزارد ولندس اند (طرف الارض) وضع لكل صخرة منها اسم خاص بها، كأنه يخاطب الخيال ويوقظه فيريك الدليل الخرّيت منها صور العمود وعرين الاسد والمطبخ والمنافيخ والمقلاة والفرس ورأس الدكتور جونسن ووجه الدكتور سنتا كس وغيرها ، فمن هذه الاسماء ماينطبق ولا شك على مناسبات خرافية تختلف درجة قربها أو بعدها من الحقيقة ، غير ان منها أيضاً ماهو مبني علي وجود وجوه شبه ظاهرة للعيان بين مسمياته الاصلية وبين تلك الصخور التي وضع لها، ومن المحتمل أن تكون هذه الالعاب الكونية والصور الاتفاقية والحجارة التي تمثل هيأة الانسان أو شكل شيء من الاشياء مع عدم نحتها بالمنحات هي التي بعثت في نفوس الاولين فكرة صناعة التماثيل، ومهما كان أصل هذه الصناعة فان هذا الفن الفطري الاضطراري الذي نقشته على الصوّان يد الخالق القادر هو من الغرائب غير المألوفة التي هاجت شوق « اميل »

الى معرفتها ، فانه كان يجتهد من نفسه في ادراك ما بين قطع الصخر وبين بعض الاشياء المعروفة له تمام المعرفة من وجوه الشبه التي لم تعزب أيضاً - كما يدل عليه أسماء تلك القطع - عن فكر صيادي السواحل السذج البسلاء.

من عهد ان رأيت جميع النموذجات الاصلية لفن العمارة ظاهرة في المغارات وسلاسل الصخور لم يسعني الا الارتياب في ان هذا الفن من مخترعات الانسان . ذلك لانك تجد فيها أصل النافذة القوسية والقباب بما يقومها من الارتفاع والانحناء والدعائم الثقيلة والعمود الرفيع المخطط والشبابيك الطويلة المقبوة والعمائد وغيرها من الاشكال الكثيرة، فليس على الخيال الا أن يتوجه الى هذه الكتل الصخرية المتراكمة حتى يميز النظر من بينها مُثُلاً لمعابد عتيقة، وصفوفاً من تماثيل صخرية ذات وجوه ناقصة، وزخرفاً رمزياً ، ووحوشاً خرافية لو فصلت من الصخر لكانت شخوصاً مستقلة .

كان بودي على كوني لست من العلماء ولا من الاثريين أن أعلم (اميل) في هذه الفرصة الجميلة بأن ألقي في ذهنه معنى للآثار السلتية[1] التي لا تخلو منها بعض جهات كورنواي، واكثرها شيوعاً هو كما تعلم الدوائر القسيسية[2] والاحجار الطويلة القائمة في الارض على قواعدها كالمسلات ، والرءوس الصوانية الطبيعية التي صارت بعد عمل صناعي قليل هي الحصون الاولى للبلاد تحميها من لصوص البحر وكان أشد هذه الآثار استمالة لي مدرّج

---

(١) السلتية نسبة الى السلت وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد الغول وشمال ايطالية وبريطانية العظمى وايرلاندة (٢) نسبة الى القسيس لأن القسيسين هم الذين كانوا مختصين بهذه الدوائر فلا توجد في غير محالهم

يلدّين في رأس ليزارد، ومما يحمل على الظن بأن يد الانسان هي التي نحتت هذا المدرج في الصخر مايشاهد في بعض أرجائه من آثار أعمال تلك اليد الفطرية التي محا نصفها كرور العصور وما نبت من الاعشاب الدقيقة على سطح الصخور. ومن الاقوال المروية في شأن ذلك المدرج أن الدوائر العظيمة الناتئة في سمك الحجر كانت فيما غبر من الزمن صفوف درجات وان السلت قد انتهزوا حينئذ فرصة وجود منحن خطته يد الفطرة ووهدة يزبد البحر في قاعها فجعلوها مسرحاً لابصار النظار وعملوا لجمهم حولها. اذا صحت هـذه الرواية فليت شعري ماذا كان المنظر الذي كان يحشر الناس له في هذا المكان؟ ان كان ذلك هو الكون وعظمه فانه مشهد جدير باثارة وجدان الاعجاب والاكبار خصوصاً في هذه البقعة ولكني ارجح ان ذلك الاجتماع كان لقضاء بعض المناسك الدينية لوجود جملة من الصخور السوداء ناهدة على سطح الامواج تجاه المدرج يقال ان القسيسين كانوا يتخذونها مذابح للقرابين وتلك شعائر أقل مافيها العظم والجلال.

يوجد أيضاً في هذه الناحية حجارة عمودية يتألف من تناسقها دوائر متناسبة الاجزاء تسمى بالكروملك يكتنفها نبات الخلنج الادكن المحزن فيورث رائيها الغم والخوف، ولكن! أبي «لاميل» أن يكون له كبير اشتغال بمثل هذه الآثار القديمة وهي خلو من أثر صناعة النقش ومجهولة التاريخ؟ وكيف يرجى منه الاهتمام بها؟ على أني أرى أن نفسه قد انفعلت بآثار كامنة فيها لما شاهدناه ستظهر فيه يوماً، واني استند في هذا الرأي على أمر صبياني جداً غير ان كل شيء في عالم الطفولية هو أكبر مما يظن به ودونك قصة هذا الامر:

كان يوم ١١ يونيه عيد ميلاد «اميل» فاراد ان يشهر هذا اليوم العظيم بمأدبة خفيفة موافاة لما تقضي به عادة أهل البلد الذي نسكنه ، وانه فوق ذلك قد عمد في هذا العيد الى اختراع افتجره افتجاراً ، فقد أخذ بثوبي وسار بي الى بستان فرأيت فيه وأنا في غاية الدهش كوماً من الاحجار المتوسطة في الحجم مرتبة مرصوفا بعضها فوق بعض بنوع من الحذق والصناعة وقد عددتها فوجدتها سبعة. فعلمت من ذلك أنه قد استفاد من مدرسة قدماء « السلت » ، فانه لما فهم من الآثار التي زرناها على طول الساحل انها اقيمت تذكاراً لحادثة من الحوادث ـ طبق مارآه على نفسه فأصبح كما ترى ، وله ان يقول ماقاله هوراس[1] من قبله وهو «قد رفعت لنفسي أثراً »

على اني أسائل نفسي: لماذا تسمى سن «اميل» بسن التمييز والتعقل ؟ فليت شعري أي شيء يتعقله الطفل في السابعة من عمره ؟ لاأراه يتصور الجزئيات فانه لم يعمر من الزمن ما يكفيه لتصورها، ولا يدرك الكليات، فانه يجب لإدراك هذه ان يكون العقل قد وصل الى حد معلوم من الرشد، وإني اذا حكمت بمقتضى ماأدتني اليه تجربتي واختباري أقول: ان «اميل» لايزال أكثر انبعاثاً الى العلم بالاشياء منه الى الحكم عليها، فالذي يهمه ويشغله انما هو كيفيات الموجودات الظاهرة وبعض دلائل الفكر واماراته، وسأبين لك مرادي بمثل آخذه من ضروب تسلينا فانتظره في المكتوب الآتي. اه

(١) « هوراس » هو شاعر لاتيني شهير ولد في سنة ٦٨ ومات في سنة ٨ ق ٠ م

الرسالة السادسة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢ نوفبر سنة ـ ١٨٥ ﴾

تعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري

فرغت من اقامة معهد التمثيل الصغير الذي كنت حدثتك عنه في بعض مكتوباتي السابقة، ولي أن أقول ولا فخر: انه ناجح مؤد الى الغاية المقصودة منه.

استحضر لي الدكتور وارنجتون من لوندرة فانوسا سحريا، وهو آلة جميلة معدة لان تتجلى فيها المناظر المتعاقبة بواسطة الضوء واللون ، ومن خواصها انها تكبر مايمثل فيها من الاشياء تكبيرا في غاية المناسبة، وترسم على حجابها الذي هو من النسيج صورا لا يمكن أن يرى أظهر ولا أوضح منها، لذلك تراني قد قمت بما أخذته على نفسي من رسم معظم الصور وتلوينها على زجاجها مختبرة ما يكون للوهم من الاثر في النفس عند النظر اليها، وقد بدا لي أيضاً أن من المفيد أن أؤلف بين ماتمثله هذه الآلة من المشاهد المختلفة بتنسيقها وجعلها على شكل قصة وجيزة تجعل التمثيل مرتباً متواصل الاطراف يستميل النفوس ويبهج الانظار . ولما انتهيت من هذا العمل دعوت الى المعهد في الشتاء الماضي عشرين طفلا من الولدان والولائد مخالفة في ذلك سنة الكونتيسة «ديكاربانياس » فانها كانت تشخص في بيتها القصص الهزلية وتأمر بوابها بأن لا يدخل أحدا، وسبب هذه المخالفة اني أعتقد أن الانسان لا يمكنه أن يلتذ بشيء من مروحات النفس الا

اذا كثر عدد حاضرها وانهم اذا كانوا أطفالا تكون الاستفادة أعظم والنفع أتم .

ابتدأت التمثيل بعرض أشياء في غاية البساطة كداخل ضيعة أو طاحون، والمعيشة في سفينة ،ثم مثلت هذه السفينة في يوم آخر وقد نقلتنا الى بلاد بعيدة وكان أبعدها عن أخلاقنا وعوائدنا أدعاها الى اثارة الاستغراب وتهييج الشوق في نفوس النظارة[1] الصغار، فكانوا يحبون أن يروا بيوتاً بنيت على خلاف طريقتنا في البناء وشوارع وساحات ورحبات عامة فيها رجال ونساء غريبو الازياء والهيئات،وكان فيما عرضته عليهم صورة صيد الحيوانات الوحشية خصوصاً أضخمها وأضراها كالفيل وفرس البحر والكركدن والاسد والنمر فلم أعدم منهم تحمسا في الدهش والاعجاب بها، ثم أريتهم قافلة تجوب الصحراء فشاقهم منظرها كثيرا . ولقد كفتني هذه التجارب في الاقتناع بان في فانوسي السحري عزيمة «ياسمسمة انفتحي»[2] واني إن لم استعن به على فتح أبواب المجهولات لاصدقائي الاحداث كنت مخطئة ملومة .

يتشوف الاطفال كثيرا الى معرفة كيفية تكوّن الحيوانات والنباتات والصخور ، وتتشوق نفوسهم الى معرفة طريقة نشوء جميع ما يشاهدونه كل يوم . من أجل ذلك آذنت جماعة النظارة جهرا بأننا سنمثل على الدوام قصة ذات بهجة وجلال مؤلفة من عدة فصول تسمى تاريخ الارض .

استعنت عشية هذا التمثيل بجميع ما في الفانوس من قوة الاستعداد

---

(١) النظارة هم المتفرجون (٢) عزيمة سحرية خرافية لفتح الابواب المقفلة ذكرت في كتاب الف ليلة وليلة

وبصور اعتمد في رسمها على آراء علماء طبقات الارض من الانكليز وبقليل ماحصلته من العلم بمطالعة الكتب، واستقر رأيي على ان أجعل في التمثيل لفواعل الكون وقوى الطبيعة لساناً تفصح به عن الحقائق والحوادث وهو تجوز يمكن ان يسمح به في قصص الغناء والتلحين الشعري،على انه لم يكن المقصود من ذلك قرض الشعر بحال بل كان الغرض منه ايضاح مالم تكف آثار الضوء والالوان المتنوعة في اظهاره على الحجاب اظهارا تاماً بعبارات في غاية السهولة. مثال ذلك ان أقول للنظارة: أتدرون ماذا كان يقول المحيط الذي هو أصل الاشياء لما غمر سطح عالم ازهقت روحه مياهه ؟ الحق أقول انني لم اقف على كلامه ولكني إخال أنه كان يدعو الحياة دعاء الانبياء ويسألها أن تزيل الوحشة من أعماقه المظلمة ولججه القاحلة .

ولا غرو فقد بدا في أشعة الضوء السحري أقدم ماعرف من أشكال الحيوانات كالاوداميا [١] واللنجولا [٢] والاورتوسيراتيت [٣] طاغية البحار السيلورية [٤] والتريبوليت [٥] وغيرهامن مخلوقات الكون الاولى التي رسمت صورها اعتماداً على بقاياها الاثرية أوعلى ماانطبع على الصخور من تلك البقايا.

---

(١) الاوداميا حيوان هلامي من المكونات الاولى توجد آثاره ولا تعرف اخباره (٢) اللنجولا حيوان رخو ذو محارة مخروطية مستطيلة يشمل جنسه عدة انواع بادت ولم تبق الا آثارها واعضاء الحركة في هذا الحيوان توجد في رأسه (٣) الاورتوسيراتيت حيوان هلامي رخو يقوم فيه الذراعان مقام الرجلين محارته ذات فلقتين يشتمل جنسه على عدة انواع بعضها عائش وبعضها بائد فلم يبق الا آثاره (٤) السيلورية نسبة الى بلاد السيلور وهم اقوام كانوا يقطنون بلاد الغال في بريطانية العظمى (٥) التريبوليت حيوان رخو محارته ذات فلقتين

ثم تلا ذلك ظهور أول أرض انحسر عنها الماء فنهدت على سطحه ، وكانت طوائف من الجزر كان يخيل للنظارة بواسطة المغالطة البصرية أنهم يشاهدون الاعشاب الشجرية تنبت منها وذلك كالسيجيلاريا [1] والاستجماريا [2] وغيرهما من المثل الاصلية للنباتات القديمة ، ولست أنكر أن جميع هذه المناظر هي صور في نهاية الحقارة بالنسبة لما تمثله من المشاهد الكبرى للكون في عصره الاول ، ولو ان انساناً ـ كان قد قدر له أن يشهد خالق الاشياء ـ حضر في معهد تمثيل تلك الصور لما وسعه الا أن يضحك منها لانها ليست الا أشباح لاعب ، ولكن لا يعزب عن ذهن هذا الساخر أن هذا التمثيل انما جعل للاطفال ، وأن القصد منه هو تعليمهم وهو غرض جليل يجب الاغضاء عن حقارة ما يتخذ من الوسائل للوصول اليه .

كان يتلو كل عصر من عصور تاريخ الارض فترة جهالة عمياء وسكوت عام كان يدل ـ كما نبهت النظارة اليه ـ على اشتغال الدهر بعامله البطيء الخفي .

ظهر في الفصل الثاني من القصة سلسلة مناظر مختلفة آذنت بحصول بعض الحوادث الكبرى على سطح الارض ، منها أن جزراً نتأت من الماء وتواصلت فكانت بدايا تكوُّن القارات المستقبلة ، ومنها أن ظهرت نباتات وحيوانات جديدة لم يكن عهد لها وجود في العالم الى ذلك الحين . وأخص ما أثار دهش النظارة من تلك الحوادث وهاج اعجابهم دور ظهور

---

(١) السيجيلاريا نوع من النباتات البائدة التي لا يوجد منها الا آثارها يحتوي على نحو ستين صنفاً ويوجد في الطبقات الفحمية من الارض (٢) الاستجماريا نوع آخر من تلك النباتات

الزواحف وقد حملني مارأيته من ذلك على اعتقاد أن بين طفولية الكون وطفولية الخيال مناسبة ومطابقة لما خلته من ارتياح نفوس تلاميذي الصغار لمشاهدة صور تلك المملكة الحيوانية البائدة ، فاني قد مثلت لهم الليبيرانتودون [١] وهو ضفدعة كالثور في الضخامة ، والاختوزيور [٢] ذو العين الهائلة، والبليزيوزيور [٣] الذي عنقه كعنق الثعبان، والميغالوزور [٤] فيل الزواحف الذي رأسه كرأس الضب ، والهيليوزور [٥] ذو الظهر الشائك، وصنوف الحيات الطيارة المسماة بالبترودا كتيل التي تشابه ذلك الوحش الخرافي ذا الاجنحة الذي وجهه وجه امرأة وجسمه جسم عقاب واسمه الهازلي ، فأثارت دهشهم وإكبارهم لها بمقادير أجسامها الهائلة وقوة الدفاع فيها ثم تلاشت نوعا بعد نوع كما تتلاشى الاحلام .

كانت النظارة يعتقدون ان جميع هذه المخلوقات كانت عائشة على وجه الارض لاني كنت أؤكد لهم ذلك بذمتي ، وكان هذا التأكيد مصدر استغراب جديد لهم، على أني ماقصدت اضلال أحدمنهم ولا التمويه عليه بل قصصت عليهم بالايجاز كيفية معرفتي إياها وبينت لهم ما أضفته من عندي الى ماعرف حق المعرفة من تركيبها وتاريخها . ولو أن سائلا منهم سألني عن سبب انمحائها من على وجه الارض لا عضاني سؤاله، على أني كنت أجيبه: إنامعاشر الموجودات قد زج بنا في محيط الدهر زجاً شديدا،

---

(١) الليبرانتودون هو نوع من الزواحف البائدة أثبت وجوده العالم الانكليزي المسمى أوين بما عثر عليه من بقاياه (٢) الاختوزيور نوع من الضب في فلم تبق الا بقاياه (٣) البليزيوزيور نوع آخر من منه (٤) الميغالوزور نوع ثالث منه أضخم من السابقين (٥) الهيليوزور نوع من الزواحف الهالكة وجدت بقاياه في أرض انكلترة

والدهر كما تعلم منشأ التقلب ، وقد وجد في طبائعنا الاستعداد لجميع ماقدر لنا من ضروب تصاريف الحياة واستحالاتها ، فمهما كان عمر الزواحف القديمة طويلا فلا بد أنها قد مرت بما قدر للكون من النظام العام كما كانت تمر أشباحها على الحجاب المعد لقبولها .

آذن الفصل الثالث من القصة بمناظر خلوية اجتهدت في أن أمثل فيها بعض آيات العصر الذي يسميه علماء طبقات الارض بفجر حياة الارض الحالية (أيوسين) وظهر بعد الزواحف الضخمة جسام الحيوانات الثديية كالميجاتيريوم [١] الهائل ، والدينوتيريوم [٢] مارد المردة في عصرها ، والمستودنت [٣] كبير الحيوانات البائدة الصفيقة الجلود وغيرها مما لم أذكره وان كان من أغربها . أحضرها سحر الفانوس فعرضها على الانظار برهة، ثم لما رأت ان هذا الكون الذي نعيش فيه لم يخلق لها حتى ما كان منه في حيز الوهم والمغالطة لم تلبث ان لبت دعوة العدم فزالت على التعاقب كما بدت.

على أن ماتلا هذه العصور الاولى من الاستحالات والانقلابات في النباتات والحيوانات التي كانت موجودة فيها قد آذن بان الارض صائرة الى أحوال العصور الحالية ، فأنشأ الاطفال يتدرجون في الشعور بأنهم في أرض يعرفونها مع ما كان لا يزال يوجد من التباين بين ما فيها وبين مايعرفونه من أرضهم. كانت تنجلي امامهم غابات تقارب أشجارها أشجار غاباتنا تجول فيها ايّل ضخمة الاجسام تعدو وراءها السباع التي لا يزال

---

(١) نوع من الحيوانات الثديية انقرض وبقيت بقاياه (٢) نوع آخر منها أرقى من الفيل توجد بقاياه في الارض الرملية والحجرية (٣) نوع من الزواحف البائدة الهائلة

نسلها يفترس فرائسه الى اليوم في الصحاري والقفار .

لم يكن البرد الى ذلك الحين قد كدر صفاء هذه المشاهد التي كان يسبح فيها ضوء الشمس ممزوجاً بحرارتها القوية ، ولكن في آخر العشية بدت تباشير الثلج فكان لها مناظر محزنة متعاقبة استعنت في ابرازها للعيان بكل ما في فانوسي من قوة الاستعداد، ففهم منها النظارة أن حيوانات العصور الاولى قد أهلكتها هذه المؤثرات المبيدة أو انها أوت الى أقاليم أخرى أشد حرارة من اقاليمها الاولى ، وكان صاحب السلطان على هذه الاقاليم الباردة هو الوعل القطبي والفيل ذو الفروة المسمى بالمموث، وكان يخيل للاطفال ان الارض صائرة الى الفناء وخلتني أطالع في عيوننا كثرهم التفاتاً آيات القلق والحيرة ولم أر من الضروري ان أسرّي عنهم هذا القلق فقد تكفلت بذلك الحوادث، استغفر الله بل صور الحوادث .

بدت امامهم مغارة نحتتها يد الفطرة في سمك الصخور فكانت ملجأ أوت اليه الحيوانات الوحشية كالدب والضبع الذي هو نوع من الكلاب وغيرها من النزلاء التي ترجع في نسبها الى انواع من الحيوانات قد اصبحت اليوم مستأنسة ، ثم ظهر لهم خلق جديد هو عجيبة الكون ذلك هو الانسان . رأوه على ضوء نار اوقدها لنفسه في جانب منزل من الارض وهو شبه حي عرف كيف يختطه لنفسه ، فليت شعري ما هو ذلك الخلق ؟ ومن اين هو ؟ لاشك ان مثل هذين السؤالين هما من الاسئلة المعضلة التي يحار الانسان في الجواب عنها والمناقشة فيهما امام اطفال لا تتسع عقولهم لها ، على اني لست متثبتة في العلم بالاجابة عنهما من أجل ذلك رأيت من الحزم أن أطفئ فانوسي وأكف عن الخوض فيهما .

اجابة لطلب جميع النظارة ـ كما يقال في اعلانات معاهد التمثيل ـ قد استعد معهدنا لايجاد عدد عظيم من المشاهد ستمثل في قصتنا .

عقدت النية على الاستمرار في دروس التمثيل هذه وعلى أن أحكي لأصدقائي الاحداث بواسطة الفانوس تاريخ الانسان ومغالبته لفواعل الكون وما اتخذه من آلات صيده وأدوات عمله الاولى وتجاربه الصناعية منذ كانت الصناعة في مهد طفوليتها، ثم أبين لهم بعد ذلك بهذه الطريقة عينها ما عرف من المجتمعات القومية والعوائد القديمة وآثار الفنون الاولى ،فاني أرى انه لاشيء الا ويمكن أن يفهمه الاطفال على شرط اطلاعهم على كل ماتحدثهم به من الاشياء والنزول معهم في التعبير الى الحد الذي تطيقه أذهانهم .

لست أغبى عن قيمة صناعة رسم الاشباح ولاأجهل ماتساويه تلك الالاعيب الخيالية ، ولا خفاء في اني لاأدعي أني اذا استعرضت امام «اميل» بعض الصور لما كانت عليه الارض والناس في عصورهم القديمة أكون قد علمته علم الطبقات الارضية أو علم التاريخ . واني أعلم أيضاً أن كثيراً من الصور السحرية لا تلبث أن يزول أثرها من أذهان الاطفال كما يزول من حجاب الفانوس، ولكن كل هذا لاشيء فيه فحسبي أن يثبت في أذهانهم صورة أوصورتان فان تم ذلك رجوت لهم في مستقبلهم أن يجتهدوا في تحصيل العلم بأنفسهم من المدرسة الكونية أومن مدارسة الكتب، وعلى كل حال فليس الغرض من تعليمهم في الصغر أن يحصلوا العلم وانما الغرض منه ان تبعث فيهم روح الشوق والميل الى المعرفة . اهـ

الرسالة السابعة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٤ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

« بقية أخبار السفينة الغريقة وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من الكلام »

لقد زها « اميل » بالمكتوب الذي أرسلته اليه وأعجب به اعجاباً كثيراً، وكان فيما رأيته شديد الحنق من عجزه عن قراءته بنفسه، وهو على انتظاره بلوغ أهلية الترسل قد طلب اليّ أن أكتب اليك بما لقفناه من أخبار حادثة الغرق بعد الذي أخبرناك به فأقول: قد ابتلي ملاحو السفينة بضروب المحن وأنواع الشدائد ثم اخترمتهم المنية فلم تبق منهم إلا واحداً أنشأ يستجمّ ويستجمع ماتبدد من قواه، وتيسر التفاهم معه بواسطة ربان اسبانيولي يعرف لغته. ومما استفيد من أقواله أن السفينة الغريقة المسماة (أيا كوكو) كانت لرجل من الملاحين في بلاد البيرو [١] شحنها بضاعة وقصد بها انكلترة، فما هو الا أن أحاطت بها ريح عاصف من أشد ما يمكن تخيله من العواصف فأغرقتها. ومما يوجب الاسف أن غرق ذلك الرجل أصبح مما لا سبيل للريب فيه، وقد كان استصحب بنته وهي في الخامسة من عمرها لاسباب لا تزال في طي الخفاء، وكان من في السفينة يدعونها « لولا » وهو اسم مختزل فيما أظن من دولوريس.

عهدت الى بعض الناس هنا بمراسلة أهل الفتاة في بلدهم ولما يجبه

(١) بلاد البيرو جمهورية في أمريكة الجنوبية عاصمتها ليما وسكانها ٣٦٠٠٠٠٠ نفس

أحد منهم ، ويقول الملاحون إنها فقدت والدتها من بضع سنين وليس لها أخ ولا أخت ولم يبق من ذوي قرباها الا أباعدهم ، ويؤخذ من كلامهم أن صاحب السفينة كان من المثرين ، ولكن ما أدرانا أن ثروته لم تكن قصورا في اسبانية [1] لان البيرو هي اسبانية وراء البحار .

أثار سوء حظ هذه الفتاة في نفسي عواطف الرحمة والحنان فأمسكتها حتى يأتيني فيها أمرك ، وأنا على يقين من أن عملي هذا لا يقع منك الا موقع الرضا . نعم اني قد لاحظت في أحوالها وهيآت أفعالها شيئاً من الجفاء والوحشة ، ولكنني أرى على هذا الجفاء الصبياني مسحة من الحسن والطلاوة كما ان وجهها تبدو عليه مخايل الجمال والنضرة ، وهي الآن تعلم « اميل » ماتعرفه من الاسبانيولية على قلته وهو أيضاً يعلمها الفرنسية والانكليزية ، ولا غرو فان الاطفال يتفاهمون بالنزر من الكلم أسرع مايكون . اه

الرسالة الثامنة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ١٧ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

تعليم السباحة وتربية العضلات

أنا مع اشتغالي بتربية عقل « اميل » أرى ان أخص مايجب الاشتغال به في سنه هذه أن تعد فيها أعضاء سليمة قوية لاحتمال متاعب الحياة ، من أجل ذلك تجدني أحثه على ممارسة الرياضات البدنية والاكثار من

---

(١) يشير بقصور اسبانية الى المثل الفرنسي المشهور وهو قولهم ان فلاناً يبني قصورا في أسبانية يضربونه لمن يتعلل بالاماني الباطلة ويحلم بادراك المقاصد الخيالية

قبض عضلاته وبسطها اختياراً ، واقتحام العقبات التي لا يخرج عن وسعه اقتحامها . نعم ان لي رجاء قوياً في أن لا يصير من المصارعين ولا أحب ان ارى فيه مثالا صغيراً لذلك المصارع الشهير المدعو «ميلون دوكرتون» وان أوتيت من أجله انفس شيء في الدنيا ، ولكني أرى ان كل ضعف يلحق الانسان بدنياً كان او عقلياً يصير سبباً من أسباب استعباده .

بدت على قوبيدون منذ حين سمات الكدر لكون « اميل » لا يزال جاهلا بالسباحة ، ولما كان يفضي اليّ بأسفه من ذلك كنت اعترض عليه بأنه لا يزال من حداثة السن بحيث لا يستطيع ان يمسك نفسه على الماء ، وهو اعتراض لم يكن له قيمة لانه اذا كان مايعتري الانسان من الخوف عند وجوده في مكان مجهول له هو اكبر العوائق التي تعطل جري حركاته في هذا المكان فلا يكون تقدمه في السن الا من اسباب ازدياد هذا الخوف وقوته . والذي يستفاد من كلام الزنجي البار انه كان يسبح من عهد ولادته ، وهو يقصد بذلك ولا شك انه لا يذكر تعلمه السباحة كما انه لا يذكر تعلمه المشي على الارض لان هذين النوعين من الرياضة هما في نظره من الامور الفطرية . انتفت عني شكوكي ومخاوفي بتأكيده ان لا خطر على « اميل » من تعلمه ذلك الفن ، وقد رأيت ان من مزايا تعلمه انماء العضلات وتقويتها ، وكأنه يوسع مجال حرية الانسان في حركته ومرحه في برزخ يصل بين عنصري التراب والماء . وهو فوق ذلك وسيلة من وسائل النجاة ومن هذه الجهة يكون تعلمه فرضاً علينا لا نفسنا ولنظرائنا . على انني كنت اعرف في قوبيدون انه وان كان يغلب عليه التهور في تعريض نفسه للخطر يحرص كل الحرص على حياة « اميل » فلا

يعرضها لما يخشى منه ولو سيقت له في ذلك الدنيا بحذافيرها .

يوجد على مقربة منا شبه بحيرة صغيرة ناشئة من اجتماع مياه غدير يصرفه عن الانصباب في البحر ما يمترضه من الشعاب والكثبان رآها قويدون موافقة لتعليم «اميل» مبادئ السباحة فأنشأ يعلمه فيها غير متخذ له منطقة من الفلين ولا مثانة مملوءة بالهواء ولا غيرهما من الآلات الاخرى التي تستعمل احياناً — ان لم اكن واهمة — لمساعدة قوى المبتدئين في السباحة ، ولما كان يقال له في ذلك كان يجيب بلسانه الساذج قائلا يجب ان يكون الطفل فلينة نفسه ، وارى ان طريقته في التعليم سهلة جدا على حسب ماتيسر لي من الحكم عليها ، فأهم شيء بنيت عليه هو بث روح الثقة في نفس المتعلم ، وقد اكدلي من رآه في وقت التعليم انه من اجل ان يكون قدوة في ذلك لتلميذه كان يستلقي على ظهره في الماء ناظرا الى السماء سادا فاه متنفسا بأنفه وقد برز جزؤه من الماء ، فكان لسان حاله وهو في هذا الوضع يقول لناظريه : هاأنتم أولاء ترون ان الانسان لايصح ان يغرق ، وانه اذا غرق بعض الناس فانما يغرقون مختارين .

لم يلبث هذا الاستاذ ان ابدى كثيرا من التيه والفخر بتقدم تلميذه ، غير انه كان يرمي في سبيل نجاحه الى غاية ابهر من ذلك واظهر ، فكنت اسمعه يرمهم متهكما بالسباحة في البحيرة قائلا ما احسنها سباحة في مغتسل ! دعيني من البحيرات وحدثيني عن البحر تجدي اذنا صاغية فهو الذي يمسك من يسبح فيه ويسنده ويزيد في قواه ، ولكني كنت اعارضه وانهاه عن الذهاب «باميل» اليه وعن تجربة سباحته فيه لما كان يخامر قلبي من لراوع والفزع المنبعث عن المبالغة في توهم ماعسى ان يكون في ذلك من الاخطار ،

لاني اكبر هذا الخلق العظيم واجله إجلالا مشوباً بالروع، فانه كثيراً ما اغتال اناسا في نواحينا، ولا بد ان اقول: ان «اميل» ايضاً كان يشاركني في هذا الروع بعض المشاركة، فان البحر خلق حيٌّ مضطرب يرتفع ويجذب السابح فيه اليه مصخباً، وفي كل صفيحة من صفائح امواجه شخص بل عدو ولذلك السابح عامل على اهلاكه، وفي دوام روحات هذه الامواج وجيآتها ما يمثل للانسان اضطراب بحر الازل بعوالم المخلوقات ويقوم له منه اكبر موعظة وذكرى تنبهه الى ضعفه وعجزه.

لم يطل عهد نفور «اميل» من البحر وخوفه منه، وها انا ذا مبينة لك السبب الذي قمع ذلك النفور وشرد هذا الخوف فأقول:

إنه يفهم من سجنك معنى مبهما، ولم ارد ان اكشف له حقيقة هذا الامر الذي يهيج الكلام فيه ساكن آلامي ويثير كامن اشجاني لسببين، اولهما انه يصعب عليه فهم مرادي من الكلام (فماذا عسى ان يفهمه من قولي له ان والدك سجن بسبب سياسي ؟) وثانيهما ان سوء ادراكه للحوادث التي حصلت قد يبعث في نفسه بغض فرنسة وعداوتها، لذلك تراه قد جره امساكي عن الخوض في هذه المسألة الى ان يخترع لها حكاية يعللها بها، فهو يتوهم انك اسير في قبضة جنية او غول او تنين، وانك رهين قلعة يحصنها البحر، وربما كان الباعث له على هذا وجوده يوماً ما فوق صخرة وغشيان المد اياه واحاطة الامواج به إحاطة ذلك الكلب الخرافي ذي الرءوس الثلاثة المقول عنه في أساطير الاولين بأنه حارس جهنم، ومهما كان الحامل على ذلك الاعتقاد فانه قد وطن نفسه على ان يحمل حملته الاولى لتخليصك مصاحباً لعزم

كعزم اشراف المائدة المدورة [١] او كعزم شاب باسل قتال للوحوش غلاب للاغوال . على اني لا يسعني الا اتهام الزنجي الخبيث بأنه زين له اوهامه وحبب اليه خدع نفسه ليحمله على مشايعته في آرائه وموافقته لافكاره .

دخل عليَّ البيت كلاهما ذات يوم ووجه قوبيدون تعلوه قترة الريبة، وقد غلب على « اميل » مايغلب على كل ظافر بطلبته من الفرح، فلم البث ان فطنت الى المكان الذي جاءا منه، وهاج غضبي عليهما الى حد ان صار وجهي أحمر كالجمر، وعنفتهما على مخالفتهما لامري فلم يتزعزع « اميل » لهذا الهياج ، بل تلقاه بثبات الشجعان، وأجابني وقد بدا على وجهه من الاصرار مالم أعهده فيه من قبل فقال: اني اريد ان اتعلم السباحة لافك والدي من أسره وآتيك به، فما سمعت منه هذه الكلمة وشاهدت لحظه المعرب عن حرية ضميره وخلوص طويته ورأيت ثقته بنفسه المنبعثة عن سذاجته وعلمت مقاصده النبيلة حتى سكنت ثائرتي وكفت بادرتي، فبششت في وجهه بعد العبوس وتبسمت له وضممته الى صدري وأشبعته تقبيلا في جبينه الذي كان لا يزال مندى بماء البحر .

الرسالة التاسعة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٨ يوليو سنة — ١٨٥ ﴾

اخباره بالعفو عنه

اذا صح ما نشرته الجرائد الانكليزية وما ذاع من الاشاعات في

---

(١) أشراف المائدة المدورة هم رهط من الاشراف عددهم اثنا عشر يجعلهم كتاب القصص القديمة من رفقاء أرتوس وهو شجاع قصصي من شجعان بريطانية العظمى

الهواء لم تبق حاجة « لاميل » في ان يتسامح تسامح الاشراف ولا ان يطوي البحار ليخلصك من قبضة التنين الذي يعتقد انك في اسره ـ لان الناس هنا يتكلمون بحصول عفو سياسي ، واني كنت اتمنى ان يحصل لك من الحكومة فوق هذا العفو عمل يكون جزاء لما لحقك من الضرر وتحقيقاً لمقتضى الانصاف، ولكني لم اطلب لك شيئاً من ذلك فلا تعجل بالرفض واعلم ان قلبي يرقص طربا كلما فكرت في وقت التلاقي . اه

الرسالة الأربعون

﴿ من الدكتور وارنجتون الى هيلانة ... ﴾

بشرى الحرية

ايتها السيدة .

علمت الليلة في لوندرة خبرا أبادر بابلاغك اياه : ذلك ان زوجك قد منح نعمة الحرية وفي الختام الك مني السلام والاحترام . اه

الـكتاب الثالث

في اليافع

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور ارامم

الشذرة الاولى

حررت في مرازيون في سنة ـ ١٨٥ الداخلة في سنة ـ ١٨٦

حب الزوجة والولد والوطن

منذ سنة تغيرت شؤون حياتي كلها .

وجدتها هي بعينها [١] ولما تلاقينا كنا كأننا لم نفترق في حياتنا ، فان النوى لم يغير شيئاً من ضروب وجداننا ولا من عاداتنا لبقاء قلبينا على ما كانا عليه من الارتباط والاتحاد ، وغاية ماحدث اني أراني الآن آنس مني في جميع أيامي السالفة بحسن معاشرتها ، نعم انها لم تبق طفلة كما عهدتها ولكنها لم تأخذ من مرور الايام الا مايزيد المرأة في القلوب محبة وفى النفوس تأثيراً ، فكأن روحها وملامح وجهها تكملت وتطهرت بادائها فروض الامومة المقدسة .

---

(١) يريد زوجته أم « اميل »

كنت أوشكت أن أقنط من معرفتي لولدي، ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن الذين هم أكثر الناس اشتغالا بالتربية لم يرزقوا أولاداً أو رزقوهم وحرموا من رؤيتهم، وربما كان هذا هو الباعث لهم على الاهتمام بالتربية وجعل البحث في شؤونها غايتهم ليؤدوا بذلك ما فرضه الله عليهم منها بنوع آخر من الاداء .

فليت شعري بماذا استحققت أن اكون أسعد من هؤلاء مع كونهم أجدر مني بالسعادة ؟

ما أشدني حنواً وتأثراً عند تقبيل ولدي إياي ! وما أعظم زهوي واعجابي به عند ما آخذ بيده وأتنزه معه في المزارع ! وان الدنيا لترى في عيني جديدة وهو معي كأن لم أرها منذ سبع سنين ! لاجرم أن الانسان لا يبصر وهو رهين السجن محروم من الحرية فكل ما كنت أراه من أشجار وصخور عمرت عمر الدنيا القديمة كان يخيل الي انه لم يخلق الا بالامس .

خطر في ذهني ساعة خاطر العود الى فرنسة ولكن الف مانع — وان شئت فقل الف وهم — قد تحول بين المرء وبين معيشته في وطنه، وما أدراك أن من هذه الموانع مايعتريني من الالم الممض الذي لا أستطيع التعبير عنه اذا رأيت أمة عظيمة عهدتها حرة قد أصبحت في قبضة حاكم وجميع مايحصل في هذا الوطن لا يقل عن ذلك ايلاماً للقلب ولا ازهاقاً للنفس.

يوجد في جميع عصور التاريخ رجال بررة صالحون رأوا من الواجب عليهم لأنفسهم ولأوطانهم أن يخدموا هذه الاوطان وهم بمعزل عنها، فمثل هؤلاء فيما أرى أشد حباً لها لانهم سواء قربوا منها أو بعدوا عنها يحيون نفحاتها وينتعشون بمجاهداتها في سبيل الخير وبما لها من الآمال في الوصول

اليه. جرحهم في صميم أفئدتهم ما مس أمتهم من القروح وان كان يبدو من حال الامة عدم شعورها بألمها كأن في مرور الزمن عليها واعتيادها احتمالها من قوة التأثير ما يكفي لاندمالها جميعاً. مثل هؤلاء المتطوعين بالاغتراب والنفي يلومون الناس وحوادث الدهر ولكن اذا حاول محاول امامهم ان يغض من كرامة فرنسة ويحط من شأنها استشاطوا غضباً وتبيغ[1] الدم في عروقهم. ذلك أن هذه القطعة من الارض التي تنازلوا عن سكناها مختارين قد تغلغل حبها في أحشائهم وأخذ بمجامع قلوبهم، فتراهم يبذلون الوطن نفسه في اعزاز شأن المعنى الذي قام في أذهانهم منه ويفضلون الحكم على أنفسهم بالبعد عنه على رؤيتهم اياه مهيناً ذليلا.

كأني بسائل يقول: لماذا اتخذت هذه العادة وهي تقييد أفكارك ومذكراتك كل يوم بحسب المصادفة والاتفاق؟ فأجيبه أن هذا مطوي أيام معيشتي في السجن أنشره للناس لاني لما لم يكن لي فيه أنيس أطارحه الحديث كنت أكتب كأني أراسل نفسي.

الشذرة الثانية

(تعليم المسميات قبل الاسماء)

لم تخلف طريقتها في تربية « اميل » أملا من آمالي فلتبق على ماهي بسبيله من تهذيبه وتثقيفه بما تقدمه له من الاسى وبما توحيه الى نفسه من الثقة بها، على اننا من عهد أن أنعم الله علينا باللقاء رأينا من المفيد أن نقسم العمل بيننا لان التعليم ـ ان لم أكن غالياً في حكمي ـ هو من وظائف الوالد

(١) تبيغ الدم هياجه وثورانه

غالباً وأما التربية فانها من أعمال الوالدة وان أردت أن تعلم أين نحن من قيام كل منا بعمله فأقول :

لما يدرس « اميل » شيئاً درساً منتظما فهوانما لقف دروسه الاولى في علم التاريخ الطبيعي متفرقة على نحو من الاتفاق وذلك بمعاينة ما كان يجده كل يوم على شاطئ البحر من أنواع المحار والصدف . ثم اني أمكنه حيناً بعد حين من النظر بالمنظار المعظم (الميكرسكوب) ـ وهو آلة شائعة الاستعمال جداً عندنا ـ محركا أجزاءه بنفسي فيكبر له بعض عجائب المخلوقات غير المتناهية في الصغر، وأريه بالمرقب (التليسكوب) ـ وهو آلة أرصد بها النجوم ليلا ـ عجائب المخلوقات غير المتناهية في الكبر. وقد ملأنا اناء من الزجاج بالماء الملح ووضعنا فيه حيوانات هلامية وحيوانات قشرية وأسماكا وكنا نجدد ماءه كل ثمانية أيام، ومنه تلقى « اميل » كل ماعرفه فيما أرى من علم حياة الحيوانات التي تعيش في جوف البحر . وفي بعض الاحيان اكرر بمشهد منه بعض تجارب سهلة جدا في الكيمياء والطبيعة، وهو على جهله باسمي هذين العلمين يدرك بعض الادراك تأثير بعض الاجسام الفطرية في بعض. وفي ذات يوم رآني أصنع مقاييس للحرارة والهواء ومع كونها لم تكن من الاتقان في شيء بدا لي منه انه أدرك استعمالها في الجملة لاني رأيته يريد محاكاتها . جميع ماتقدم هو كتب تعليمنا حتى الآن .

لابد ان اكون أنا «واميل» تابعين في التعليم لمذهب ارسطاطاليس لان أغلب درسنا يحصل في وقت التنزه، فاني أدع لامور الكون وحوادثه تنبيه ذهنه غير متعرض لها بشرح ولا تفسير الا أن يكون اجابة عما يوجه الي من الاسئلة مجتهدا في أن يكون الشرح واضحاً والبيان وافياً . وقد

عرفت من محاورته أن الوسيلة الى اصغائه الي هي تتبع سلسلة أفكاره عند محادثته . ان كثيرا ممن يأخذون على أنفسهم تعليم الاطفال ليبالغون لهم في البيان ويفرطون في الشرح كما لو كانوا في حاجة الى أن يثبتوا بذلك لانفسهم انهم على معارف واسعة وعلوم جمة . أنا لاأعلم «اميل» شيئا بل أتعلم معه فعوضاً عن كوني أعلمه طريقتي في النظر أجتهد في معرفة طريقته وتمييزها ومالا يميل الى معرفته بحال أجهله مثله أو أتجاهله . ثم ان هذه الطريقة ليس من شأنها أن تعلي قدر الاستاذ في نظر تلميذه ، وانه لا بد في اتباعها من تنزه العقل عن الغرض وتنازله عن بعض شهواته ، ولكن ما هو متبع الآن من نقش صيغ العلوم وقوانينها وقضاياها في أذهان الاطفال ليس هو الا كرقم الالفاظ على الرمل .

ملكة البحث عند الطفل هي كغيرها من الملكات تنمو بالاعتياد والمراس فان الشوق الى معرفة الاشياء يتولد في الانسان ولا يولد معه ، وانما يكتسب ذوق الملاحظة الاستقلالية بالملاحظة نفسها . ولا ريب أن أعين تنبه « اميل » والتفاته بأن أريه مالا يراه في الاشياء لاول نظره اليها، غير انه في هذه الحالة يجب أن يكون هو مصدر الميل الى ذلك أيضاً وأن يكون صدور هذا الميل منه فطرياً . ثم ان الاطفال في الجملة مدفوعون جدا بسائق الطبع الى الاكثار من السؤال ، فرأيي ان التعجيل لهم بالجواب قبل السؤال وتجاوز حدود مايطلبون معرفته هو مما تخبو به نار هذا الاستعداد المبارك لان ذلك يفضي بكثير منهم الى التزام السكوت ليكفوا أنفسهم مؤنة سآمة الدرس وطوله اه

الشذرة الثالثة

« تربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معا »

اني أخشى مغبة افراطي وافراط هيلانة في ميلنا الى تلك الصبية التي ألقتها العاصفة بين أيدينا لجواز أن يطلبها بعض ذوي قرباها يوماما، وكيفما كانت نتيجة هذا الميل فلا بد لي هنا من اثبات أمر يتعلق بعلم تركيب الانسان ومنافع أعضائه فأقول: كانت دولوريس لما التقطناها وآويناها الى بيتنا محلا لجميع العيوب التي توجد في نظائرها اللاتي من قبيلها وبلادها. كانت مع ظرافتها مكسالا وانية قليلة العناية بشأن نفسها، وان كان لا بد من التصريح قلت انها كانت كثيرة الوساخة، وكان هذا الاغفال منها لنفسها مع مقدار عظيم من التغنج والتدلل من موجبات كدر هيلانة وحزنها، ولم ينجح في الكسر من زهوها والطأمنة من صلفها ما اتخذته لذلك من العظات وضروب التوبيخ وأنواع الايلام الخفيفة. ولما كان فيها من حدة المزاج بل والتهيج عند مخالفتها فيما تريد ـ كانت لا تبدي أدنى اشتهاء للتعلم. أفرغت هيلانة جهدها في ايقاظ عقل هذه الحسناء ناعسة الغابة[١]

{١} يلمح المؤلف بقوله «هذه الحسناء ناعسة الغابة» الى أسطورة من أساطير الكاتب الفرنسي شارل بيروات المسماة حكايات الجن ملخصها ان أحد الملوك وزوجته ابتليا بالعقم مدة طويلة ثم رزقا فتاة حسناء فجعلاها في كفالة سبع جنيات وأولما لهن وليمة أعدا فيها لكل واحدة منهن صحفة فاخرة لها كيس من الذهب الخالص فيه ملعقة وشوكة وسكين من الذهب أيضاً وفي أثناء جلوسهن على المائدة جاءت جنية عجوز =

من سباته فأخفق مسعاها وبطل أثر ما استعملته من التعاويذ والطلسمات لرد هذا السحر الذي لا يدرى أية جنية خبيثة من جنيات البيرو رمتها به على ما يظهر. وان أردت أن تعلم من الذي أبطل هذا السحر فاعلم انه «اميل» ذلك لان ميل « لولا » الى أن تعجبه وان تتحامى ضروب سخريته بها وأنواع زرايته عليها ـ كان أشد تأثيرا فى ارادتها من جميع عظاتنا ونصائحنا،

كان هذا أول سلطان « لاميل » على قلبها ولا خطر فيه فى سنها .

من ذلك الحين وقع التنافس بينهما، أما من جهته فلشدة زهوه وفخره بما له من التقدم عليها في علومه القليلة، وأما من جهتها فلغيرتها ورغبتها فى منازعته ذلك التقدم ، والمرجو من هذا التنافس أن يعود دائما بالفائدة على كليهما فان درسهما مجتمعين أحسن وأتقن منه منفردين، لانه اذا اعتبر «اميل» نفسه أعلم من «لولا» اجتهدت فى التبريز عليه فى ميدان المطالعة.

أرى، ان هذه الصحبة تفيدهما فى أخلاقهما أيضاً فائدة كبرى، فان الاطفال على علم تام بما يشتركون فيه من العيوب ، ولا يبقى بعضهم على بعض في تشهيرها وتعييره اياها، لذلك نرى «اميل» قلما يوقر «لولا» فيما يراه من النقائص، وهي أيضاً لا تقصر في أن تكيل له الصاع بمثله بدون

= ثامنة لم يكن حضورها في الحساب فقدمت لها صحفة بلا كيس فظنت ذلك احتقارا لها فخافت احدى الجنيات أن تسيء هذه العجوز الى المولودة فخرجت ثم ان كلا من الاخريات منح المولودة صفة جميلة ماعدا العجوز فانها قالت ان الفتاة ستخرق يدها بمغزل وتموت فجاءت الجنية التي كانت خرجت وقالت انها لا تموت ولكن يغشاها النعاس مائة سنة ولا يوقظها الا ابن ملك من الملوك ثم اتفق أن الفتاة رأت مغزلا في يد عجوز فتناولته فخرق يدها فسقطت نائمة ثم نقلت الى قصر لوالدها في غابة وبعد مائة سنة أيقظها ابن ملك وتزوجها

أن يكون في هذه المشاغبات الخفيفة ما يكدر صفو مودتهما الشريفة في شيء»،
وكأني بقائل يقول: ان هذه المزايا بعينها توجد في معاشرة الاخ لاخته
ووجودهما معاً، فأجيبه بأني في شك من ذلك لعدم تمام الشبه في الجهتين.

زرت فيما مضى مدرسة للصم والبكم كانت تنقسم في أول نشأتها الى
قسمين أحدهما للذكور والآخر للاناث، فلم تلبث التجربة أن كشفت
عيوب هذا التقسيم فان الصبايا اللاتي كن مقصورات في قسمهن كان
يبدو عليهن التأخر عن الغلمان سنة أو سنتين، ولم يكن الغلمان أنفسهم بارعين
في التقدم والنجاح، فخطر في بال القائمين على المدرسة أن يجمعوا الفريقين
في غرف واحدة فكانت نتيجة هذا التغيير محمودة فانه لم يمض الا يسير
من الزمن حتى زال تأخر أحد الفريقين وانحطاطه عن الآخر وتقدم
الآخر تقدماً لا نزاع فيه. ذلك لان العجب الذي هو خلق فطري في
الذكر والانثى، والطمع الذي هاجه في نفوس الغلمان وجود منافسات
زاهيات بأنفسهن بينهم واهتمامهم بأن يظهروا في أعينهن ممتازين عنهن،
كل ذلك ساعد من الجهتين على ازدياد درجة معارفهم في دروسهم مع
انهم كانوا هم التلاميذ الاولين لم يتغيروا وانما ظهر أن قواهم تضاعفت.
لماذا لا يصح في حق الناطقين والناطقات ما صح في حق الصم والبكم.

انما يعارض القائمون على تربية الناشئين في الجمع بين الذكور
والاناث بحجة المحافظة على الاخلاق والآداب، ولو كانت هذه المعارضة
مبنية على سبب صحيح لكانت وجيهة سديدة، ولكن لا بد أن نجيب
هؤلاء المعارضين بأنه لم يفكر أحد البتة في جمع هذين الصنفين في
قاعات النوم العامة، ولا شك أن تقسيم محال المدرسة وأفنيتها والرياضات

المدرسية بالحكمة والتدبير يجنب كثيراً من المضار التي يخشى منها على الآداب والاخلاق .

على ان العمل العقلي انما جعل لتذليل الغرائز والشهوات الخبيثة وقمعها لا لتنبيهها وتقويتها ، وإني أرى ـ خلافاً لاولئك المعارضين ـ ان في التفريق الكلي بين الصنفين خطراً على الفضيلة ، فان فرط الاحتراس والاحتياط الصادر عن الرياء والنفاق لا يكون منه الا دعوة الفساد الى الاحتيال للتطرق الى الاخلاق من سبيل الشر فلا يلبث أن يظهر فيها . وان كثرة بث روح الحذر في أطهر المعاملات وأعفها توقظ في اليافعين ما هو نائم من شهواتهم ، وتظهر ما يكون كامنا من أشواقهم ، فينبغي أن تزال هذه الحدود المادية ويعتاض منها بحدود الله التي فطرهم عليها وجعلها في نفوسهم سياجا لما فرضه عليهم .

لا أريد مما تقدم أن الذكر والانثى في التربية سيان يصلح لاحدهما كل مايصلح للآخر ، كلا ! بل كل منهما يقتضي تربية خاصة لاختلافهما في المواهب والفروض والغرض الذي خلقا لأجله . على انا نرى النابغين والنابغات من الصنفين يتكافؤن ويتناسبون في بعض ذرى العلوم والفنون الجميلة والشعر ، فالاجدر بنا أن نفكر في اعداد الازدواج بين ما أوتيته الانثى من رقة الوجدان ، وما أوتيه الذكر من حصافة الجنان ، فان في ذلك لذة حياة الصنفين ، وان في تربية شطري النوع الانساني منعزلين كانهما لا يشتركان في شيء مما خلقا لاجله تعجيلا بقطع الصلة الاجتماعية ، وأما تقديم الصبية الى الصبي وتفهيمه أنها ستكون له في مستقبله رفيقة في العمل

والكدح في سبيل الخير والعدل والحق فهو أكثر انطباقا على مقتضى الفطرة وعلم الاخلاق ، وعلى كل حال ستتعلم « لولا » و« اميل» معا الى ان تقتضي الحال التفريق بينهما، وإني لأرجو لكل منهما خيرا كثيرا من وراء هذا الاقتران العقلي . اه

الشذرة الرابعة

الجزيرتان — والتعليم بضرب الامثال

يحسن أحيانا في حوار الاطفال ان يكون تفهيمهم الحقائق على طريقة ضرب الامثال .

سألني « اميل » منذ أيام : لماذا وجد في الناس فقراء ? وبدا لي من « لولا » كثرة اهتمامها بمعرفة العلة في ان فيهم أغنياء .

جرى على الالسنة جواب مشهور لهذين السؤالين وهو « ذلك ماأراده الله » وما كنت لاجيبهما بمثل هذا التعليل ؛ لانه فيما أرى ليس من شأنه ان يؤدي الي أذهان الأطفال معنى كبيرًا لعدل الذات العلية ، وما كنت أيضا لأدخل معهما في أعوص مسائل علم الاقتصاد السياسي وأصعبها . من أجل ذلك رأيت ان أحسن جواب أخرج به من هذه الحيرة أن أقص عليهما قصة فقلت :

روي انه كان يوجد في مكان سحيق من بحر لست على يقين من معرفته جزيرة بني فيها الأغنياء قصورًا من المرمر وزرعوا في أرضها بساتين وحدائق ذات بهجة ربوا فيها من الأزهار ماينذر وجوده في غيرها

واحتفروا بركا توفيرا لأسباب اللذة ، ولم يكن في الدنيا مايعادل زخرف موائدهم ، فقد كان يطاف عليهم بصحاف من الذهب فيها أقشار ضخمة طبخت بمرقة سرطان البحر (وهو ألذ ألوان الطعام في ذوق «اميل» !) وكانوا في لباسهم بالغين حد الافراط في التأنق خصوصا نساءهم وكان أولادهم يلعبون الكجة [1] في الميادين العامة بكرات من الماس .

وأما فقراء تلك الجزيرة فكانوا يمشون حفاة وكانت صباياهم تغدو كل يوم في أسمال من الثياب فتطوف بأبواب الاغنياء التماسا لما ألقاه خدمهم من قمامات موائد العشية . ولم يقتصر الاغنياء في سوء معاملتهم على استعمالهم في الأعمال الشاقة الممقوتة بل كانوا يحتقرونهم ، وبلغوا من ذلك الى حد انهم كانوا يحظرون على ذوي الثياب الرثة منهم أن يوجدوا في المتنزهات العامة ، ولم يكن لهذا الحظر من سبب سوى خوفهم على بسطها السندسية أن تدنسها أقدامهم ، أوخشيتهم أن يكون منظر بؤسهم قذى في عيونهم ، وهذا هو الأقرب الى الحقيقة .

من أجل ذلك كله غادر الفقراء المدينة ذات ليلة وآووا الى جبل ليأتمروا بالاغنياء ، فكان رأي الشبان منهم أن يأخذوا أسلحتهم ويسطوا عليهم وهم نيام في مضاجعهم ويقتسموا أموالهم ، فقام من بينهم شيخ حكيم وتربص بهم حتى قرت شقشقتهم ، ثم قال : إياكم أن تفعلوا من ذلك شيئا لاسباب ثلاثة أبديها لكم : أولها أن الاغنياء يقوم على حراستهم في صروحهم

(١) الكجة بالضم والتشديد لعبة : يأخذ الصبي خزفة فيدورها ويجعلها كأنها كرة ثم يتقامرون بها وتسمى هذه اللعبة في الحضر باسمين فاما الخزفة فيقال لها التون وأما الآجرّة فيقال لها البكسة .

خدم هم شر منهم، وكلاب أضرى من الحراس أنفسهم. ثانيها اني لا أعتقد ان سطوكم هذا عليهم وسلبكم لأموالهم يكون من العدل، لانهم قد كسبوا هذه الاموال التي تحسدونهم عليها أو كسبها أسلافهم من وجوه شريفة أوخسيسة ثم ملكوها من بعدهم بمقتضى قوانين ـ أرى مع كوني لا أدرك كنهها كمال الإدراك ـ انه لا بد لوجودها من سبب لان جميع الناس محافظون عليها مطيعون لاحكامها حتى الآن. ثالثها أن ما يجوز أن تنزعوه اليوم من أعدائكم بغلبتكم عليهم يجوز أن يسلبه غداً منكم غيركم بقوته وضعفكم، فعلينا اذن أن نفكر جميعاً في اتخاذ وسيلة أخرى: لا بد أنكم سمعتم بوجود جزر أخرى في البحر غير هذه الجزيرة التي قضى علينا نحس طالعنا بالولادة فيها، فقد حكى لنا فقراء الملاحين اخواننا الذين يحضرون الى هنا بسفينتهم مشحونة بالارزاق ومواد الزخرف التي يستعملها الاغنياء ـ أنهم رأوا غير مرة في أسفارهم أرضين تنهد من الماء مكالة بالنباتات والاشجار الكبيرة المثمرة ، ويستفاد من حكايتهم أن احدى هذه الجزر خالية من السكان ولا ينقصها الا ارادتكم حتى تصبح جنة جمة الثمار دانية الجنى ، فان لنا سواعد قوية تساعدنا على العمل وها أنا ذا مع شيخوختي سأكون لكم قدوة فيه وأمدكم بنصائحي عند الحاجة ، هذا هو رأيي قد أفضيت به اليكم فانظروا ماذا تفعلون .

فتلقى جميعهم نصيحته بالقبول وما عتموا أن هاجروا الى تلك الجزيرة متعاقبين على سفن واهنة صنعوها بأنفسهم من ألواح خصاصهم ، فشمل الاغنياء فرحا لسفر هؤلاء الغوغاء ولم يستطيعوا كتمان فرحهم بل كانوا يصفقون ويجهرون بقولهم : حبذا حبذا هذا الخلاص .

فلما كانت تلك السفن تقل الا أشخاص المهاجرين لانهم كانوا لا يملكون شيئا . أستغفر الله! بل حملوا معهم فيها أدوات عملهم .

مضى على سفرهم بضع سنين انقطعت فيها أخبارهم واختلفت أقوال أهل الجزيرة في شأنهم ، فمن قائل بأن البحر ابتلعهم ومن واهم بانهم أكل بعضهم بعضاً ، وبينما هم في هذا الاختلاف اذ رأوا ذات يوم سفينة مشحونة بالغلال وعروض التجارة رست على ميناء جزيرتهم ، فلم يلبثوا ان عرفوا من لهجة ملاحيها وبعض ملامح وجوههم انهم من سكانها السالفين ، وقد أخبرهم هؤلاء الملاحون انهم آتين من جزيرة أخرى استقامت فيها أمورهم ونجحت نجاحاً عظيما ، لانهم ماحرثوا الارض وأحيوا مواتها حتى جللتها الحصائد وملأتها المزارع والمواشي ، فاعتبر الاغنياء هذه الاخبار من الاساطير وقهقهوا لسماعها قهقهة المجانين .

على ان الملاحين لم يكونوا مبالغين في شيء مما قالوا ، فانه كان يخرج من أرض تلك الجزيرة القفرة علي نحو من السحر حقول مكسوة بالزروع وقرى ومدن وطرق وترع ، وكان سكانها في معيشتهم على وفاق تام لانهم كانوا منها في غبطة وهناء وقد ضربت عليهم السكينة رواقها ، فكانوا يعتبرون أبناءهم بذوراً لخلف أرقى وأكثر منهم ، ولذلك كانوا يبكرون بتعليمهم العمل وانشائهم على حبه .

أصبح الامر على خلاف ذلك في جزيرة الاغنياء ، فكانت الثروة فيها تنقص من يوم الى يوم ، لان سكانها لما كانوا من فرط الكبر والكسل بحيث انهم يستنكفون أن يتولوا بأنفسهم حرث الارض لم تلبث أن امتلأت عاقولا ، وتعطلت جميع الحرف والصنائع لفقد عمالها ، وتبع ذلك زوال مواد

الزخرف، وتداعت الصروح والقصور فلم يوجد من الرجال من يقيم منا آدها

فزع الاغنياء في بداية هذا الانحطاط الى صناع الجزائر المجاورة لهم فلم يجيبوا دعوتهم لانهم كانوا على بينة مما كانوا يعاملون به اخوانهم فلم يرضوا لانفسهم ماقاساه هؤلاء من ضروب الاهانة .

ثم ان من بقي في الجزيرة من سكانها كانوا يملكون كثيراً من الذهب والفضة ، وانهم اشتروا من التجار الاجانب كل ما كانوا في حاجة اليه مدة من الزمن، ولكن كل كنز لا بد من نفاده بالغا من الكثرة ما بلغ خصوصا اذا كان أصله لا يتجدد ، ومن أجل ذلك لم يمض الا بضع سنين حتى غاضت أموالهم ، وأنشأوا يندمون ـ ولات حين مندم ـ على ما فرط منهم من القسوة والظلم في معاملة الفقراء .

صاروا الى حالة محزنة جداً، فقد تخلى عنهم من كانوا يحوطونهم من الخدم والحشم لعجزهم عن دفع أجورهم ، وعجزت خيلهم عن جر عجلاتهم لفقدها من كانوا يقومون على تغذيتها واصلاح شأنها، وكانت نساؤهم ترى في الشوارع منتعلات نعالا من الديباج مشوهة الاعقاب، ولابسات جلابيب من الحرير المذهب كلها ممزق ومخرق، لانه يخجل اولئك السيدات الجليلات ان يرقعن ثيابهن بأيديهن ، فاذا نظر اليهن ناظر وهن في هذه الاهدام بهذا الصلف والعجرفة دعته حالهن الى الضحك والاستهزاء بهن لو لم يكن من القسوة واللؤم الاستهزاء بالتعساء البائسين ولو كانوا من الاشرار.

وجملة القول ان جزيرة الاغنياء المترفين قد أصبحت جزيرة الفقراء المعدمين. كان القحط يزداد فيها من سنة الى أخرى ، فقد ضعفت الارض عن التحصيل لعدم ما كان يخدمها من الايدي، وكاد الاغنياء يموتون جوعا

في صروحهم ،ولو لم يتداركهم أولئك الفقراء الذين أخرجوهم من ديارهم بالافراط في سوء معاملتهم ويساعدوهم بما فضل عن حاجتهم لهلكوا على بكرة أبيهم .

كان « اميل » كثير الاصغاء اليّ في حكايتي لهذه القصة وما فرغت منها حتى ابتدرني بقوله: يستفاد من القصة اذن ان العمل هو سبب الغنى والثروة، فاجبته : ان هذا ليس مطرداً ولكن أقل فائدة له انه يغني الامم التي تعرف مناهج العدل وتسلكها . اه

الشذرة الخامسة

الخط الديواني

أنشأ « اميل » يخط بالقلم خطاً مناسباً لحاله ولكني في شك من جريه على قواعد الخط في شيء مما يكتبه .

كان الخط فيما مضى كأنه من صفات الكاتب الذاتية، وكان يدل على حالة من أحواله سواء فيه الحسن والقبيح، ولذلك وجد متوسمون يعتقدون انهم يقرأون في خط من لا يعرفونه من الناس ضروب استعداده النفسي، ولا بدع في هذا فان كل أعمال الانسان منبعثة عن أخلاقه وسجاياه ، فلا شيء من الاستحالة ولا من البعد عن الحقيقة على ما أرى في أن يكون الخط ـ وهو الاثر الدقيق المثبت لصنوف الوجدان وأنواع المعاني على الورق ـ سمة من سمات النفس وامارة من امارات الطبع ، يشهد لذلك أن كثيراً من الذين خطوطهم بين أيدينا قد غيروا في حياتهم طريقتهم في صوغ

حروفهم عدة مرات ، فلا يمكن أن يكون هـذا التغيير — الذي يحق لنا المراهنة على حصوله بغير شعور منهم أجنبيا عن بعض استحالات حصلت في عقولهم . ومن الامور التي اعتقد الباحثون في هذه المسألة انهم تنبهوا اليها ولاحظوها ان أقرب أطوار الكاتب الى الفطرة هو ذلك الطور الذي يكون فيه خطه موسوما بأقرب السمات اليها أيضا .

اخترع الناس في هذه الايام للخط طرقاً لاشك ان لها مزية في تهذيبه وتقويم يد الكاتب ، ولكنها متى انتشرت وعم استعمالها اتحدت الخطوط وتشابهت فلم يبق بينها فروق تميز بعضها من بعض ، فنحن في هذا القرن ـ قرن السكك الحديدية والاقلام الحديدية نسارع كلنا الى تحقيق الوحدة في كل شيء .

لو أن هذا الميل الى الصناعة اقتصر على امارات الفكر وقوالب المعاني لكان الخطب هينا ولكنه لم يقف عندها بل تعداها الى الفكر نفسه.

أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا فليست هي التي تعوزنا فقد وجدت طرق سهلة صيرت مبادئ العلم وآداب اللغة والفنون الجميلة قريبة المتناول لجميع الناس ،وكل يوم يتحدث الناس بانتشار أنوار العرفان بيننا،وهو أمر أنا بعيد عن المنازعة في جلالة خطره وعظم شأنه.ولكني لا أرى عليّ حرجا ان سألت نفسي هذه الاسئلة وهي : هل ارتفع عقل الانسان في هذا القرن الى مدارك أسمى مما بلغه في القرن الثاني عشر؟ هل حصل له من قوة النفس والانبعاث الذاتي الى العمل والاخلاق الممتازة التي تتجلى في صورة مجتمعه المظلة والاعمال البديعة أكثر مما كان له في ذلك القرن؟ هل ارتفعت قوة الادراك مع انتشار تساوي الناس فيها كل يوم ؟

وأسفى ! أنّى التفت حولي عراني الذهول ، وملكني الدهش لما أراه من غلبة الاوساط في العقل وكثرتهم ، وأسمع الناس يرددون القول بأن العقل والاستعداد قد شاعا في هذه الايام حتى عمّا السابلة والغوغاء ، ولو أنهم قالوا : ان كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده ، لكان هذا القول أصح وأقرب الى الصواب . نعم ان قرننا قد وصل الى طريقة بديعة في الاكثار من الدواليب والآلات المحاكية للفكر ، وقامت المهارة في الفنون مقام الاستعداد الفطري والعزيمة ، وأزهق التكاف في آداب اللغة روح الالهام والسليقة ، واستنزلت الدسيسة والخداع في مجرى الحياة وشؤونها الفضل والجدارة عن عرشهما وحلا محلهما ، فترانا الآن مسوقين بلا شعور منا على طريق عام الى محو ضروب الفضل والرجحان في العقل والخلق محوا تاماً فعليك أيها الانسان من الآن ان تقنع بأن تكون كجميع الناس.

ولا شك أن هذه الحالة التي عليها العقول الآن ترجع الى أسباب كثيرة ليس من غرضي استقصاؤها هنا ، منها نظام معيشتنا وفقدان الحرية السياسية عندنا واهتمامنا المتزايد بالمصالح المادية ، ومنها أمر لا يسعني اغفاله والا استحققت اللوم ، وهو أن التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب الى ستر عيوب الاطفال واخفاء مواضع الضعف فيهم ببعض طرق التعليم السريعة التي تكاد تكون آلية محضة ، أقول : انها أقرب الى ذلك منها الى قصد اكتشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتنميتها ، فترى القائمين على التعليم لا يرشدونهم الى أن الغرض من مجاهداتهم وكدحهم في التعلم انما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالا نافعين وهو الواجب ، بل يجعلون غايتهم الارتقاء

الى المناصب ونيل الغنى ، ويقتضون منهم أن يبلغوا اليها . وهم بذلك يبكرون بحمل الاحداث على أن يتبينوا أن المواضعة والصنعة هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح .

الشذرة السادسة

(مذهب تشغيل المتعلمين بالاعمال المادية الشاقة)

توجد في بعض المدارس بانكلترة عادة قديمة يدهش منها الاجانب كثيرا وهي ان التلاميذ ـ فيما يوجد منها بمدينتي اتون وهارو وهي التي يدخلها أبناء السراة غالبا ـ يخدم بعضهم بعضاً ، وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقا بمكانة التلميذ في قومه ولا بغنى أهله أو فقرهم ، بل بالاقدمية وبعض الدرجات المدرسية ، فيجوز أن يلزم الطفل الغني السري تنفيض ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتنظيف غرفته وايقاد ناره وتسوية طعامه وحمل كتبه اليه في قاعة الدرس، فيقع إيجاب الخدمة على من تجعلهم المدرسة في الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذي أستهجنه من هذه العادة هو ما يكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التابعية الذاتية ، فان الاقدمين من التلاميذ يسيرون أحياناً مع من يعدونهم خدما لهم من اخوانهم سيرة في غاية القسوة، حتى انه ليقع منهم في حقهم ما نقرأه في قصص موليير [1] المضحكة من الشتائم

(١) موليير هو أكبر شاعر قصصي فرنسي ولد في باريس سنة ١٦٢٢ ومات في سنة ٦٧٣ مسيحية

وضربات الاكف وجميع ضروب سوء المعاملة التي كانت تقع من صغار الموالي على خدمهم بأرجلهم وأيديهم الخفيفة الحركة. أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالامس ارقاء صبرًا على الذل مستسلمين للجور يصيرون في الغد سادة قساة متجبرين. وهكذا شأن الدنيا وبمثل هذا تنتقل جميع أنواع العتو والطغيان من سلف الى خلف.

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئًا في هذه الطريقة، فانه لا ضرر البتة في أن يقوم بخدمة المدرسة التلاميذ أنفسهم. ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كان يديرها رجل وافر العقل عالي الفكر اختار هذا المذهب وتيسر له أن يجني منه فوائد كبرى في تربية الناشئين. ذلك أنه عهد بمعظم أعمال مدرسته الى جماعات من الغلمان واليافعين منقسمين الى طوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضروب ميلهم الفطري، لانهم كانوا في هذه الاعمال مختارين متطوعين فكان الواحد منهم اما لبادا أو كناسا أو وقادا للمصابيح او موقظا لاخوانه في الصباح أو منظما لقاعة الدرس، وكانوا يتناوبون خدمة المائدة، وكانت الاعمال المسخرة التي تقتضي أكثر من غيرها إخلاصاً أجل من غيرها أيضا في نظر التلاميذ، لان رئيس المدرسة كان يتظاهر بتمييزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات الشرف على من كان يدعوهم إقدامهم الى مباشرتها. وليتك زرت هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس المفرح الذي يبديه كل تلميذ في القيام بعمله الذي كأنه فرض اختياري أوجبه على نفسه. كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلاميذ أنها كانت تسلية لهم من عناء الدروس، لانه كان من رأي رئيسهم ان في المراوحة بين الاعمال استراحة من مشقتها وكان من غرضه فوق

ذلك أن يلقي في نفوسهم معنى احترام جميع الوظائف وكل فروع العمل اليدوي ، فان الانسان لايحتقر من غيره مايباشره هو بنفسه .

تعرض لي في بعض الاحيان أحوال تحملني على اعتقاد أن ماندعيه من حب المساواة ليس الا رياء ونفاقا ، لاني أرى من لاتفتر ألسنتهم عن اللهج بهذه الدعوى لايجرون على مقتضاها في أعمالهم ، فالطفل الذي يرى في المدارس أوالبيوت أناسا استؤجروا لخدمته يستنتج من ذلك طبعا ان الاعمال الشاقة أوالكريهة هي من حظ الطبقة السفلى من قومه ، ولا يفيده في محو هذا الاعتقاد من نفسه ان تحدثه في المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس أو عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيرة ، فانه يعلم كمال العلم ان ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم ، ولما كان يتوسم في والديه انهما يعدانه لان يكون من العلماء ويكفيانه بذلك مؤنة الاشتغال ببعض الاعمال التي من شأنها أن توسخ يديه أو تقذر وجهه كان رأيه في هذه الاعمال لابد أن ينتقل الى من يقارفونها من الناس فيحكم عليهم بحكمه عليها وبذلك لايكون الا كثير الانسياق الى احتقار جميع الصناع والزراعة عليهم .

صممت أنا وهيلانة على تكليف «اميل» أن يعمل كل ما يلزم لفراشه وحجرته وثيابه ، ولا أكره ان أراه يمسح نعليه ويسوي عند الحاجة طعامه ، فان الفائدة التي تعود عليه من ذلك ليست قاصرة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قوتهم بمثل هذه الاعمال ، بل فيه أيضاً تنمية لحريته الشخصية بتعويده الاستغناء عن مساعدة غيره فالاسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه .

الشذرة السابعة

رؤيا منام

(فيما يجب أن تكون عليه التربية وفي آثارها اذا كانت كما يجب)

رأيتني ممتطياً جواداً أسيح في بلاد مجهولة لا أدري أهي من الدنيا القديمة أم الجديدة ، ولكني بحسب مابدالي من ظواهرها أرى انها لا بد أن تكون واقعة على تخوم بلاد الالدرادو [1] أو الاوتوبيا [2]. بصرت في طريقي بحظائر مسيجة بأسيجة خضراء فيها قطعان من البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المجترة التي لا توجد قط في مراعينا ـ تسوم آمنة لا كلب يحرسها ولا راعي يراقبها ، ولاحظت في انتظام طرق الري في هذه البلاد وحسن توزيع الماء بين جهاتها ـ على نمط يثير الاستحسان ويدعو الى الاعجاب ـ انه كان من مزاياه امتلاء جوّ ريفها بالنسيم البارد المنعش على مافيه من حرارة النهار . وشاهدت سلاسل من الهضاب مكللة بالاشجار كأنها في تتابعها واتصال بعضها ببعض تخط للرياح والسحاب طريقهما . ضرب الغنى سرادقه حول قرى هذا الريف وظهرت على أهله

(١) الالدرادو كلمة أسبانية معناها بلاد الذهب وتطلق على بلاد يزعم الناس أن ضابطا من مدينة بيزار اكتشفها في أمريكة الجنوبية وأنه كان يوجد بها من الذهب وخيرات الارض شيء كثير ثم أطلقت هذه الكلمة على بلاد الرخاء والنعيم (٢) الاوتوبيا كلمة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت أمورها على أحسن ما يتخيل من النظام ووصفها كاتب اسمه توماس موريس في كتاب له .

آثار النعمة والاغتباط . نساؤه حسان وولدانه أسوياء أصحاء الابدان يبشرون حكومتهم بأنهم سيكونون نسلاً قوياً باسلاً .

ثم رأيت حواضر هذا القطر ولم اكن لرؤيتها أقل مني دهشاً لرؤية قراه، ومما أرشدت اليه في احداها بناآن كأنما أقيما في عصر يسميه أهلها الآن عصر الهمجية، أحدهما سجن والآخر مأوى للمساكين، وقد أصبحا من أهلها خلاء لعدم اللصوص والبائسين، ومع انهما لم تبق لوجودهما فائدة حفظها القائمون على شؤون المدينة ليكون فيهما ذكرى لتاريخهم .

حدد في هذه البلاد ماللناس وما عليهم من الحقوق والفروض وما للحكومة وما عليها من ذلك، وامتاز بعضه على بعض امتيازا بيناً، ولهذا تجد الرعايا لايولون حكامهم من شؤونهم الا ماليس من مصلحتهم أن يتولوه بأنفسهم، وحقيقة الامر ان القوانين فيها على قلتها جداً وصدورها عن رأي من اختارتهم الامة نواباً عنها لاسبيل لها الا على ما كان من الاعمال متعلقا بالحكومة، ولما كان الناس جميعاً هم الذين قد سنوا لانفسهم هذه القوانين لحماية كل منهم كانت مخالفتها وعدم الامتثال لاحكامها حمقاً وسخفاً. على انهم يؤملون تعديلها والتقليل من سلطانها بترقية العلوم وبث اضواء العرفان.

رأيهم هو حاكمهم المطاع أمره، النافذ قوله، ولم يعهد أن ملكا من الملوك المتمنعين في صياصيهم، المتترين بحصونهم، كان له من المعاقل والمتاريس ما يعادل ماحيط به ذلك الحاكم من ضروب الكفالة، وأنواع الضمان المؤيدة له، القائمة على اعزازه، فالقوم أحرار يتفكرون في كل ما يكتبون ويكتبون كل مايتفكرون، وقد يدهشهم كثيراً — على ما أرى — أن يعلموا أن فوق الارض أمماً في قدرتها أن تستسلم لحاكم، وتلقي بنفسها في قبضة ظالم .

لاقيت في هذه المدينة شيخاً ـ لا اذكر أين ولا كيف لاقيته ـ ووقع التعارف بيني وبينه فأخذ على نفسه ان يشرح لي نظام حكومتهم ويطوف بي على المعاهد المعدة للمنافع العامة لاني لم أر في المدينة قصورا بنيت لبعض الافراد توفية لاسباب لذاته ولا مسالح ولا دوراً للجيش ولا مواخير للفحش.

لما راقني ماشاهدته قلت للشيخ هل لك ان تخبرني باسم ذلك الواضع الكبير الذي سن لكم هذه القوانين ؟ فتبسم ضاحكا من قولي وقال: أراك آتيا من عالم آخر، فاعلم أن قوانيننا ليست من وضع البشر، واني أراني الآن مضطرا الى أن أقص عليك تاريخنا في كلمات قلائل فاستمع لما أقول: اننا قبل اليوم بنحو قرنين لم نكن أحسن حالا من غيرنا من الامم، وآخر ملك تولى علينا ولم نذكر منه شيئاً حتى اسمه (لان النسيان أحسن عقاب للمسيئين الاشرار) خلع من عرشه بعد حكم أسخط عليه جميع رعاياه وألّبهم على نبذ طاعته والخروج عليه، ثم عرض الثائرون بعد خلعه صورا مختلفة وأشكالا متنوعة للحكومة، وكادوا يقتتلون على اختيار حاكم لولا ان آباءنا بما كان لهم من الحكمة والدراية تراجعوا وقال بعض لبعض: ان الاولى لنا أن نرجئ الفصل فيما شجر بيننا، وان نترك لاعقابنا النظر لانفسهم فيما هو خير لهم، فانه لاخير في أحسن الاوضاع ولا في أعدل القوانين ان لم تجد في أخلاق الناشئين وسيلة لاستبقائها، وحينئذ اتفق القوم على أن يبقوا من قوانينهم القديمة اكثرها مطابقة لحكم العقل حيناً من الدهر، وأن ينشؤا الجيل الجديد في هذه الفترة على حب الحرية والاخذ بها. ثم لعلك لم تر مدرستنا انها أصل نظامنا السياسي فهيا بنا اليها.

أخذني الى مكان على مقربة من المدينة فما هو الا أن تجلى لنظري في

أشعة الشمس المشرقة قصر أو هيكل فوق ربوة شجراء قد عادل اتساعه وانفساح ارجائه ماله من الفخامة والجلال لو أردت أن أصف لك جملته لعييت بذلك . بني كل قسم من أقسامه الداخلية على طريقة حديثة في فن العمارة، وبلغ من الازديان بما وضع فيه من التماثيل والصور وآثار الفنون الى حيث ان جدرانه كانت تكاد تكفي أن تكون وحدها طريقة من طرق التعليم لكون ماحوته ينقش على أذهان التلاميذ ومشاعرهم ، وينقسم هؤلاء الى عدة أمم يمثل كل منها جيلاً من أجيال الانسان، وقد وقع ذلك البناء في وسط مشاهد تأثر القلب وتأخذ باللب بما فيها من ضروب التباين ووجوه التخالف فتجد حوله الآجام والصخور ومساقط الماء وتحته البحر.

وقفت على احدى حلقات الدروس فاذا بغلمان يمارسون أنواع مختلفة من الرياضات البدنية كالمصارعة والعدو والرماية بالقوس، وأكثر مادهشت له في هذه الحلقة أن معلميها كانوا من هنود أمريكة الحمر الاصليين كما تبينت ذلك من لونهم ونحافة أعضائهم وما كان على شعورهم من مواد الزينة الوهمية.

قال لي الدليل : إن هذه القبيلة المتوحشة لم تأت الى بلادنا الا من عهد قريب ،وانما جذبها الى حدودنا حسن أخلاق قومنا ورقة طباعهم ، فاننا لم نعتبرهم أعداء لنا كما يفعل غيرنا، بل دعوناهم الى مشاركتنا في نعم الحضارة وأرشدناهم الى ما تحصله لنا من الفوائد والمزايا مبينين لهم مقدار رجحانها على البداوة . ولما كنا لانجهل مالهم من المواهب الفطرية التي نحن محرومون منها عرضنا عليهم معاوضة المنافع ومبادلة المرافق، فقبل فريق منهم ذلك منا ، وهاهم أولاء الآن يروضون أبناءنا على احتمال الآلام الجسدية غير مغضين من جباههم، وعلى استعمال أبصارهم وأسماعهم في اجتناب

ماينصب لهم من الحبائل، وابطال أثر ما يُكاد لختلهم من المكايد، ويعودونهم البسالة في ثني أعضائهم وليها موافقة لسلطان الارادة. وتعرف أخلاق الحيوانات وعوائدها في حالتها الوحشية .

وفيما نحن نجول داخل هذا المكان الذي هو منقسم ـ كما قلت ـ الى دارات مختلفة للتربية والتعليم شهدت أحد الاعياد التي تقام في هذه الدارات التاريخية أو العلمية من حين الى حين فخيل لي اننا في أثينة (عاصمة بلاد اليونان) ان لم أكن واهما، وأبصرت قلعتها المسماة بالاقروبول شاخصة أمامي على صخرة يعلوها معبد وتماثيل وآلهة صنعت من النحاس الاحمر والمرمر، ورأيت في الجانب الغربي لهذه القلعة دهاليزها التي أقامها بريكليس[1] وكنت أشاهد طوائف من الفتيان في ازياء يونانية يشخصون اليونان في أطوارهم وأحوالهم تشخيصاً يقرب من الفطرة ويتكلمون بلغتهم ويمثلونهم في تنزههم في المدينة أو غدوّهم في مرافئ بيرية[2] ومونيخي[3] وفالير[4] فاستغربت ما رأيت مع قلة استغراب الحالم، وأقسمت بأثينيه بروماخوس لاكتنهن هذا السر .

فلما رأى صاحبي شدة ولعي بمعرفة حقيقة ما رأيته قال لي: ان الامر في غاية السهولة: ذلك أننا لما تبين لنا بالاختبار أن التاريخ في تعليمه للاحداث يمر بأذهانهم مرور الظل غير تارك له فيها آثاراً بينة اجتهدنا في أن نجعل له جسما تخلد فيه صورته فترى تلاميذنا لا يقتصرون في تعلمه على مطالعة

(١) بريكليس أحد رجال حكومة أثينة الاقدمين (٢) و (٣) و (٤) بيرية ومونيخي وفالير كلها مدن يونانية فيها مرافئ

ما كان في العصور الخالية ، بل هم يعيشون في تلك العصور. فقلت له: لا بد أن تكون جمهوريتكم قد بلغت من الثروة غايتها حتى تقوم بنفقات هذه المعاهد . فكان جوابه انها غنية لمهارتها في طرق الكسب ولأنها هي التي تدبر نفقاتها بنفسها . على اني أرجو أن لاتخدع بما تراه ،فان ما تظنه بذلا للمال واسرافاً فيه هو في الحقيقة تدبير له وتوفير، ولو صح ماتسمعه عن أوربة القديمة لكان ماتنفقه أممها على حكوماتها في جانب التبذير، وماتنفقه على التعليم العام في طرف التقتير، وأما نحن فأمورنا تجري على خلاف ذلك، فحكومتنا لاتكلفنا أو لاتكاد تكلفنا شيئاً وننفق كل أرزاقنا على مدارسنا ،فكان لنا بالسير على هذا السنن مايسمى في عرف التجارة صفقة رابحة . ولله طريقتنا في التربية! فاننا ببركتها استغنينا عن اتخاذ جيش دائم وكهنوت وغيرهما من الاثقال التي توقع الحكومات في مهواة الفاقة وتؤديها الى الخراب .

هذه الامة التي ضل عني الآن اسمها لاتقصد في تربية عقول أبنائها وتقويم طباعهم الى اعدادهم لأن يتبعوا في مستقبلهم نظاماً مقرراً كائناً ما كان، بل قد عقدت النية على ان تقبل ما ينتج من التربية الحرة المؤسسة على نواميس الكون وأصول العلم من الثمرات، فبعثها إقدامها على أن تمهد مستقبل بلادها الى معارف الاجيال الجديدة وعلومهم ، فهي تعتبر المدرسة أمة في سبيل نشأتها لها قوانينها كما ان للحكومة قوانينها، وترى تلك القوانين كأنها مقدمة لهذه، وتبكر بتعليم التلاميذ ممارسة ما يتحلى به الرجال من الفضائل القومية .

ليس لمعلمي المدرسة على التلاميذ أدنى سبيل الى التأديب ، ولكنهم

لا يسلمون عليها بما يقترفونه، فالمخالفون يحاكمون الى محكمة ينتخب أعضاؤها من اخوانهم لمدة معلومة ، ومن مصلحة هؤلاء الاعضاء أن يعدلوا في أحكامهم وأن لا يطيعوا فيها دواعي الهوى والغرض لعلمهم أن الاعتداء على حقوق الناس قد يعود عليهم ضرره في الحال أو في المآل. ويقوم امام المحكمة محاميان أحدهما من جانب المدعي والثاني من جانب المدعى عليه فيبينان لها وقائع الدعوى بالرزانة والوقار، ثم يصدر المحلفون المتطوعون أحكامهم وهي واجبة الاحترام على الدوام ، وما يحكم به من الجزاء يصير على كونه غاية في الخفة شديد الارهاب والزجر، لانه يؤدي الى لوم المحكوم عليه وتأنيبه من المدرسة جميعها لا من معلميه فقط .

يقيم الصبايا التلميذات بهذه المدرسة في قسم آخر منها غير قسم الصبيان ،ولكنهن يحضرن معهم في غرف التعليم بعض الدروس العامة التي تلقى نهارا .

قال لي الشيخ : إننا نعول كثيرا في طريقة تربيتنا للناشئين على ما للنساء من التأثير المعنوي في النفوس، فهن اللاتي نعهد اليهن بتوزيع الجوائز والمكافآت على التلاميذ، فترى المهرة من هؤلاء في الرياضات البدنية يختبرون أنفسهم امامهن في ساحتها ببعض الحركات التي هي مظاهر البأس والقوة ،والمستعدين منهم لان يكونوا خطباء المستقبل يمثلون بين أيديهن على منبر المدرسة ويثير بعضهم على بعض في ميدان الفصاحة والبلاغة حربا عوانا، كل ذلك في سبيل ارضائهن وهيج اعجابهن، ولما كان المعروف فيهن انهن صائبات الرأي سديدات الحكم في مواد الفنون كان معلمو المدرسة تطيب أنفسهم بالركون الى رأيهن في امتحان الشعر والموسيقى والتصوير،

فاذا صرن محكمات في الذوق أعانّ حسان الاعمال ونوّهن بقدرها وتوجنها تاج الشرف والفخار. كذلك يعتاد أحداثنا أن يستشيروا النساء ويسترشدوا بآرائهن ويلتمسوا تصديق وجدانهم لحسن أعمالهم فيما تبديه لهم مَن ترقّبهم منهن دلائل استحسان هذه الاعمال بتلقيها بالابتسام والبشاشة وينشؤن على أن يعتبروا عيون ربات الجمال مرايا تتمثل لهم فيها الفروض التي كتب عليهم أداؤها .

لا يزال صدى الكلمات الاخيرة التي سمعتها من ذلك الشيخ يرن في أذني ، اذ قال لي في نهاية حديثه : « لو طال زمن مكثك بيننا لشاهدت من مستحدثاتنا ما لا أشك في أنه كان يبعث في نفسك دواعي الدهش والعجب فحسبك أن تعلم كيف اننا قطعنا ما كان يربطنا بماضينا من قيود الذل والبؤس والاستعباد التي كانت كالثلج جمودا وبرودة ونفياً لحرارة الحياة، وأن تعرف أن الامم الحرة انما تنشأ برجالها الاحرار ،وان آباءنا لم يخطئوا أن التمسوا في وجدان كل انسان أقوى ناصر على الاستبداد، لاعتقادهم أن أحسن الحكومات أقلها وجوداً، فتراهم قد فضلوا أن ينقشوا في نفوس الاحداث وجدان العدل والحق الذي لا تغيره الحوادث ولا تمحوه الكوارث على أن يدونوا لهم قانوناً نظامياً في كتاب ربما ان رياح الفتن وعواصف الثورات الداخلية كانت مزقته من زمن بعيد ،وجملة القول إن الحكومة عندنا ليست هي التي تدير المدرسة بل المدرسة هي التي توجدها وتنشئها » .

الشذرة الثامنة

تجلي العلم في العمل

زرت بالامس أنا واميل و«لولا» مسبك قصدير في بانزانس. واقع على ضفاف خليج الجبل، ولست أقضي العجب من منعطف هذا الخليج الذي كأنه في عظمه وجماله صدر تيتيس [1] أحاطت به السكة الحديدية فجعلت له من شريطها قلادة. يوجد المسبك تجاه الخليج ويتألف بناؤه من أماكن قديمة تقوم على أعمدة من الخشب يغطيها سقف من البلاط الاسود لا يتردد الناظر اليها في ان يحسبها سقائف لانخفاضها وانفراجها للرياح من كل ناحية.

رأينا في احدى السقائف أكواماً من تراب أسمر يسمى بمعدن الحجر جمعت فيها ووزعت على غير نظام، وتنحصر أعمال المسبك في احالة هذا التراب الادكن الى معدن يطلبه التجار كثيراً.

كانت زيارتنا للمسبك في نحو الساعة التاسعة من المساء أي بعد غروب الشمس بزمن طويل في ليلة ظلماء كان يتخلل ظلامها بصيص نار الافران التي بنيت بالآجرّ وجعل لكل منها باب حديد في وسطه ثقب مستدير كانه حدقة من نار.

يصهر القصدير وبعد مكابدته محناً مختلفة يتجرد مما كان ممتزجا به

(١) تيتيس جنية من جنيات أساطير اليونان

من المواد المكدرة لصفائه، وهي الحصا والكبريت والنحاس فاذا تم ذلك جاء وقت صبه وهي الساعة المشهودة : يخرج هذا المعدن الثقيل الصافي من ثقب في أسفل الفرن وقد بلغ من الحرارة درجة البياض، ويسقط في خابية من الحديد المصبوب، فيذكر الناظر ساعة باستدارة سطحه ولمعانه القمر في احدى ليالي الصيف أبيض ساطعاً .

اذا صب القصدير في الخابية آخر مرة (ولا بد من اذابته أكثر من مرة) ألقيت عليه أغصان من الشجر الاخضر خصوصاً أغصان التفاح فتفوره وتهيجه وويل حينئذ للعمال والناظرين الذين لا يبادرون بالابتعاد عنه ليتقوا عوادي هذا المعدن الغضبان، ذلك ان فقاقيع الهواء التي تنفصل منه ترتفع معها قطيرات محرقة تسمع لها نشنشة تنبجس من كل ناحية انبجاس الشرر من باقة نار الزينة .

لاجرم أن «اميل» و«لولا» لم يدركا السر الكيماوي في جميع هذه الاستحالات التي تعاورت معدن الحجر قبل صيرورته قصديرا، بل ربما لم يحصل في ذهنهما من مجموع ماحصل من الاعمال الا معنى في غاية الابهام ولكن قد شاقهما من هذا المنظر جدته فانهما رجواني ان آخذهما الى المسبك مرة أخرى .

أرى أن القائمين على تربية الناشئين قد أفرطوا في التفريق بين العلم وبين ما يربطه بالصناعة من الروابط، ومع كوني لا أنكر أن ما في المدارس من المعامل الكيماوية والمجموعات التعليمية والدروس العامة هو من المساعدات العظمى على التعليم، واقصد قصداً أكيداً أن أستعين به على

تعليم ولدي في مستقبله، تراني أفضل الآن أن أختلف به الى معهد آخر تتمثل فيه امامه الاعمال وتتراءى له الوقائع .

زرنا معاً متحفا من متاحف الدفائن الاثرية في بانزانس وهي ليست كثيرة في بلاد كرنواي والكثير فيها انما هو المعادن المفيدة كالرصاص والقصدير والنحاس وغيرها من المعادن الحجرية الغريبة فلم يلفت ذهن «اميل» مافي خزائنه من قطع هذه الدفائن المرتبة الا قليلا، وأما «دولوريس» فأخص مااسترعى نظرها مايوجد فيها من فلذ البلور وبعض الحجارة التي لو تناولتها يد الصناعة لصارت من مواد الزينة الجميلة .

ثم أخذنا طريقنا بعد ذلك بأيام الى منحت كبير يمتد مكشوفاً على ضفاف المحيط بين جبال من الصوان بعجتها يد الانسان فكان مرآه في نظر الغلامين أحسن من جميع متاحف الدنيا .

ففرق عند الطفل بين أن يرى من وراء الزجاج معادن حجرية رتبت في رواق ترتيباً خالياً من دواعي التأثر وبين أن تتمثل أمامه الصخور في وضعها الطبيعي ويشاهد الارضين وقد شاه وجهها وانقلبت ظهراً لبطن، وكتل البلاط الاسود والرخام السماقي في جسامتها المريعة وقد تناولها المصدع وبارود المدفع فأوسعاها صدعا وأشبعاها كسراً ،وقد هاج شوق «اميل» منظر أعمال النحت هياجاً شديداً فطفق يخاطب النحاتين ولا بدع فالانسان في سنه لايستنكف أن يخاطب كل من يراه لان قلبه حينئذ لايكون أفسده الكبر .وقد استفاد من محاورته معهم ، فلم تذهب عليه عبثا . وان فتى ايقوسياً اسمه «هوج ميلار» صار من أشهر العلماء في بريطانية العظمى ببركة تكسيره الاحجار ونحتها من منحت حجر رملي

قديم ، واستولى استيلاء المالك على اقاليم ذلك المنحت الحافل بالدفائن الاثرية وأصبح اسمه كأنه علم له .

ربما احتذى « اميل » مثال هذا العالم اذا زرنا معاً اقاليم « ديمونشاير » فاعتضد المطرقة وحمل المنحات، فاني أراه مدفوعاً على ذلك بسائق الطبع، لانه يشتهي كغيره من أترابه أن يهجم على مايلاقيه من العقبات فيدمره ويزيله ، ولان الدفائن الاثرية التي يستخلصها الانسان بنفسه من الصخرة أغلى في نظره كثيرا مما يجده منها مرتباً في المتاحف ،ذلك لان آثار الاجسام العضوية تكون غالباً من الاختباء في باطن الحجر بحيث إنه لابد قبل استخلاصها من تمييزها منه، بل ربما صح لي ان أقول: إنه لا بد من تخمين وجودها بما يبدو من تحت غطائها الجافي من سمة تدل عليها أوطرف من أطرافها، ثم إن الصخرة تارة تكون صلبة فتقاوم منحات الناحت وتحتمله، وطورا تكون هشة فتتلاشى وتتفتت، وفي كلتا الحالتين يهدم الخرق والخطأ بنقرة واحدة عمل الدهر في قرون كاملة، وما أكثر مايتعلم الطفل في هذا الجهاد! نعم ان « اميل » سيضل فيه غير مرة وسيتفق له أن يخسر لقطاته أو يعيبها على حين اعتقاده أنه حصل عليها سالمة من كل نقص، ولكن لاشيء في هذا فان مثله من اليافعين اذا غلبته العقبات المادية وجد عليها وبعثه ذلك على الانتقام لنفسه منها فلا يلبث أن يظفر بها .

كأن مشاهدة المناحت واسطة ينتقل بها الذهن من علم طبقات الارض الى فن العمارة فسيذكر « اميل » اذا عرض له في طريقه مافي المدن من الابنية العظيمة ان حجارتها نحتت من قاع البحار القديمة، واذا رأى المعابد والقصور أحضر نوع حجارتها في ذهنه الصخرة التي نحتت

منها والمخلوقات العضوية القديمة التي صارت هذه الصخرة رمساً لها .

العلم الذي يحصله الانسان بعرق جبينه ربما لا يكون واسعاً ولكنه يكون متيناً راسخاً . خذ لذلك مثلا الزهرة التي تجنى من غور بعد اقتحام ما كان دونها من العقبات يكون لها في ذاكرة جانيها آثار أقوى مما يكون لزهرة رآها بلا عناء مجهزة محفوظة في احدى صحف المجموعات النباتية ، وما يجمعه المرء بنفسه من المحار والصدف على شاطئ البحر يدرب بصره على ادراك ما يميزه من صفاته الظاهرة أكثر مما يدربه على ذلك ما يوجد منه مرتباً ومعنوناً في رواق معد له ، فالبحث يكسب البصر واليد دربة ومرانة

أنا لا شك في أن التجارب الكيماوية والطبيعية مفيدة لمن منحوا الميل الى التعلم ، ولكني أرى ان عامة الاطفال قد يبدون من الارتياح الى العلم معمولاً به في الصناعة ومن الانفعال بما يرونه من آياته فيها أكثر مما يبدونه لمثل هذه التجارب ، وقلما يوجد معمل من المعامل الكبيرة إلا وهو أيضاً مدرسة كبرى للعقل ، فما أبهر ما نرى فيه من قوى الطبيعة مقيدة ومطلقة ! «وكل» مؤلف من عجلات وأسنان تسحق الحجر سحقاً ، وتمضغ الحديد مضغاً ، وتقطع الخشب قطعاً ، وآلاف مؤلفة من أنباض البخار الذي يحرك جسم هذا الكل ، وانسان استبدل بأعضائه هذه الاعضاء الصلبية في كده وكدحه ، فحلت محله وجرت على مقتضى ارادته ، وقام هو عليها يلاحظ مجاهداتها العجيبة بعين قريرة ساكنة . نعم ان هذا المشهد لا يأخذ أول الامر الا ببصر اليافع ولكنه متى كان فيه شيء من الشوق الى العلم لا يلبث أن يسأل عن سبب هذه الحركات الاستقلالية ، وعما

للمواد بعضها في بعض من التأثير المتناوب ، وبالجملة عن سر الطرق التي تحيل المادة الفطرية الى محاصيل صناعية .

ليس أحقر الاشياء أقلها اثارة للشوق في صنعه دائماً ،ولا ملاحظته أقل جدوى في التعليم، فعلبة الكبريت والدبوس والشمعة — كما بينه فاراداي[1] حق البيان — لها بعلمي الطبيعة والكيمياء تعلق يدركه كل واحد من الناس ويعرفه لاول نظرة .

أنا أعلم ان تحصيل علم عدة من الصناعات والاختصاص به يقتضي أن يعيش الانسان أضعاف عمره ، ولذلك لا أرجو من « اميل » اذا رأى غيره يشتغل بحرفة ان يحيط خبراً بأسرار العمل فيها ،على أن الشبان أقل حاجة الى الوقت منهم الى غيره ، فلو أن القائمين على التعليم أحسنوا في توجيهه الى غايته ما شككت قط في أن الطفل الذي بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره يتعلم في المعامل شيئاً كثيرا .

وجملة القول ان لدينا في جميع المدن الكبرى بل وفى القرى كثيرا من معاهد العمل التي لو اختلف الطفل اليها لادرك بالعيان والحس بعض قوانين المادة وتعلم حب العامل وتعظيمه ، ولكان أقل فائدة له من ذلك ملاحظة طرق الصناعة أو الزراعة ان لم يباشر شيئاً من أعمالها بيديه وتلك مزية أخرى له ، فليت شعري هل يصح فى نظر العقل أن تغفل هذه الينابيع المتدفقة للعرفان وتبخس حقوقها من العناية، وتكون دراسة الالفاظ هي موضوع الاهتمام والرعاية .

---

(١) فاراداي عالم انجليزي من أشهر علماء الطبيعة اشتهر بتأليفه في الكهربائية ولد في سنة ١٧٩٤ ومات سنة ١٨٦٧ مسيحية

الشذرة التاسعة

(انتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبهما)

تناظرت مع هيلانة غير مرة في ضرورة تعليم «اميل» تينك اللغتين واقرائه ما الف فيهما من الكتب ، ولست ذاكرا لك من هذه المناظرات الا ملخصها فأقول : الواجب أن يربى كل طفل تربية من ينبغي أن يكون من كبار الرجال فتلك هي الوسيلة التي يفضل بها عامة الناس ويمتاز عنهم في مستقبله ، ولهذا كان حقاً على المربي أن يعرف طبعه ويبحث في ضروب ميله ويَتَخَبَّرَ أنواع استعداده العقلي . ولما كان الفضل والامتياز يحصلان في هذه الدنيا بكيفيات مختلفة وينالان بطرق شتى كان أول فرض عليه أن يبحث في هذه الطرق عما يلائم طبعه ويناسب استعداده .

فالذي أعيبه في طريقة المربين عندنا هو اغفال ماللناشئين من القوى وضروب الاستعداد الذاتية وعدم اعتبارها في شيء من التربية . ذلك أنك ترى بعض الناشئين مثلا قد ولد رحالة ليضرب في الارض ويجوب آفاقها ، وأخص حاجة له فيما خلق لاجله هي معرفة اللغات الحية ليتفاهم بها مع الاجانب في بلادهم ، فيبدأ المربون بتعليمه لغتين مهماتين انقطع التخاطب بهما من على وجه الارض . وترى آخر خلق ميالا الى معرفة علم القوى المحركة وقوانين التوازن (الميخانيقا) يلقون به في بحر من الكتب ماله من قرار ، وتجد ثالثاً أعد للتجارة ورابعاً سخر للزراعة

لا يراعي ما لكل منهما من الميل الى ما أعد له بل يتبع في حقهما ما قضت به العادة وجرى عليه العرف ، وهو انه لابد لمن يريد الاشتهار بالعلم في هذه الدنيا من سجنه في المدرسة ثمان سنين . كم رأينا من متعلمي اللاتينية واليونانية من يقضي عليهم بأن لا يتعلموهما في حياتهم لانهم متى خرجوا من المدارس واشتغلوا بمصالحهم قل وايم الحق أن يخطر ببالهم تصفح كتاب فرجيل [1] أو ديوان عمير [2] والنظر في صحفهما البالية التي قضوا في مطالعتها كثيراً من ساعات النصب والسآمة . ولست أقصد بقولي هذا تجريد أية معرفة من معارف العقل كائنة ما كانت من الفائدة مطلقاً . ولكن لا حرج علي ان ارتبت في أن ما يخسره كثير من التلاميذ من زمنهم في تعلم تينك اللغتين لا يساويه ما يعود عليهم من الفوائد بتعلمهما .

أنا أعلم كل ما للمنتصر لهما من وجوه الاحتجاج على ضرورة تعليمهما ، فله أن يقول : ان معرفتهما حاسة سادسة لنا ندرك بواسطتها دقائق آداب لغتنا ، وانه لا يسع أحداً من الناس انكار ما كان لمطالعة الكتب القديمة المؤلفة بهما من التأثير المبارك في عقول الناشئين الذين تغذوا بلبان معارف الاقدمين حق التغذية ، وإن مطالعة هذه الكتب تخلصنا من شواغل وقتنا المادية ، وتعارض عصرنا الذي تساوت فيه الناس وامحت درجات التفاضل بينهم واشتغل أهله بالحقائق الثابتة دون غيرها بعصور الابطال وما سما

(١) فرجيل هو شاعر لاتيني شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ قبل المسيح

(٢) عمير هو أشهر شعراء اليونان الاقدمين لا يعلم مكان ولادته ولا تاريخها (المنار: كذا كتب المترجم والمعربون السوريون يعربونه « هومير » ويكتب بالقلم الافرنجي هكذا « Homer-ere »)

وأفاد من مخترعات الخيال ، وتستر مواضع الضعف فينا بحجاب الجمال الطاهر بدون أن تغير من طبيعتنا شيئاً ، ثم ان بُعد أهل تلك العصور عنا ومباينتهم لنا في الاخلاق والعوائد مما يساعدنا أيضاً على أن نبصر من خلال كتبهم الشعرية ضياء منتهى الكمال المطلوب .

وفوق ذلك فان هذه الكتب حافلة بالاناشيد الوطنية التي كان من آثارها ما تراه في عهد الجمهورية الجميل من احتقار الملوك وجر ذيل الخيلاء عليهم ، فلقد كفت نفحة هبت من رومية أو من أثينة في إثارة بغض السلطان المطلق بقلوبنا في القرن الثامن عشر ، فان حكماء هذا القرن وزعماء الفتنة الفرنسية فيه قد استمدوا مما وعوه من الكتب المدرسية أصلح الصور لايقاظ العقول ، وبث روح الحياة السياسية في النفوس ، وكان لخيالات الغابرين في ذلك الجهاد الذي قام في سبيل الحق من البلاء ما كان للاحياء أنفسهم فلا تقل لبني غراقوس (١) وبُرتوس (٢) وقاتون اوتيقا (٣) انهم قد ماتوا ، بل هم أحياء يعينوننا على كفاحنا ، ويعاضدوننا في جهادنا ، ويسمعوننا من أصواتهم ويشهدوننا من أساهم ما يقوي عزيمتنا على السعي وراء الحرية ، التي هي غاية النفوس الأبية .

أنا لا أنازع في أن معرفة اليونانية واللاتينية قد تكون من الرياضات النفسية المفيدة ، ولكني أقول : إن لرياضة النفس وتربية العقل طرقاً شتى ،

---

(١) غراقوس حاكم روماني اشتهر في اسبانية ورزق ولدين سميا بالغراقيين وكانا من قضاة الشعب (٢) بروتوس أحد قتلة القيصر الروماني (٣) واما قاتون أوتيقا فهو حفيد قاتون القديم وهو ضابط روماني كان من حزب بومباي وبعد أن شهد معه واقعة فرسالا انطلق الى افريقية وقتل نفسه .

وان من الظلم الفاحش قصر معنى التعليم على فرع واحد من العلوم ، فقد يكون الانسان عالما يشار اليه بالبنان، وخطيباً باهر البيان، وسياسياً حصيف الجنان ـ وفي أمريكة مايشهد لصحة ذلك ـ وهو لم يقرأ في حياته كتب «أرسطو »[١] ولا ديموستين[٢] ولا شيشيرون[٣] باللغة التي الفت بها . ذلك ان مراقبته بنفسه للامور ومعاملته للناس واختلاطه بهم ودراسته لآداب لغته واستعداده الفطري كثيراً ماتغنيه عن الزخارف المدرسية، فرأيي هو ان الاحوال التي تحتف بالطفل وما يكون فيه من القوى والملكات الذاتية هي الواجب التعويل عليها في تحديد الطريقة التي ينبغي سلوكها في تربيته، فان طرق التعليم انما أوجدت للاحداث ولم توجد الاحداث لها.

لما أعلم حق العلم ضروب استعداد «اميل » ولا حالة عقله حتى أحكم على أليق أنواع التعليم به وأشدها ملاءمة لطبعه، والذي أرجوه له هو ان لا يكون بعيداً عن العلوم ولا عن آداب اللغة ، ولست أرى من وجوه الاعتراض على الجمع بين هذين النوعين من المعارف سوى مايقتضيه تعلم اليونانية واللاتينية من الزمن ، فان انفاق سبع سنين أو ثمان من العمر في تحصيل لغتين مهملتين تحصيلا في غاية النقص غالبا هو إسراف كبير في عصر لا يحصل الانسان فيه متوسط المعارف الضرورية إلا بانفاق معظم حياته ، واني باحث الآن فيما اذا كانت إضاعة ذلك الزمن الطويل في تحصيلها لازمة لطبيعة الصعوبات التي يصادفها المتعلم فيه أوانها ليست من لوازمها وان من الميسور التغيير فيها والتقليل منها .

---

(١) ارسطو حكيم يوناني مشهور (٢) ديموستين اشهر خطيب يوناني أثار مقدونية على فلوبس وألب آثينة على الاسكندر (٣) شيشيرون أشهر خطيب روماني

أول سبب ـ فيما أرى ـ لطول مدة تعلم هاتين اللغتين هو افراط المعلمين في تعجيل تعليمهما للاطفال، لانهم يبدأونهم به قبل ان يكونوا تعلموا أو راقبوا شيئاً بأنفسهم، فتراهم لجهلهم كيفية صوغ الالفاظ وتركيب الاساليب التي هي قوالب المعاني لا يكادون يتمتعون بلغتهم نفسها مضبوطة، ولحبسهم بين جدران المدرسة من نعومة أظفارهم اعتادوا اعتبارها سجنا تتعاقب عليه الاجيال الناشئة تكفيرا لسيئة جهل آبائهم الاولين، فهم لا يعرفون شيئاً من الكون وقد حالت المدرسة بينهم وبين المحابّ البيتية والجواذب الاهلية وهي التي كانت تحبب العمل اليهم وتشعر قلوبهم قدره، فأصبحوا لا تصل اليهم حرارتها الا من بعيد جدا. ففي أول عمل لهم يمرنون به قواهم الناشئة تفاجئهم ألفاظ وحشية، وصيغ نحوية، وتراكيب مجهولة، فيتصيدون اتفاقاً بأيديهم العسراء، من محابرهم الكدراء، ضروباً من مخالفة القياس، وأنواعاً من ضعف التأليف، تجري بها أقلامهم، ولا تدركها افهامهم. فرحمى لهم من حيارى ذاهلين، لا ينفعهم تعاقب التمارين، ولا تتابع الامثال، فليس تكرار الاغلاط والخطات الواحدة في تعلم لغة مجهولة هو الوسيلة الى اصلاحها.

أنا أحب ان يرى ولدي قبل تعلم اللاتينية شيئاً من العالم وان ينفتق ذهنه باحتكاكه بالصناعة ودراسته تاريخ الموجودات، فان كل واقعة روقبت تولد في نفس مراقبها لذة وتنمي فيه شعور الحاجة الى المعرفة، فاذا حصل له بكسبه بعض معان بينة صار بهذه الواسطه أحسن استعداداً لفهم ما يتلقاه عن غيره من المعاني ولو ظهرت في صيغ مبهمة من الالفاظ.

ثم ان من أسباب طول المدة التي تقضى في تعلم اليونانية واللاتينية ـ على ما أرى ـ ان المربين يعلمونهما للاطفال قبل ان يطلعوهم على شيء من

أحوال الرومان واليونان والانسان لايحسن تعلم لغة قوم الا في بلادهم . ومن أجل ذلك سأهتم عند تعليمهما «اميل» بأن اجعل له من آثار أهلهما بلاداً يتعلمهما فيها . وفي هـذا المقام تظهر فائدة انشاء معاهد التعليم التي من قبيل القصر البلوري . نعم إني على يقين من أن مشاهدة ما يكون في مثل هذه المعاهد من التماثيل والصور ومثل المعابد والمباني الاثرية العامة لاتعين التلميذ على فهم شعر همير وفرجيل ولكن اليونانية واللاتينية اذا اقترن تعليمهما بتعليم تاريخ قوميهما وما يشهد لهم من دلائل التقدم القديم لاتبقيان لغتين مندثرتين اندثاراً تاماً كما لو علمتا مجردتين .

ذلك أن لفنون الرسم من التأثير في نفوس الناشئين ما هو فوق المظنون بها كثيراً بسبب اجالتها العقل في آثار الغابرين ، وسياحتها بالنفس في أعمال الماضين ، ولان سن الايفاع هي السن التي يسهل فيها اندماج اليافع في شخص غيره لسبب سهل الادراك وهو أن معنى الاستقلال الذاتي لايظهر الا قليلا في هذا الطور من الحياة . فبكثرة هذا النوع من المعيشة مع اليونان والرومان فيما بقي من آثارهم ينتهي التلميذ بأن يلم بأخلاقهم وعاداتهم وشؤونهم قبل أن يعرف لغتهم فتراه يتابع بعقله الاسطول اللاتيني في سلامين [١] ويشهد خلف بومباي [٢] واقعة فرسالا [٣] ولا يسبقن الى خاطرك أن هذا الوجود الفكري فيما غبر من الزمن ليس هو الا وهماً محضاً فانه لاشيء مما كان في الماضي قد مات موتاً تاماً .

---

(١) سلامين وتسمى الآن كولوري هي جزيرة في خليج أثينة (٢) بومباي قائد روماني شهير له غزوات كثيرة كان فيها ظافراً (٣) فرسالا مدينة باقليم تساليا القديمة من بلاد اليونان هزم فيها قيصر الروم القائد بومباي

لم تجد طريقتنا في تعليم اللغتين اللتين نحن بصدد الكلام عنهما نفعاً لأنها لا تزال عليها مسحة من تعليم القرون الوسطى وهي التي طبعها عليها القسيسون والرهبان اذ لا تزال العقبات تقوم في سبيل دراسة آثار الاقدمين دراسة صادقة، وأولها ماالدين المسيحي من الاوهام والوساوس في آلهتهم التي تراه على قهره اياها لا يزال يعتقد أنها مضرة حتى في انهزامها امامه ، فان رجال هذا الدين مع استئثارهم على توالي القرون باللغات القديمة واحتكارهم معرفتها كانوا يعنون في تعليمهم بازهاق ذلك الروح الذي ألهم الصناع ما ظهر على أيديهم من تحف الصنائع وطرفها ، وكانت فنون الوثنيين وآداب لغاتهم من الغنائم التي اهتم اولئك الرجال بحفظها ، غير انهم كانوا يحترسون كل الاحتراس من اظهار آخر ما اكتشفوه من أسرارها للاحداث ، وكان من مصلحتهم ان لا يزيلوا عن تلك الاسرار الا طرفاً من حجابها ، لانه كان لا بد لما يعيه الخلف من آثار السلف أن يردهم يوما الى عبادة الطبيعة وجمالها . ومن أجل ذلك كان رؤساء الدين لا يفتأون يذكرون الناشئين بأن آلهة الوثنيين آلهة باطلة لا أصل لها الا الكبرياء والكذب ، وانه لا ينبغي النظر اليها الا من بعيد مع الاسترشاد في ذلك بهدي الدين المسيحي .

أنا لا أحترس كل هذا الاحتراس في تعليم « اميل » تينك اللغتين واقرائه كتبهما ، فانه لا بد لمن يزاول دراسة أمر من الامور أن يكون له فيه شيء من الاعتقاد ، فما ضره لو أنه أخلص في الاشتغال بهرقل [١]

---

(١) هرقل بطل خرافي مشهور باعماله العجيبة

وأعماله! ومن ذا الذي ينقم منه ان قدم قربانا للإلهات العفيفة[١] ولمنروة[٢] الحكيمة الأبية! فان في كشف حقيقة الاشخاص الخرافيين الذين وجدوا في خيال الاقدمين، وكانت حياتهم ملاءمة كل الملاءمة لخيال اليافعين، وفي ازالة الوهم من عقول هؤلاء في شأنهم، تعجيلا بزعزعة عقيدتهم في النوع الانساني. ولا يظن ظان اني أقصد بما أقول أن أوقف « اميل » عند الوثنية فاني انما أريد بهذا القول أنه لا بد لمن يريد النفوذ الى أسرار لغة قوم من اختلاس آلهتهم.

الشذرة العاشرة

التقليد والذاكرة

مثل هاتين القوتين في فتنة العقل والتغرير به كمثل الفتانات الخرافية التي كانت تظهر في بحر صقلية وتستهوي الملاحين بشجي صوتها فتوردهم في شعابه مورد الهلكة، فانهما بعلو مكانتهما وجلال خطرهما في دراسة اللغات، وبخداعهما العقل أحياناً في آدابها بما يأخذانه عن الغير من محاسن القول وطرائفه يأكلان الاستعداد الحقيقي أكلا، وقد يكون الذنب في ذلك على المربين دونهما لما ينهجونه من طريقة التربية، فان أحدا لا يرتاب في كون تينك القوتين من المواهب الخلقية الميمونة، بيد أن هذا لا ينبغي أن يكون سبباً للافراط في تميتهما فإنك ترى التلميذ الذي تربى على طريقتنا

---

(١) الالاهات العفيفة في أساطير اليونان هي الاهات الفنون التسعة بنات المشتري
(٢) منروة او منرفا هي في الأساطير المذكورة الاهة الحكمة والفنون والحرب.

يصف لك بما قرأه في الكتب أشياء لم يرها في حياته ، ويفوه أمامك بجمل من القول المنثور أو المنظوم تدل على ضروب من الوجدان لم يشعر هو بشيء منها قط، ويبدي من الهيج والانفعال في بعض أحوال لاعلاقة له بها من حياة غيره ما لا أثر له في نفسه، ولو أنك سألته أن يتغني بذكر الاشجار وظلالها،والانعام ورعاتها،والربيع وأزهاره،لوجد فيما يذكره من محفوظاته جميع ماقاله فيها فرجيل[1] وهوراس[2] من النعوت والاوصاف، ومع أنه قديكون خيرا له أن يذهب الى المزارع ويرى بنفسه مايحصل فيها وكيف يحصل تراه شديد الاحتراس من موافاتها خشية أن يخسر فيها اللاتينية وما تواضع عليه الاقدمون من الصور اللفظية لتأدية ماكان يعرض لاذهانهم من المعاني والافكار، واذا استوصفته قتالا انبرى يصف لك ما استعمل فيه من الآلات، وكيف كان اصطدام الجيشين، بألفاظ مطنطنة، وعبارات مجلجلة ، وهو لم يشهد شيئاً من ذلك ألبتة . فاذا كان مرادك اختباره في محاصرة العدو وجدته قد انتهي من حصاره كما انتهى فرتوت[3]،

عرفت فيما سبق تلميذاً كان يبدو عليه كثير من مخايل النجابة نال

« ١ » راجع الهامش عدد ١ من تعليقات الشذرة التاسعة (٢) هوراس هو شاعر لاتيني مشهور ولد في سنة ٦٧ ومات سنة ٨ قبل المسيح (٣) فرتوت هو كاهن مؤرخ من الفرنجة ولد سنة ١٦٥٥ ومات سنة ١١٣٥ ق . م . وهو مؤلف كتاب الفتنة السويدية والفتنة الرومانية وتاريخ الاشراف الكرام . والمؤلف يلمح الى واقعة لهذا المؤرخ وهي أنه كان يكتب تاريخا لحصار رودس وانتظر طويلا ورود أنباء صحيحة له عنه فلم تحضر فأتم تاريخه قبل ورودها ثم قال انني متكدر من ذلك ولكن قد انتهيت من حصاري

اكليلا مكافأة له على قرضه شعراً وصف فيه زج سفينة في البحر وهو لم
ير في عمره سفينة ولا بحرا .

نعم ان الشبان في هذه الايام لا يكادون ينفلتون من المدارس الا
وهم رافضون لآثار السلف نابذون لها ظهريا ، غير انه لا معنى لهذا الا انهم
يعتاضون عن مثل الغابرين مثل الحاضرين ، لأن محو طيّات التقليد
وغضونه من النفس وارجاعها الى صقالتها الفطرية ليس من السهولة بالمقدار
المتوهم ، فاننا كل يوم نقرأ في وصف الكتاب والشعراء المبتدئين قول
واصفيهم في الواحد منهم انه نابغة يفتش على نفسه ، فليقل لي ربه هذا
الفتاش أين أضل نفسه حتى أصبح ينشدها .

ان تربية تكون بدايتها اضلال وجدان الاستقلال الى حد انه
ينبغي لاجل الاهتداء اليه تلمسه سنين طويلة لمن الغرابة بمكان .

أنا لا أشتهي ولا أرجو أن يكون « اميل » ميالا الى وقف نفسه
على دراسة آداب اللغة . ولو أني وهيلانة دأبنا في تحبيبها اليه وأفلحنا في
حجب حالة عقله بزخارف الذاكرة لاخفقنا في مسعانا الى غايتنا المطلوبة .
فاتقاء لهذا الخطر تراني مصمما على ارجاء تعليمه اللغات القديمة واقرائه
كتب مؤلفيها . وقد جعلت له مشاهدة الاشياء مقدمة على علم الالفاظ
فأصبحت علومه على ما فيها من النقص لها أصول في الخارج ترجع اليها ،
ودعائم في الواقع تستقر عليها . وسعيت في ايتائه ما هو لازم للانسان في
بحثه عن الحسن والحق من آلات الضبط والدقة العقلية أكثر جدًّا من
سعيي في الافضاء اليه بما لي أو بما لغيري من المعاني .

وقبل أن أجمل البحث في مثل الاقدمين في مكنته سأعني كل

العناية بتنبيهه الى أن هذه المثل لا تقلد، فانه من السخف المحقق أن نباري الغابرين مباراة نحن على يقين من غَلَبنا فيها من قبل أن ندخلها، وكيف لا نكون مغلوبين لهم ونحن نرضى لانفسنا طريقتهم في الكلام والكتابة؟ والذي لاغضاضة علينا في أخذه عن كتاب اليونان والرومان انما هو روح آداب لغتهم وما يناسب كل زمان وكل قوم من أساليب الانشاء وترتيب المعاني والدقة في التعبير عنها، وانتقاء الالفاظ اللائقة بها. فكما أن من يعاشر بعض خواص الاجانب يقتبس شيئاً من خصائصهم بغير أن يكون ذلك موجباً لمشابهته لهم بحال من الاحوال، كذلك معاشرة الاقدمين بواسطة ما تركوه من آثارهم توحي الينا شيئاً من عوائد العقل واللسان المناسبة لسائر الاقوام المستضيئين بضياء العرفان.

التقليد الخسيس - سواء قلد فيه الغابرون أو الحاضرون - لا يقتصر سوء أثره على اضعاف الذوق والميل الى الفنون بل يسلب الناشئين أيضاً شرف النفس وكرامتها. فلشد ما ينخدعون بما تؤديه لهم الالفاظ عند قبولهم إياها من المعاني صحيحة أو فاسدة لان أساليب الانشاء والالفاظ والجمل تفعل في نفوسهم ما يفعله السحر الحقيقي فتراهم يتوهمون انهم يتفكرون فيما يقولون ويكتبون والحق انهم يرددون ما فكر فيه المفكرون. ولعمري ان هذا هو أصل بعض الاباطيل التي تحاول من قرون عديدة اطفاء نور العقل، ذلك ان ضروب الاستعباد متلازمة فمن قبل واحداً منها فقد أخذ على نفسه الانقياد الى جميعها، ألا ترى الشاب المتعلم الذي اعتاد تقليد ما يصفه المقلدون بالمُثل الحسنة يصاحبه في سيرته وأطواره روح اللين والانقياد الذي ألفه من التقليد فتجده يجبن ويفزع عند كل عزيمة ذاتية.

نعم انه قد يخاطر بحياته في براز أو يعرضها للهلكة في ساحة قتال لانه يرى ذلك مستحسناً في نظر الناس، ولكنه اذا دعي الى مقاومة عادة بربرية، أو تأييد حق قل ناصروه، ورأى ان من وراء ذلك الاستهداف السخرية والزراية عليه، نكص على عقبيه نكص الجبان، وفر فرار الرعديد.

مثل هؤلاء المخلوقين المجردين عن ذواتهم يجدون طريق عيشهم ذلولا ويأتيهم رزقهم بلا نصب، ولكن ما اكثر مايسومون أنفسهم من الخسف! وما أحط مايسفلون بها اليه من دركات الذل! عرفت امرأة بَرْزَةً (١) محبوبة حسنة المحاضرة وكانت أرملة ولها ولد كان قبلة آمالها فبدا لها يوماً من الايام أن تنشئه على أحسن آداب المواضعة المعروفة، فرأت أن الاستشهاد بأقوال الكتاب اللاتينيين في المقامات المناسبة من المحاورة والتمثل بأشعارهم وايراد أمثالهم من الامور التي لا بأس بها، بل رأته يكسو المحاور اذا كان حسناً بردا من الخطر، ويلقي عليه مسحة من جلال القدر، فأرسلت ولدها الى المدرسة فغادرها كيوم دخلها خفيف العقل لم يستفد من العلم الا قشورا محبوباً عند الناس، ولكونه أوتي ذاكرة مباركة كان يتكلم في كل موضوع ويناقش كل شيء ولا يبدي رأياً الا قوبل بالاستحسان لانه يسهل على كل انسان أن يرضي الناس عنه اذا سلم لهم مايقولون ولم يعارضهم في شيء من آرائهم، فكان ثرثارا فاقد الخلق حسن الصورة عقيم الفكر. أرادت والدته أن تصيره رجلا من الاكياس، أو نائبا لاحد الحكام، أو معتمدا سياسيا لحكومته في بعض البلدان، وان أحببت أن تعرف ماذا صيرته قلت انها صيرته طفيلياً.

طريقتنا في التربية تظهر بادي الرأي سخيفة مضحكة، وان جاز ان

---

(١) البرزة المرأة الجليلة التي تظهر للناس ويختلف اليها القوم

تكون مما يتعاصى على الافهام ادراكه وربما لاتطابق أية طريقة غيرها مطابقتها لمقاصد حكامنا ونظامنا السياسي .

التلاميذ فى مدارسنا مقترعون مدنيون تبكر الحكومة بتأهيلهم لعملهم على نظام معنوي يشف عن حذق واضعه ، فأنت ترى القائمين على تربيتهم يوزعون عليهم متاعاً من الآراء والعلوم التي يجب عليهم تقلدها في مستقبلهم ، مراعين في ذلك الدقة العسكرية التي تراعى في توزيع متاع الجند وينادونهم «الهوينا» : أيها الاحداث اياكم أن تحيدوا عن الخطة المضروبة لكم . نعم ان منهم من يولونهم أدبارهم ولا يصغون الى ندائهم ، وان كثيرا من هؤلاء يتحيزون الى فئة الآخذين بحرية النظر ويتضاعف عددهم كل يوم ، ولكن لشد مايلاقون على ذلك من العقاب فانهم يحرمون من تقلد الاعمال العلمية في المدارس الجامعة ، ومن القيام بالاعمال الادارية في الحكومة ، فلا يولى أحدهم شيئاً منها ، وفوق ذلك تراهم ان لم يسيروا سيرة مرضية أخذت الحكومة على نفسها تعليمهم كيف يسيرون بما تتابعه لهم من ضروب الايذاء ، وما تبلوهم به من العقوبات والنكبات السياسية ، ولا غرو فانهم في قبضة حاكم ماهر والذنب عليهم في أنهم لم يعرفوا من قبل ان لهم واليا يقوم عليهم وأستاذا يرشدهم .

ولما لم يكن هذا هو الفلاح الذي أرجوه « لاميل » وكان الذي يعنيني من أمره قبل كل شيء انما هو حفظ كرامته وشرفه من حيث هو انسان ، كان نصيب هذه الطريقة مني محض الاعجاب بها دون أن أرضاها لتربيته . اهـ

الشذرة الحادية عشرة

﴿ في المؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها ﴾

أجد في نفسي انبعاثاً كثيرا الى اعتقاد أنه لاشيء أضر على كتاب الاقدمين وأدعى الى هجر مؤلفاتهم من اطراء المعلمين اياهم واعتيادهم الاعجاب بما كتبوا .

ذلك ان هؤلاء بالزامهم الطفل حفظ ما يختارونه له من هذه المؤلفات وارشادهم اياه الى مايجب عليه أن يراه فيها من ضروب المحاسن خشية أن يقصر في احترام آثار سلفه، واكراههم له على ملاحظة جميع ما فيها حتى علامات الفصل والوصل. بذلك كله لا يفلحون غالباً الا في أن يكرّهوها اليه وهي أحسن أعمال عقل الانسان

فالافراط في الوقاية من جانب المعلم يصير سبباً للضعف من جانب المتعلم ، وافراط ذلك في اعجابه بما يعلمه يذهب بالحمية من نفس هذا فيما يتعلمه .

والمقصود من التعليم على أي حال انما هو انشاء القوة الحاكمة في نفس الطفل، وأنا في شك من بلوغ هذه الغاية بالجري على تلك الطريقة فانه على فرض وجود التلاميذ الذين يكون فيهم من الامتثال ما يكفي لان يروا الحسن فيما يمدح لهم والقبيح فيما يذم (وفي التلاميذ من هم كذلك) لا تكون أذواقهم من أجل ذلك أسمى من أذواق غيرهم ولا اكثر منها دربة

بل هذا مما يدعو الى سلبهم قوة تمييزهم الامور بأنفسهم فتكون همتهم في مستقبلهم مصروفة الى تلقي آراء من تعتبر آراؤهم حجة من الناس لا الى النظر في الامور والحكم عليها حكماً مستقلاً .

سأدع ابني وشأنه في انتقاء كتبه فلا أجنبه الا مايكون منها ضارًّا بالاخلاق لاني أود أن يكون هو صاحب الخيار فيما يفضل في نظره من كتب الآداب ، فاذا ضل ذوقه في الاختيار عولت في رده الى الصراط السوي على ضروب نمو عقله لاعلى مايدعو اليه كدري من أنواع التوبيخ والتأنيب ، ومع كوني لاأضن عليه بالارشاد متى سألني إياه تجدني أقصد أن يلتمس فيما يطالعه تنمية أفكاره وتربية ضروب وجدانه الذاتي .

نعم اني قد أشتهي أن أقدم له بعض كتب مخصوصة واغتبط لو أنه اتفق معي في التأثر بما فيها ، غير اني لاأجدني محقا في اقتضاء ذلك منه لان الاعجاب بالشيء من أجل أن يكون مفيداً لا بد أن يصدر عن نفس المعجب ، ولأن الانسان في كل طور من أطوار حياته منفردا كان أو مجتمعاً يتصور للحسن كمالا يطابق ـ بالضرورة ـ بعض أحوال تتعلق بنفسه أو بمنافع أعضائه. يدلك على ذلك اننا لا نكاد نعرف الآن ما قرأناه في عهد شبيبتنا من الكتب ولا مؤلفيها ، ولا نحس بشيء من الميل الى كتب الادب التي طالعناها في ذلك الزمن ، ولم يبق من الشعراء والكتاب الذين كانوا أساتذتنا فيه بكتبهم من يصحبنا في شيخوختنا الا النزر اليسير . اه

الشذرة الثانية عشرة

لا يسلم وجه الشمس من كاف

قضية لا محيص من تسليمها فاننا في طور الانتقاد الذي لا ينفلت من تحليله وتفتيشه شيء، فقد تناول الاديان وآداب اللغات والتاريخ والاوضاع القومية، فلا تجد عبادة من العبادات الا وقد وجه اليها العلم ضروبا من البحث لا قبل لها بمقاومتها، وأصبح ما كان يخاله الناس من اللغات والنقوش البربائية والحروف معميات لا سبيل الى الاهتداء الى معانيها، وقد نبذت مغاليقها وألقت بين يدي العلم مقاليدها وأسلمت اليه أسرارها، ولم يغن عن الاغاليط التي شيبها مر الدهور أنها قبعت رءوسها في ظلماتها وسترت نواجها في حنادسها، فانه لم يبق في مكنتها أن تفلح في التغرير بالعقل بما لها من القدم، فقد عرف سبب حدوثها وكشف الستار عما كانت ترتعد له فرائص الاقدمين من المجردات الخيالية فعرف الانسان نفسه وكله دهش واستغراب لخوفه وفزعه، لانه قد عرف اليوم كيف نشأت الالهة [1] ورأى مذاهب كان لها

(١) يشبه كلام المؤلف هاهنا أن يكون تقريرا لمذهب الماديين ويدل بفحواه على أنه لا يعتقد بالله ولا بملائكته ولا بصحة المذاهب الدينية في هذين المعنيين وينسب الى النواميس الكونية كل ما كان وما يكون ويزعم ان العلم قد هداه الى أصل معنى الالوهية وهذا كله من غرور العقل نعوذ بالله منه ومن الغلو في النظر وما يؤدي اليه من الاشر والبطر . كيف يصل العقل الى معرفة كنه الاله وهو لم يصل الى معرفة نفسه ؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا والعذر له ولامثاله انهم نشأوا على دين مناقض للعقل

ماللبديهيات من القوة والرسوخ تضاءلت وتلاشت أمام العلم بالنواميس الكونية التي كان يتوهم أن هذه المذاهب فوقها ، وأبصر أسرار مستغلقة كانت تعاصت على العقل أذعنت اليه الآن فمضى يحكم فيها بكشف أصلها وبيان منشأها .

من الظلم والاجحاف عدم اعتبار هذه الحركة العلمية في تربية الناشئين ، فكيف يصح أن لا يدخل المدارس ماوصل اليه العلم من نتائج بحثه الا بعد قرن من ظهوره لو دخلها .

انتقاد آداب اللغتين اليونانية واللاتينية

أنا لا أريد الآن أن أشتغل من وجوه الانتقاد الا بما يتعلق بآداب اللغتين اليونانية واللاتينية فأقول قد اعتاد المعلمون أن يفردوا هذه الآداب بالدرس دون بقية آثار الاقدمين كما لو كانت آداب كل لغة فرعا مستقلا عن تلك الآثار، ولا أراهم يستندون في ذلك الا الى وهم عنيت من قبل بدحضه ولهذا تراني اذا ذكرت «لاميل» أسماء آلهة عمير (هوميروس) وما ورد من صفاتهم في أساطير الهنود وقصصت عليه أشهر وقائعهم وسيكونون من معارفه القدماء، ولم يبق عليه الا أن يعرف كيف كانوا يواصلون الاسفار ويجوبون الاقطار وكيف كان الواحد منهم يبدو في هيآت متباينة وهو أمر لما يجيء وقته .

ذكرت من شعراء الاقدمين عمير ولهذه المناسبة أود لو أدري ما الذي يعود على التلاميذ من تفهيم المعلمين اياهم ! ان ديوانيه الموسوم أحدهما بالالياد (الالياذه) والثاني بالعديسي هما من ابتكار رجل من الغابرين اذا كان جميع الناس اليوم يعلمون كيف تولدت القصص الشعرية الحماسية في الامم القديمة والحديثة .

لا ريب أن في هـذه القصص محاسن كبرى وعبرا جليلة، غير اني سأتحامى كل التحامي أن أجمل سيرة أخيل [١] مثلا نموذجاً « لاميل » يحتذيه في سيرته؛ فان هذا البطل الذي عبث ولها عن مصلحة أمته وقعد عن منازلة أعدائها في حومة الوغى أن أبى عليه قومه جارية رقيقة كانت محلا لأطماعه وكان بهذا سبباً في طول مدة رزايا الحرب وشدائدها لم يكن حقيقاً برضا الآلهة عنه وميلهم اليه، فهم باشتغالهم به وإعانتهم إياه على خصمه لشجاعته غير مراعين إغفاله لواجبه قد جعلوا عاقبة الحرب عبرة سيئة وهي ظفره بهكتور [٢] أي ظفر الطيش الحربي بالوطنية الصحيحة .

لم يقتصر الاقدمون فيما جهلوا من الامور على نكرهم بعض الاصول التي هي الآن أساس وجدان الانسان بل تركوا لنا ميراثاً من الاباطيل والمذاهب الفاسدة التي تدعو دراسة كتبهم الى بقائها ان لم يقارنها الاحتراس والحذر، فان سحر مايحفظ الناس من آثارهم قد حمى كثيرا من المظالم القومية قروناً عديدة من وثبات العقل ولا يزال يذودها عنها، وان المغرم منا بالمطالعة المفرط في المعيشة بين كتبه المفرّط فيها بين أبناء وقته يرى في أكثر أوقاته قليل التأثر جدا بما شاع في الناس من العادات السيئة الكثيرة التي يرجع أصلها الى أخلاق الاقدمين وعوائدهم .

الحضارة اليونانية كان لها من وجوه الحسن ما يثير الاعجاب بها، ولو أن « اميل » كان بدراستها كاتماً صادقاً لما كنت الا في غاية الرضا عن

« ١ » اخيل في أساطير اليونان هو بطل يوناني أبواه تيتيس وبسيلي قتله باريس في حصار طرواده «٢» هكتور في هذه الاساطير هو ابن بريام وعقيبه وزوج أندروماك ووالد استنيا كس قتله أخيل أخذا بثار باتروقل .

ذلك ، ولكني لا أحب أن يكون خدعة التشدد في ميله اليها لما فيها من وجوه القبح أيضاً، فلشد ما احتقر فيها الرقيق وبخست قيمته ونسيت حقوق البائسين والمغلوبين فلم يحض عليها أحد ! اللهم الا صيحتين أو ثلاثا انبعثت من أعماق وجدان الانسان ووصلت الينا بعد اختراق حجب ما مر من الازمان، ولكم هلك في سبيل تلك الحضارة من أجيال وباد من أنسال! ولم يكن فيها أحد يعنى بتخفيف مضض البؤس الذي كانت تقاسيه الدهماء ، ولم يكن العمل يستوجب للعامل أدنى حق من الحقوق لانه لم يكن يصلح الا لأيدي الطغام. نعم ان ظاهرها ومنظرها كان مونقا فان ما ازدانت به من الفنون والشعر والدين السمح والآلهة الباسمين في وجوه الابطال كان يكسو تلك الامة المغتبطة برودًا جمعت كل ما للكمال المنشود من ضروب العظم والبهاء ولكن العبرة بالمخبر لا بالمنظر .

التاريخ الروماني هو دون التاريخ اليوناني بكثير لا لأن رومية لم تنتج رجالاً كبارًا بل لانها كانت تفرط في عبادة القوة وقد لاقت جزاء هذا الافراط ، فانها بعد أن استعبدت غيرها من الامم آل أمرها الى استعباد نفسها . فلتقل لي هذه الامة الفاتحة ـ وقد أظهرت للعالم ما للفتح من النتائج اللازمة ـ ماهي الامم التي علمتها والشعوب التي أصلحت شؤونها ؟ أرى الناس تشملهم أخبار غزواتها وتهزهم أحاديث نصراتها ولا أرى أحداً منهم يستقصي أسباب مصائبها ليشفى من جنون الحرب ويبرأ من هوس القتال .

إني اذا أقرأت «اميل» اليونانية واللاتينية وفجرت له بذلك ينبوع الآداب القديمة والتاريخ كان قصدي منه ولا شك توسيع عقله وتنمية

إدراكه ، بيد أني أرمي الى غاية أخرى أمكن في نفسي من هذا وهي أن النشئ في نفسه الاستعداد للسلوك في هذا الكون ذلك لان ما تتضمنه تلك الآداب من أسى الإقدام النفسي والإخلاص في العمل ، وحب الوطن أشد في قلب اليافع تأثيرا وأبلغ في نفسه موعظة من جميع مايقوله الخطباء ويوصي به الحكماء ، بل في نفس التحمس الذي يبدو منه في استحسانها بذل لنفسه لانه يخرجها من معقل امتناعها ويخلعها عن عرش صلفها ليسويها بمن استحق الحياة استحقاقا صحيحاً . وإني لا أقنط من فلاح الطفل الذي لا يروقه شيء ، وأما من آنس من نفسه التأثر بما لغيره من بهاء العظمة ورونقها فذلك الذي أوتيت نفسه سرا من أسرار الله . ان فضائل الغابرين أبلغ من فضائل الحاضرين في خاب الخيال بما عليها من مسحة القوة والبسالة، وأعمال اليونان والرومان لبعدها عنا بحسب ترتيب الازمان يحليها البعد والغرابة ببعض السمات التي قد تغالي بها فتجعل لها من القيمة فوق ماتستحقه، ولكن ذلك لا يزيدها الا الحاجة في دعوة الناشئين الى اجلالها واعظام قدرها، واذا علمت ذلك رأيتني غير مخطئ في التعويل على تأثير الاقدمين في ترقية أفكار ولدي وتهذيب خلقه .

على اني أعلم حق العلم ان جميع ماخلفوه لنا لا يدعو الى الاعجاب على السواء، فما سيبيون [1] الذي جندل انيبال ودمر قرطاجة [2] مثلا بالبطل

---

(١) سيبيون واسمه اميليان الملقب بالافريقي الثاني كان رابع أولاد بولص اميل ولد في سنة ١٨٥ ومات في سنة ١٢٩ ق.م تبناه عمه الذي هو ابن الافريقي الاول من أسرة سيبيون وكان على يده انتهاء الحرب الثالثة بين رومية وقرطاجة فكانت هي خاتمة هذه الحروب فانه أخذ قرطاجة في سنة ١٤٦ ق.م {٢} انيبال هو قائد قرطاجة تولى قيادة الجيش في الحرب الثانية التي حصلت بين قرطاجة ورومية وبعد انتصاره =

الذي سأسترعي الى سيرته ذهن «اميل» كلا ! بل سأوجه كل همتي الى تفهيمه ان مايلاقي من الهزائم اجلالا لوجدان الحق أعلى منزلة وأعظم خطرا من الانتصار ببيض الصفاح وسمر الرماح، وأن المجد الصحيح انما هو في علو النفس وشرفها، وسأقول له : أرأيت اليوم الذي انتصرت فيه رومية على قرطاجة؟ فذلك هو اليوم الذي وفى فيه ريجولوس [١] بعهده فانطلق الى افريقية وحده لا يثنيه عنه لجاجة زوجته وأولاده ولا دعاء اخوانه وأصدقائه مع علمه بأنه ملاق حتفه وساع الى هلاكه. في ذلك اليوم ظهر ان رومية قد برّزت على قرطاجة في صدقها ووفائها ولم يكن تبريزها عليها في غير هاتين الفضيلتين الا أمرا مرتهنا بوقته اذ كان لا بد لقرطاجة من الغلب والقهر.

لا مراء في أن الجمهورية الرومانية أيام مجدها وعلوها كانت تسفر عن أخلاق شريفة وطباع كريمة، وليس كذلك حالها في عصر تدليها واضمحلالها، ولو أني أردت تبصير «اميل» علة هذا التدلي لحصرتها في إعواز الفضائل الجمهورية إعوازا كان سببا لنجاح الحكم المطلق في رومية وطول مدته. فلست أخشى على الحرية ماقد ينتابها من الاخطار المادية ولا أخاف على رومية أن يقف بأبوابها التركينيون [٢] أو بورشينه [٣]

= في مواطن كثيرة هزمه سيبيون فانتحر بالسم تخلصاً من انتقام الرومانيين. واما قرطاجة فهي مدينة أفريقية قديمة. (١) ريجولوس قائد روماني قتله القرطاجيون لانه أرسل من قبلهم الى رومية للمفاوضة في المبادلة بالاسرى فتكلم في مجلس الشيوخ بما ينافي هذا الطلب وعاد الى قرطاجة فمات صبراً (٢) التركينيون هم بعض ملوك رومية الاولين (٣) بورشينه هو ملك اترورية حاول اعادة التركينيين الى ملك رومية فهدده موشيوس سيفولا فولى مذعوراً

يبتغون الاستيلاء عليها مادام فيها أمثال موشيوس سيفولا[١] وإنما الذي أخافه على أمة من الامم هو خسة الضمائر ولؤم السرائر .

نفوسنا هي مواطن الظلم ومكامن البغي فالذي علينا هو أن نحاربه فيها ونجليه عنها قبل محاربة الملوك الظالمين واجلاء الجبابرة الغاشمين، من أجل هذا لم يك ينفع بروتوس[٢] وأنصاره أن بقروا بطن القيصر فان قلب رومية كان مقروحا بالداء القيصري .

كان أولى بذلك الرجل وقد أراد أن ينزع تاج الملك ممن كان مستعدا له ان يرجع أولا الى قلبه فينزع منه كبر الاشراف ثم ينزع ان استطاع من نفوس قرنائه ما عاق بها من الرذائل والنقائص التي تقتضي وازعاً يرد من جماحها ويكف من نزعاتها، ولولا تقصيره في ذلك لاستحق ما أتاه من الاعمال الدالة على الشهامة والبسالة أن تبيض به صحف التاريخ، بل كان من شأن هذه الاعمال أن تؤخر استقرار حكم الاستبداد ولكنها لم تستطع أن تقوم بالامة من وهدة انحطاطها .

حدثت في أخريات أيام الجمهورية الرومانية أحداث كثيرة شوهت محاسنها كالنظام العسكري الوحشي واهدار الدماء وضروب التعذيب والاطماع الخسيسة وبيع الضمائر وتناوب أرسال[٣] الضعفاء والاوغاد التعلق بعجلة الظافر . على أنه كان لايزال يظهر في جهات مختلفة من

---

(١) موشيوس سيفولا هو رجل روماني أراد أن يقتل بورشينه ملك اتروريه فأخطأه وقتل كاتب أسراره وأراد ان يثبت لهذا الملك ثبات الرومانيين فوضع يده اليمنى في جذوة نار مستعرة (٢) بروتوس واسمه مرقص جوليوص أحد قتلة قيصر الروم (٣) الارسال جمع رسل بالفتح وهو القطيع من كل شيء

قرارة الدهماء المنهوكين المنحطين بعض الاخلاق الفاضلة ظهور الصخور التي تشرف على ماحولها من المياه المنخفضة . ولا قنوط من ارتفاع شأن الحرية مابقي في الناس أباة للضيم موقنون بظفرهم في الذود عنها، فان هؤلاء يشهدون الجهاد في سبيلها وقد يلاقون الهزيمة فيه ، ولكنهم لا يشهدون اندثارها اندثاراً لاقيام منه . وانما تزهق روح الامل من حياتها متى انحازت العقول بعد كلالها وهي صامتة الى حكومة مطاقة، لكنها ساكنة مطمئنة، تلين للمحكومين كلما شعرت بازدياد أمنها وزوال مخاوفها، فأضرّ نظام سياسي على أمة من الامم انما هو الحكم الاستبدادي المجرد من الصرامة والقسوة، وكذلك كان حكم أغسطس للرومان .

كان عجب الامة في ذلك الحكم لا يزال يتغذى ببعض ضروب من الغرور غريبة ، ككونها لاتزال خير أمة بل أميرة الامم ، وكون أعلامها وألويتها لاتزال مبجلة في الخارج، وكونها تنتصر على المتوحشين، من حين الى حين، وكونها صاحبة الآلهة وصحف الكاهنات، والفنون الجميلة والآثار العظيمة التي تروق الاجانب ، وكونها جددت بناء رومية وهي المدينة الابدية من قواعدها الى سقوفها — كل هذا صحيح ولكن واحسرتاه ! فليست تعبئة الجيوش ولا انشاء القلاع والحصون ولا بناء المعابد مما يغني عن الامة من سقوطها شيئاً ، فقد بقي معبد المشتري المسمى بالقابيتول في رومية بعد فناء الرومان .

ليس لي الا كلمة أقولها في شعراء عصر اغسطس وهي أن أحسن هؤلاء الشعراء قطعاً في نظر المعاين هما (فرجيل) و (هوراس) فهما اللذان يحب هؤلاء

أن تجعل كتبهما في أيدي الناشئين أكثر من غيرها وان كان كلاهما قد تجرد في معظم ما كتب من شرف النفس وكرامتها . ألم يلاحظ من قرأ عينية[1] فرجيل ان نفس مفراها ملكي وهو مغزى ما كان يرد - على ما أرى - في ذهن شاعر زاهر الخيال في أيام الجمهورية الجميلة، فقد وصف فرجيل ممدوحه المسمى(عَنِيْ) بالانسان الذي تجلت فيه العناية الالهية ، وتوحدت في شخصه الامة،وبأنه المنجي لأمته،المؤسس لجيله،ومثل هذه المعاني يرى عليها أنهاموسومة بميسم الملك الذي برزت في عهده ، ومطبوعة بطابع القرن الذي ظهرت فيه ، وسواء كانت حسنة أو قبيحة من حيث الفن ، فهي تشف عن حالة العقول في ذلك العصر ،وتسفر عن الخطة التي رسمتها لنفسها الحكومة الذاتية حتى في نفوس الخيار من الامة .

إن أجود الاشعار وأحسنها ليس في استطاعته ان يحجب دناءة النفس،ولا أن يسترخسة الطبع.ولقد كان شعراءاللاتين قدوة سيئةلخلفهم بما كان يصدر عنهم من ضروب التمليق الخسيسة وأنواع المدائح التي كانوا يطرون بها اغسطس تحقيقا لاغراضهم ونيلا لامانيهم، فأسسوا به في الدنيا من حيث لايشعرون وظيفة الكتاب والشعراء المتزلفين.على أن فرجيل و«هوراس»كانا أميري هذه الصناعة، ولم يكن غيرهما فيها الا عيالا عليهما

ألخص لك ماتقدم فاقول : ان دراسة آثار الاقدمين تختلف ثمراتها باختلاف الطريقة التي تباشر بها فاجلال هؤلاء بلا قيد ولا تمييز ولا نقد يؤدي الى ماتؤدي اليه جميع ضروب الوثنية وهو صغار النفس وضعتها ،

---

(١) عينية فرجيل قصيدة قالها في مدح عني وهو أمير طروادي ابن أتشيز والزهرة وصفه فيها بأنه مؤسس النسل الروماني

ذلك بأن مايؤثر عنهم من المحفوظات والخرافات والكتب والاشعار الحسنة له من الظلم والتحكم في النفوس ما لا تقل الخشية منه على الناشئين، عن خشية ظلم الحكام الغاشمين ، وتحكم الطغاة المستبدين . وبهذا يبطل العجب من أنه يوجد اليوم من تلاميذ اليونان والرومان من يلتمسون في علوم البيان وسائل للذود عن مصالح الغابرين ومغالطاتهم ، ومنهم من يرومون منها دروعاً حصينة للحرية تكف عنها عوادي الباغين .

نحن على ما فينا من النقائص كلها أحسن من الاقدمين حالا وأرفع شأناً، وان جاز علينا التدلي والانحطاط كما جاز عليهم، لان فينا قوة النهوض والارتفاع الى ما انحططنا منه، وان لنا عليهم لفضلا كبيراً بسمو وجداننا، فكأننا بتأخرنا عنهم في الوجود قد أخذنا على أنفسنا ان نكون خيرا منهم ، لان وجدان الواجب كوجدان الحق ينمو ويرتقي بمرور الزمان ، ولعمري انه لاينكر ما للحضارة الحاضرة من ضروب التأثير في النفوس والعقول الا مكابر خبيث الطوية ، ولست أريد بما قلته أننا أصبحنا بهذه الحضارة أكثر من الاقدمين أخلاقاً فاضلة، وطباعاً باسلة، ومعارف واسعة، وتحمساً في الميل الى الحسن . لا! ألبتة ، بل أريد أن معاني العدل واحترام حق الغير قد شاعت فينا ورسخت في نفوسنا فصرنا أكثر منهم اهتماماً بمن يخالفوننا في العناصر والاحوال القوميـة والاقاليم وألوان الجلود ، فنحن الآن من حيث كوننا من بني الانسان أقل من اليونان والرومان بعدا عن كل ما له مساس بالانسانية .

الشذرة الثالثة عشرة

السفر من أركان التربية

إن لما تتأثر به النفس وتحفظه الذاكرة في الصغر من اللصوق والتمكن ما لا يخفى على أحد. هذا شكسبير[١] يدعو حاله الى اعتقاد أن معظم الفضل في بلوغه تلك المكانة العالية في الشعر يرجع الى نشأته بالقرب من نهر الآون[٢] الانيق الذي تفيض مياهه على مدينة استراتفورد[٣] وما يحيط به من الاودية الخصبة الغنية بالشجر والنبات ومجاورته لغابة اردان[٤] التي كانت متنزهاً له في سنيه الاولى من حياته. يدلك على ذلك انه لما كتب فيما بعد القصة الهزلية التي عنوانها «كما تحب وترضى» اتخذ هذه الغابة نفسها محلاً لأهم منظر من مناظرها، ومثّل أماكنها للنفوس، وجلّى مواقعها للاذهان، بأوجز العبارات، وأوضح الاشارات. لم يكن هذا الا لكونه مع نزوحه عن مركز استراتفورد الذي هو مسقط رأسه لم ينس منظر هذا الريف بل حفظه في مطوى من مطاوي نفسه. وهذا أوليفارجولد سمث[٥] ذو العقل الثاقب والذكاء المتوقد، لم يذهله حين أقام في لوندرة ماشاهده فيها من الاختلاط والتشوش عن ذكر قرية (لشوى) التي نشأ فيها، ولم ينسه ماكان

---

(١) شكسبير هو أشعر شعراء الانكليز كما مر (٢) نهر الآون هو أحد أنهار انكلترة المشهورة وهو قريب من مدينة استراتفورد (٣) استراتفورد هي أهم مدينة في مركز استراتفورد (٤) غابة اردان هي في هذا المركز أيضا

(٥) أولفيارجولد سميث هو شاعر وقصصي انكليزي شهير ولد سنة ١٧٢٨ ومات ١٧٧٤ مسيحية

يراه هناك من جدول الماء والطاحون والكنيسة وفندق الحمائم الثلاث وسياج الغضاة وغير ذلك من خصوصياتها، بل مدحها في القصة التي كتبها بعد وسماها الكميت (الا رن). وكان واشنجتون ارفنج[1] الكاتب المجوني الرحالة الذي استهوى النفوس ببدائع ظرفه، وخلب الالباب بدقائق وصفه، يحمد الله (تعالى) ان أنشأه على ضفاف بحر أوتسون[2] ويقول: ان ما كسبه طبعي المختلف العناصر من الخير والتهذب يصح ان أرجعه الى محبتي لهذا النهر في صغري، فقد كنت في حدة الحمية الصبيانية، اكسوه بعض الخصائص النفسية، واعتقد ان له روحاً يقوم بها، وأعجب بما في طبعه من الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة، ذلك لانه ليس من الانهار التي تبسم صفحاتها عن خداع، وتضمر السوء بما تحتها من الشعاب المهلكة والصخور الغدارة، بل هو طريق مائي بهيج جمع الى عظم عمقه كثرة اتساعه، يحمل السفن التي توكل الى أمواجه بقلب سليم ونية شريفة، وكنت أتخيل نوعا من المجد والعجب في استقامة مجراه وسكينته وسلامته الباهرة.

انما مثلت ببعض الشعراء لانهم هم الذين نعرف شيئاً من أحوالهم النفسية في حياتهم. غير اني لا أرتاب أبداً في أن ما يحتف بالناس من الاحوال والامور الخارجية لا يحدث في نفوس جميعهم أثراً واحداً وانهم يختلفون أيضاً في درجة التأثر بها، وان ما شاهده الانسان في صغره يلازمه في كبره ويصير جزأ من نفسه، وما صحبه من الاشياء وهو يافع لا يجانبه في كبره، بل يظهر أثره في صورة خلقته وفي مجرى أفكاره.

---

(١) واشنجتون ارفنج هو أديب وقصصي أمريكي ولد سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨٥٩ (٢) بحر أوتسون هو خليج متسع على السواحل الشمالية للقسم الانكليزي من أمريكة

ليس كل ما يحيط بالانسان مما تتناوله مشاعره يصلح على السواء لحفظ صحة عقله ، فقد روي أن (ملتون)[1] كان يتألم ويشكو مر الشكوى وهو يتلقى دروسه في مدرسة (كمبردج) الكلية من ضواحي هذه المدينة معللا شكواه بأنها خلو من الظلال الوارفة التي تجذب آلهات الشعر وتؤويها . وكان (روبرت هول) الكاتب الانكليزي الذائع الصيت الذي كان يتعلم في تلك المدرسة بعد (ملتون) بقرن ونصف ينسب أول نوبة أصابته من نوبات الجنون الى استواء الارض بمركز (كمبردج) وخلوها من الربى والهضاب الشجراء.

الناس وان اختلفوا في درجات تأثرهم بفقد ماهم محتاجون اليه لا أظن أنه يوجد منهم من لا يتأثر البتة بما يكون من العيوب والمناقص في المناظر الريفية التي يراها على الدوام، اللهم الا قليلا لا يعتد بهم. واذا صح ذلك فاشدّ مايبلغ هذا التأثر السيء من أذهان الاطفال ، فان الرجل البالغ قد حصل له من قوة النفس والخيال مايكفي لمفاعلة مايحتف به من الاشياء ، فحسبه في معظم الاحيان أن يخترق قلبه شعاع من أشعة الحب ، أو يكون في نفسه وجدان قوي ، أو تجتمع في ذهنه بعض المعاني حتى يرتقي بالريف المبتذل الذي لا قيمة له في ذاته من شيوع الابتذال ، الى الاختصاص بشرف الخيال ، وليس هكذا حال الحدث الذي بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره ، فانه في هذه السن لا عمل له في فطرة ماحوله من المخلوقات، لانه ليس في استعداده اذ ذاك ما يكسوها بهاء ، ويزيدها رونقاً ورواء، بل هو يتأثر بها كما هي، فمن الفوائد الكبرى له ان

(١) ملتون شاعر انكليزي شهير ولد سنة ١٦٠٨ ومات سنة ١٦٧٤

يولد أو يتربى بالقرب من بعض المناظر الكونية العظمى كمنظر نهر جميل أو بحيرة أو جبل أو غابة .

منظر الريف في (كورنواي) منظر مهيب غير انه واحد لا تغير فيه ، وليت هذه البلاد كانت أكثر أشجاراً مما هي الآن ، فان مثل اليافع الذي لا يرى الا ناحية من نواحي الكون كالصخور أو البحر كمثل من لم يقرأ الا كتاباً واحداً .

لا بد في تربية الانسان خصوصاً في صغره من تنوع الفواعل لتتنوع آثار انفعاله بها ، ذلك لان كل فرد من أفراده يميل الى بعض المناظر دون بعض ، حتى يكون هذا البعض الذي يميل اليه كطبعه في الاختصاص به ، ومعنى هذا ان ضروب الحسن في الطبيعة تقابلها في نفوس الناس مناسبات ذاتية ، وليس المنظر الذي يتخيره الانسان ويرتاح اليه يأتيه على الدوام عفوا بل لا بد من السعي وراء تحصيله ، فمن الناس من ينشأ اتفاقا في سهل من السهول ويكون ميله للمناظر الجبلية . ويوافق هذا قول أحد الكتاب في وصف رجل لا أذكر الآن من هو : انه عربي ولد في ظل شجرة تفاح بنورمنديا[1]

بلغ « اميل » السن التي تبدو فيها حاجة الناشىء الى الاختلاط بما حوله ، والمربون يخدعون هذه الحاجة في معظم المراهقين بايتائهم قصصاً في الاسفار هي ولا ريب أدعى الكتب الى التفاتهم اليها واشتغالهم بها ، غير انه مما لا نزاع فيه ان وصف البلاد بالغاً ما بلغ من قوة البيان وضبط التحرير لا يرتقي في تأدية العلم بها الى درجة المعاينة ، بل هو أدنى منها كثيرا فلا يمكن أن يستغنى به عنها . من أجل ذلك كانت سن الثالثة أو الرابعة عشرة هي السن

{١} نورمنديا إقليم من الاقاليم الفرنسية القديمة التي دخلها العرب الفاتحون

التي يظهر فيها هوس الملاحة في رؤوس الصغار من سكان البلاد المجاورة للبحر كانكاترة، فكم من صغار من هؤلاء البلاء يصيبهم من ولوعهم بالتجوال في الاقطار السحيقة مرض لا يحد ولا يوصف! كما يصيب العصفور الخطاف في الفصل الذي يهاجر فيه رفاقه، فيتسللون من بيوت أهليهم فلا يعودون اليها في حياتهم. واما سكان البلاد الاخرى فان حب السفر لا يكون في الكثير منهم الا حاجة وقتية لانهم بعد ان يقضوا بضع سنين على سفر يركبون فيه متن المهالك يرجعون الى أوطانهم فيعيشون معيشة الاستقرار.

الذي يدهشني من المربين هو قعودهم حتى الآن عن البحث في الانتفاع بالأسفار في التربية وجعلها ركناً من أركانها. إن قيل إنما يمنعهم من ذلك حاجتهم الى الزمن، قلت إن السفر الى أمريكة مثلا لا يقتضي الآن من الزمن أكثر مما يلزم لتعليم التلاميذ شكل الكرة الأرضية تعليما فيه شيء من الحق، على ما في السفر ومعاينة الاشياء من الفوائد الكثيرة التي لا يستفيدها المتعلم من أي درس من دروس تقويم البلدان كتابية كانت أو قولية، وإن قيل إن ما يقتضيه السفر من النفقات هو الذي يخيف المربين منه ويصدهم عنه، قلت قد فهمت هذا الاعتراض الا أنه يوجد من الطرق غير واحدة للسفر بدون كبير نفقة وإنما أكبر العوائق في هذه السبيل هو حذر الآباء والامهات وخوفهم على أولادهم، فان فكرة غياب الغلام الغرّ عن نظر امه، ووكله لامواج البحار، ومخاوف الاسفار، وتخليته ونفسه، مما يهيج نفوس الامهات وتثور له قلوبهن. لا جرم ان اهتمامهن بأولادهن حقيق بالاحترام والاجلال، ولكن ينبغي ان يفهمن القائمون على التربية أن ليس في الغياب شيء يقطع أواصر الرحم وان عرى المحبة

والوداد تجمع بين القلوب الشريفة والنفوس الكريمة مهما اتسعت مسافة البعد بينها وأنه لاخوف من الحرية الا على الابناء الذين لم يبكر بتعليمهم الاستقلال بالسير في هذه الحياة. على أنه لا يصح أن تكون محبة الوالدين لأولادهما الاعزاء مقصوداً بها لذتهما، بل لابد أن تكون غايتها الحرص على مصلحتهم فان رحمتهما بهم تدب اليها شبهة الاثرة اذا انحصرت في ابقائهم في كنفهما وان أخل ذلك بتلك المصلحة .

وفوق ذلك فانه لم يكن من العبث أن استعملت في أيامنا هذه قوة البخار في طي المسافات الشاسعة ، وتقريب الاقطار المتنائية ، وأبعدت الملاحة في فتوحاتها ، ورخصت للناس أسعارها . فاصبح السفر الى البلاد المسامتة لنا من أسفل معتبرا عند شبان الانكليز من قبيل التنزه وتمضية وقت الفراغ في البحر ، وقد شعر النوع الانساني بنمو أجنحته للرقي فلا محيص من التسليم ، وأنا أخشى ان لاتغني حكمة الشيوخ الزاجرة عن السفر ولا الجدول الاطلانطيقي شيئاً مما يجده خلفنا في نفوسهم من الحمية والحاجة الى رؤية العالم .

جميع الامم الحرة أمم رحالة لا يعوقها بعد المسافات ، ولا اختلاف الاقاليم ، ولا العقبات المادية ، بل ولا تعاقها المتين الاعمى بالزاوية التي تعيش فيها من الارض .

القوانين التي جرى عليها توزيع أجيال النوع الانساني على البلدان قد تحدد بعضها بالفطرة وبعضها بالتاريخ وكثير منها بسياسة الحكومات، وما زال الحاكمون في كل عصر يعنون أشد العناية بان يعيش المحكومون ويموتون

في الارض التي ينبسط عليها سلطانهم سواء في ذلك الاغنياء منهم والفقراء، وقد استنتجوا من كون هذا الامر مفيداً لمصالح ملكهم أنه من الفروض التي لهم على رعاياهم وجدوا في اقناعهم بذلك ، وكان من أوهام المربين وخيالات الشعراء وأفكار رجال الدين ما تضافر في قرون طويلة على أن يغرس في القلوب غريزة يشترك فيها الانسان والعجماوات وهي حبه للمكان الذي ولد فيه. نعم إنها من الغرائز الحسنة ولا تنس أنها هي السبب في تألف الجماعات ، ولكن لا يعزب عن ذكرك أيضاً أنه يسهل أن يساء استعمالها ليبقى المستضعفون من الناس عبيدا للاقوياء الغاشمين .

لما كانت جماعات الانسان في بداية نشأته قد انحصرت كل واحدة منها في بقعة من بقاع الارض كانوا معتادين من صغرهم المعيشة في الاماكن التي يجدون فيها ما يقتاتون به ، ووصلت بهم هذه الحالة الى حد أنهم قد عدوا هذه العادات الانحصارية من الفضائل، وأما أنا فلا أعدها الا معيبة ولا أقدرها بما لا تستحق، فما زال الفلاح اللاصق بأرضه يقلبها ويزرعها أدنى منزلة في الجملة من المدني والمدني نفسه يستفيد ويرتقي كثيرا اذا اتسع نطاق معاملاته مع العالم .

الامم التي تكون عالة على أرضها أجنبية عن لغات غيرها في وسعها -ولا شك- أن تقوم بعظائم الامور وجلائل الاعمال ، لكنها تكون أكثر من غيرها استهدافاً لقوارع البغي السياسي، فانها لا تتأثر من تعطيل القوانين ولا من إبطال كفالات الحرية ولا من دوس حقوق الافراد واهتضامها، ذلك لان أبناءها يلتصقون وهم كالمستميتين بقطعة الارض التي تؤويهم وقد دنسها الدم الذي سفكه عدوها الظافر وجعل منه قرابا لسيفه ،

فالاغتراب أشد رهبة في صدورهم من جميع المصائب ولو أحاطت بهم فوادح الخطوب القومية من كل ناحية ، فاذا نفي بعض ذوي الوجاهة والنفوذ من الأحزاب المستضعفة إما بحكم الضرورة أو بما يتخذ من طرق القهر في زمن الفتنة كان النفي أبلغ المحن في نفوسهم ألما ، فتراهم حيارى لايدرون أين يذهبون ولا ماذا يصنعون،وقد صارت الدنيا في أعينهم وهم خارجون من ديارهم صحراء يعوزهم فيها الدليل ووحشة لا يجدون فيها الانيس.

وأما الامة التي يعتاد أفرادها من نعومة أظفارهم قطع أجواز البحار ولا يكونون بمعزل عن لغات الامم الاخرى وعوائدها ويدرسون أبعد ضروب الحضارة عنهم وأشدها اختلافا ، فانه لايكون لصروف الدهر عليها سبيل ، ولا يخشى بنوها بطش القوانين الخاصة ولا التغريب بل يكونون أصدق من فليبس الثاني (١) اذا قالوا متشبهين به « ما كانت الشمس لتغرب عن حكومتنا »

ولقائل أن يقول: إن عادة السفر قد تضعف في الاحداث العاطفة الوطنية ،فاجيبه : اني لاأميل قطعاً الى عموم معنى الوطنية واتساعه، فما ألتمس من تكون الدنيا كلها وطناً له! اذلا يكون الانسان انساناً الا بشرط أن ينتسب الى طائفة معينة من البيت الانساني ، وأن يكون له لغة وأمة خاصتان به ، غير أنه لا ينبغي أن يتوهم ان حب الوطن الحقيقي يضيع كثير من معناه اذا تجرد عن روابط الوثنية المادية التي كثيرا ما تشوهه وتبخس قيمته، فليس الوطن مطلقا عبارة عن الجبل أو السهل أو الغدير الذي يولد الانسان

(١) فليبس هو ابن امنتاس أحد ملوك مقدونية الخمسة الذين تسموا بهذا الاسم حكم من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٣٦ ق . م وفتح بلاداً كثيرة

بجوارها اتفاقا، وليس هو من القرميد أو الحجر، ولا هو بالمكان الذي يحصره سطح يقدر بالفراسخ المربعة، كلا ! ليس الوطن شيئاً من ذلك، ولكنه معنى يقوم بالذهن بل تاريخ الامة بل آثار سلفها، وان شئت فقل : انه وجود كلي تشعر جزئياته بالمعيشة فيه ولا شيء من ذلك كله يضيع في ركوب متن البحار، ولا في اجتياز المفاوز والقفار اذا نقش على لوح القلب وتحققت به النفس.

***

جاءتنا أخبار من بلاد البيرو بواسطة بعض معارفنا تحمل على الاعتقاد بأن دولوريس قد سلبت أموالها بتواطؤ حصل بين أقاربها، وقد استفتينا العارفين بالقانون فكادوا يجمعون على ان هذه القضية الغامضة لا ينجلي غموضها ولا ينكشف سرها الا في البيرو، وانها تقتضي ان نوسط فيها صديقاً يعهد اليه بمصلحة الفتاة المهضومة فنقبنا عن هذا الصديق فلم نقع عليه.

صنائع البر يستلزم بعضها بعضاً، فاننا وان لم نتبنّ هذه الفتاة الاجنبية قد التقطناها، وآويناها الى بيتنا، وصار من الحق علينا انصافها في بلدها.

فكرت في أن أسافر بنفسي للقيام بهذه المصلحة فرأيت غير واحدة من العقبات تدافعني عن تنفيذ هذا القصد : من ذلك ما يقتضيه قطع تلك الشقة البعيدة من النفقات، وعدم احتمال الفوز بالحق في الدعوى، والروابط التي تربطني بالبقاء في أوربة، وبالجملة فان سبعين اعتراضاً ويا قد وقفت بي موقف المتردد بين الاقدام والاحجام، فقد تعاهدت أنا وهيلانة بعد الذي ذقناه من ألم الفراق ان لا نفترق، ولا أدري ان كان في مكنتها احتمال سفر شاق كهذا. ولو أنه اقتضى ان نحتمل مضض الفرقة مرة ثانية لما تريثت في اطراح خاطره.

على ان هذا الخاطر لا يزال يساورني والحالة التي أصبحنا فيها بسبب

كفالتنا لتلك الفتاة العزيزة علينا وما يلحقنا من تبعات التقصير في شؤونها لم تكد تترك لي حرية الاختيار في السفر، بل قد شعرت بوارد يأمرني به أمرا.

وأقول على أي حال : أفلا يجوز أن يكون الانسان منافقاً يتخذ المقدور من حيث لا يشعر ستاراً لاخفاء نفاقه ؟ أفلا يصح اننا مع اعتقاد امتثالنا في العمل لحكم الضرورات نتبع في أغلب أعمالنا ما توحيه الينا شهواتنا أو نمزج المصلحة التي نتخيل اننا نقوم بها لغيرنا بشيء من الاثرة أو يكون ميلي الغريزي الى التجوال هو الذي قد تنبه في نفسي واجتهدت في مواراته بحجاب صنيعة المعروف أو ان تكون لي غاية خاصة أو سبب خفي يدفعني الى تغيير الهواء الذي أنا فيه ؟؟ .

لست أقطع بشيء من ذلك ، ولكني كلما تساءلت خيل لي ان قصدي الاول انما هو نفع الولدين اللذين أخذت على نفسي تربيتهما .

لو كان في وسعي أن لا أستفتي الا ميلي وذوقي لجاز أن لا تكون البيرو هي المكان الذي أتخذه من الارض موضوعاً للدرس والتعليم وذلك لفرط بعدها، ولكن! ما أوسع السفر اليها من ملعب يتجلى فيه كثير من الوقائع والمرائي! اذ يرى المسافر سموات مجهولة له يعمرها من الكواكب مالا ينير أقطارنا الكامدة ليلاً ، وبحارا مشحونة بالغرائب ، وسواحل قاصية أبرزها للعيان فعل الجبال النارية ، وخليطاً من الاجيال الآدمية التي لم يتم امتزاجها وتسفر أخلاقها عن تاريخ تام.

سن المراهقة هي السن التي يكون فيها التأثر قوياً ، فهي التي تنتقش فيها على المخ صورة العالم الخارجي أتم انتقاش وأدقه وعند «اميل» الآن من العلوم الصحيحة ـ ان لم أكن واهما ـ ما يكفي لاشتغاله بالكون وسيؤهله

درس الوقائع الكونية المحسوسة لدرس المعقولات ، فان تعليم فن الالفاظ ومحسنات اللغة لحدث لم يشاهد شيئاً بنفسه ويراقبه ويحس به كنثر الزهر في كهف . اه

الشذرة الرابعة عشرة

﴿ التربية بركوب البحر ﴾

عن ميناء لوندرة في ٣ مارس سنة ــ ١٨٦

في البحر : — تقرر أن يقلع أصحاب السفينة التي تقلنا في يومين وها نحن أولاء ننام فيها من الآن .

ذلك اني كنت قرأت في الصحف الانكليزية منذ ستة أسابيع اعلاناً بأن سفينة تسمى المونيتور تسافر عما قليل الى بلادالبيرو ، فلم ألبث عند وصولي الى لوندرة ان سألت عنها ولاقيت ربانها في أحواض الميناء ، وهو رجل في نحو الثانية والاربعين من عمره أسمر قصير بادن تؤذن بدانته بأن ستنتهي بسمن مفرط مع ماهو فيه من عيشة الجد والنشاط ، ويطري الناس خبرته ومتانة سفينته ، وإني قلما صادفت وجهاً أطلق من وجهه ولا أدل منه على الذكاء والاستقامة . وقد تبين لي انه عرف في استرالية رباناجسورا انقطع للملاحة ، لايعرف غيرها، كنت سافرت معه فيما سبق واتخذته صديقا فلما علم اني صديق صديقه أقبل عليّ بصدر رحب وقلب سليم ، وكان من نتيجة هذا التعارف أن اتفقنا على أن اكون طبيباً للسفينة

كما كنت لذلك الصديق، وان يكون «اميل» تلميذا بحريًّا في مدة السفر.

لما سمعت والدته بهذا ارتاعت في أول الامر لما توقعته له من سوء الطالع في ذلك العمل، فاجتهدت في تسكين روعها مبيناً لها مقاصدي منه.

بلغ «اميل» الآن من السن أكثر من ثلاث عشرة سنة، وأصبح طويل القامة قوي الجسم يتمتع بصحة تامة من أسبابها فيما أرى نظام المعيشة الذي جرى عليه، وقد بدا لي ان اشتغاله بتعلم الملاحة فرصة مفيدة لتربية قوته البدنية، وشد أعضائه وتذليل عضلاته باعمال تقتضي من المهارة مثل ماتقتضيه من الشجاعة الحقيقية، فاني وهيلانة ماقصدنا قطعاً ان نجعله واحداً من اجنة العلم الفاسد الذين لاحياة لهم الا في رؤوسهم، فليعجب من شاء بأولئك المراهقين السقام المخدجين [١] الذين أعجزهم الدرس عن العمل، فليس هذا هو الكمال الذي نطلبه «لاميل»

رأيت الناس في مكان لايحضرني اسمه الآن يجرحون باطن الصدفة في بعض الحيوانات الرخوة بطرف خنجر ليحملوا هذه الحيوانات على توليد اللؤلؤ بالصناعة فذلك يشبه أن يكون شأن المربين مع أحسن التلاميذ، فهم يتلفون بناهم، وينهكون أجسامهم، ولا أدري أي قصد لهم في ذلك سوى الحصول على مجموع من المعاني تحجر في أذهانهم تواضعوا على أن يسموها علما !! غير اني في شك من أن مايحصله المتعلمون من تلك المعاني يعوضهم شيئاً مما خسروه في سبيل تحصيله من قواهم وما أتلفوه من صحتهم. ولست أقصد بقولي هذا تثبيط المتعلمين عن العلم فان الانسان خلق ليعلم، وإنما أريد ان يفهموا أن العمل البدني والعمل العقلي متكافئان في لزومها

(١) المخدج هو الذي يولد ناقصاً بعد تمام مدة الحمل

لتقوية العقل واحصافه ، فعلينا أن نربي كل ماوهبه الله لنا ولا نستخف بشيء منه

استشرت «اميل» قبل اعتزامي على هذا الفكر فألفيته مملوء النفس به لانه كجميع أترابه يحب الجديد ويأنس من نفسه فخرا بتعلمه حرفة. ويجب في هذا المقام أن أبين مرادي ، وهو اني لا أعتقد بحال انَّ من حقي أن أختار لولدي عملاً تقوم به معيشته ، كما أني لا أدعي لنفسي حق إلزامه الايمان بعقيدة دينية أو سياسية ، على أنه لما يأت وقت التفكير في الحرفة التي ينبغي أن يشتغل بها ، ولا أدري هل يعرف بنفسه مايلائمه من الحرف أم لا ! فان تربيته في غاية البعد عن نهايتها ، بل هي في بدايتها ، ولكني أرى أنه مهما حذق المربي في التبكير بانشاء الطفل على الميل الى النفع والطمع فيه لم يكن ذلك منه عجلة مذمومة ، ولقد عرف « اميل » مما تلقاه على والدته من الدروس شرف العمل وكرامته ، فتراه يتخيل الآن أنه سيكسب أجرة سفره بتسلقه شُرُع السفينة وهو تخيل غير صحيح الا في جزئه ، غير أني تحاميت كل التحامي ازالة هذا الوهم من نفسه ، وتركت له أن يفخر بأنه يطعم خبزه الجاف بكده ونصبه فان أقل مافي هذا أنه مفخرة كنت أكون جديرا باللوم لو أني حرمته منها .

ثم ان التعليم في سفينة تجارية مفيد ومقوٍّ للعقل ، خصوصاً اذا كانت مدته لا تتعدى بضعة شهور ، فحرية الانسان على ظهر البحار هي ان لا يخضع الا الى الواجب فطاعة البحار في الحقيقة فيها شيء من الاختيار وهذه هي الخاصة الفارقة بينه وبين الجندي ، فالرجل الذي يرى من نفسه الجهل ببعض نواميس الكون فيبدي من قوتها مايكفي لامتثال أمر الربان

وهو يعلمه بقول موجز ما جهله من تلك النواميس يكون قد جمع في عمله هذا بين الاستقلال والحكمة .

لست أبالغ لنفسي البتة فيما لهذا التعلم من الآثار الحسنة والنتائج المفيدة ، فانا أعلم أن « اميل » لن يكون بحارا لمجرد مايمارسه من ضروب التمرن في حبال السفينة ، بيد أن بلاءه في ذلك لا يمكن أن يتخاف عنه استفادته منه: فانه بواسطته يتعلم شيئاً من أحوال البحر، وبه يعرف أجزاء السفينة الأساسية وما يطلق عليها من الأسماء، فكثير من أترابه لا يعرفون شيئاً من أمر هذه الدنيا السابحة .

أخص ماأعني به في هذا الامر أن يحصل في ذهنه بالاختبار والمشاهدة معنى من القوى الكونية العظمى وما يلزم للانسان في مقاومتها أوقهرها من ثبات الجأش وحضور الفكر ، وسيكون هذا أعظم درس له في سفره ، ومما لايسعني إلا أن أضحك منه اني أسمع بعض المعلمين يقولون لغلمانهم المتبطلين الذين رموا من صغرهم كبرا وغروراً انهم ملوك الخلق ، فهلا وصفوهم أيضاً بأن أيديهم البيضاء الرقيقة لم تخلق الا لتقود عجلة الشمس في أرجاء السماء ؟ رويداً أيها المعلمون قفوا بهؤلاء الملوك امام البحر فانظروا مايعتريهم من الرعب خشية أن تبصق أمواجه الكثيفة في وجوههم .

واما (اميل) فانه لابد أن يتعلم من الآن مايجب أن يبذله الانسان في سبيل سيادته على الفواعل الكونية ، وكيف ينبغي أن يكون معها في كفاح مستمر ليحفظ سلطانه على عرش الماء .

حادثت الربان - وهو رجل شهم - في شأن ولدي وكاشفته بفكري في تربيته ففهم حق الفهم الدرس الذي أردت تعليمه إياه وهو أن من المفروض على الشبان أن يعتبروا العمل العقلي جزاء للعمل البدني ومكافأة عليه .

المشذرة الخامسة عشرة

ما يتعلم في السفينة

في اليوم الخامس من شهر مارس بلغنا مينا جرافسند [١] حيث سلم معرّف التاميز [٢] زمام سفينتنا الى معرف الزقاق (البوغاز) الذي أخذ الآن على نفسه إبلاغنا ماوراء مصب النهر .

في نحو الساعة السادسة من المساء برز الربان على ظهر السفينة وتعهد بنفسه ماشحن فيها من المؤن كالماء والبقسماط وبراميل اللحم المملح واستوثق من سلامتها ثم قضينا ليلتنا على المرساة .

وقرب حد الظهيرة من الغد سارت بنا السفينة تجرها باخرة صغيرة الحجم شديدة القوة تسمى « نلسن » وفي وقت مرورنا حيال منارة « نور » هبت علينا ريح طيبة فامكنتنا من مد بعض الشُّرُع ثم تغير لون الماء فصار ذا خضرة كدراء .

كانت تلك الساعة هي المعينة لنزولي الي حجرات المسافرين لعيادتهم فيها ، وليس القيام بشؤون الصحة في سفينة انكليزية كبرى من الاعمال

---

(١) جرافسند هي أحدى مواني انكلترة وموقعها في الجنوب الشرقي للوندرة (٢) التاميز نهر من انهار انكلترة يمر باكسفورد ولوندرة ويصب في بحر الشمال

(الوظائف) التي يؤجر صاحبها بلا كسب ولا كد، فان «المونيتور» تحمل خمسة وثلاثين راكباً من الدرجة الاولى وقل منهم من يقوى على أول صدمة للبحر عدو الانسان ويكون آمناً من المثار، فلم ينج من مرضه الا هيلانة وامرأتان أخريان أو ثلاث

وفي اليوم الثامن من الشهر بلغنا حوالي الكثبان فألقى معرف البوغاز مقاليد السفينة الى ربانها ، ونزل بالساحل ثم رجعت الباخرة الجارة بعد ابلاغنا هذا المكان من حيث أتت ووكلتنا الى قوانا أي الى شرع سفينتنا، ولما رأى المسافرون والملاحون ان هذه البقعة هي آخر موقف يؤذن لهم فيه بالاقتراب من البر حمل كثير منهم المعرّف رسائل لاصدقائهم تتضمن بالبداهة آخر وداع لهم .

جاء دور البحارة الآن في العمل فمدوا أيديهم اليه بهمة وإقدام ، واشتغل الضابط الاول والثاني للسفينة بترتيب الحرس، فعينا لكل حارس عمله ثم تدلت من جميع السواري وهي في نصف ارتفاعها أنسجة طويلة نفختها الريح وصفقتها، فانشأت السفينة تميد وكأنها شعرت باستقلالها من وقت ان ثابت اليها أجنحتها ، وكانت قبيل هذا تبدو عليها علائم الكآبة والخجل ان ترى مقودة بغيرها .

أديرت على الملاحين كأس من خمر عسل السكر استحقوها كل الاستحقاق بكدهم ونصبهم .

مما عرفته من الاماكن في مسيرنا (بيشي هد) وهو رأس في أميرية (قونتية) صاسقس وجزيرة وايت وستارت بوينت . وقد صار الماء الآن ذا خضرة بهيجة تطفو على سطحه أعشاب بحرية تشبه التبن

الطويل. صادفتنا سفينة راجعة الى انكلترة فخاطبناها بأعلامنا الملونة وسألناها بهذه اللغة السرية أن تبلغ سفر سفينتنا مكتب الملاحة لشركة ليود .

انتهينا من اجتياز الزقاق (البوغاز) فخرجنا منه وكان الجو صحواً فصعد المسافرون على ظهر السفينة لاستنشاق النسيم البارد .

قلما رأيت اللج مرة لم يكن مرآه فيها مثارا للعجب في نفسي ، ولكن أخص ماشغل ذهني منه الآن هو جملة العلوم التي استفادها الانسان من ممارسة البحر : انظر الى النظام الكوني تجد علم الهيأة الذي يبحث فيه عنه انما تولد من الملاحة، فانه لولا أن حاجة الانسان الى الاهتداء في سيره على ظهر البحار دفعته الى درس الفلك لكان من المحتمل أن لايخطر بباله أصلا أن يتقصي سرا من أسراره، فاحتياجه الى السعي في طلب الغنى هو الذي اضطره الى قياس الزمان والابعاد قياساً مضبوطاً ، فترى الملاح الساذج مع انه لا يعرف القراءة حائزا بالتحقيق لكثير من العلوم العملية . سله ان شئت وليكن ذلك عن بعض الامور الطبيعية تجد كلامه فيها يرجع الى ماقرره العالم الذي قضى سنين كاملة في دار من دور الكتب. واذا كنا الآن قد أنشأنا نظن أن للرياح والزوابع قانونا فانما كان ذلك بسبب ماجمع من ملاحظات البحارة المختلفين في السفن الموزعة على جميع البحار. فأصبح أشد الفواعل الكونية استعصاء على الضبط منقادا الى قانون، ودخل أبعد الحوادث عن النظام في نظام العلم العام، وكشفت المسابير اغوار قعر المحيط وقفاره المفروشة باسلاب فرائسه ، وأضحى الآن من الميسور رسم خريطة لتيارات البحر السفلية . ثم ان الفضل فيما عرفناه من العلوم الصحيحة عن شكل العالم راجع الى الملاحين .

خلق البحر مثالاً للازل لانه مثال للحركة فشهد تولد اليابسات المتعاقبة وانعدامها وارتفاع الجبال وما وقع على مر الدهور من ضروب فعل الارض وانفعالها مما لا يزال يرتجف منه فؤاده ، وهو اليوم كما كان في مبدإ العالم لا يعتوره نصب في جهاده وجلاده، فتراه يعض بعض سواحله ويقرض مايقاومه من الصخور الصوانية، ويقتلع بعض أجزاء الارض من أماكن مختلفة فينقلها من أحد نصفيها الى النصف الآخر ليبني بها سواحل جديدة وجزرا ورءوسا لابد أن يهدمها بعد ، وبدأ به على العمل يتحول من مكان الى مكان على تعاقب العصور بالقوة الساكنة التي توجد فيما لا يموت من الاشياء، وكما انه رحم للخلائق العضوية الاولى هو أيضا أكبر مستودع للحياة .

من المحقق الذي لا مرية فيه أن ممارسة البحر قد وسعت دائرة علومنا، ولكنا قد استفدنا منه ماهو أجل من العلم نفسه، الا وهو ما يتحلى به الرجال من الفضائل التي ينميها في النفس الجهاد مع المحيط المخوف فلولا هذا الجهاد لما عرف الانسان شيئاً يستحق المعرفة، فما أمثل الملاحة طريقة للتربية ! فذلك المربي القاسي العبوس وأعني به البحر يبث كل يوم في أذهان غلمانه الذين يتغذون بلبان معارفه أن النفوس متساوية، وان الفلاح إنما هو في الاعتماد عليها، ويعلمهم من البسالة مالا تزعزعه الخطوب، ومن الصبر مايقوون به على احتمال كل ضروب الحرمان واقتحام جميع المخاطر، ومن ذا الذي في وسعه أن يصف ماآتى الجنان من الثبات، وما ألبس النفس من درع القوة وهو وان غلبه الملاحون بمثابرتهم على قهره وثباتهم

في طلب الظفر به ، يحق له في نفس هذا الغلب أن يفخر بغالبيه فانه هو الذي أنشأهم وهم تلاميذه .

الشذرة السادسة عشرة

﴿ التربية بسفر البحر ﴾

يوم ١٤ مارس سنة — ١٨٦

اضطرتنا الريح الى أن نجتاز خليج بسكاي [١] وقد أكد لي الربان أنه وأمثاله يتحامون ما استطاعوا التورط في هذا المجاز الذي يهاب اسمه الملاحون أنفسهم ، وهو على شدة تلاطم الامواج فيه لم يعق السفينة عن المسير. وربما حدا بي ذلك الى اعتقاد أن من البحار ما هو كبعض الناس في كونها أمثل مما اشتهرت به .

منذ بضعة أيام أتيح لي فراغ من عملي فشغلته بدرس سفينتنا فاذا هي دنيا صغرى تطفو على الماء جعلتها جميع العلوم والصناعات ميقاتاً لاجتماعها. ترى الملاح فيها يلجئه عوزه الى استئناف التمدن كل يوم فكأنه روبنسن [٢] في جزيرته يخترع معظم الفنون النافعة ليستفيد منها ، ذلك أنه لخلوه من الصاحبة يتولى بنفسه غسل ثيابه وفراشه واصلاحها، وتدلك نظافة حجرته دلالة كافية على ماسيكون عليه بيته الخلوي في مستقبله فقد أوتي هذا الليث البحري من غرائز العناية بالبيت ما أوتيته النملة .

---

(١) خليج بسكاي ويسمى أيضاً خليج قشقوني هو خليج في المحيط الاطلانطيقي واقع غربي فرنسة وشمالي أسبانية (٢) يومئ الى روبنسن كروزو صاحب القصة المشهورة الذي كان في جزيرة مقفرة يخترع كل مايحتاج اليه من أمر المعيشة

من مزايا السفينة أيضاً أنها تؤدي الى كل من ترتاح نفسه للعمل من ركابها عملا يشغله، فقد عاود قوبيدون الاشتغال بالطهاية التي سبق له أن شرف باجادتها في أسفار سالفة وجعلت زوجته قهرمانة[1] واختصت هيلانة بمساعدتي في التمريض وبالعزف على البيانو تسرية للسآمة عن المسافرين وتقوية لقلوبهم وقلوب الملاحين أنفسهم الذين يجتمعون كل ليلة على السطح لاستماعه.

جاز «اميل» التمرينات الاولى وصارت قدمه قدم بحار وأنشأ يتسلق سلالم الحبال التي على جانبيّ السفينة وهو يؤدي الاعمال التي يعلمه الملاحون تأديتها بما يكفي من الحذق المنتظر من غِرٍّ مثله. ومعيشة المتعلمين البحريين أمثاله في سفينة تجارية على ما فيها من النصب والعناء معيشة صحية، فان تعرضه لنسيم البحر يشهي اليه الطعام حتى انه ليكاد يلتهم حوتاً من الحيتان المسماة بالكلاب البحرية لو قدم اليه، ولله خفته ونضارته في قميصه الازرق ذي الطوق المنكسر الذي يبين نحره! جاءني غدوة اليوم إثر عمل شاق بالنسبة لطفل مثله وألقى برأسه بين ركبتيّ وهو يتصبب عرقا فاحببت ان أشجعه لا أن أطريه لان الاطراء هو سم النفوس يفرط فيه الآباء لابنائهم بما يبعثهم عليه من الرحمة العمياء فهم بذلك يعودونهم ارضاء غيرهم، وكان حقاً عليهم في رأيي ان يعلموهم ارضاء وجدانهم. من أجل هذا اقتصرت على ضم ولدي الى صدري وتقبيله غير اني أحسست حينئذ بالعبرة في عيني وهو على كل حال قد اعتبر هذه الملاطفة مني مدحاً له لانه انصرف من عندي للمضي على عمله مملوء القلب بالفرح ولا إخال أحداً ينكر استحقاقه

(١) القهرمانة الوكيلة

لهذا المدح أي لتلك الملاطفة .

ليس في السفينة أحد الا وهو يهتم بأن يكون نافعاً من جهته حتى «لولا» فقد فاجأتها بالامس وبيدها كتاب كانت تطلع عليه طفلة في الخامسة من عمرها اتخذتها صديقة وتعلمها فيه الهجاء . اهـ

الشذرة السابعة عشرة

طريقة صيد خنازير البحر

يوم ١٩ مارس سنة — ١٨٦

نحن الآن تجاه جزيرة (ماديرا) تجري بنا السفينة بريح طيبة كانت من بداية سفرنا تهب من الشمال الشرقي . وقد أحدقت بنا في هذا المكان قطعان عديدة من الخنازير البحرية وأنشأت تمرح في الماء وتلهو بالزبد المتخلف على غوارب الامواج من انشقاقها بحيزوم السفينة في مسيرها فبادر جميع الركاب الى السطح لمشاهدتها وكان من «لولا» لما رأتها ان قالت : ويكأنّ هذه الحيوانات مغتبطة بعيشتها وكأنها لم تصب بمرض البحر في حياتها .

استعد ضباط السفينة لصيدها فوقف أحدهم عند الساري المقدم ورمى خطافاً كان معه على واحد منها ظن ان أصابته أيسر وحينئذ جر الملاحون الحبل المعلق به الخطاف وهم في هذه الحالة يجب ان يكونوا خفاف الايدي أشداء السواعد والا وجد الخنزير المصاب وسيلة للرجوع الى الماء والانفلات من أيديهم ، وقد نجحوا في الرمية الثانية فاصطادوا أحدها ، ومما شاهدته فيه ان كبده يشبه كبد الخنزير البري ولحمه أقل جودة من لحم الثور على انه

يحضره في الذهن ان لم يكن بطعمه فبلونه لانه أحمر ضارب الى السواد ويستخرج من لحمه زيت جيد للاستصباح يستعمل في السفينة اه

الشذرة الثامنة عشرة

{ وصف مايرى في البحر من المشاهد الطبيعية }

يوم ٢٢ مارس سنة — ١٨٦

نحن الآن مارّون أمام الجزائر الخالدات وان كنا لم نرها - وهي مرتسمة على سطح الماء المتسم - الا كرؤيا الحالم ، وقد اضطرتنا الرياح المتناوحة الى التوغل في المحيط .

اننا منذ سفرنا نشعر بارتفاع الحرارة ارتفاعاً عظيما غير ان هذا اليوم هو أخص يوم أحسسنا فيه بدخولنا اقليما غيراقليمنا حتى ان«لولا» نفسها على مابها من شدة التأثير بالبرد خلعت ثياب الشتاء وارتدت ثوباورديا

كان غروب الشمس بالامس من أجل المناظر وأبهاها ، وكان الليل مهيباً والقبة السماوية المظلمة تزهو بلآلىء النجوم التي هي كالرمل عدا. ومالي وذكر أسمائها فلا فائدة في ذلك ويكفيني أن أسميها بالنور . ومما ميزناه منها الزهرة التي مع كفها عن دعوى الالوهية واقتناعها بأن تكون في مصف الكواكب لم يضل عنها ميلها الى التغنج النسوي فلا تزال تحب أن ترى نفسها في مرآة البحر

في نحو الساعة الرابعة أو الخامسة من الغداة انشق النطاق الاسود

الذي كان مشدوداً حول الافق يلأم السماء بالماء رويداً رويدا ، ثم بدا من بين حافتيه ضوء مخضر يحاكي ماء البحر في لونه فانتشر على الامواج وهو ضوء الفجر ، وساعة طلوع الفجر في العروض التي نحن فيها الآن من الساعات المشهودة على قصرها وقصر مدة الشفق أيضاً فانه يخيل للرائي فيها ان العالم بأسره مضاء بالكهرباء وربما كان قصر مدة الشفقين سببا في ذلك .

مما حملناه معنا في السفينة ديك صغير وضعناه مع دواجن أخرى في أحد أقفاصها أسمعنا صياح التنبيه والايقاظ ثلاث مرات فكان لصوته الشبيه بصوت البوق تأثير محزن قابض في نفوسنا بسبب أحوال الغربة التي نحن فيها ، وكان يسري الى القلوب بلا عائق لانه كان يذكر المسافرين بأوربام القديمة وأرضها ، ومعيشة المزارع وما يعالجه المزارعون من الاعمال الشاقة

ثم تتابع انمحاء الكواكب من السماء فأخذت تنطوي في أعاليها وتصطبغ باللون الازدرختي

ثم أشرقت الشمس فاذا الامواج أنفسها وقد ملكها الاجلال وتولاها الاعظام ، يخيل للناظر انها خشعت لهذا الينبوع الذي هو مصدر الضياء والحياة ، وصارت السماء كلها جذوة نار ، وترقرقت سبحات من النور الذهبي على صدر المحيط الذي نهدت منه الارض بالتدريج تتلألأ بهاء ونضرة .

لم يقع بصري على « اميل » و « لولا » معاً الا في هذه الساعة وحدها من النهار . رأيتهما جاثيين جثية عبادة واستغراق في المشاهدة

فايت شعري هل اقترب كلاهما في تلك الساعة من ادراك معنى الالوهية بمراقبة جمال الكون وبهائه ؟ . اه

الشذرة التاسعة عشرة

« وصف الاسماك الطيارة وكلاب البحر وطريقة صيدها وضوء المياه ليلا »

نحن الآن سائرون تحت خط السرطان ، ويرى على « لولا » انها لغرارتها تقلب وجهها في السماء تفتيشاً عن ذلك الحيوان البشع الشبيه بالسرطان البحري في شكل أرجله كما هو مرسوم في التقاويم التي جعل فيها من علامات منطقة فلك البروج وهي بذلك تستهدف لسخرية «اميل» وزرايته

تجري بنا السفينة بأقصى سرعة لها تزجيها رياح شديدة وقد مدت جميع شُرُعها فجعلت حبالها تصر صريراً . ذلك انا أردنا اغتنام هذه الرياح الانقلابية [1] التي يسميها الانكليز رياح الشمال الشرقي التجارية .

يتدرج النهار في النقص ويكاد الآن يساوي الليل .

تنقذف من باطن المياه أسراب كالغيوم من السمك الطيار وتسف سفيف الخطاف فبينما كان أحد الملاحين البسلاء يوقد مدخنته (عود دخان التبغ) البارحة اذ لطمه جناح بارد مندى على خده فتولاه من ذلك دهش عظيم ، ثم التفت حوله فاذا هو بسمكة من هذا الصنف تحت قدميه على ظهر السفينة ويندر أن تصل أمثالها في انقذافها الى هذا الارتفاع وانما جذبها اليه ضوء المدخنة .

«١» الرياح الانقلابية هي التي تهب بين دائرتي الانقلابين من منطقة فلك البروج

أخوف سكان البحر الاخرى التي لم يرها « اميل » حتى الآن وأهيبها بلا نزاع كلاب البحر، وللملاحين في صيدها نوع من الحماسة والنخوة، وقد اصطادوا غدوة اليوم واحدا من هذه العفاريت - كما يقولون لانهم أطلقوا عليها أبشع الاسماء كلها - وذلك بواسطة هبرة من لحم الخنزير زنتها نحو خمسة أرطال ألقوها اليه، وكان منظر صيدها مؤثرا فاسترعى أبصار جميع المسافرين وبعثهم على الصعود الى ظهر السفينة لمشاهدته، وكان أول عمل لهم بعد صيده أن بتروا ذنبه بفأس وهو احتياط أراه ضروريًا على ما فيه من القسوة، لانه شوهد غير مرة أن اغفاله كان سببا في أن يكسر بذلك الطرف المرن ساق بعض القريبين منه أثناء معالجته التفلت من أيدي صائديه . ويأكل الملاحون أحيانًا صغار كلاب البحر غير انهم يقرون بألسنتهم أن لحمها غير جيد، وهم اذا قتلوا هذه الحيوانات فانما يبعثهم على قتلها مجرد بغضهم لها، ولشد ما يؤذونها بسبب هذا البغض، وحجتهم فيه أن ما يصطادونه ويقتلونه منها التقم فلانا أو فلانًا من أصحابهم، فان لم يكن هو الذي التقمه كان أخوه أو أحد أقاربه . ولقد حاولت صدهم عن ممارسة هذه الألاعيب الوحشية مبينًا لهم أن الانسان لا ينبغي له أن يعذب عدوه بعد غلبه، فذهب نصحي أدراج الرياح ولكني آمل أن لا تفوت « اميل » هذه العبرة .

تبقى لكلاب البحر بعد موتها في السفينة رائحة خبيثة لا تزول الا بعد بضعة أيام وهكذا الاشرار يؤذون حتى بعد موتهم من يسعون لخلاص الناس من شرهم .

قلما يفهم الاطفال من القوانين شيئا الا قانون القصاص . ذلك أن

الملاحين اصطادوا دلفينا [١] عشية اليوم الذي اصطادوا فيه كلب البحر فما كان من « لولا » الا أن قالت وهي تنظر اليه نظراً يشف عن الرحمة « لقد استحق هذا فاني رأيته التهم كثيراً من الاسماك الطيارة الجميلة » .
لقد صدقت فان ما التهمه منها لم يكن الا لقمة واحدة من لقمه وان سنة الله في خلقه أن من أكل أُكل ، وقد أثبتها الملاحون لما جعله عشاء لهم ، ولحم هـذا الحيوان اذا غلي في الماء كان فيه شيء من الجودة الا أنه يكون ناشفاً .

في نحو الدرجة السادسة عشرة والدقيقة الثلاثين من العرض الشمالي أنشأنا نرى في السماء برجاً جديداً يسميه الملاحون صليب الجنوب وهو مؤلف من خمسة نجوم .

وعجيبة أخرى أبصرناها في ذلك المكان وهي ان المياه تضيء ليلا وقد راع منظرها « اميل » و « لولا » فلم يستطيعا ان يفيقا من التلذذ بجماله وان كان قد بعث فيهما شيئاً من الخوف فان كليهما سألني من ذا الذي أوقد النار في البحر ففسرت لهما بما في وسعي ما أعلمه من أسباب هذه الحادثة التي لم تعلم تمام العلم وقد علل العلماء وجود هـذا الضوء في المـاء بوجود حيوانات مضيئة تشبه النباتات فيه .

كان ذلك النور من شدة سطوعه بحيث ان « اميل » تناول كتابا من جيبه وقرأ فيه على انعكاسه عن الامواج الملتهبة هذا البيت من قصيدة لشكسبير وهو :

خير جزء فيّ روحي وهي بالتحقيق روحك

---

(١) الدلفين صنف من خنازير البحر

نعم ان الله (سبحانه) لم يفض علينا جميع روحه وما أقل ما أفيض علينا منه غير ان هذا القليل الذي يهبه لنا يتصل بروحنا اتصالا حقيقياً(١)

والذي يدهشني من حادثة ظهور الضوء في البحار انها تقع عادة في أحلك الليالى . اه

الشذرة العشرون

(طريقة صيد السلاحف البحرية)

يوم ٣ ابريل سنة — ١٨٦

صرنا تجاه الرأس الاخضر ولما رأى الملاحون سكون الريح في هذا المكان أدلوا قواربهم وسبحوا لصيد السلاحف البحرية، وهذه السلاحف من عادتها ان تظهر قريباً من سطح الماء فتكون كأنها نائمة فوقه، فتصطاد بنوع من السهام له أربعة أسنان يسميها ملاحو الانكليز بالحبوب وكل ما يصاب منها بتلك السهام يجذب بعد صيده الى القوارب بواسطة حبال تكون في أيدي الرماة، وقد رأيتهم اصطادوا منها في ساعتين ثماني ، زنة كل منها من خمسة عشر الى خمسة وأربعين رطلا انكليزياً .

الشذرة الحادية والعشرون

(فخامة منظري الشروق والغروب في بعض الجهات)

يوم ٤ ابريل سنة — ١٨٦

أعوزتنا الرياح الانقلابية التي كانت مواتية لنا أحسن المواتاة على

---

(١) يعني بالروح الالهي ما به حياة الخير والفضيلة والحق وهذا شيء من الله ليس لغيره صنع فيه فاضيف اليه

جرينا في فضاء المحيط وعوضنا عنها الآن رياحاً خفيفة متناوحة تهب على التعاقب من جهات مختلفة للافق ، وانتقبت السماء في مواضع متفرقات منها بسحب بيضاء وسفرت في مواضع أخرى بزرقة شاحبة جميلة . وللشمس في هذا المكان شروق يخطف الابصار ضياؤه فلا تقوى على احتماله وأما غروبها ففخم جليل . اه

الشذرة الثانية والعشرون

« أفاعيل الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء »

يوم ٩ ابريل سنة — ١٨٦

تمطرنا السماء شآبيب ووابلا حاراً وكل ما نراه يؤذن باقترابنا من خط الاستواء فترى الملاحين على ظهر مقدم السفينة مشتغلين بوضع لحى كاذبة لهم وتغطية رءوسهم بعوار من الشعر، وارتداء ثياب بشعة ،حتى انه ليخيل للرائي انهم في أمس عيد المرافع ، ويشهد « أميل » هذه الضروب من الاستعداد شهادة الخائف لعلمه حق العلم بما سيلاقيه ، فان كل تلميذ بحري لم يجتز خط الاستواء لا بد ان يقتحم صنوف بلائه ومحنه كما هي العادة، فلا تزال شعائر الملاحين القديمة متبعة وان كانت قد فقدت كثيرا من مظاهرها الصبيانية الوحشية التي كانت تجعلها مخوفة جداً في قلب المبتدىء في الملاحة ، وعلى كل حال فالملاح طفل ولولا ذلك لما لاعب المخاطر ملاعبة الباسل المقدام .

الشذرة الثالثة والعشرون

« سرعة تغير الاقليم في بعض الاماكن والاعاصير المائية »

يوم ١٣ ابريل سنة — ١٨٦

اصطبغ «اميل» بالمعمودية البحرية فصار الآن من أولاد آله البحر.
حالة الجو في اختلاف وتغير فمن رياح شديدة الى سكون عام ومن مطر هتان الى شمس محرقة ترمي رءوسنا بسهام اشعتها العمودية

لفتنا الربان الى إعصار من الأعاصير المائية التي يخشاها الملاحون بحق فرأيناه من مسافة بعيدة ، وأكثر ماتثور هذه الاعاصير في جهة خط الاستواء . اه

الشذرة الرابعة والعشرون

« تبادل السفن صنائع المعروف »

يوم ١٥ ابريل سنة — ١٨٦

صادفتنا سفينة قافلة من الهند أو من الصين الى بريطانيا العظمى وآذنتنا باشاراتها أنها مستعدة لحمل ما نحملها من الكتب ، ولما كان تبادل صنائع المعروف ممـا تحفظ به المودة في البحر أرسلنا لها بعض صحف انكليزية مضى على نشرها ستة أسابيع ، ولكن أخبارها يكون لها من الجدة عند ركابها ما لصحف الصباح عند سكان لوندرة ، وكتبت وكتب «اميل» كلمتين لصديقنا الدكتور وارنجتون

الشذرة الخامسة والعشرون

« موت أحد الملاحين والاحتفال بجنازته في السفينة »

« وبيان الحقيقة في سبب تأثر الاطفال بفاجعة الموت »

يوم ٣٠ ابريل سنة — ١٨٦

تتناقص الحرارة ويتدرج الهواء في البرودة لاننا صرنا في خط الجدي . منذ يومين آلم نفوسنا فقد واحد من رجالنا .

ذلك أن قطعة من قطع الاخشاب المنحرفة الوضع المستعملة في السفينة لشد حبالها لم يكن ربطها وثيقاً فأتت عليها نفحة من الريح فهوت بها على السطح فصادمت في هويها رأس ذلك الملاح وهو قائم على الحراسة فلم آل جهداً في تجريب جميع الوسائل الفنية لايقاظه وتنبيهه، ولكني لم أفلح لانه لم يبق فيه أدنى علامة على الادراك، فسرى الوجوم في السفينة لان هذا الملاح الباسل كان محبوبا عند رفقائه، وصاح الربان بصوت أجش وقد بدت على وجهه آثار الحزن مع اتقائه بالتجلد بأن تنقل الجثة الى غرفته.

استولى سكون الحداد على السفينة فما كنت ترى على ظهرها الا أنظارا شفت عن الاسى ووجوها نكرتها الاشجان وأسدل الليل على البحر بالتدريج حجب ظلماته كلها وأرخى عليه سدول أحزانه فما رأيته قبل تلك الليلة بهذا المقدار من العظم والكآبة وكانت الامواج باصطخابها تشكو شكوى الاحياء من مضض المصيبة حتى خيل لي أنها نفوس تناجي نفوسنا.

وارباه ! ماكان أشأم هذا الصخب المتقطع الناشئ من ملاطمة الامواج لالواح سفينة تقل ميتاً .

أقبل النهار وأدبر الليل بيد أن أضواء الشمس في اشراقها لم تقو على قشع ماغشي النفوس من سحب الاكدار الليلية فبقيت جميع القلوب مثلوجة متبلدة بضرب من الهول ، ذلك أن وجود الميت في بيت يبث فيه على الدوام الحزن مشوبا بالاجلال و الرعب ، والسفينة بيت مضطرب فما يسهل انفصامه من عرى المودة بين من تطاوحت بهم النوى من العائشين في البر يتأكد بين العائشين في السفينة بسبب اشتراكهم في الحاجات والمخاطر .

تخلف يعقوب في ذلك الصباح عن اجابة داعي الشمس المشرقة وعهدنا به أنه كان على الدوام أول من يسمع دويّ صوته الشديد على ظهر السفينة فاصبح وقد قضي عليه أن لا يكون هو الصائح بكلمة « تمام » .

كان من أسباب اشتغال قلوب المسافرين والملاحين بالحزن أيضاً ارتقابهم لما كان قريب الوقوع من دفن الميت ومع كون أعمال التجهيز كانت تؤدى في سكون كأنها من وراء حجاب كنا نخلس الملاحين في بعض الاماكن روحات وجيآت خفية وقد أحدّت السفينة بتنكيس الاعلام التي تزهو ذروتها عادة بارتفاعها فوقها فخرا بالامة المنتسبة اليها ، وفي نحو الساعة العاشرة برز الربان على ظهرها ثم أقبل على ملاحيه وقال بصوت منخفض قد حلت ساعة النحس فعليّ بالربان الثاني وأخبروه بأننا مستعدون ويعلم الله مقدار مايشق عليّ من تأدية هذا الفرض ولكن من الواجب القيام بالواجب .

رتب الملاحون أكوام الحبال التي كانت تعوق السير بتبعثرها على

سطح السفينة ورفعوا أحد الاجزاء التي تتألف منها جدران السفينة فكان من ذلك نافذة شبيهة بالكوة كنا نرى منها البحر يتراوح بين الصعود والهبوط .

كان ناقوس السفينة يطن فيحدث عن طنينه المؤلم اذا انتشر على وجه الامواج أثر محزن يغادر جميع القلوب واجفة .

لما كانت السفينة خلواً من القسيسين كان من العادات المضطردة في مثل هذه الحالة بانكلترة أن يعهد بصلاة الجنازة الى ربانها . من أجل ذلك أخذ الربان مجلسه وهو مكشوف الرأس وبين يديه كتاب مفتوح والتفت عليه حلقة من المسافرين والملاحين يحفهم الوقار والخشية على تشوش هيآتهم وأوضاعهم ينتظرون البدء في الشعائر الدينية .

أشار الربان الى رجلين من الملاحين بأن يهبطا من أحد سلالم السفينة الضيقة فلم يلبثا أن صعدا يحملان الميت على نعش كبير مثقب وقد لف في قطعة من نسيج الشراع خيطت عليه وكان من الميسور تقدير ثقله بما كانا يعانيانه من الجهد في حمله ، ذلك أن العادة تقتضي في مثل هذا المقام أن يوضع في الكفن مع الجثة قذيفتا مدفع (القذيفة الكرة التي تقذف من المدفع) احداهما عند رجليها والاخرى عند رأسها .

مابرزت هذه الصورة المشؤمة من سدفة السلالم (السدفة الظلمة المختلطة بالضوء) حيث كانت تبدو منها ببطء حتى اقشعرت لمرآها أبدان الحاضرين وقد بسط على صدر المتوفى علم من أعلام السفينة عليه شارات السفن الانكليزية .

أنشأ الربان يتلو صلاة الجنازة بصوت شديد معتاد الامر والنهي ،

غير أنه كان يعتوره اللين حيناً بعد حين فتتخلله نغمات ضعيفة مهتزة كأنها تنبعث من القلب، وكان ما يحصل في نفسه من التنازع بين التماسك والسكينة التي يراها لازمة لكرامته من حيث هو رجل وبين عاطفة الرحمة التي كان يكاد يبديها - يكسو وجهه هيأة غريبة جمعت بين القسوة والرحمة. وكان كاتب السفينة يتلو في ذلك الكتاب عينه الحكم الانجيلية وما كان يسع أحداً من السامعين أن لا يعترف بشيء من الجلال لهذا الضرب من التحاور في معنى الموت بين رجلين مستهدفين في كل يوم لآلاف من المعاطب قد شهد كلاهما كثيرا من اخوانهما يخرمون من حولهما ويثوون في ظلمات البحر السرمدية.

هذا الذي كانا يتناوبان تلاوته لم يك يشبه الصلوات بحال (فالكنيسة الانجليزية لا يصلى فيها قط على المتوفين) بل كان عبارة عن فكر مأخوذ من التوراة في معنى قصر الاجل ومصوغة في قوالب تشبيهات شعرية كتشبيه الحياة بعشب البوادي يخضر في الصباح ويذبل في المساء أو بالظل يسري على الماء، وتشبيه جمال الرجل والمرأة شوهته السنون بثوب أكلته الارضة. وكان جميع الحاضرين يفهمون نص هذه العبارات العبرية لانه كان مترجماً الى الانكليزية.

على ان الساعة الاخيرة قد اقتربت فكف الربان عن التلاوة وأخذ يرقب عظم اتساع السماء والماء، ثم صوب بصره آخر مرة الى ذلك الشيء وهو مدرج في نسيج يعرف الناظر اليه من خلاله شكل آدمي معرفة مبهمة وقد وضع على شفا الفوهة التي صنعت في جدار السفينة ليلقى منها في البحر. ولم تكن الا اشارة من الربان ان سمع صوت غليظ رخو لسقوط رجل

ميت في البحر فشوهد للامواج فوران شديد فترجرج خفيف فدوائر من الماء متداخل بعضها في بعض فلا شيء .

التأم الآذيّ (الموج) على الجثة كما يلتئم بلاط اللحد ، وقال الربان بصوت خنقته العبرة والانفعال : أنت في وديعة البحر

كنت في كل المدة التي أستغرقها أداء هذه الشعائر أرقب «اميل» حيناً فحيناً فأجده شديد التأثر وأما «لولا» فكنت أراها باكية .

يرجع تأثر هذين الغلامين الى سببين أولهما ان تجهيز الميت كان مقرونا بما يهز القلوب من الوقار والهيبة ، ثانيهما انهما لم يكونا شهدا الدفن قبل هذه المرة لجهلهما الموت حتى هذه الساعة . نعم انهما كانا يعرفان بالتحقيق ان كل شيء صائر الى الفناء ، فقد شهدا حيوانات تزول واخوانا يتخطفون من حولهم غير اني في شك قوي من كثرة اشتغالهما بهذه الطوارئ الطبيعية ووقوفهما بالفكر عندها ، والانسان لا يعرف الامور معرفة صحيحة الا اذا فكر فيها بنفسه ، ولا أعدم واهما يلقي عليّ تبعة هذا الجهل لاني أعلم أنه كان ينبغي من أجل إنشاء «اميل» على الاصول القديمة التي يحبها ذلك الواهم أن أربيه على الخوف وأن أحيط له الحياة في مواعظي بوعيد القبر ومخاوف الخلود ، ولكن ما حيلتي اذا كنت لم أجد من نفسي إقداما على ذلك فاني رأيته كثير الاغتباط بالحياة فصرفت جل عنايتي في تحبيب الواجبات الى نفسه لا في دناءة التخويف من عقوبات الآخرة أو التأميل في مثوباتها الغيبية .

المواعظ المحزنة لا تربي الوجدان بل تكدر صفاءه وتزعجه ، فواشوقاه

الي الساعة التي يتأثر فيها اليافع بمشهد الموت فيأنس من نفسه الحاجة الي سبر غور ماقدر له في أخراه![1]

الشذرة السادسة والعشرون

أقاليم البلاد فصول ثابتة كما ان فصول السنة أقاليم مرتحلة

(يوم ٦ مايو سنة — ١٨٦)

الرياح باردة والسماء كدراء وتزعم «لولا» ان سفرنا استغرق الربيع والصيف والخريف وأننا داخلون في الشتاء وحقيقة الامر هي ان أقاليم البلاد فصول ثابتة كما أن فصول السنة أقاليم مرتحلة .

صارت الامواج من الثقل والضخامة بحيث أصبح مسير السفينة شاقا وقد هبت علينا ريح خبيثة فهي ترفعنا الي الشرق نحو جزائر فوقلند[2]

الشذرة السابعة والعشرون

وصف بعض أنواع الطيور التي في بوغاز ماجلان وطريقة صيد نوع منها

يوم ٨ مايو سنة — ١٨٦

اقتحمنا مدخل زقاق (بوغاز) ماجلان[3] وهو مجاز خطر ورأينا هناك

---

(١) ماكرهه المربي لولده من انشائه على الخوف من العقاب والرجاء في الثواب غير مكروه ووصفه هذين الامرين بالدناءة غير صحيح وأمله في أن ولده يسبر غور ماقدر له في أخراه وهم ظاهر وخدعة زينها له شكه في اليوم الآخر

(٢) جزائر فوقلند هي اوخبيل في المحيط الاطلانطيقي شرقي بوغاز ماجلان مملوك للانكليز (٣) بوغاز ماجلان واقع بين بتاغونيه وتيردوفو « أرض النار » اكتشفه رحالة برتغالي اسمه ماجلان وهو أول من بدأ بالطواف حول الارض

طيورا يسميها الملاحون حمام الرأس الواحدة منها في حجم البطة البرية أحد نصفيها أبيض والثاني أسود وكانت تحوم حولنا أسرابا وتصطاد بشباك تمد على كوثل السفينة (مؤخرها) فتنشب فيها أجنحتها في غدوها ورواحها عليها وتتورط فلا تستطيع انفكاكا

وشاهدنا طائرا آخر أثار التعجب في نفس « اميل » بعلو قامته وارتفاع طيرانه وهو المسمى بالبطروش [1]

الشذرة الثامنة والعشرون

كثرة الزوابع في رأس القرن

يوم ١٠ مايو سنة — ١٨٦

رأس القرن حقيق بأن يسمى رأس الزوابع فقد هاجت علينا هيجة خلنا فيها أن المحيط بأجمعه ينيخ بكلكله على سفينتنا الضئيلة . على أنها تقاوم وتجري مع ما يلاطمها من الامواج ويتقاذفها من المهاوي لا يقعدها عن ذلك زمجرة البحر فهو بهيمة كبرى وجدت من يروضها .

الشذرة التاسعة والعشرون

شجاعة الملاحين وتفضيلها على شجاعة الجنود وبيان انها تكتسب بالتعلم

يوم ١٤ مايو سنة — ١٧٦

انتهينا من الطواف بالرأس ولكن ما أعظم ما بذلنا في سبيل ذلك من

---

(١) البطروش طائر من فصيلة الطيور الراحية الارجل يعيش في بحار استرالية

من الجهد وما أشد ماعانينا من المشاق !! فقد كانت الريح تزفزف ثلاثة أيام وثلاث ليال زفزفة بلغت من الشدة الى حد أن ساري سفينتنا الا كبر كان فيها يتأود تأود القصدة من يبس الحشيش .

لم يكن يؤلمنا على ظهر السفينة سوى أيدي البحارين في ممارسة أعمالهم ، وما كان أشدني اعجاباً في نفسي بسيرتهم في تلك الساعات التي قضيناها في مكافحة البحر ومغالبة الخطر ، فليست بسالة الملاح من قبيل بسالة الجندي ولكنها تفضلها في رأيي ، لان الملاح بما له من الجرأة على الموجودات والفواعل الكونية يكافح الموت مواجهة فلا يحول بينهما الا سمك لوح من الخشب وليس غرضه من الكفاح ابادة نظرائه بل هو في مدافعته عن حياته يعمل لتنجيتهم من الهلاك ، وناهيك بالبحر عدوا أوتي من العدد ما هو أشدها رهبة في العالم بأسره ، فانك ترى السفينة على وهنها وكونها ليست الا دولاباً من الخشب تطاردها الريح والبرد والبرق وجبال من الموج فهي في الحقيقة تقاوم قوى كون من الاكوان برمتها .

ولا مشابهة أيضاً بين قدر الملاح وبين مايفاخر به السفسطي من اجترائه على معاندة القدر باستدلالاته الدقيقة اجتراء بارداً خالياً من العمل ، هيهات ! فان قدر الملاح هو مايتجلى في عمله من قوة نفسه وهمتها ، فتراه مع استعانته بربه لاستمساكه بدينه لا يعتمد بعد ذلك الا على نفسه ، أعني على صحة بصره وضبط حركاته وقوة أعصابه فان قهره عدوه سلم اليه ، ولكن هذا لا يكون الا بعد ان يرى آخر سلاح له قد تحطم .

تلك البسالة تكتسب بالتعلم وهذه الثقة بالنفس تسري بالمعاشرة ، يدلك على ذلك ان «اميل» كان في أول عهده بالملاحة شديد الروع فما

لبث ان ذهب عنه روعه بالتأسي برفقائه، لانه كان يرى من العار أن يرتجف فؤاده وتتزلزل قدماه امام هؤلاء الابطال وهم ثابتون في مواطنهم. كانوا يشغلونه حيناً بعد حين بادارة المصات (الطلمبات) ومعالجة الحبال. فلا شيء يعمل كالعمل البدني في تقوية القلب، فبطالة المسافرين هي التي عند أدنى هيعة [1] تملأ قلوبهم بالمخاوف وأدمغتهم بالخيالات، واما الملاح فليس للخوف متسع في وقته.

من مزايا الملاحة أيضاً ان ما فيها من مكافحة الخطر ينمي في قلوب الملاحين حب الحياة، فمن ذا الذي كان يحسب ان الانتحار لا يكاد يكون معروفاً بينهم ?

الضجر من الحياة من مميزات العصور الحديثة وهو أخوفها عندي على الشبان وأشدها ايلاماً لنفسي، فاني أرى الاطفال يولدون غير مبالين بشيء، سائمين من كل شيء، خامدي الاحساس ميتي القلوب، فكم من فتاة اذا انكشف لها وهمها لأول مرة فيما كانت تعتقده واقعاً تمنت لو أنها ماتت قبل انكشافه! وكم من فتى كسول لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ولم يعامله الجد الا معاملة الغلام العارم يصيح قائلا «مافائدة الحياة»? وليس من غرضي هنا ان أبحث عن أسباب هذه المصيبة الملمة بالنفوس والاخلاق، وإنما غرضي أن أقول لكل هؤلاء المتبرمين: «انظروا الى الملاح تجدوا أنه هو الذي عرف قيمة الحياة لانه في كل يوم يذود عنها أخطاراً حقيقية لغاية نافعة وبذلك صار أهلا لأن يقدرها حق قدرها»

من أجل هـذه الاسباب كلها أرى ان «اميل» الآن في ولاية

(١) الهيعة صوت الفزع.

معلمين حاذقين، وأما «لولا» فانها والحق يقال لم تبد من البسالة شيئاً يذكر لانها لبثت مختبأة في إحدى زوايا حجرتها، فكانت كالنعامة التي يؤكد العارفون بأخلاقها أنها تتوهم أن غمر رأسها في الظلام منجاة لها من الخطر الملم بها. وذلك ما اضطر هيلانة الى أن تكون قدوة لها في الاقدام تسكيناً لروعها، وكان هذا موجباً للاعجاب بها بحق.

« شجاعة النساء المحمودة »

من الخطا أن يتوهم متوهم ان لا فائدة في الشجاعة للنساء، فانه إن كان يريد بها الشجاعة الحربية فاني قليل الاعتداد بها في الرجال فاكون أقل اعتدادا بها في المرأة المترجلة، ولكن لا يعزب عن ذهنه انه يوجد من ضروب الاقدار غير واحد، فان النساء مستهدفات للمخاطر التي نحن عرضة لها، ومضطرات لمغالبة ما نغالبه من حوادث الكون الخارجي، وقد يوجد من الاحوال ما تتوقف حياتهن فيها بل وحياة أطفالهن على سكينتهن ورباطة جأشهن، فقوة العزيمة وثبات الجنان هما من الاخلاق التي تحتاج اليهما المرأة كما يحتاج اليهما الرجل.

من المصائب ان تسوء تربية الفتيات الى حد أن يتوهمن ان تكلف ضروب الفزع القاتل عند كل مناسبة خصوصاً بحضرة الشبان مما يلفت الانظار اليهن، فيقول من يراهن في هذه الحالة انهن يقصدن ان يظهرن في شكل الحمائم المروّعة. ويجمل ان يوعظن بأن الخوف لا حسن فيه مطلقا، وانه يجب عليهن لانفسهن اذا أحدق بهن الخطر ان يجتهدن في استشعار الاطمئنان والسكينة ان كن يردن ان يصرن مثارا للاعجاب والاستحسان. ولا صحة لما يعتقدنه على ما يظهر من ان ثبات جنان المرأة يسيء خلقها، بل

أجد جمالا وشرفاً فائقين في تلك الذات اذا كانت مع تجردها من القدرة على المهاجمة بل ومن قوة المدافعة تقتحم الخطر بقوة جأش تكافئ قوة الرجل.

أنا أعلم ان من الاوهام السخيفة اعتقاد ان جفاء الطبع من لوازم الشجاعة، ولكني أود لو أدري متى شوهد ان الشجاعة الحقيقية غيرت من رقة المرأة ورحمتها وغير ذلك من فضائلها . حاشاها من هذا وان الجبن والاثرة لهما اللذان يوجبان قسوة القلب وغلظه .

سل أمًّا جبانا ان تشهد عملا جراحياً يعمل في جسم ولدها لتسليه وتسرّي من ألمه تجبك بأنها شديدة الاحساس كثيرة التأثر ، وبئس العذر عذرها ، فما مرادها الا الاحتماء من كلفة التسخير . ثم لا يتخيلنّ احد ان قوة العزيمة والسلطان على النفس أو الشجاعة الحقيقية هي من الاخلاق التي لا ينتفع بها الا في طائفتين من الأعمال هما الحرب والملاحة فاني أرى ان منفعتها تتعدى الى كثير من الامور الاخرى لان الرجل والمرأة مهددان كل يوم في القوم الذين يعيشان بينهم بآلاف من الاعداء والمعاطب، ولأن البحر لا يقصد الا إزهاق أرواحنا وما أكثر ما يعرض لنا من الاحوال الخطرة التي يقصد فيها نقض أعراضنا والذهاب بحرماتنا . اه

الشذرة الثلاثون

مرح « لولا » في السفينة بعد زوال الخطر

يوم ٣٠ مايو سنة ـ ١٨٦

تشق سفينتنا « المونيتور » بجلالة خطرها عباب أمواج المحيط الهادئ وتتخذ لها فيه سبيلا، وقد عادت «لولا » بعد زوال الخطر الى ما كانت

عليه من الابتهاج والسرور فهي تمرح وتعدو على ظهر السفينـة مع مالها من الحركات حافظة لتوازنها ، وتبدو قدماها الصغيرتان في خببها من تحت حلتها كانهما فأرتان . اه

الشذرة الحادية والثلاثون

{ وصف جزر جوان فرناندز }

« وبيان ان احداها هي التي كتب عنها قصة روبنسن كروزو المشهورة »

يوم ٢٥ مايو سنة — ١٨٦

رسونا غداة اليوم في جوان فرناندز لضبط مقياس الزمن (الكرونومتر) وهذه البقعة مركبة في الحقيقة من ثلاث جزر يتألف منها مجموع متلاصق الاجزاء ، وتسمى الاولى منها ماساتيره والثانيـة ماسافويره والثالثـة اسلادولوبوس وهي صخرة تكاد تكون جرداء أكثر الثلاثة تطوحاً نحو الجنوب ويلقبها الملاحون بجزيرة القيطس (عجل البحر) لان القياطس تأوي اليها طلباً للراحة والدفء .

الجزيرتان الاوليان ماساتيره وماسافويره معشوشبتان شجراوان ومع اجتهاد الحكومة التابعتـين لها في تعميرهما لاتزالان قفرا لا يعمرهما الا المعز الوحشية وهي كثيرة فيهما ، ويقال إنها كانت تزيد عن ذلك لو لم تسلط عليها كلاب وحشية مثلها تقاتلها وتفـترسها . وليت شعري الى أي حالة تصير هذه الكلاب اذا أبادت جميع ماهنالك من المعز ؟ لابد أن يأكل بعضها بعضاً . وجزيرة جوان فرناندز تذكر بواقعة عظيمـة جرت فيها وهي :

انه في سنة ١٧٠٤ رسا الملاح الانكليزي دامبير على ماساتيره فألقى فيها وكيله على القوارب المدعو اسكندر شالكرك أثر مشاجرة احتدمت بينهما . ترك هذا التعيس في هذه الجزيرة القفر غير مزود اياه الا بشيء يسير من الغذاء والعدد فعاش هنالك أربع سنين وأربعة أشهر من صيده وصناعته ، وفي سنة ١٧٠٩ اتفق لاثنين من صيادي الثيران الوحشية ان نزلا بالجزيرة فعثرا على ذلك الرجل فرقا لحاله وحملاه معهما الى أوروبة ،

وكان شالكيرك قد قيد بعض مذكرات في طريقة عيشته على تلك الجزيرة البلقع فاستعان بها دانيال دوفويه فيما بعد على تأليف كتابه العجيب الذي عرفه الناس جميعاً ، ولشد ما يبديه الآن « اميل » و « لولا » من الاهتمام بمطالعة وقائع روبنسن كروزويه . اه

الشذرة الثانية والثلاثون

« الوصول الى خليج قلاو ووصفه وذكر نوع من الطير فى تلك الجهة »

يوم ٥ يونيه سنة — ١٨٦

يابشرى! هذه أرض! هذه أرض!

بعد ان سافرنا تسعين يوماً دخلنا خليج قلاو وهو من أبهى مناظر الدنيا وأبصرنا جزيرة لورنزو ترتفع حيالنا ، أقول ترتفع وأقل ما في هذا اللفظ أنه حقيقة في استعماله هنا فقد نتج من حساب أحد العلماء أن سواحل سان لورنزو كسواحل الشاطئ المجاور لها ارتفعت عن سطح البحر خمساً وثمانين قدماً انكليزية من عهد العصور التي يعرفها التاريخ .

صخور هذه الجزيرة يعمرها آلاف مؤلفة من الطيور أخص بالذكر منها طائرا رأسه أسمر الي السنجابية وبطنه أبيض ناصع وذنبه أسود يقال انه هو الذي يحصل منه أهل الجزيرة علي السماد المعروف بالغوانو وهو ثروتهم الكبرى لان الذهب والفضة كادا ينضبان من معادن بلاد البيرو فهي تتسلى عن الحرمان منهما ببيع القذر ولا غرو فالذهب مذهب ومفسد، والقذر موجد ومخصب . اه

الشذرة الثالثة والثلاثون

« بيان فوائد العقبان »

يوم ٦ يونيه سنة — ١٨٦

رسونا في مينا سيودال دولوس ريس

أخص ما أدهش « اميل » و« لولا » عند هبوطهما على البر كثرة العقبان التي تسكن سواحل هذه الجهة، فانها ترى عند كل خطوة في الشوارع وعلى سطوح المساكن، وقد رأينا منها طائفة تبلغ الستين أو الثمانين نائمة وهي جاثمة على جدار ورؤسها مختبئة تحت أجنحتها ذلك أنها ليس من خلقها الجفلان ولا تخشى من السكان شيئاً لانهم يجلونها. هذه الطيور في غاية الشره، وشرهها نفسه نعمة من نعم الله علي أهل تلك البلاد لانه يساعد على حفظ الصحة في المدن، وكان «لاميل » فيما أرى اخطاء غريبة في شأنها فانه لما سمع الزراية عليها ممن درسوا أخلاقها في الكتب كان يتخيلها سلالة تسكن الهواء أ كالة دنيئة للرمم، فلم يمض الاساعات قلائل حتي زال الوهم وتبين له خلاف ما كان يتوهمه

فعلم انها محتسبية سخرها الخالق (سبحانه) في البلاد الحارة للقيام على تنظيف الطرق العامة، فهي تنقيها مما يلقى على الابواب من القمام واللحوم الفاسدة ومما يطرح فيها من الجيف، ويدل ماتبديه هذه الطيور من الاطمئنان الى الانسان والثقة به حق الدلالة على شعورها بنفعها له .

المسافة بين قلاو وليما فرسخان أسبانيوليان وسنبلغها غداً .اه

الشذرة الرابعة والثلاثون

التربيه بالمداينه

يوم ١٢ يونيه سنة ـــ١٨٦

مدينة ليما في نظري كثيرة الشبه جداً باحدى مدن أوربة، وان الاوربي الذي يسافر من بلده الى الجانب الآخر من الدنيا فيقطع في ذلك خمسة آلاف وخمسمائة وتسعة وثمانين ميلا انكليزياً ليستحق ان يلاقي بعد هذا السفر من تركهم هناك من اليسوعيين والمحتالين والبغايا والراهبات ومعاهد الفجور .

في تلك المدينة شوارع لها من الرونق ما يناسبها وفيها ميدان أنيق يدعى « بالبلازامايير » في وسطه بركة فخمة من البرنز ينبثق منها الماء في ثلاثة أحواض على أن هناك جدولا يخترق المدينة أفضله كثيرا على ذلك العمل الفني . وهذا الجدول المسمى بالريماق يأخذ مياهه من مثالج جبال القورديير، وبعد أن يجري ثلاثين فرسخاً يصل الى ليما فيقسمها الي قسمين متساويين تقريباً . ولست أدري اضلال أم حق ان أحس ببرودة مياهه اذا غمست أصبعي فيها كان ماء الثلوج لم يمهله اندفاعه أن يسخن بحرارة الشمس.

ليست الحرارة في تلك الجهة من الشدة بالمقدار الذي قد يتوهم مع كونها لا تبعد عن خط الاستواء الا عشر درجات. وتعالل هذه الحالة بعلل مختلفة غير ان أخصها وضع المدينة فان المحيط الهادي يكنفها من أحد جانبيها ويكنفها من الجانب الآخر جبال القورديير القائمة شرقيها مكالة بالثلوج الدائمة. وفي ذلك مايساعد بلا ريب على ترطيب الجو وبينها وبين البحر فرسخان اسبانيوليان ولا تبعد الجبال عنها الا ثمانية وعشرين فرسخا فكأن البحر والجبال منطقة مزدوجة تمنطق بها الساحل لتقيه شدة الحرارة .

الذي يدهش (اميل) و(لولا) كثيرا هو أننا بحسب منزلة الشمس الآن في فصل الشتاء مع اننا في شهر يونيه على ان الحق أن لاشتاء في بلاد البيرو، فان السنة فيها تنقسم الى فصلين فصل الرطوبة وفصل الجفاف ففصل الرطوبة يبتدئ من شهر ابريل ويستمر الى اكتوبر وفيه يغشى المدينة ضباب ثقيل فاتر يسميه أهل البلاد بالغروي، وقد يبلغ أحيانا من الكثافة والإسفاف (الدنو من الارض) خصوصاً في الغداة حدا لا نكاد نرى فيه ماهو شديد القرب منا من الاشياء، ويقال ان هذا الحجاب يتمزق في شهر اكتوبر أو نوفمبر فترفع قبة السماء سنجابية اللون ولا يلبث الطل أن يتلاشى بحرارة أشعة الشمس النفاذة وحينئذ يبتدئ فصل الجفاف أي الصيف .

لا ينبغي أن يفهم من قولنا فصل الرطوبة الفصل الممطر فانه قد يمضي قرن ولا تسقط على طول هذا الساحل كله قطرة من مطر. عرفت ذلك لاني منذ بضعة أيام كنت أسأل شيخاً من هذه البلاد : هل تذكر

انك شهدت مطراً في حياتك ؟ فكان جوابه لي « قط » فسألته عن عمره فقال انه ثمانون سنة .

الضباب ندى يحيل التراب الى وحل ويكفي لاخصاب الارض هنا إخصاباً متوسطاً . على أنه يوجد في أماكن أخرى من بلاد البيرو وديان وربى قريبة من الجبال ينزل فيها من السماء سيول حقيقية اذا أصابت الرمال القحلة أصبحت عما قليل حافلة بالنبات ، فالارض لا تسأل السماء ، الا أن تتصدق عليها بالماء .

فصل الجفاف بالضرورة أشد الفصلين حرارة على أن الناس هنا يؤكدون لي أنهم يجدونه مبردا بما يهب من نسيمي البر والبحر ، فكأن هذين النسيمين يقتسمان اليوم بينهما ، فيهب نسيم البحر في الجملة حوالي الساعة العاشرة من الغداة ويستمر على هبوبه متراوحا بين الشدة واللين الى غروب الشمس ثم يركد ويستتب السكون ، فاذا كانت الساعة الثامنة أو التاسعة من العشي جاء دور نسيم البر الذي يهب من الجبال فيبقى على هبوبه الى الغداة .

في رأيي أن سكان ليما أشد ما فيها غرابة وأدعاه الى المراقبة فلا أظن أنه يوجد في سكان بقعة أخرى من بقاع الارض مايوجد في ملامح وجوههم من الاختلاف العظيم ، وفي ألوان جلودهم من الفروق الدقيقة الواضحة . ذلك بأنهم أخلاط من سلالة المستعمرين (وأعني بهم الاشخاص المولودين في أمريكة ممن هاجروا اليها من الدنيا القديمة خصوصاً أعقاب

البيوت الاسبانية العتيقة) ومن الهنود والزنوج والخلاسيين [١] وغيرهم من الاصناف ، فترى من ألوان وجوههم كلما ثقفتهم الابيض الشاحب والاصفر النحاسي والاسود الكهربي وما يتخللها من ضروب الاختلاف الصغيرة المتولدة من اشتباك الارحام واختلاط الانساب ، واني اذا اعتبرت في الحكم عليهم ماقام بنفسي من آثار الانفعال برؤيتهم لاول مرة حكمت بانهم متشابكون بالارواح كما تشابكوا بالاشباح .

تمتاز النساء البيض والخلاسيات عن غيرهن بعينين نجلاوين سوداوين تتوقدان ذكاء ، وبشعور طويلة غدائرها الثقيلة مرسلة ، ولون تقاوم وضاحته الفطرية حدة الشمس ، وأنف مع خلوه من شبه الانوف اليونانية لايعوزه شيء من القنا [٢] وفم مزدان بالثنايا الجميلة على ماقد يكون فيه من السعة أحيانا ، وقامة وسيطة معتدلة ، وقدمان بلغتا من الصغر حداً يدعو الى العجب ، ويدين صيغتا صياغة دقيقة ، وجملة القول في وصفهن ان صورتهن هي صورة « لولا » اذا كبرت .

أنا لاأعلم الى الآن شيئاً من أخلاقهن اللهم الا مايظهر لي من أنهن (أعني الغنيات منهن) يقضين أوقاتهن بين الزهور والعطور والاقراص العطرية والمربيات والحلاوى ، ولئن اعتمدت في الحكم عليهن على ماأسمعه عنهن ممن يحتفون بي لقلت إنهن يقسمن وقتهن بين دسائس العشق وشعائر العبادة ، ولا إخال أحداً لايدهش اذا علم أن الاديار والكنائس تشغل من المدينة ربعها . ومما أكده لي أهل ليما أن الرجال منهم شديدو الغيرة على

(١) الخلاسي هو الذي يولد بين أبوين أحدهما أبيض والثاني اسود (٢) القنا مصدر قني الانف أي ارتفع أعلاه واحدودب وسطه وسبغ أي طال طرفه

نسائهم ولكني لا أعتقد شيئاً مما يقولون فانهم لو كانوا كذلك حقيقة لما أباحوا لهن الذهاب للاعتراف في أغلب الاوقات . اهـ

الشذرة الخامسة والثلاثون

ذكر شيء من أخلاق أهل ليما وأحوالهم وأهل بيت « لولا » ووالديها
يوم ٣٠ يونيه سنة — ١٨٦

مالبثت منذ وصلنا الى ليما ان التزمت الاشتغال بمصالح دولوريس، وأول شيء رأيت من الواجب البداءة به في هذا السبيل أن أجمع تفاصيل مايعلمه الناس من الاخبار الموثوق بها في شأن مولدها ووالديها ودونك بالايجاز نتيجة ماهدتني اليه ابحاثي :

أما والدها فهو من بيت أسبانيولي كان رحل الى بلاد البيرو واستوطنها بعد الفتح بزمن يسير . وأما والدتها فكانت من النساء ذوات اللون ويعنى بهن الخلاسيات بحسب اصطلاح الناس هنا وكانت مع احتواء عروقها على شيء من الدم الهندي لا يتأتى لعين غير عين المستعمر الخالص الغيور ان تكتشف فيها بقايا سمات صنفها التي انمحى أكثر من ثلاثة أرباعها ، فانه لا قدرة لغير المستعمرين على ان يميزوا في الذات الجميلة لاول نظرة مايسميه الانكليز بأثر ظلف الشيطان المشقوق، فهم يلتمسون هذا الاثر حتى في شكل الاظافر

ويحق ان تعلم أنه مع خضوع هذه البلاد للحكومة الجمهورية ومع تشابك الاجيال فيها لا يزال بعض البيوتات الاسبانيولية يرون من الامتياز ان يثبتوا صراحة أنسابهم ونقاوتها من الاختلاط وإن يحرصوا

على بقائها كذلك، فان هذا في رأيهم شارة من شارات الشرف، وفي رأي غيرهم والحق يقال نعمة يحسدونهم عليها. يدلك عليه ان الخلاسيين في الطبقة الخامسة بل وفي الطبقة السادسة يدعوهم عجبهم الى التألم من ان يعرفهم الناس بهذه الصفة حتى انهم ليبذلون كل ما يملكون لو ضمن لهم الانفكاك من اماراتها التي تراها مع نهايتها في الخفاء وقرب تلاشيها تنم على خسة أصلهم كما تقرر في الآراء والافكار.

ذلك ما حدا بي الى ان احدث نفسي غالباً بان معيشة الناس مجتمعين ربما كانت في بدايتها مؤسسة على حاجتهم الى احتقار بعضهم بعضاً.

ومهما يكن من هذا الامر فقد كان زواج ذلك الاسبانيولي الحر بتلك الخلاسية معتبرا عند كل أهل بيته من سوء الحظ لانه كان قد علق بأذهانهم خزعبلات متعلقة بالجيل الاحمر، ورسخت فيها شديد الرسوخ. وكانوا يرفعون عقيرتهم افتخارا بأنهم لا ينفكون عن تخير الامهات. ولا أدري أيكون هذا من أسباب الفرقة بين الزوجين فيما بعد أم لا. غير انه قد عرف ان اقترانهما لم يقترن بالهناء والغبطة فقد ماتت هذه الفتاة الخلاسية في السابعة عشرة من عمرها بعد ان وضعت بنتا.

لم يطوح والد «لولا» بنفسه في الاعمال البحرية تطوحاً تاماً الا من بعد تأيمه. وكانت السفينة التي غرقت به حيال سواحل بنزانس ملكا له. وقد أجمع الناس على انه كان كثير الفخر بينته وانه لعزمه على تربيتها تربية أعلى من التربية التي ينشأ عليها أغلب النساء في ليما حملها معه ليضعها في إحدى مدارس لوندرة الداخلية.

كان يحب هذه الطفلة وفي هذا أقوى موجب للظن بأنه هو الذي

علقها بمزيد الاحتراس والعناية في أدوات السفينة قبل أن تغتاله الامواج .

بلغ خبر الغرق ماوراء البحار غير انه شاع أيضاً في ليما أن هذه المصيبة شملت الرجل وبنته فلا شك أن ما أرسلته أنا وهيلانة من الرسائل اعلاماً بنجاة « لولا » ومطالبة بحقوقها قد حجزها من لهم مصلحة في اعدامها .

ما نجا من الغرق الا ملاح واحد لم يرجع بعده الى ليما قط لسبب لا أعلمه ، فلم يتيسر له أن يكذب ما أذيع هنالك عمداً من الروايات الموضوعة

لما وصلنا الى ليما عرفت «لولا» بلادها ان لم أكن واهما من خلال ماحفظته ذاكرتها من آثارها في الصغر ، غير أن هذه البلاد لم تعرفها قط ، فقد كان من عرفتهم بها من آل بيتها يتظاهرون بالريبة فيها فيقولون نعم انهم كانوا سمعوا بسفان غرق في البحر وبأنه عمهم أو ابن عمهم ولكن ماالدليل على ان تلك الفتاة التي عرفتهم بها بنته فانهم كانوا محقين كل الحق أن يعتقدوا موتها ، وأما ماقدمته لهم من الاوراق الدالة على ثبوت نسبها له فكانوا يتعللون عليها بأنها مكتوبة بالانكليزية وهم لا يفهمونها بل هم ما كانوا يريدون أن يتكلفوا قراءتها .

ذلك ما اضطرني الى أن أقصد العارفين بالقانون فكان رأيهم في القضية انها من القضايا المعضلة المرتبكة وأنها تقتضي فراغاً واسلاف نقود وعبثاً كثيرا من عبث المحاماة ، وأنت تعلم حالة القضاء في بلادنا وهو في بلاد البيرو أدنى منه أيضاً الى الطفولية .

عمال الحكومة الذين سألتهم في هذا الموضوع وان كان أغلبهم ينتمي الى بيت والد الفتاة متفقون على انه ترك بعض المال ، غير انهم يقولون وفي

قولهم أمارات الريبة ان جل هذا المال ضاع في سداد ديون المتوفى، والذي ظهر لي أشد الظهور هو أن المضي في هذه القضية يجر الى تشويش كثير من المصالح الخاصة التي لاشك في أنها اتسمت بعصبية السفان . تلك هي حالة الامور .

الشذرة السادسة والثلاثون

« فوائد الشدائد — بذل النفس للمحبوب أول الحب »

يوم ١٥ يوليه سنة — ١٥٦

كان منا خرق وطيش كادت عواقبه تكون علينا خسارا مبيناً. ذلك أني و«اميل» و«لولا» خرجنا عشية أمس نتنزه والساحل ممتطين أفراساً فأوغلنا في سيرنا متسفين ولا يلبث الانسان بأدنى بحث في شكل هذه السواحل الظاهري أن يدرك ان البلاد نشأت من الزلازل الأرضية .

من أسمى الافهام التي انتهت اليها حكمة العلوم الحديثة على ما أرى[1] ادراك أن للناس فوائد فيما يبتلون به من المصائب فان لها دخلاً عظيما في تكوّن العالم المادي

وما أدراك ما هـذه المصائب ؟ اذا رُجت الارض رجاً وتولاها الاضطراب عم الفزع كل من على ظهرها ممن يشهدون زلزالها ، ورأيت الحيوانات جافلة حيرى لاتدري ماذا يراد بها .

{١} لقد طاش رأيه فان القرآن القديم نطق بهذه الحكمة التى رآها حديثة في آيات كثيرة جدا وتداولها المسلمون في منثورهم ومنظومهم ولكنه لايعلم . ذلك

وان لمن شهد الزلازل من سكان هذه البلاد قصصاً عنها يروونها للاجانب تحاكي قصص التوراة ، فكأيّن من قرية كانت بالامس عامرة سعيدة أصبحت خاوية على عروشها فلا يجد الباحث عنها في عرصاتها الا أطلالا بالية ورسوماً دارسة. واذا انقضت الزلازل لم يكن للناس حديث مدة الشهر التالي لوقوعها الا قصصها المحزنة، فمن رجال ذهبت عقولهم من الفزع، وأموال لعبت بها أيدي الضياع، ونساء وأطفال وشيوخ خرّت عليهم بيوتهم تخنقهم ردمها .

لا يسلم تاريخ هذه الرزايا من اختلاط القصص به فمما يحكيه الناس هنا أنهم شاهدوا في زلزلة ليلية على وميض البروق المشؤم أن الارض قد انشقت وبرزت هيا كل قدماء الانقين [١] من قبورها ثم عادت فغيبت في هذه المهاوي التي ما لبثت أن التأمت عليها .

سكان شطوط المحيط فى هذه البلاد أشد تعرضاً للمعاطب فان البحر في بدء الزلزال يتقهقر عن الارض كأنه قد ملكه الذعر، ثم يعاود الكرة وقد هاج غضبه، واشتد صخبه ولجبه ، وهنالك تتكسر أناجر السفن وتتقطع سلاسلها وتأخذها أعاصير الماء فتدور بها دوراناً، وأما جسور المياه فانها تستسلم لضغط الامواج فتفتح أبوابها للخراب والهلاك .

وللبيرو بين من المعرفة الصحيحة بما لأرضهم التي استودعوها حياتهم وعيالهم وآمالهم من ضروب الختل ما يجعلهم في عامة أوقاتهم على حذر منها فتراهم لا يذوقون النوم الا غراراً مستعدين على الدوام للهبوب من بيوتهم لاقل لغط أو أدنى رجة سائلين ما الخطب ؟ فاذا قيل زلزلة برزوا جميعاً .

(١) الانقين جمع أنق وهو أحد أشراف قدماء الهنود بأمريكا

على أن لهم بهـذا القطر الذي تميد بهم أرضه كلف العاشقين بجماله وخصبه ، فانك تجد في البقاع المزروعة منه حقول الذرة وقصب السكر والقطن والفواكه الاسبانيولية كالبرتقال والليمون والرمان والتين والزيتون قد ازدوجت بجميع فواكه المنطقة الحارة كالموز والاناناس، فتلك الارض المتزلزلة حبلى بالحياة فهي تنمو وتعلو وتتنفس ولا ينبغي أن ينقم منها أنها في عملهـا هذا تشوش عمل الانسان أحياناً بما لهـا من صنوف التدمير وضروب التخريب .

لم يسلم الشاطئ الذي كنا نتنزه عليه من فعل الزلازل الارضية التي لاشك في أنها تبتدئ من سلسلة جبال الانذز [١] فان الانسان فيما يلاقيه هنالك من الشقوق والانجاد والاغوار التي لا تلبث بعد انخسافها أن ترتفع لا يزال يعرف ميدان تكافح الفواعل النارية .

كانت « اولا » تسير على الساحل وكلها زهو وعجب باستقبالها « اميل » في بلادها ومرحبتها اياه غير مفكرة في شيء عسى أن يكون من الحبائل تحت هذا الساحل المتباين الذي دعثرته العواصف والاعاصير ؛ فهمزت جوادها بحدة مفرطة وأخذت به شطر البحر وكنا نحن نتبعها ولكن من بعد لبلادة فرسينا، على ان « اميل » لم يلبث ان خف اليها خفة المستيئس لما نبهته هيعاتي الى الخطر الذي كانت ملاقيته، فلما بلغ تلك الفارسة المرحة لم تكن الا على نحو مئة متر من هوة بين صخرتين كان لا محيص لها من التردي فيها بجوادها مرسلة الشعر في الهواء مشرعة السوط، فأخذ بعنان فرسها وقسره على التحول بسرعة فرفع يديه قائماً على رجليه

{١} سلسلة جبال الانذز هي سلسلة عظيمة من الجبال في أمريكة الجنوبية

ثم مالبث ان وقف كأنه ألهم الوقوف فجأة .

وأما « لولا » فقد امتقعت (تغير لون وجهها) وارتعدت فرائصها لانها كانت أبصرت الهوة وشكرت « لاميل » همته بان قبلته تقبيلاً يشف عن الوداعة وسلامة القلب كالذي يقع من أخت لاخيها .

وفي يقيني ان هذه الحادثة لم تزد شيئاً على مايضمره كل منهما للآخر من المحبة والوداد ولكني أحسب اني لاحظت من عهد حصولها فرقاً دقيقاً في رعايات «اميل» لها بزيادة تحدبه (تعطفه) عليها فكأن بذل النفس للمحبوب أول الحب .

ذلك أمر لا بد أن تكشفه لنا الايام لاني وهيلانة قد عودنا هذين الغلامين أن نصدقهما لمجرد قولهما فلا أخالهما يجسران على غشنا . اه

الشذرة السابعة والثلاثون

الآثار والمدن المجهولة في البيرو والموازنة بين القوى والاعمال

يوم ٢٨ يوليه سنة — ١٨٦

كثيراً ما نلاقي هنا هنودا أصليين يشتغل بعضهم بالتماس الثلج من رءوس الجبال ونقله على ظهور البغال الى (ليما) حيث يعتبر من أوائل مشتهيات المائدة وبعضهم بنقل الملح اليها من سواحل البحر على قطعان اللاما (١)

ياله من بون بعيد بين ماعليه هؤلاء الهنود الآن من الذل والشقاء وما كانوا فيه من العظمة والرخاء .

{ ١ } اللاما حيوان من حيوانات البيرو بأمريكة يشبه الجمل

معابد الانقين التي يرشد أهلها السائح الى زيارتها وطريقهم الحربي المشهور الذي اختطوه لمقاتلتهم ونظام ريهم العجيب الذي كانوا يبلغون به مياه الجداول الصغيرة الى الحقول بما كانوا يحتفرونه من الخنادق ليخصبوا به من الارضين ماصار بعدهم محلا - كل ذلك مما يحمل على الاعتقاد بأن الاجيال الاصلية التي كانت متوطنة وسط أمريكة أوقفت في سبيل تقدمها بحلول الجيل الابيض الذي انقض عليها في بلادها انقضاض العقاب فعاقها عن رقيها فانها كانت تسعى اليه ومن ذا الذي في استطاعته أن يخبرنا بما كان يحصل لو أنهم أمهلوا حتى بلغوا مثال تمدنهم الصحيح ؟ ربما كان انعكس الامر فذهب مثل خريستوف كلومب من حمر الجلود فاكتشف الدنيا القديمة .

قبائل الهنود التي لم تخضع الى اليوم للحكومة الامريكية تحذر مايقدم لها من الهدايا وما توعد به من المزايا على حد قول القائل :

« الروم أخشى »[1]

ولم تفلح الحكومة في ارسال الدعاة اليهم لدعوتهم الى النصرانية فانهم يعلمون أن لفظ انجيل في فم الابيض معناه الاستعباد لجيلهم ومصادرتهم في أرضهم .

يعتقد بعض أهل ليما أن من المدن البيروية أو المكسيكية القديمة مالا تزال موجودة لم يبلغها الفاتحون من أسبانية واذا سألتهم أين هذه المدن لاتجد منهم أحدا يستطيع أن يجيبك عن هذا السؤال، ثم اذا قلت

---

(١) الروم أخشى جزء من بيت شعر لشاعر لاتيني أذكر منه شطره الاول وترجمته:
« الروم أخشى وان هم قدموا تحفا »

كيف ان أحدا من سائحي اليوم لم يعثر عليها أجابوك إن هؤلاء الاقوام القدماء سكان تلك المدن مكنوفون من كل ناحية بالصحاري والآجام والمستنقعات وسلاسل الجبال وغيرها من العقبات الكثيرة وبذلك حفظوا من قلالهم . على ان الوصول اليهم يقتضي وطء قبائل متوحشة تمنع الاجانب استدخول أرضها وتجزي عليه بالقتل مثل الهنود البسلاء (انديوس برافوس) وهم جيل حربي يسكن الهضاب الواقعة شرقي البيرو و(القونشوس) ويقال انهم من أكلة لحوم البشر .

ولقد ذهب فريق اخر من البيرويين في دعاويهم الى ماهو أبعد من ذلك فلم يقتصروا على القول بوجود المدن المذكورة بل قالوا ان بعض ركاب التعاسيف الخاملي الذكر والمترفقين من التجار وطلاب المهن زاروها المرة بعد المرة ومن هؤلاء الزوار من انقطع ذكرهم فلم يسمع عنهم شيء ومنهم من حكوا ماعاينوه منها فهم مصدر ماعرف عنها غير انهم لبعدهم عن الحضارة بل وعن العلم لم يخبروا بما اكتشفوه الا بعض التجار الرحل أو الصيادين ولم يستطع هؤلاء عندحكايتهم لما وعوه أن يؤدوا لمن سمعوا منهم الا أخبارا مبهمة جدا. والذي ينبغي أن يعتقد في مثل هذه الاحاديث هو أنه يحسن قبل نبذها واعتبارها من الاساطير أن يفكر فيها مرتين لانها على كل حال ليست بعيدة عن الحقيقة بعد ان اكتشف استفنس[1] وغيره من السائحين الذين جابوا وسط أمريكة ما اكتشفوا من الآثار الحقيقية وبعد الابحاث التي حصلت وسط الغابات الكثيفة ولم يشهدها الا الببغاآت والقردة ، وخصوصاً بعد ان ثبتت للعالم صحة بعض الآثار

(١) استفنس هو سائح أمريكي شهير

المروية عن الهنود ثبوتاً واضحاً من أطلال المدن المكتشفة مثل قوبان وقيتشي واوقوزينجو وبالانقا وغيرها من المدن الكثيرة المدفونة تحت جذور الاشجار من قرون طويلة .

نعم إن موضوع البحث والنظر هاهنا ليس مدنا بائدة بل هو مدن حية قد يعثر فيها ان وجدت على تاريخ جيل من أجيال البشر برمته ومعابدهم وآلهتهم وقسيسيهم وشرائعهم وعوائدهم .

ربما مال «اميل» و«لولا» اذا سمعا مثل هذه الحكايات فاتقدت بها مخيلتهما الى أن يباشرا البحث عن تلك المدن المجهولة فان من هو مثلهما في سن المراهقة لا يفكر في العقبات ولا يحسب لها حسابا فهما من هذه الجهة شبيهان بعامة الناس، ولو اني ثبطت عزم هذين القرنين الصغيرين وأخمدت توقد ذهنهما للمت نفسي على ذلك، ولكني انتهزت هذه الفرصة فقلت لهما انه لا يزال في بلاد البيرو كما في غيرها كثير من الاشياء التي يلزم اكتشافها غير انه يجب على الانسان قبل كل شيء أن يعرف كيف يزن قواه بطبيعة ما يريد مباشرته من الاعمال . اه

الشذرة الثامنة والثلاثون

« التربية بالتأثيرات الطبيعية »

يوم ١٤ أغسطس سنة — ١٨٦

صادفنا غداة اليوم على مقربة من ليما زنجياً آتياً اليهما يلتمس رزقه من عرض حيوان يسمى البوما وهو المثل للاسد في أمريكة كانت قبيلة

من المتوحشين اصطادته حياً وكان ربه وهو شبه مشعوذ يؤمل أن ينال بعض النقود من عرضه على النظّارة (أي المتفرجين)

كان هذا الرجل على شدة فاقته وعجزه عن القيام بنفقة نفسه مصحوبا بصبية زنجية عليها طمر أزرق رأيت في مشيتها قزلا فسألتها بالاسبانيولية التي لا أحسنها عما أصابها فجعلها تعرج كما رأيت فكان جوابها أن أرتني احدى ساقيها فاذا فيها جرح دام ورأيت قدميها قد ورمتا ورماً مفرطا ولما أمعنت النظر في ساقها المجروحة عثرت على طرف شوكة غليظة في لحمها وهي التي تسبب عنها الجرح قطعاً ثم خبث بما اعتوره من المشي والوصب ولدغ الحشرات فان هذين المسافرين كانا آتيين من مسافة بعيدة جدا .

مازلت بهذه الشوكة حتى نجحت في سلها ثم ضممت أجزاء الجرح بعضها الى بعض ولما لم أجد خرقة أعصبه بها ناولتني « لولا » منديلها ولم تقتصر على ذلك بل دعتها رحمتها بهذه الفتاة الى خلع نعليها ووضع قدميها المرضوضتين فيهما فلاءمتاهما أشد الملاءمة كأنما صنعتا لهذه المسكينة فأعربت « للولا » عن شكرها ثم غادرناها ومضينا في سبيلنا .

انبعثت «لولا» الى عملها هـذا بباعث من بواعث الخير القلبية الا أنها مالبثت أن أدركت صعوبة الاحتفاء في أرض صلبة خشنة كأرض البيرو فان طرقها لامشابهة بينها وبين مخارف البساتين الكبرى في انكلترة

أنشأ « اميل » أولا يسخر من حيرة صديقته في مسيرها حافية ولكنه لتأثره من صنيعها دبت فيه النخوة فاحتملها على ظهره فقبلت ذلك مبتسمة .

لم يكن الباقي من طريقنا طويلا جداً ومع ذلك وقف « اميل » في

أثنائه للاستراحة مرتين أو ثلاثاً متبعاً في ذلك نصيحتي وفي آخر وقفة منها بصرنا من بعيد بالمشعوذ يقود البوما وعرفت «لولا» الصبية الزنجية وقد خلعت النعلين وحملتهما في يدها فما كان أشد غمها لهذا المرأى . انظر كيف بخستها عطيتها وكيف استعملتها .

فسريت عنها ماخامر قلبها من الكدر بأن قلت لها إن العادة طبع ثان وإن هذه الصبية لابد أن تكون تعبت من الانتعال لاعتيادها الاحتفاء على أن نية اسداء المعروف للناس محمودة على كل حال ولو أخطأ صاحبها فيما يتخذه من الوسائل لايصال النفع اليهم .

والذي رأيته خيرا من هذه العظة كلها هو أن ماوجده قلبها الطاهر من السرور باحتمال «اميل» إياها قد دلها فيما أرى على أن الانسان لا يخسر شيئاً مما يسديه من المعروف . اه

الشذرة التاسعة والثلاثون

«بيان فخامة مشاهد الجبال»

يوم ٢٨ اغسطس سنة — ١٨٦

. زرنا بعض أجزاء من جبال القوردبير ولم يكن سبق (لاميل) أن شاهد مثل هذه الجبال التي يصح أن تسمي بالالب [1] الامريكية فراعه كل الروع ما لهذا الخلق الهائل من مظاهر الفخامة والعظم مع أننا لم نبلغ منها الا أدنى شعافها

لابد ان الاحظ هنا أن القدماء كانوا قليلي التأثر بما للجبال الشامخة

---

(١) جبال الالب هي سلسلة جبال عظيمة في أوربا

من المحاسن الرائعة فانا لم نر لشعراء اللاتين من الكلام فيها الا النذر اليسير ومعظم ماقالوه استهجان واستقباح وقد يحدوبي ذلك الى القول بأنه كان يلزم ان يدهمهم من الكوارث المحزنة ماتهتز له نفوسهم وان تستضيء بصائرهم بنور العلم ويتمكن منها الاستعداد للبحث والتنقيب الذي هو من مزايا العصور الحديثة ولو تم لهم هذا لادركوا أن في سيارنا الذي نعيش على ظهره (الارض) من المظاهر الهائلة البديعة مايدعو الى الاعجاب الحقيقي. اه

الشذرة الاربعون

« انتهاء قضية لولا بالصلح وعزم الدكتور ارامس على العودة الى أوربا »
« وتركه قوبيدون وزوجته هناك »

يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٦—

كسبت (لولا) دعواها وان شئت قلت خسرتها فكلا القولين صحيح باعتبار جهة النظر .

اضطررنا الى المصالحة في هذه القضية الكثيرة الارتباك لما يقتضيه الفصل فيها من الانتظار أشهرا بل سنين فعرض عليّ الخصم أن يعطوا بنت السفان مقداراً زهيداً من النقود وبعض ماكان لوالدها من الارضين والارض هاهنا لاقيمة لها اليوم أصلاً مالم يستغلها صاحبها بنفسه أو بواسطة وكيل له يقيم في هذه البلاد .

فأما أنا وهيلانة فما جئنا لنقيم في (ليما) بل قد انتهت مهمتنا ولم يبق الا السفر لاسيما وقد تلقيت مكتوباً من الدكتور وارنجتون يدعوني الى لوندرة لامور نافعة لي يبنها فيه .

وأما قو بيدون وجورجية فانهما خبيران بفن الزراعة خصوصاً زراعة الاقطار الحارة وليسا من ذوي العقول الضعيفة وأماناتهما تقوم بكل ما في بلاد البيرو من الذهب ولا أرى مايمنع من العهد اليهما بزراعة أطيان (اولا) .

وإنه ليشق عليّ مفارقة هذين الشهمين غير أني أرى أن إقليم انكلترة لم يخلق لمثالهما من الزنوج وأما اقاليم جنوب أمريكة فانه يؤذن بأن سيكون لهما فيه بتوالي الايام مناخ جميل ووطن سعيد . اه

الشذرة الحادية والاربعون

بيان ماعاد على « اميل » من الفوائد في هذا السفر

يوم ١٠ سبتمبر سنة — ١٨٦

رجعت السفينة التي كانت حملتنا من لوندرة الى قلاو منذ ثلاثة أسابيع ويعلم الله متى يكون مجيئها ولهذا رأينا بدلا من اجتياز رأس القرن ان نركب هذه المرّة في سفينة تجارية على نهير الامازون [1] تسير بنا والشاطيء حتى نبلغ سواحل البرازيل حيث نجد سفينة تكون مسافرة الى انكلترة فان هذه الطريق أقصر من الاولى بمسيرة عشرين يوما .

تنوي (اولا) ان تعود معنا لان بلادها القلة ماعرفته منها لم تبعث في نفسها شيئاً من الرغبة في توطنها ولانها تعلم فوق ذلك اننا نحبها .

---

(١) المعروف ان الامازون اكبر أنهار الدنيا ولعل المؤلف يريد بقوله نهير أحد فروعه القريبة من ليما

ماندمت على هذا السفر بحال «فاميل» قدمضى وقته هنا في الالتفات الى العلم والامعان في مسائله فهو يعود الى بلاده الآن ناقلاً اليها مجاميع في علم التاريخ الطبيعي بل حاملا ماهو خير له منها . ضروب الانفعال الكثيرة بما رأى، وصنوف الذكر لما وعى، وقد تربى طبعـه في مدرسة الاختبار والحياة التي لا يربي الرجال غيرها .

نعم اني لا أعني بهذا القول أن ألزم جميع من هم في سنه من المراهقين أن يبتعدوا عن أوطانهم بقدر ابتعاده، ولكن رأيي الذي لا أحول عنه هو انهم لو خرجوا قليلا من أصدافهم ورأوا الكون في الكون قبل أن يروه في الكتب لغنموا من ذلك أكثر مما يخطر في الوهم . اه

الكتاب الرابع

في تربية الشاب

الرسالة الاولى

(من « اميل» الى والده)

عن مدينة بن فى ٨ يناير سنة — ١٨٦

وصف معيشته — نادي الطلبة الالمانيين ومحاوراتهم — تهافتهم على خدمة الحكومة
تفكر « اميل » فى أمره — تألمه من عدم فهمه اللغة الالمانية
ذكره « لولا » — استيحاشه من غربته

انتظمت في سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لا بد من تأديته

وصرت أدعى منذ أسبوع بالسيد الطالب

من المفروض عليّ أن أكاشفك بشيء من تفاصيل معيشتي وأنا طالب : أما نهاري فأصرفه في تلقي دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان والنبات ومنافع أعضائهما، والمقارنة بين اللغات وغير ذلك. وأما ليلي فأقضيه في مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو مائة وخمسين فرنكا، وأما طعامي فأتناوله في مطعم على مائدة جامعة في مقابل أربعة وعشرين صولديا [1] وبعد العشاء تارة آوي الى حجرتي وطوراً أتنزه في المدينة، ولما أطلع على أسرار طائفة الشبان كلها لكوني أجنبيا . على ان أحدهم قد أخذني معه ذات ليلة الى مدخن (مكان لتدخين التبغ) يجتمع فيه بعض الطلبة الالمانيين، فما فتح بابه حتى رأيتني تائها مغمورا بسحاب مركوم من الدخان حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته، وكان يخيل اليّ انه يمتد الى غير نهاية وكنت أسمع أصواتاً وأغاني وقهقهات ولا أبصر شيئاً من الصور الحية، وأرى أضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يغشاها ذلك السحاب كأنما تسبح منه في بحر لجي، وكنت أمشي كخابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه بين صفين من الموائد خيل اليّ انها تعوم في الضباب، ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آنية من القصدير كان لمعانها المعدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخاني المنسدل على القاعة كلها . ثم لمحت من خلال هذه الآنية وجوهاً آدمية لان بصري كان يتدرج في اعتياد هذا الجو الغريب والانس به ولم يكشف عني الحجاب كشفا تاما الا عند ما بلغت نهاية القاعة حيث أقيم مصطلى عظيم، فرأيتني في جمع حافل

(١) الصولدي جزء من عشرين جزءاً من الفرنك فقيمة طعامه هي فرنك وربع

من الشبان على رءوسهم القلنسوات وفي أيديهم أكواب الجعة وفي أفواههم المداخن وبين هذا التشويش واللغط عثرت على حلاق (جمع حلقة) من الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة ولم تعقهم عن المداومة على الشرب والتدخين .

لم تعتد أذني سماع الاصوات الالمانية اعتياداً يكفي لمتابعة مجرى الحديث وفهمه . على اني فهمت من فحوى ما سمعته انهم يتناظرون في مقاصد ووسائل بعضها أسمى من بعض تتعلق باصلاح أحوال البشر ، وكانت البراهين والنكت والمعاني تنبعث من أفواههم كأنها سهام نارية تنقذف بين أنفاس الدخان ، ولما أنصف الليل غادر القاعة جميع الطلبة ورأيت بعض من لاحظت فيهم الحمية والغيرة على مصالح الانسان منصرفين الى بيوتهم وقد جعلوا يغنون جهارا في وسط الشارع أغاني مبتذلة ولم يبد عليهم حينئذ مايدل على انهم ذاكرون لما تعاهدوا عليه من اصلاح شؤون الكون .

أخص غاية للطلبة من اختلافهم الى المدارس الجامعة هنا بحسب ما سمعت هي أن يلوا عملا من أعمال الحكومة ، فكلهم يؤمل أن يكون خادماً لها على تفاوت بينهم في ذلك ، فاذا حصل أحدهم على لقب دكتور مثلا رأيته يتقدم اليها حاملا شهادته راجياً أن توليه أحد الاعمال الخالية في ادارتها ، ومعظم هذه الاعمال لا يولى الا بالامتحان ولا يناله الا من يظهر انهم أعلم من غيرهم وحينئذ يعول الذين يخيبون فيه على الاشتغال بالاعمال المستقلة ، ولا أدري أهذه الحالة وهي فرط الرغبة في تقلد المناصب العامة هي التي ينبغي أن ينسب اليها التغير الذي يحصل في عقول شبان الدكاترة عند خروجهم من الجامعة أم له سبب آخر .

فالواقع هو أنه ليس بين أخلاق الطلبة وأخلاق غيرهم من الالمانيين أدنى مشابهة :

الطلبة يتظاهرون بالتنفج [1] والشذوذ والعربدة ، ويخيل الى من يرى غيرهم من الالمانيين أنهم ممتلئون سكينة بل جمودا وبلادة . والاولون مشهورون بالميل الى الثورة وبحب الحكومة الجمهورية وبعدم المبالاة بالخوض في أي بحث نظري وبالهجوم على جميع المسائل سياسية كانت أو دينية أو قومية بما يدهش من جرأة الجنان . وبقية الامة يظهر عليها التشدد في الاستمساك بالعوائد القديمة وبالحكومة الملكية . وترى الطلبة يتباهون باحتقارهم جميع المميزات التي لا منشأ لها الا اتفاق النسب ، على حين أن أواسط الناس يجلون ألقاب الشرف اجلالا لا حد له ، فترى الفريقين كأمتين متمايزتين . وليس للطلبة في الحقيقة ارتباط بباقي الامة الا رغبتهم العظمى في أن يلوا لهم بعد مبارحة الجامعة أعمالا رسمية . على أن هذا الارتباط كاف في عدم اكتراث الحكومة كثيرا بما يبدونه من حدة أفكارهم الحرة .

دعتني سيرة هؤلاء الشبان الى التفكر في سيرتي ، فاني قد بلغت التاسعة عشرة من عمري ولا مقام لي بين الناس بل لم يقف بي الاختيار حتى الآن على صناعة نافعة أشتغل بها ، واذا أردتني على الاقرار لك بما أجده قلت : اني أحيانا آنس من نفسي فتوراً في الهمة وضعفاً في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدرا . نعم انك قد رأيت مني تقدما سريعا مناسباً لحالي في العلوم ودرس كتب المتقدمين في أربع سنين أو خمس

{١} التنفج افتخار الانسان بأكثر مما عنده

مضت، وما ذلك ولا شك الا من الطريقة التي أهلتني بها أنت ووالدتي للعمل العقلي وهي مراقبة الامور والاسفار ، وما تلقيته منكما من الدروس النافعة، ولا أشك ان لي طمعا في العلم ولكني أجهد فكري في استقصاء مايعوزني من الخصائص، فآونة أتوهم اني أحس في نفسي بروح إلهي يقدرني على كل شيء ، وساعات يخيل الي اني قد فنيت في عجزي وتجردت من حولي وقوتي، وتارة تملكني الافكار، وطورا يستحوذ علي وجدان الحاجة الى العمل والذي أراه يقيناً اني لم أجد الى الآن استقامة واستقرارا فيما لنفسي من القوى ان صح ان يطلق ذلك على ماشاب مثلي من الشهوات القوية التي تدعوه الى السعي لادراك مقام له في هذه الدنيا .

لما بلغت ليبا منذ شهرين كنت أعتقد اني على علم باللغة الالمانية لما قرأته منها في الكتب فما لبثت ان تبين لي خطأي في ذلك ومنشأ هذا الخطإ اني كنت أحسن قراءة الصحف وعناوين الحوانيت وأسماء الشوارع وما على الجدر من الاعلانات، فان الجدر هنا كما تعلم تتكلم بالالمانية، فاذا جرت حولي المحاورات اصغيت اليها وما كنت أسمع الا أصواتاً لا أفقه شيئاً من معانيها، فكنت مطلق البصر أسير السمع لان من الاسر المعنوي الحقيقي ان يعيش الانسان بين قوم لا يفهم لغتهم . كان الغلام الذي في الثالثة من عمره ـ وهو في هذه السن لا يعرف من تلك اللغة الا التلعثم ببعض ألفاظها ـ يعرف منها أكثر مما أعرف حتى اني لما كنت أحاول مخاطبته كان ينغض الي رأسه استهزاء كانه يقول : « اليك عني فلست افقه لك قولا »

كنت بين اولئك القوم كالاصم الابكم الذي فقد كل وسيلة للتفاهم حتى لغة الاشارات، فهل يمكن أن ينشأ عن الامواج الصوتية اذا اختلف

انتقالها الى الاذن اختلافا يسيرا باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثل هذه الحوائل والحجب التي تبعد الناس بعضهم عن بعض .

استأت جدًّا من هذه العزلة فجاهدت جهادًا عظيماً في التجرد من الانكماش الذي أجده من حيائي الطبيعي وأنشأت اليوم أنطق بالالمانية نطقاً مفهوماً ، وإني لأعلم أنه لا يزال يعوزني تحصيل الكثير منها ، ولكن من هو في مثل سني قد يبعد أن لا يحصل في قليل من الزمن لغة هو لا ينفك يسمع أصواتها من أفواه جميع الناس في هذه البلاد . وليس أصعب ما في هذه اللغة التكلم بها فيما أرى بل هو فهم ما يسمع من التحاور بها بين اثنين من أهلها ، فقد كنت ذات مرة في الملعب وكان اثنان من الممثلين يتحاوران فما استطعت في سرعة تحاورهما أن أفهم كلمة منه اللهم الا ما كان من تحية المساء وهي : « ليلتك سعيدة » .

مثل اللغات الاجنبية ان لم أكن واهماً كمثل دخان التبغ بالنادي الذي حدثتك عنه في كونه كان يحجب عني بادئ بدء رؤية ما كان فيه من الاشياء والاشخاص فهي حجاب سيزول على التعاقب وآمل أن سيظهر لي النور عما قليل .

أرجوك أن تنوب عني في تقبيل «لولا» وأود لو أدري هل هي مواظبة على سقي الازهار وتمام العناية بالطيور وتنسيق مجاميع الاعشاب والدفائن ؟ وآمل منك ايصاءها بأن تذكرني كما أذكرها . اهـ

اذا أنا كتبت اليك فقد كتبت الى والدتي فانتما في قلبي لا تفترقان ولهذا لا أزيدها شيئاً الا أسفي على حرماني من حجرتي الصغيرة التي كنت أسمع منها حركة غدوكما ورواحكما في البيت ، وعلى أنسي بقربكما عند

اصطلاء النار ليلا فاني هنا في وحشة أي وحشة. اختم لك هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل على ضوء مصباح يعلوه عاكس ضوئي يسقط منه نور ضارب الى الخضرة ، وفي إحدى زوايا حجرتي ساعة دقاقة من الصنف الذي يصوت كطير الكوكو عند انقضاء كل ساعة تكرر تكتكتها التي لا تتغير ، واسمع حسيس احتراق الحطب في التنور وصرير الباب من صفق الريح إياه ، وأرى البدر خارج الحجرة شاحب الوجه يرنو الي من خلال ستارتين كبيرتين موشاتين بصور الاشجار والازهار ما بين بيضاء وحمراء ، وقد أحسست باغريراق عيني مع أن هذه الاشياء في ذاتها لا تدعو الى الحزن ولكن لا تلمني فاني مازلت طفلا ولست آسى على بلادي وانما آسى على مفارقة مهدي فاني أحبكما وأرجو من هذه الجهة على الاقل أن أعيش طول عمري طفلا . اه

الرسالة الثانية

« من اراسم الى اميل »

عن لوندرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٦ —

فراق الولد لوالديه سنة فطرية ـ العلم في ألمانية ـ نقد الطالب مايقرؤه من أفكار غيره — القصد في علوم المعقولات — نفع الامة بالقيام بالواجب على قدر الطاقة ـ اختيار الشاب العمل الذي يشتغل به بعد — بيان انه لاحرية لامة يتكالب شبانها على تولي أعمال الحكومة ـ التحذير من الملحدين — بيان أن الرأي العام لاقيمة له الا اذا كانت الحكومة شورى — خدمة الامة لذاتها لا للجزاء .

اذا كنت ياعزيزي «اميل» تألم من استيحاشك فنحن نألم من فراقك

ولكن يجب علينا التسليم والرضا بما لا بد منه، واعلم أنه لو كان في وسعي ان أبرح لوندرة واخاف من أقوم عليهم من المرضى لمرافقتك الى حيث أنت الآن لكنت فيه متردداً ، فقد آن لك ان تتعلم كيف تسير سيرة الرجال . الطيور تحب أفراخها ولكنها متى آنست فيها من القوة ما يكفي لاستقلالها بنفسها في الطيران شجعتها على تجريب أجنحتها فيه ، سنة الله الذي أراد أن يهب الحرية لجميع البرايا .

أنت تعلم حق العلم أني لم أرسلك الى «بن» الا لأسهل عليك درس لغة الالمانيين وأخلاقهم وأفكارهم ، وأنا أعلم انك الى الآن قد استقللت بنفسك في تعلمك فكنت في باطن الامر وحقيقته استاذا لنفسك ومرشدا، وليس ما أخذته عني من الدروس شيئا يذكر ، ولكن قد اقتضت أحوال هذا العالم أن توجد مذاهب وطرق لا بد في تعلمها أن تلتمس من ينابيعها ، وألمانية في يومنا هذا هي مقتبس نور العرفان وهي البلاد التي يجب أن يعرف لها الفضل في الحكمة والعلم والنقد وآداب اللغة، ومدارسها الجامعة محط رحال الكثيرين من أفاضل الاساتذة وجهابذة العلماء ، ولست مع ذلك أدعوك الى قبول تعليمهم على غير بصيرة وتلقي أقوالهم وآرائهم قضايا مسلمة ، اذن اكون قد تخليت عن جميع الاصول التي أسير عليها . فللانسان شيء لا ينبغي أن يسمح به لاحد الا وهو حرية الفكر ، فالعلوم التي تتلقاها في الجامعة لا يمكن أن يتسع بها نطاق عقلك ويقوى بها ادراكك مالم تراقب ما فيها من أفكار غيرك مراقبة ذاتية . وإياك ثم اياك أن تنهك قواك التي أنت محتاج اليها في العمل بفرط الانكباب على دراسة المعقولات بالغة ما بلغت من الطلاوة وبعد الغور، فان البحث في المعقولات لا قيمة له

الا اذا أدى الباحث الى وسيلة ينفع بها نظراءه ، والمحب لنفسه من يقصر ثمرة فكره ودرسه عليها . لا مراء في ان الاتصاف بالعلم من الامور الحسنة ، ولكن أجل منه وأحسن ان يكون الانسان محباً لوطنه نافعاً لاهله ، ولا يعزب عن ذهنك ان المانية ليست بلادك وان آثار سلفك هي حكمة القرن الثامن عشر وان أملك هي الثورة الفرنسية .

آلمتني عبارة من مكتوبك وهي قولك « اني أحيانا آنس من نفسي فتوراً في الهمة وضعفاً في العزيمة ، واسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدراً » فاعلم انه ليس من الضروري لتحقق النفع في الانسان ان يكون من كبار الرجال ، فأيما رجل صدقت نيته في فعل الخير وصح قصده للنفع فانه يغير من حالة القوم الذين يعيش فيهم بقدر مّا من التغيير ، وعلى كل حال ليست الحياة الا نتيجة القيام بفروض صغيرة ، فمن أداها كلها بما في وسعه من الوسائل كان في الغالب أفضل ممن يسعى في الاشتهار بعمل خطير . وليس شيء من أفكارنا ولا من أعمالنا بضائع علينا ، فان آثارها تظهر فيمن حولنا من الناس أو فيمن يخلفوننا ، ومن ذا الذي يستطيع ان يقول ان الحركات الكبرى التي غيرت أحوال العالم من جهة السياسة والعمران لم يكن فيها للمستضعفين الخاملين من الخدمة والعمل ما للرؤساء المسيطرين؟ كلا ! بل ربما لم يكن ظهور هؤلاء واشتهارهم الا صورة منعكسة لفضائل اولئك ومساعيهم المحمودة .

اقنع بأن تكون كما أنت مع مواصلة السعي في تنمية غرائزك وتوسيع نطاق مواهبك بالدأب في العمل والمدارسة ، واذا احتجت في بعض أوقاتك

الى تكبير دائرة وجودك ، فتصفح دواوين الشعراء الحقيقيين، وكتب أئمة النظار المشهورين، وتمتع بما تجده في نفسك عند مطالعتها من عظم القدر وسمو المكانة الذي يسري اليك منهم ، فان في ذلك غبطة لا يحيط بها الوصف، فاذا هبطت من هذه المقامات العلى لم تعدم حولك من النفوس الصغيرة المحتاجة للاستضاءة بنور العلم من يغنيك الاشتغال بهم عن الاهتمام بغيرهم ومن صنائع البر مافيه تسلية لك عما يعوزك من الخصائص. واعلم انه لا يتألم مما في عقله من مواضع الضعف والقصور الا محب لنفسه أو خبيث، وأما من يستسلم ويرضى بقسمته ويتعلم ليعمل فانه لا يطلب فوق ماقسم له من العقل شيئاً بل يكون مغتبطا به غير حاسد لغيره .

أراك أيضاً تغلو في الاهتمام باختيار ماتمارسه من الاعمال، فانه وان كان مما لا مرية فيه ان كل فرد من الناس يجب عليه ان يعيش من كسبه وكده، واني أغتم لو رأيتك مفرّطاً في هذا الامر الذي هو أول فرض على الانسان - ينبغي أن تعلم ان جملة الدروس التي تتلقاها الآن مع كونها تؤدي الى جميع الحرف لا تفتح لك باب واحدة منها، ولا أرى في ذلك مايدعو الى كدرك لان كل علم تحصله هو ذخيرة لعقلك، فان لم يفدك في نفسك، فقد تجد فيه وسيلة لنفع غيرك .على ان مافي الكون من طوائف الامور المختلفة وطبقات الحوادث المتباينة مرتبط بعضه ببعض فلا بد في معرفة أمر منها معرفة صحيحة من معرفة أمور كثيرة لها بهذا الامر تعلق بعيد . ولست بهذا القول ألزمك السعي في تحصيل مايسمى بالعلم العام، الذي هو ضرب من الخيالات والأوهام، وإنما أريد به تفهيمك ان للعلوم قضايا عامة لابد لك من تصور حدودها الاصلية قبل تفرغك لتحصيل علم منها على حياله.

أنت ولي أمرك في الحكم على مايلائمك من الاعمال وليس عليّ الا أن أسألك عدم التأسي في ذلك باخوانك من الطلبة فكن كما يرشدك اليه خلقك وميلك، اما طبيباً أو محامياً أو مهندساً أو صانعاً أو آلياً أو غير ذلك ولكني أسألك بالله أن لاتكون عاملا للحكومة .

أي حرية ترجى لقوم يتطلع المتعلمون من شبانهم الى الانتظام في سلك عمال حكومتهم؟ قد كان فن ظلم الحكام للناس في الايام الخالية من الفنون الصعبة الكثيرة المشكلات التي يلزم لتعلمها استعداد خاص ونفس كنفس مكيافيل [1] وأما الآن فيظهر من أحوال الرعية أنهم يعنون أشد العناية بكفاية حاكمهم مؤنة استعبادهم بالحيلة أو القهر لانهم يتهافتون على احتمال نير عبوديته .فأي ملك أوعاهل يجد حول أريكته رءوساً خاضعة واطماعا سافلة نهمة كاطماع الكلاب التي لاهم لها الا قضم العظام، مادام بين يديه من الاموال الوافرة ماينفقه كيف يشاء، ومن المناصب وألقاب الشرف والرتب الكثيرة مايوزعه على من يريد .

ليس الإلحاد والوقاحة مقصورين على أحداث ألمانية، فانك حيثما حللت تجد من الشبان من لا يعتقدون بشيء ولا يوقرون شيئاً فكن منهم على حذر ، لان هذا الفسوق العقلي يساعد قطعاً على تثبيت الاوضاع القديمة.ذلك ان هؤلاء الذين يدعون لانفسهم حرية الفكر لم يخلصوا من قيد الاثرة، ومن هذه الجهة تأخذ الحكومة منهم بالنواصي والاقدام، أعني أن عبادتهم لنجح مساعيهم وطمعهم في الوصول الى ما يبتغون، وظمأهم

(١) مكيافيل هو أحد رجال الحكومة الايطالية ومن كتابها المشهورين ومن كتبه كتاب الامير وهو مختصر في السياسة المفسدة للاخلاق .

الى المناصب والتمتع بمرتباتها الجسيمة لاتلبث أن تدعوهم الى توقير النظام الذي سنته الحكومة واجلاله ، وإني لا أعتد بجراءة العقل ما لم تصحبها بسالة النفس وتنزهها عن الاغراض ، ثم إنه مهما كان بلوغ كل أمنية في الدنيا ممكناً بمحض هوى الغير ورضاه لم يعدم المستبدون عبيداً متحمسين في خدمتهم يعملون لهم مايشاؤون ، وتجد من كانوا من الشبان بالامس منطقيين متحذلقين يصبحون وهم أكثر الناس سجوداً للقوة واستكانة للسلطان .

ولاية أعمال الحكومة هي بلاء الامم في هذه الايام فالبلاد التي رئيس حكومتها هو الذي يوزع مناصبها لا يمكن أن تكون آراء الناس فيها الا نتيجة عمل حسابي لما يربح منها ، فاذا وقع خطأ سياسي أو ديني من الحاكم وكان ينتج للموافقين عليه بعد الحساب عشرة آلاف فرنك مثلا فانه يصير حينئذ صوابا ، واذا أتى أمراً خسيساً ودفع ضعف هذا المقدار قيل انه قام هذه المرة بما تدعو اليه الهمة والبسالة فيجب الاخلاص له .

يلهج الناس كثيرا بذكر الرأي العام ويقولون إنه أقوى كفالة للحق والحرية ، وهو صحيح اذا كان أمر الامة بيدها وكانت هي التي تلي شؤون إدارتها ، وأما اذا كان حالها غير هذا فالرأي العام نفسه قد يكون فيها آلة للاستبداد ، فان أكفل وسيلة لظلم الامة هي إعدام شرف النفس من أفرادها ، وازهاق روح الاستقلال بينهم بتحبيب الحكومة القائمة اليهم ، وحملهم على رجاء بقائها . ورب قائل يقول : ان عدد العمال في الحكومة لا يذكر في جانب السواد الاعظم من الامة ، فأجيبه : ان هذا الاعتراض عبث لانه قد نسي أن بازاء كل عامل نال منصباً ألفا من الناس يطلبونه

ويرجون رجاء قوياً ان ينالوه يوماً من الايام،فعالم العمال يكاتفه عالم آخر من السائلين ومن ورائهم جميع طلاب الاموال . واذا كان تحرير الناس من الاستعباد لا يتأتى الا متى أعانوا عليه بارادتهم، فأي وسيلة تبعثهم على ارادة التفصي من ربقته اذا كان فريق منهم وهم الذين تقوم لهم الحكومة بنفقات مطعمهم وملبسهم ومسكنهم قد بلغت بهم الحال الى ان يكون استعبادهم قوام معيشتهم ، والفريق الآخر يغبطونهم على هذه النعمة ولا يأسفون الا على عجزهم عن مشاركتهم فيها .

لست أقصد بهذا القول ان من لوازم المناصب العامة تصغير نفوس القائمين بها أو الساعين في تقلدها . حاش لله! فانها في الحكومات الحرة كحكومة أمريكة مثلا من شأنها ان تنمي فيهم قوة العزيمة ومكارم الاخلاق، لان الحكم في اختيارهم راجع الى انتخاب الامة، ولانهم انما يمرون بالاعمال مرورا ، ولان جميع الولايات لا تلبث ان يعود أمرها الى الامة فتقلدها من تشاء. ومن هنا يعلم اني لا أتكلم عن الامم التي حكوماتها مؤسسة على الشورى، وانما أتكلم عن الحكومة التي تولى الاعمال فيها بالمحاباة والهوى فشبانها يتدلون ويصغرون بسعيهم في تقلد تلك الاعمال ، لان حكوماتها لا تبغي في الحقيقة الا نفوساً سلسة القياد تلصق بما جرى عليه العمل من التقاليد الادارية، وطباعاً لينة عُطفتْ على كل ناحية فلم تبق لها وجهة ذاتية، وعقولا مثقفة ـ ولو لم تسمُ عن عقول العامة ـ تستعمل زخرف القول في تصوير ما وضع من النظام بصورة معقولة . واني لتمر بي ساعات أحدث فيها نفسي بأن من ظلم الشعوب ان يلوموا حكامهم على استعبادهم، فأي معنى للومهم اذا كانوا قد جعلوا مقادتهم بأيديهم، وكان الاباء لا يتمنون لابنائهم الا تقلد

المناصب ذات الرواتب العظيمة التي لا عمل فيها بدلا من صرفهم الى وجوه الكسب الاخرى ! بل اذا كان كل الناس يؤملون ان يكونوا عالة على المصلحة العامة، ويودون لو ان للحكومة من العقل والوداعة ما يكفي لمنعها من الانتفاع بما يقدمونه لها من الفوائد، فما أسخف عقولهم اذ جعلوا أنفسهم ترابا ثم هم يدهشون من وطء الحكام اياهم ! .

أنا لا أنكر ان نيل الشاب منصباً من المناصب الكثيرة المقررة في الحكومة أسهل عليه كثيرا من ان يفتح لنفسه باباً للكسب في قومه بجدارته وأهليته الذاتية، ولهذا لا يلبث الانسان ان يعرف الامم التي اعتادت الارتزاق من حكوماتها لما يكون فيها من فقد الاستعداد لانشاء الاعمال وابتكارها، فترى فيها الصناعة والزراعة والتجارة تنساق في مجرى العادة بتكلف وجهد، والاموال تحذر الخروج من جيوب المتمولين، والتقاويم التجارية التي تأبى الحكومة حمايتها، يشق عليها ــ كما يقال ــ ان تطير بأجنحتها، والصناعات الحرة تحوم حول السلطان لنيل الاعمال والمحاباة وترقب فرصة التطفل على مائدة المصلحة العامة، وآداب اللغة والفنون تتأثر بقوة السلطان وتتدلى بتدلي الحياة العامة التي يحطها سلطان رجل واحد، وحاجة التغذي من يد الحكومة تزيد على الدوام عدد طائفة الندمان والمتملقين .

كأني بك تقول لي : ان ذلك الذي وصفت عيب في شكل من أشكال الحكومة وذنب لمجموع الامة التي ترتضي هذا الشكل، وانه ليس مما يعتد به كثيرا ان يزيد عدد عمال الحكومة واحدا أو ينقص واحدا لانهم جيش لا يعد، فأجيبك على هذا بأني لست أجهل أن واحدا من الناس ليس في قدرته ان يغير أحوال أمة بأسرها، ولكن اذا ارتكن كل فرد من أفرادها

على هذه المغالطة فاستسلم للتيار المحتوم الذي يسوق غيره فلا ينبغي ان يرجى شرف للاوضاع القومية ولا حرية للناس. ان الامم اذا تدلت وفشت فيها عدوى التأسي وجب على كل انسان حقيق بأن يسمى انسانا ان يرفع لها من نفسه لواء المجد ويدعوها الى النهوض، فانها لا تنهض من انحطاطها الا بالمجاهدة وبذل القوة الذاتية . وكم من رجل يشكو من خسة السرائر في قومه، ويتألم من دناءة نفوسهم، وهو شريك لهم بالواسطة في فعل ما أداهم الى هذه الحالة بكثرة خشيته وتحرجه في سيرته ! فانه اذا تعفف هو عن تولي المناصب الرسمية قد يريدها لابن أخ له أو لاحد اللاثذين ببيته، وبهذا يصير شريكا في الضرر الذي يندب سوء مغباته .

هذه يا بني أفكاري قد أفضيت بها اليك صراحية، فان كنت راغبا في بلوغ منصب رسمي فوسيلتك اليه ميسرة جدًّا وهي أن تذل وتستكين، وأما اذا فضلت كرامة نفسك واستقلالك وشرفك على المزية التي تجدها في سهولة فتح باب الكسب وسرعته، فاني أهنئك عليه من صميم فؤادي، ولكن لا بد لك حينئذ أن تعرف ما أنت داخل فيه فانك بتنازلك عن رعاية الحكومة تضطر الى كسب قوتك بالعمل والجهاد، ولا تجد من أحد حمداً على كدك ونصبك، وترى كثيرا من الناس يسخرون من بسالتك واقدامك، فعلام يحبونك اذا كنت تسفههم وتزري عليهم بالنهج الذي تسير عليه في عملك وفكرك ! .

اخدم الامة ولا ترج منها جزاء ولا شكوراً، فانها لا تملك ما تجزيك به، لانه ليس بيدها شيء من أموال البلاد ولا من ألقاب الشرف ولا من وسائل التنويه واعلاء الذكر . على أنها قد تنكر مالك من حسن

النية في خدمتها ، فليس عليك حينئذ الا الاعتماد على قواك الجسدية والعقلية . . . وانه ليس في هـذا الانكار المتوقع ماينبغي أن يريبك فليست أهم مسألة للانسان في حياته أن يبلغ مقاماً سامياً، بل المسألة الكبرى هي أن يكون قدره أعلى من المقام الذي يشغله .

وأما أخبار البيت فمنها أن «لولا» عهدت اليّ إعلامك بأن طيورك وزهورك في حالة راضية، وان دفائنك بعد أن حفظت في بطن الارض مليونين أو ثلاثة من السنين سالمة من التغير تغيرت قليلا من غبار لندرة ودخانها، وبأنها قد رتبت مجموع حشائشك وانها أشد لك ذكرا منك لها.

وفي الختام أقبلك أنا وامك قبلة الوداع ونرجو ان نكون دائما على علم بدروسك ومقاصدك وحالة معيشتك فكل ما يتعلق بك يعنينا . اه

الرسالة الثالثة

من « اميل » الى أمه في ١٢ مايو سنة — ١٨٦

انضاؤه اليها بحبه لقينة من الممثلات — كيف تعلق قلبه بها — استعلامه سيرتها تمنيه انقاذها مما هي فيه — طلبه المغفرة من أمه بعد اعترافه لها بالحب

اني منذ عرفت نفسي ابثك جميع مايسوءني وما يسرني وما أكره وما أحب، وأكاشفك بالخير والشر ولا أكتم عنك شيئاً، حتى اني لما كنت بحضرتك ما كنت في حاجة الى البيان، لانك كنت تطالعين أفكاري في عيني، وتبصرينها تجول على جبيني، وهذه أول مرة لي في حياتي أسررت فيها سرا . . . وليت شعري أأبوح به الى قصب نهر الرين ؟ اذاً لتضاحك

مني كما تضاحك من اذني الملك ميداس [١] أم ابثه الى القمر ؟ لا ! فقد سمع كثيرا من أمثاله ، أم اكنه في قلبي ؟ اذاً لا أبتني عليه سريرتي، ماأنا بفاعل شيئاً من ذلك بل أريد ان أودعه صدر أمي .

على ان الإِفضاء به ليس من السهولة بالمقدار الذي كنت أتوهمه فاني ما أنشأت أخط هذه السطور الاولى من مكتوبي حتى ارتعشت يدي وخفق قلبي واست إخالك الا ساخرة مني ، ولكن أقل ماأنا واثق به منك أنك لن تجدي عليّ أن صدقتك الخبر ، واذا كان الامر كذلك فلا بد من افشائه وهو: اني أحب !

الآن أراك تسأليني من هي التي تحبها وأين رأيتها وكيف عرفتها ؟ وفي هذه الاسئلة مايزيدني حيرة وارتباكا .

في مدينة بُن ملعب من الطبقة الثانيـة غير انه مشهور بحسن اختيار القصص التمثيليـة فمما يمثل فيه قصة مريم استوارت [٢] وقصص

(١) ميـداس بحسب ماجاء في أساطير اليونان هو ملك فريجية وهو قطر من أقطار آسية الصغرى اشتهر بواقعتين نذكر احداهما فقط لاختصاصها بهذا الموضوع، وهي أن أبولون بن المشتري حكمه في المناظرة التي قامت بينه وبين بان اله الرعاة في الموسيقى والشعر والفنون وكان بان صـديقا للملك فحكم له فلم يكتف أبولون في الانتقام من ميداس بسلخ جلده حياً بل جعل له بدلا من أذنيه أذني حمار فغطاهما ميداس بتاج حتى لاتظهرا للناس ولما علم أن حلاقه لابد له من رؤيتهما عاهده على كتمان أمرهما ولكن الحلاق لم يلبث أن ثقل عليه الكتمان فاحتفر حفرة في الارض بمعزل عن الناس وأسر فيها قوله « إن الملك ميداس أذني حمار » فاتفق بعد حين أن نبتت في هذا المكان قصبات كانت كلما هزتها الريح كررت هذا القول .

(٢) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية ومريم لورين =

شيلار [١] وقصة غويت عن فوست ومرغريته [٢] وغيرها من القصص الشهيرة، وللموسيقى والاغاني الموقعة عليه في هذا الملعب يومان أو ثلاثة تحل فيها محل الأدبيات والوقائع التمثيلية، وأنا أذهب اليه في بعض الاحيان لسببين أولهما ترويح نفسي من عناء الدرس وثانيهما ايلافها أصوات اللغة الالمانية. فمن نحو شهر ابتدأت قينة بافييريه [٣] فتية تغني على الموسيقى هناك، وكان أول ماغنته قصة النبي من توقيع مايربير فبلغت من الاجادة في تغنيتها الى حد ان جميع طلبة الجامعة كانوا يلهجون بذكرها كأنها آية من الآيات فجريت معهم في مساق الاعجاب بها، ولما انطلقت الى الملعب ورأيتها داخلة في باحة التمثيل كان كلي عيونا تبصر وآذانا تسمع وليس صوتها هو الذي اشتد اعجابي به مع كونه من أندى الاصوات وأندرها بل الذي ملأني اعجاباً هو مافي تغنيتها من الروح بل مافي خلقها من الحسن والاتقان، فبت ليلي كله أحلم بها ولا يفارقني طيفها وكنت أراها بين الافلاك السماوية وأسمع أنغام الكواكب الموسيقية فكأن فيثاغورس [٤] كان يحب قينة مثلي

= ولدت سنة ١٥٤٢م وماتت سنة ١٠٨٧ م تزوجت بولي عهد فرنسة (من أول حكم فرنسيس الثاني) وبعد موت زوجها رجعت الى ايقوسية وتزوجت بهنري درنلي ثم بالكونت بوثويل ثم ثار عليها رعاياها فلاذت باليصابات ملكة انكلترة التي حبستها ١٩ سنة ثم أمرت باعدامها (١) شيلار شاعر ألماني شهير ولد سنة ١٧٥٩م ومات سنة ١٨٠٥ ومن أشهر قصصه الخزانة النهبة ووالانشتين وغليوم تل (٢) غويت واسمه جان ولف جانج هو أكبر كاتب ألماني ولد في فرنك فورسيرلين سنة ١٧٤٩ م ومات سنة ١٨٣٢ م وفوست اسم لشخص خرافي مشهور في حكايات الالمان بأنه تعاهد مع الشيطان. (٣) نسبة الى بافيير احدى ولايات ألمانية

(٤) فيثاغورس فيلسوف يوناني ولد في ساموس سنة ٥٦٩م ومات سنة ٤٧٠ م أقام بمصر وبابل مدة طويلة ثم رجع الى بلاد اليونان وأسس مدرسة في كروتون وهو أول من قال بالتناسخ وعرف نظام العالم الحقيقي.

عند ماكان يحدث تلاميذه عن حسن ألحان النجوم .

ولخوفي من انقضاء اعجابي بها فيما يلي من التمثيل عاهدت نفسي على ان لا أختلف الى الملعب ليالي تغنيتها ، ولكني مااستطعت ان أوفي بعهدي وقد أتنى عني كثيرا خوف اقلالي من التحمس في حبها بما اكتشفته فيها على توالي الايام من الخصائص الجمة التي لم اكن لاحظتها من قبل ، ولا بد من الاعتراف لك بأني كنت أجلس في الصف المواجه لباحة التمثيل بحيث أكون مرئياً لها وقد حسب لحظي مرة أو مرتين انه لاقى لحظها . . . ولكن ربما كان هذا ضلالا ، ومع ان التمثيل كان يمكث اكثر من أربع ساعات كنت دائما أجده في غاية القصر وأغادر مقعدي في ختامه وقلبي مفعم بما لا يوصف من الاضطراب .

خطر في ذهني أن أخاطبها بأبيات من الشعر أنظمها وأرسلها اليها غير ممضاة مني على يد بواب الملعب الهرم ففعلت وكنت أقول في نفسي وقت نظمها : أقل فائدة لي منها أن تعلم ان واحدا من الناس يحبها، ولكنها كانت أبياتاً رديئة ، وأقرّ بأنها ما كانت تؤدي نصف ما كنت أضمره لها من عواطف الميل وهذا مادعاني الى عدم اعتقاد صحة ماقيل من أن الشعر من لوازم الحب كما قرأته ذات مرة في بعض الكتب ، وليس في قدرة أحد ـ حاشا المصطفين من الخلق ـ أن يعبر عن كل ما يجده في نفسه ، وياليتني كنت واحدا من هؤلاء النوابغ الممتازين .

كنت من مساعيّ في القرب من هذه الفتاة واقفاً عند الحد الذي بينته لك ، فبينما أنا في يوم من أيام الآحاد أجوب المتنزّه الذي تجتمع فيه نساء المدينة في نحو الساعة الثانية بعد الظهر اذا بها أقبلت آخذة نحوي في

مخرف ، نخطر ببالي أولا أن أتنكب هذا المخرف بسلوك احدى السبل المقاطعةله لانه كان يخيل لي أني سأصعق مما قام بنفسي من ضروب الانفعال والاضطراب، غير اني تثبتُّ ومشيت مِشية الجندي الباسل الذاهب الى حومة الوغى فرأيتها في بزة بالغة من الرونق غايته على بساطتها. وارباه ! كم وددت لو كنت في تلك الساعة قفازها أو زهرة قلنسوتها أو مظلتها التي تقيها حر الشمس ؟ أقول ذلك وأنا أعلم انه كان مني قبيحاً ولكن لا ينبغي ان اكتم عنك شيئاً من مواضع ضعفي .

في اللحظ خاصة الجذب فاني كنت أشعر من لحظي اذا رنوت اليها أن كله اقرار وتصريح بالحب، ولما مر كل منا حذاء صاحبه جرى على وجهي لألاء حسنها كما يجري لمعان البرق، ولم أجسر على الالتفات خلفي الا بعد ان جاوزتها بثلاثين خطوة فرأيتها قد بعدت عني مهرولة ، غير اني بصرت في المسافة التي بيني وبينها بشيء أبيض يخفق خفوق جناح الحمامة من صفق الريح إياه فما تريثت في التقاطه فاذا هو منديلها قد سقط منها ... أو تعمدت اسقاطه . فعدوت خلفها ودفعته اليها فأظهرت الدهش من ضياعه وتلطفت في اسدائي الشكر على رده، وراقني أن سمعتها تحسن التكلم بالفرنسية فلاح في ذهني أن أعرفها اني صاحب الشعر الذي أرسل اليها ولكني كنت من شدة الاضطراب الذي استولى على نفسي بحيث لم استطع تحريك شفتي بكلمة ولا بد ان تكون حسبتني ابله .

يزعم العارفون بتركيب الحيوان ومنافع أعضائه ان الذاكرة لا تحفظ الروائح وعذرهم في ذلك انهم لم يحبوا في حياتهم فان منديلها وهو قطعة

من النسيج الباتستي [١] الرقيق كان يتضوع عن عطر لطيف لن أنساه مادمت حياً . وفي اليوم التالي لهذا اللقاء انطلقت الى ما حول المدينة من الربى الزاهرة فجنيت باقة من ألطف ماوجدته من الزهور البرية وأدلها على العفاف، ولما حان وقت التمثيل خبأتها في قلنسوتي المدرسية وأخذت مجاسي في الملعب فغنت كعادتها بصوت يسمو بسامعيه الى السحاب، ولكن كان يخيل اليّ ان هذه المرأة التي لاقيتها في الطريق أمس ذلك اليوم أكمل من قينة وان كان استعدادها للتغنية مثارا للاعجاب . وبعد ان انتهت من غنائها وانصرفت استعادها جميع السامعين فهطلت حولها باقات الزهر من غرف الملعب والكراسي المقابلة لباحته، وآن لي ان ألقي اليها باقتي فاهتممت غاية الاهتمام بأن تبصرني عند إلقائها مع تظاهري بالاختفاء خلف جيراني؛ وما أدراك مافعلته حينئذ ؟ لقد أهملت كل ما ألقاه غيري من الازهار النادرة مثل زهر الكاملية [٢] وزهر التين الهندي والورد ذي الاشنة وعمدت الى باقتي الحقيرة المؤلفة من أزهار برية فتناولتها وضمتها الى قلبها. أفلا ترين في ذلك برهانا على حبها لي ؟

ستقولين لي: أنت لا تعرفها وقد تكون مخالفة تمام المخالفة لما تخيلته منها، وانه كان ينبغي لك قبل ان تعلل نفسك بالاماني والاوهام ان تكون على بينة من أخلاقها وكيفية معيشتها، فاجيبك: ان هذا أيضا لم يفتني وأقر بأني لم أقف من تحري سيرتها الا على أخبار لا يزال فيها شيء من الغموض ولم يجتمع لدي في هذا الصدد الا أقوال في غاية التعارض والتناقض، فانت تعلمين

---

(١) الباتستي نسبة الى باتست وهو أول صانع لهذا النسيج (٢) الكاملية زهرة يابانية جلبها الى أوربة مرسل ديني اسمه كاملي فنسبت اليه

مقدار ماللشبان فيما بينهم من القسوة على النساء ولاسيما الممثلات، فقد بلغ الحسد من افساد خلق الانسان الى حد ان جعل من لذاته تمزيق أعراضهن مع مالهن من الملكات التي هي مناط الاستحسان العام، ولست بمخف عنك شيئاً مما يقولون فبعضهم ينسب لها من هنات الشباب مايغير دمي ويثير غضبي، وبعضهم يقول انها تعيش مع أمها في حي منعزل عن المدينة ، وقد أراني الطلبة هذه الام تصحبها ليلاً عند خروجها من الملعب فلم أجد بينهما مشابهة ما ، وان أردت الوقوف على شيء من نعتها فتخيلي امرأة ضخمة من عامة النساء قد ذر شاربها، واني لمتألم من تصور أن مثل تلك الزهرة قد نبتت من هذه المدرة، ومهما يكن من وضاعة أصل تلك الجارية فمن الفضل أن تعامل بجميع مايجب لفتاة مخلصة مثلها من صنوف الرعاية والتكريم.

على اننا ان سلمنا حصول أسوإ مايتأتى حصوله منها وفرضنا أن سيرتها لم تكن دائما مرضية، أفلا يكون الذنب في ذلك على مهنتها وعلى من يعاشرونها من الناس ؟ إني أراها بالغة من الظرف والكياسة مبلغاً أستبعد معه أن لا تكون لها نفس زكية، وربما لم يتفق لها في حياتها أن تمثل لها الحب الصحيح المطهر للنفس بشراً فاضلاً كريما . واوباه ! أي فخر أناله لو أتيح لي أن أمد يدي الى تلك الروح الملكية فأنتاشها من درك الانحطاط الذي هبطت فيه لتعود الى نور الهدى والفضيلة.

ها أنا ذا قد كشفت لك مكنون سري، ونجوت بهذا الاعتراف من شديد زجر سريرتي، والآن أقع بين يديك راجياً منك غفران خطيئتي .

الرسالة الرابعة

(من هيلانة الى ولدها)

عن لندرة في ٢٣ مايو سنة ١٨٦ —

في بيان وجوب عدم تداخل الوالدين في حب ولدهما
وتلطف الام في نصحه وبيان انخداعه

لقد راقني منك يابني العزيز صراحتك وموافقة سرك لعلانيتك ، واني مجتنبة كل الاجتناب ممازحتك في غانيتك التي نطت بها أمانيك ، ومع اعترافي بأن ماقصصته علي في شأنها لا يخلو من أمور تدعوني الى التفكر وتبيح لي أن أنبهك في أمرها الى تفاصيل إخالها مريبة ، أتحامى أن أجرد تلك الامانيّ من زهورها وأعريها من روائها ، فليس عليك الا أن تذكر انك شاب غرٌّ لما تختبر شيئاً من أمور الدنيا، وانك واأسفي! لسرعان ما تتعلم أن لاتغتر بالظواهر، وعسى الله أن لا يجعل في ذلك خساراً عليك .

قد تعاهدت أنا وأبوك على عدم التداخل في محباتك بحال من الاحوال فأنت حينئذ آمن ضروب عذلي وتأنيبي ، ولكنك بما صرت ولي نفسك مسئول عن جميع مايقترفه قلبك في سبيل الحب من الآثام ، واعلم ان من هو في مثل سنك يكون شديد الارتياح الى الاغترار والانخداع ، فكم شاب يحسب من الحب ماليس هو الا اضطرابا في مشاعره وسرابا يبدو لحواسه! لان الحب الصحيح هو الاستيلاء على نفس المحبوب

ولا يبلغه الا من كان حقيقاً به وأهلا له .

لم يعلق بنفسي أدنى أثر مما للناس في الممثلات من الاوهام، وانهم لظالمون في حكمهم على كثير منهن ، وحاشا أن أحكم على تلك القينة التي فتنتك بمحاسنها وأنا لا أعرفها، وانما أنبهك الى انك ليس لك حتى الآن أدنى وجه صحيح في أن تستنتج من بعض أحوالها معك انها تفضلك على غيرك من عبادها ، فمن غرور الشبان أن يعتقدوا انهم محبوبون لانهم محبون . على اني أسلم لك ان قلبها ماب ّ لعواطفك فالذي تعرفه منها والذي تلمسه من وراء حبها ليس من الخصائص المقومة للمرأة في شيء، لانك انما تعشق منها تغنيها وحسنها ودعابتها وهي مزايا تستفيد العامة منها اكثر مما يستفيده الرجل الذي قد تصير صاحبة له ، فهل تدري ما يبقى لتمثال حبك الذي تعبده من المحاسن اذا زال عنه زخرف الملعب ورونقه وغرور العشق وخدعه ؟

أنت نفسك فيما يظهر لي مرتاب من ماضي سيرتها لانك تتمنى لو اتيح لك انقاذها من الدرك الذي هي فيه، وهي فكرة كريمة جعلها أدباء العصر بدعة من البدع ، ومعاذ الله صيانة لشرف المرأة نفسه ان اعتقد ان ذنوبها لا تكفر، بل أسلم ما قلته من أن الحب قد يمحو بعض الادناس، ولكنا لا نعلم كثيراً من أمثال النساء اللاتي أُبن الى الرشد بعد الغي. ثم اني لا أظنك فكرت فيما يعترض مقصدك الدال على البسالة من الصعوبات والعوائق، فان انقاذ الخاطئات الذي يحسن الطيش لبعض الشبان الاغرار أن يدّعوه لانفسهم يلابسه في معظم الاحيان من الكبر والعجب أكثر مما يصاحبه من الاخلاص الحقيقي ، فكأنهم بهذا يعتقدون ان ملائكة العشق اللاتي

اهبطن الى حضيض الرذيلة ليس لهن من الصلف والإباء مثل مالهم .

ان من يحاول ذلك العمل يجب ان يكون بالغاً من قوة النفس ولطف الذوق مبلغاً عظيما يسمو بهعن الغض من المرأة الخاطئة واذلالها. ثم هل أنت في سنك هذه تأنس من نفسك قوة وإقداما على كتمان الغيرة فانها تبكيت ومؤاخذة للمرأة التي لم تكن طول حياتها عفيفة؟ وهل لك من السلطان على نفسك مايكفي لإخفاء مايكون في معظم الاحيان مثارا للريبة منك وهو ندمك على اجلالك لمثل تلك المرأة مع انه لا يسمح به عادة الا للزكية الطاهرة ؟ فاذا كنت لم تستكمل هذه الصفات نخل الجهاد عنك لانه لا يكون من ورائه الا زيادة من تزعم انقاذها خسرا .

من الامهات من يكتبن لابنائهن في هذا الموضوع على أسلوب مغاير لهذا تمام المغايرة، فقد يؤنبنهم ويجتهدن في تخويفهم من عواقب طيشهم، وغير الأمهات ربما لا يرين في كل هذا الا مقدمة لواقعة من الوقائع الشائع حصولها بين الشبان وهفوة عادية من هفوات الطلبة، وربما قلن فوق ذلك وهن مبتسمات: تهوينا تهوينا فمن الواجب اقالة عثرات الشبان. وأما أنا فاعلم انك جادٌّ فيما كتبت والا لما افضيت اليّ بسرك ولهذا أجبتك بالجد، ولست أخاف عليك الا ان تكون خدعة لما في خيالك من التوقد الذي هو من لوازم سنك، ومن العبث القول بالتسامح في أمر الحب فليس أحد يسلم عليه بالاستخفاف به لانه اذا لم يرفع النفس ويزكيها فانه يسفلها ويدسيها، وحسبي ماقلته في هذا الموضوع فلا ازيدك عليه شيئاً .

جاءتنا اخبار من البيرو فقد كتب الينا قو بيدون وجورجية بأنهما

يذكر انك انت و « لولا » ذكرا كثيرا .

ومما ينبغي ان تعلمه ايضاً ان « لولا » تفكر في اختيار مهنة لها ، فقد قالت لي من ايام مضت « اريد ان اتعلم حرفة من اجل ان . . . » وماعتمت ان فرت الى حجرتها قبل ان تتم كلامها وقد احمر وجهها خجلا .

واراني ادركت مرادها وهو أن المرأة التي لامال لها ولا حرفة ليست حرة ، فاذا تزوجت فانما تتزوج في الغالب مقام زوجها ومكانته ، و « لولا » لعزة نفسها وإبائها تتذمر من هذا الاحتياج ولا ترضى الاستكانة له ، فهي تريد ان تقول يوماً ما لمن يروقها من الناس : ان في استطاعتي أن أعيش بعملي واني اذا اخلصت في تحصيل الاغتباط والسعادة لك فذلك لاني أحبك .

استودعك الله يابني العزيز وأوسع صدري على الدوام لتلقي أسرارك ومشاركتك في آلامك ، وابعث لك في هذا قبلة الحب الذي لا تتغير ، الا وهو الحب الذي لك في قلب أمك . اه

الرسالة الخامسة

من « اميل » الى أبيه

المدرسة الجامعة

في ١٠ يوليه سنة — ١٨٦

كلفتني أن أجملك على علم بدروسي فموافاة لرغبتك أقول : الجامعة التي أختلف اليها بناء في غاية الجدة وتفتح قاعاتها للتدريس في فصل الصيف

من الساعة السابعة صباحا الى الساعة الاولى بعد الظهر ومن الساعة الثالثة بعده الى الساعة السادسة، وتنقسم دروس الاساتذة فيها الى عامة وخاصة، فالاولى تلقى بالضرورة مجانا ويدفع الطلبة في مقابل تلقي الثانية «فريدريكين» ذهبا (٥٠) فرنكا كل ستة أشهر، وتنقسم جامعة «بن» مثل كل الجامعات في ألمانية الى أربع مدارس اختيارية احداها للقوانين والثانية للحكمة والثالثة للطب والرابعة للالهيات ويتعلق بكل من هذه المدارس الاربع فروع مختلفة يدرسها فيها رجال مخصصون بها .

الجامعة تخلي بيننا وبين حرية التصرف في وقتنا اما باضاعته أو بالانتفاع به لاني لاأرى لاحد منها أدنى تفتيش ولا أقل هيمنة علينا في سيرتنا، على اني أعتقد ماقلته لي كثيرا من أن النظام التأديبي الناجع هو مايفرضه الانسان على نفسه ويلتزم اتباعه .

لامراء في أن أساتذة جامعتنا متضلعون من العلوم غير اني كثيرا ماشق عليّ أن أستتبع سلسلة أفكارهم في الدروس لسببين، أولهما أن هذه الافكار ليست في ذاتها واضحة، وثانيهما اني لقلة تعودي تصوير فكري بالالمانية حتى الآن أجد من الصعوبة في فهم تلك الافكار أكثر مما يجده غيري من المتعودين . ويدهشني من أمر هؤلاء العلماء انهم على سمو مكانتهم في العلم وبعد صيتهم مغبونون في أجر عملهم اذ استدللت على هذا بما يبدو عليهم من رقة الحال وبقناعتهم باليسير من العيش ورثاثة ملبسهم الذي يكاد يكون وسخا، وفقرهم هذا يؤلمني ويزيدهم في نفسي إجلالا على اجلالهم الذي تدعوني اليه معارفهم، فأولئك رجال يحبون العلم لا لكسب المال ولا للتمتع بالحطام وانما يحبونه لما يحصله للعقل من لذاته وضروب اغتباطه،

ثم إن بعض المدرسين يرتجلون الدروس مطنبين فيها ، وبعضهم وهم الاكثرون يأتون بها مكتوبة فيلقونها على الطلبة، وهؤلاء يصغون لما يلقى عليهم ويكتبون مايعلقونه منه، وقد وضعت لنفسي نمطا في اختزال الكتابة وهو وإن كنت لاأشك في قصوره لأوليته يمكنني من إثبات الحدود الاساسية لما أسمعه من الجمل .

ينقسم الطلبة باعتبار مذاهبهم الى كاثوليكيين وبروتستانتيين متشددين يعد بعضهم نفسه للاعمال الخطابية ، وحكماء يجتهدون في تأويل المذاهب تأويلا مطابقاً للعقل ، وماديين وهم قليل يصرحون بأن زمن الديانات قد انقضى وانه لا ينبغي إضاعة الوقت في العكوف على مالا حقيقة له من هواجس القرون الوسطى وأحلامها .

رأيتك دائما تجتنب الخوض معي في المذاهب والاسرار الدينية واستنتجت من سكوتك عنها أنك قصدت مني الاستقلال بنفسي في الاعتقاد ، ولقد حملتني عظيما فاني حتى هذا اليوم في غاية البعد عن معرفة مايستقر عليه فكري في كثير من المسائل التي ترجفني محاولة سبر غورها. على أنه لا بد من الاقرار لك بأني لست مطرحا هذه الطائفة من الافكار ولا مغفلا لها ، فكم من مرة نظرت الى السماء في سكون الليل وحاولت على حداثة سني وجهلي أن أقرأ في نجومها حلا للغز هذا العالم ، وإني منذ اليوم الذي شهدت فيه إلقاء جثة الملاح في البحر ــ واخالك تذكره ــ لا ينفك عني التفكير في سر الموت حتى في أحلامي، وقد سألت القبور أن تكشفه لي فلم تحر جوابا فعمدت من عهد دخولي الجامعة الى مطالعة ترجمة

الفيدا [1] الالمانية والزنداويستا [2] والتوراة فأثرت قراءتها في نفسي تأثيرا بليغاً وكان يتراءى لي منها عالم جديد ولكن من خلال ظلمات لا يسعني الا الاقرار بأنها لم تنقشع، ولست أدري أأعكف على دراسة هذه الكتب أم أعدل عن إماطة هذه الظلمات عما لا يتناهي فلا أشتغل الا بما هو ثابت محقق من نتائج العلم .

أنا الآن أحوج الى ارشادك والاستضاءة بنور علمك مني فيما مضى، ومن ذا الذي أسترشده وأستهديه سواك . ؟

جميع الطلبة يتعلمون المجالدة والمناضلة وأنا مقتد بهم في ذلك، فلي كل يوم ساعة أو ساعتان أقضيهما في ممارستها لان في هذه الممارسة تمريناً مفيدا في تقوية الاعضاء وتنميتها، ويؤكد العارفون من الطلبة أن أمهر المجالدين من يندر التحرش به . ومع اني لا أرجو مطلقاً أن أبلغ في المجالدة والمناضلة مبلغ الفارس سان جورج [3] أودّ لو أثبت في قاعة الممارسة ثبوتاً كافياً اني على علم باستعمال السلاح حتى يحسب الطلبة حسابي فلا يستخفون باغضابي، فان المبارزة كثيرة الوقوع بينهم وهم يجرحون فيها أحياناً، ولكن يندر والحمد لله أن يقتلوا ومن يجرح منهم لا يبالي بخدش وجهه بل يعتبر ندب الجروح على ما فيها من التشويه لخلقه من موجبات اجلال النساء له .

أختم مكتوبي راجياً أن تثق مني بدوام محبتي لك وتعلق قلبي بك . اه

---

(١) الفيدا كتاب الهنود المقدس وهو اسم عام تحته أربعة كتب خاصة وهي الريجفيدا والسامافيدا والياجورافيدا والاثارفيدا (٢) الزاندويستا مجموع ما لأتباع زردشت من الكتب المقدسة (٣) سان جورج شخص يذكر في الاساطير انه أمهر المجالدين والمناضلين .

الرسالة السادسة

من اراسم الى « اميل »

في التربية الدينية والفلسفية

قد حزرت ياولدي مقاصدي في تربيتك الدينية فاني أردت أن أخلي بينك وبين عقائدك مع علمي بمخالفتي في هذا مخالفة تامة لما تجري عليه الامور عادة. ذلك أن الطفل لا يكاد يولد حتى ينسب الى أحد المذاهب التي تتنازع حكومة الدنيا فيتكفل والداه بتقليده ديناً محتجين فيه بعدم أهليته (وهو أمر بين البداهة) لان يحكم بنفسه ويسبق عرف بلاده وعوائد قومه وتقاليد بيته الى تحديد الدين الذي يجب انتسابه اليه وهو الاستيلاء على نفسه، قد يقول قائل: ان الوالدين اذا فعلا ذلك فهو لانهما يعتبران أنفسهما نائبين عن الامة في القيام على المولود قبل أن يعرف نفسه بنفسه. فأجيبه: أسلم لك ذلك ولكني أقول ان كان من حق الامة أن تؤدي الى المولود ديناً كان حقا عليها أيضاً أن تختار له حرفة أو عملاً من أعمال الحكومة واذاً نصير في حكومة دينية اشتراكية.

لا ينبغي أن نجعل ولادة المولود سبباً لسلب حريته فان انقسام الوالدين في ضروب الوجدان واختلافهما في الانظار حتى في أيامنا هذه يجعل ولايتهما عليه مشكلة مرتبكة. ذلك أنه لا حرب إلا حرب البيوت فان شأن الوالدين في الدين غالباً أن يكون الاب كافراً والام مؤمنة [1]

---

(١) هذا شأن خاص بالافرنج ومن قلدهم بلا بصيرة من المسلمين

فكيف يكون الوالد اذا تنازعه هذان المؤثران ؟ أقول انه يكون كأهل زمانه حيران عاجزا فانا كثيراً مانلاقي في الناس شباناً مشغولين بترقيع سرائرهم بخرَق من مذاهب المتدينين ، يخيطونها مع آراء الاحرار من المفكرين ، ونصادف آخرين شاكين حائرين ، مع بقاء استمساكهم بأوهام الواهمين ، وقد فشا في الناس التباين والتناقض وعم بينهم التشوش والاختلاط .

وأما أنت فانك والحمد لله لم تبتل بشيء من هذه المحن لاني أنا وأمك لم نعتقد أن من حقنا أن نغتنم فرصة نوم عقلك فندعوك الى اتباع مانحن عليه بدون أن يكون فيه رضاك ، واعلم أن لي ككل انسان غيري رأياً في المذاهب الدينية والحكمية التي يختلف الناس فيها وهو لا يلزمك شيئاً ولا ينبغي أن تحفل به .

«أكرم أباك وأمك» ولكن لاتطع الا قلبك ، فأنت حر ومن حقك أن تسعى وراء معرفة الحق مستعيناً في ذلك بالهمة والبسالة والنزاهة . ولقد كان هذا السعي الى اليوم خارجاً عن وسعك وبعيدا عن مقدورك فيجب الآن أن يكون هو عملك في جميع حياتك .

ومن المفروض عليك قبل أن تقتنع بشيء في مثل هذه المسائل الخطيرة أن تبحث فيها وتدرسها ، فان مثل من يرفض المذاهب الدينية أو الحكمية على غير علم بها كمثل من يقبلها بدون بحث فيها ولا نظر ، كلاهما مناقض لنفسه ، غير مسدد في رأيه ، ولا شيء في الحقيقة أدعى الى الضحك من وقاحة أحداث الدكاترة الذين يجهرون بأن المباحث النظرية التي ارتاض

بها أمثال ديكارت [١] واسبينوزا [٢] وباسكال [٣] ولايبنتز [٤] وهيجل [٥] ليست خليقة بالتفاتهم وميلهم، فللجهلة الاغبياء منهم كلمة يطنطنون بها في هذه الايام وهي قول أحدهم وهو لم يفتح في حياته صحيفة من كتاب الكون «مالي ولإضاعة وقتي في حل مالا يسبر غوره من مسائل وجود الله، وخلود الروح، ووحدة الروح والجسم أو تغايرهما فحسبي الاشتغال بالعلم»

أنا لا أشك في أن العلم الآن مشتغل باستئناف عمل الديانات سالكا فيه طرقاً أخرى مغايرة لطرقها كل المغايرة فانه يرجو من البحث في الحوادث بحثاً تجريبياً ومراقبتها مراقبة قريبة أن يصل الى حق اليقين الذي كان أهل الدين يرجون بلوغه من طريق الهداية الالهية، واني لجازم بأنه قد سلك أقوم المناهج لبلوغ الحق وان كان من المتعسر معرفة النتائج التي يؤدي اليها بحثه. واذا فقهنا حالة المعارف على ماهي عليه الآن وجدنا شأنه المطرد انه لم يفدنا في بعض ماقد يهمنا استقصاؤه من المسائل الا شيئا من المعرفة قليلا جدا، فانا اذا استثنينا علم تركيب الحيوان لانه قد أمكنه ان يؤدي الينا معنى من معاني الانسان على مافيه من المذاهب المتعارضة والآراء المتناقضة وعلم

(١) ديكارت هو عالم رياضي ومهندس طبيعي وأخص مايعرف به أنه فيلسوف فرنسي شهير يدعونه أبا الحكمة الحديثة لكلامه عن طريقة البحث عن الحق ولد سنة ١٥٩٦م ومات سنة ١٦٥٠م (٢) اسبينوزا فيلسوف ولد في امستردام سنة ١٦٣٢م ومات سنة ١٦٧٧م (٣) باسكال هو مهندس كبير وكاتب شهير ولد في كليرمونت فراند سنة ١٦٢٣م ومات سنة ١٦٦٢م أثبت ثقل الهواء في سنة ١٦٤٨ وفي سنة ١٦٥٤ اعتزل في بورروبال دوسان حيث كتب اقليمياته وأفكاره (٤) لايبنتز هو عالم شهير ولد في لايبزج وهو مخترع حساب الفروق الدقيقة (٥) هيجل فيلسوف ألماني ولد سنة ١٧٧٠ ومات سنة ١٨٥١م

طبقات الارض لانه قد فتح لعقولنا منافذ نلمح منها على بعد منشأ الحياة، رأينا ان العلوم الصحيحة لم تكشف لنا الستار حتى الساعة عن علة مّا من العلل الاولى التي هي أهيج اشوق العقل من سواها، ولكن قد يجيبني مجيب بأن هذه العلل لا ينبغي الاشتغال بها قطعاً لانها ليست من متناول العقل، فأقول له: ماهي غاية علمك في هذا؟ أتظن أن ماحصل من تجارب الانسان في بضعة آلاف من السنين يسوغ تحديد قواه وملكاته المتزايدة؟ أم تريد أنه يكفيه على كل حال أن يسدل الحجاب على ما يجهله لينيم طمع عقله ويخمد شوق ادراكه؟ أنا لا أعتقد من هذا شيئاً بل أقول: إن الانسان لا يسهل عليه الاستخذاء للجهل والاستكانة له اما لشرف في طبعه أو لخسة فيه.

ولو أنه كان يكفي للتخلص من المسائل المحيرة أن توصف بانها معضلة لا حلّ لها لكان التفصي منها في غاية السهولة. كل حي يطلب النمو لجسمه ما عدا الانسان فانه هو الذي يختص من بين سائر الكائنات العضوية بطلب الارتقاء بفكره الي ما وراء حاجاته المادية، فطلبه الارتقاء الفكري موجود فيه سواء سمي خيالا أو غريزة دينية، ولست أدري مطلقاً ماعسى أن يعود على العاملين على إزالته من العائدة بتكلف احتقاره والزراية عليه: ومن ذا الذي في وسعه منهم أن ينتزعه من النفوس الشعرية! فان تطلع الانسان الى ماوراء حدود عقله من مقتضيات خلقته، وليس من حقنا أن نعتبر بعض الامور التي يتطلبها الفكر خادعة أو وهمية لمجرد انها تحير عقولنا أو تنبو عن ادراكنا، فاما ان كان قصدهم تجريد مايتصوره العقل من منتهى غايات الكمال، مما يقارن تصوره من مروعات الوساوس والاوهام،

والاعمال المنبعثة عن النفاق والرياء؛ فبها ونعمت، وأما مدركات العقل التي شغلت من التاريخ مكانا كبيرا فلا ينبغي التعرض لها بل لابد أن يكون لها أيضاً محل في تربية الناشئين .

ومن هذا ترى انه لايزال من حق الحكمة أن توجد مع العلم، وانه ليبعد عليهما التنافر والتنافي ، لان من شأنهما التضافر والتوافي .

إن كثيراً ممن يميلون الى محو دراسة المذاهب الدينية والحكمية منقادون في هذا الى حاجة طبيعية للانتقام وهم لايشعرون، فانهم قد رأوا الحكماء ورؤساء الاديان المقررة في أيامنا هذه بلغوا من تعاطيهم للمظالم، ومتاجرتهم بالسرائر، ومقارفتهم للفظائع، مبلغاً لجأ بالعقل في اشمئزازه من سيرتهم الى الجحود المطلق ، فالقسيسون هم دعاة الإلحاد لا الماديون .

ومن اللغو تجسيم أمر الالحاد فانه ذنب ضعيف في ذاته يتزلزل مذعوراً امام وجدان الانسان، وانما الآثام المبينة والجرائم القوية الحقيقة بأن تدافع نور الهداية والعرفان هي التي يجرأ أصحابها عند اقترافها على التستر برداء الدين . نعم تلك الآثام هي التي تمتاز بذلك الامتياز الهائل وهو قلب شؤون الدنيا وتشويش أحوالها، فمن ذا الذي لايحار حين ارتكابها من الابهة الباطلة التي تسري من عقائد مرتكبها الى بعض ما يغتصبونه من ضروب السلطة والقوة.! تسمع بعض النظار اذا راعهم تغلب الشر على الخير يصيحون قائلين: لأن لايكون لنا إله خير من وجود إله ظالم [١]

(١) أجدر بمثل هؤلاء النظار أن يسموا عميا فانهم عموا عن سنن الله تعالى في الكون وجهلوا ان الشر الذي يضجون منه انما ينتج من مخالفة الناس لتلك السنن فهم الذين جلبوه على أنفسهم « وما ربك بظلام للعبيد » « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » تعالى الله عن الظلم علواً كبيرا . اه

ويعيب آخرون على المذاهب الدينية والحكمية أنها لم تبين للناس بياناً مقنعاً شيئاً من المسائل المتعلقة بنظام العالم وتنازع الخير والشر والاضطرار والاختيار ، وأنا أسلم لهم ذلك غير اني أقول : ان كلا منها قد سما بفكر الانسان الى العلى وغير أحوال الامم وهدى الناس الى طرائف الفنون وأحيا من الطرف والملح مالولاه لظل محجوباً في مجاهل العدم ، وكم نرى ممن يودون محو الدين المسيحي من تعليم الناشئين من لم يحسن التفكر فيما كان لهذا الدين من التأثير في آداب لغتنا وأخلاقنا وعوائدنا ! فهم يقولون إنه رؤيا خبيثة رآها النوع الانساني في منامه وانه بنشأته في طور التدلي والهمجية حبس روح الشعوب في ظلمات الجهل . وكل ذلك محل للنظر والبحث ، ولكن هيهات أن يقنعوا واحداً من الناس بأن التيار الفكري الذي جاء به ذلك الدين فغير كل مافي الدنيا لم يكن ثم موجب لوجوده!

أنا أدعوك الى دراسة هذا الدين الذي أنشأ مدنيتنا الحاضرة انشاء حسناً أو سيئاً خلافاً للقائلين بابطالها ، وأحثك على أن تأخذ فيها بالجد وترجع فيها الى أصوله لان مايخلص اليك من مطالعة الاناجيل لاشبه بينه وبين مايؤخذ عن رجال الدين بحال من الاحوال . فانت ترى في الاناجيل مثلا ان المسيح كان يأبى دائما امتثال أي عمل من الاعمال الظاهرة ، وكان يستهدف لزراية اليهود عليه ولومهم له بمخالفته لهم كل وقت في السبت والصوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام وغير ذلك من الاعمال المشروعة. واذا كان القلب يهتز لسماع بعض المواعظ الانجيلية فليس ذلك ببدع فان المسيح انما جاء ليعلن للناس شرف صغارهم وسمو المستضعفين منهم ووجوب تكريم الطفل والحنو على المرأة الخاطئة، وانك لاتجد في غير كتابه اكثر

مما تجده فيه من الميل العاطف الى كل مكروب والرحمة لكل مهان ومحتقر ولا أكثر من ضروب الحرمان للمتكبرين المستأثرين الذين يبتغون العلو على غيرهم من المخلوقين . وقد كان لحبه للفقراء ولكونه نفسه فقيرًا يتتبع الاغنياء على الدوام دون غيرهم بنُذُره وأمثاله الرائعة . ولا شك أن تمكن النصرانية مع مثل هذا الادب الذي جاء به المسيح من تقوية امتياز الدرجات في الامم الحالية وتأييد مزايا الانساب وفرط التغاير في الغنى لم يحصل الا ببلوغ رجالها في المكر حد الاعجاز ، فتلك الامم التي تسمي نفسها مسيحية وتعتقد انها على دين المسيح لم يدخل الايمان في قلوبها قط .

اعلم أن معرفة الشيء في وقت ما من أوقات وجوده لا تعد معرفة وانما يعرف اذا عرف أصله وتاريخه ومصيره ، وقد نتج من اتباع البحث في الحوادث الكونية على هذا الترتيب علوم كلها جديدة كعلم تكون الارض وعلم الاجنة ، فطرق البحث هذه هي التي ينبغي عليك تطبيقها على دراسة المذاهب الدينية والحكمية ، وليس عليّ ان أتعرض بالتصويب أو التخطئة للنتائج التي يؤديك اليها بحثك اذا حسنت فيه نيتك وصحت عزيمتك ، وغاية ما أبتغيه منك ان لا تقبل من الاصول على انه صحيح الا ما تكون قد عرفت الحق فيه بنفسك .

أقول ذلك وأنا أعلم اني أطلب اليك أمرًا عظيما ، ولكن ما حيلتي ولا وسيلة غيره لتنوير عقلك وهدايتك ! نعم ان في الدنيا كثيرا من العلماء الثقات المشهود لهم قد عهد اليهم تحديد العقائد الصحيحة في الدين والحكمة والسياسة والاخلاق فهم يعرفون كل شيء ويعلمون الناس كل شيء وهذا هو السبب في أن نصف المتعلمين من الناشئين يعتادون أن يفكروا بمخاخ

بعض أفراد من الناس ـ ان صح لي التعبير على هذا النحو ـ على أن ثمة أمراً لن تتعلمه قطعاً في مدرستهم ، الا وهو علم الحرية ، فاذا كنت تطلب الحرية فعليك أن تطلب الحق في نفسك مستعيناً في طلبه بجميع ما لديك من عدد الاستدلال والنظر ، وانك سيحصل لك غير مرة مع احتراسك وتيقظك أن تعتقد ان آراء غيرك هي آراؤك وتخطئ في كثير من المسائل قبل أن تعرف أغاليطك ، ولكن لا تنس ان قوت العقل كقوت الجسم لا يكسب الا بعرق الجبين ، وان من أخلص في البحث عن الهدى فقد أظهر بهذا البحث نفسه انه جدير بالاهتداء .

وفي ختام مكتوبي أقول لك من صميم قلبي : اني وليك الحميم . اهـ

هامش مجلة المنار على هذه الرسالة ـ لقد نطق هذا الفيلسوف بالحكمة اذ ابان ان من غريزة الانسان أن يبحث عما وراء حاجته المادية وان هذا الارتقاء الفكري بما يمتاز به وهو مبدأ الدين في نفسه وانه ما دفع الناس الى الجحود الا سوء حال رجال الدين في اتجارهم بالدين وان وجدان الدين يزلزل الالحاد لانه ذنب ضعيف في نفسه وانما الذنوب القوية التي يعز زلزالها هي التي تقترف على انها من الدين وهي ذاهبة بنور هدايته ومنفرة عنه حتى يقول العاقل ان عدم الدين خير من هذا الدين . نعم انه أخطأ في موافقة القائلين بأن الاديان لم تبين شيئاً من نظام العالم وتنازع الخير والشر والاختيار والاضطرار وعذره انه لم يطلع على نهاية ارتقاء الدين لجهله بالاسلام . على انه أحسن في الرد على القائلين بترك دراسة الدين وفي استخراجه محاسن الاناجيل وتصريحه بان النصارى غير مسيحيين ومن أراد تفصيل هذه المسائل فليرجع الى مقالة «العقل والقلب والدين» من المنار (ص١٨٦م٥) وأحسن في دعوة «اميل» الى الاستقلال وترك التقليد وتقدير الحرية العقلية قدرها .

الرسالة السابعة

من « اميل » الى أمه

عن مدينة بن في ٢٨ سبتمبر سنة ـ ١٨٦

« في ابتداء العشق وغرور الشاب الغرّ بالمعشوقة »

لقد كان قولك حقا أيتها الوالدة العزيزة فاني قد خدعت نفسي ولا حق لي في الشكوى على حال مّا ممن كنت أحبها لانها لم تكن التزمت لي شيئاً ولا وعدتني الصدق في حبي بل هي بما كانت مغمورة فيه من ضروب التبجيل والتكريم تفضلت فقبلت مني اعتباطا صنوف اجلالي ودلائل اعظامي ، وقد كان هذا منها لي تشريفا كبيرا وأظن ان من كفران نعمتها أن أتهمها بخيانتي فانه لم يكن من ذنبها أن كنت جادّا فيما لم يكن يأتيه غيري الا هازلاً .

على اني ان قلت لك اني كنت أفكر في أمرها دائمًا على هذا النحو كنت كاذباً، فان الصدمة التي هدمت صرح غروري بها تلتها ساعة دهش وذهول خيل لي فيها أن السماء خرت على رأسي وصرت كأني في حيز الفناء. قد تقولين لي : انك لست أول من ابتلي بهذه الضروب من انكشاف الاباطيل وزوال الاوهام ، وهو قول لاريب عندي في صحته غير ان ما ينتاب الانسان لاول مرة في حياته يخيل له انه لم يحصل لاحد غيره في الدنيا ، فكنت أسائل نفسي هل يمكن أن يوجد في البرية من يبلغ مبلغها في الخيانة ؟ أوليس الحسن الا نقاباً للنفاق ؟ وأقول انها أشدّ ماسخرت مني

لسلامة نيتي وسرعة تصديقي . . . . وأحس بقشعريرة الغيرة تدب في جسمي حتى تبلغ نخاع عظامي .

واول يوم قامت بنفسي فيه الريب من صدقها فررت من المدينة هائما على وجهي كالمجنون أخبط خبط عشواء ، وقد تعاقبت على بصري في مسيري مشاهد جمة من سنابل الحنطة المدركة ، والقنابر المغرّدة ، وما في الهواء من الروح الخافق وجدا وحبا ، والمزارع والطواحين التي تنكشف للرائي في أمكنة مختلفة من خلال حجب الاشجار وقد مزقتها يد الريح ، وخرير الماء المتدفق من ينابيعه المنتحبة تحت الخضرة ، والديكة المغتبطة المتغطرسة واقفة على الدمن ورافعة عقيرتها بزُقائها النفاذ في كبد السماء ، وأسراب العصافير ثائرة متعاقبة في الجو متناقرة ، وغير ذلك من المناظر التي لولا هذه الاحوال لهزت نفسي وشرحت صدري ، فلم تلفتني عن هذه الفكرة الثابتة في ذهني وهي انها تغشني .

لما رجعت الى المدينة كان الليل قد جن فلمحت شبحا مبهما يسري وجدرانَ البيوت كأنه ظل ، فلما بلغ منعطف الشارع سقط عليه ساطع نور الغاز المنعكس فأراني انه فتاة شاحبة اللون رثة الثياب تحمل طفلا على يديها ، ولست أدري تمام الدراية لماذا خطر بفكري لرؤيتها انها خدعت ثم هجرت ! وسألت نفسي سؤال محنق : هل تنقسم النساء في هذه الايام الى طائفتين طائفة خادعة وطائفة مخدوعة ؟ تأثرت هذه الفتاة بعضامن الزمن يجذبني اليها نوع من العطف لاأعرف سره حق المعرفة ، فلما كانت تمر على نور مصباح كنت أخالني أقرأ في وجهها خاطر الانتحار ، وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث اني كنت أود لو أجد السبيل الى عمل من

أعمال البر. وما عتمت الفتاة ان دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة ينتهي الى فناء تكتنفه أطلال دارسة وفي ركن من هذا الفناء بئر سدت فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق فرفعت الغطاء باحدى يديها العاريتين واتكأت بمرفقيها على فم البئر وأرسلت بصرها في غيابتها وعليها سمة القنوط ، وفي هذه الساعة انفلت القمر من قبضة السحاب فألقى نوره الاغبر على بلاط الفناء المتوحل ،وكنت اذ ذاك مختفيا خلف جزء من جدار أتتبع جميع حركات الفتاة المسكينة بامعان لاني لم يكن بقي عندي ريب في أنها قد صممت على الانتحار ــ وكنت أقول في نفسي: أقل ما في الامر اني هاهنا لأمنعها منه وما كنت أجسر حتى هذه الساعة أن أظهر لها خشية أن تزيدها رؤيتها لمن شاهدها في هذه الحالة غضاضة وذلة، فبعد ان تروت هنيهة كان جبينها الكئيب في اثنائها مسرح الانفعال والاضطراب نظرت الى ولدها وهمهمت بكلمات مبهمة وهي تهز رأسها ثم هرولت داخلة أحد الاكواخ الحقيرة وأغلقت بابه عليها .

هذا كل ما علمته ويحتمل أن يكون كل ما سأعلمه من أمر هذه البائسة في حياتي ، وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير اذا فرض ان من الخير تنجية نفس من الموت كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت الى الكفر به ولعنه ،

كأني بك تسأليني : كيف ظهر لك انك كنت العوبة لهوى امرأة طائشة أجيرة؟ فأستأذنك في تنزيهك عن سماع تفاصيل هذا الامر لانها لا تليق بك، ويكفيني في ذلك أن أخبرك بأنها كانت تحرض طالبين أو ثلاثة غيري على التقرب منها في وقت واحد بقبول مساعيهم وهذا بقطع النظر

عن أمير ورتمبورغي[١] يقال انها تحبه لماله ، فليت شعري! هل أبصر أحد في حياته نظيرة لتلك المرأة ؟ .

لم يكن همليت[٢] مثلي في سوء الحظ لما كان يقول لمعشوقته «أوفيليا» «أيتها المرأة اسمك الخور » فان اسم صاحبتي هو الكذب والمكر والغش . هذا هو التمثال الذي بخرته بخور أمانيّ وجعلت له بين الإلهات المنيفات مكاناً ، وكنت أتمنى لو دنت مني الكواكب فانتزعتها من نظامها ونظمت له منها إكليلا . على ان لي أمراً يسليني وهو اني لم أدنس الحب في حال جنوني به .

فاعلمي ياأماه أنه لا يزال من حقي ان أنظر اليك غير خجل لان خطيئتي انما كانت سوء حكم لا ارتكابا لشيء من الخناء ولكن هذا لا يقلل من استماحتي لعفوك فاغفري لولدك هفوته حتى يمكنه ان يغفرها لنفسه.اه

الرسالة الثامنة

من هيلانة الى « اميل »

عن لوندرة في ١٠ اكتوبر سنة — ١٨٦

« غرور الشاب في الحب وبيان حقيقته »

اعلم يا ولدي العزيز ان ما نقع فيه من ضروب الغي هو الذي يهدينا

---

(١) ورتمبورغي نسبة الى ورتمبورغ احدى ولايات المانية (٢) همليت هو أمير جوتلاند الذي تظاهر بالجنون ليأخذ بثار أبيه الذي قتله أخوه بالسم وهو الذي كتب عنه شكسبير قصته التمثيلية المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدنيمارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦ نفساً وعاصمتها فيبورغ

سبيل الرشد، وان مانقترفه من الذنوب هو الذي ينبئنا اذا تألمت منه ضمائرنا بأن لنا في نفوسنا قانونا زاجراً وان الحكمة في رأيي هي ان نستفيد من كليهما لنتعلم .

لم تدهشني نهاية قصتك وسأتحامى كل التحامي أن أعيب سيرتك فيها لانك قد عبتها بنفسك، ولم يكن كل ماكان في وسعي تأديته اليك من النصائح قبل ختامها المحزن ليساوي ماوعظتك به تجربتك الذاتية. ان في أمور الكون لعدلا وان الدهر يضطرها الى ان تظهر للناس على حقيقتها، وان كان يلذ لمخيلة الانسان ان تزينها بالالوان المموهة وتغشيها بالاستار الحاجبة ، وبهذا كان الدهر استاذنا جميعا .

على أني ان لم أقرّ لك بأن مكتوبك الاول سبب لي أشد ضروب القلق والحيرة كنت قد كتمتك بعض الحق . نعم قد كان لي من الثقة بطيب عنصرك وبما أعرفه فيه من أصول الشرف ما كان يكفيني للثقة بأنك لاتتسفل لارتكاب دنيئة ما، ولكني كنت أخاف عليك وأنت في هذه السن خدَع القلب وجمحات العُجب المفتون وأماني البسالة الخادعة، فمما يوجب الأسف ان أصدق الناس في الحب وأخلصهم له هم كذلك أشدهم تعرضاً لمخاطر دسائسه، وأما الشبان الذين يتخذون ماعليه الناس قدوة لهم في سيرتهم فان قلوبهم الجامدة لاتخدع بكذب الظواهر ، وهم الذين جعلت لهم المحبات المهيجة كما جعلت الخمور المتبلة للسكيرين .

تراهم يبذلون من الهمة والنشاط في تحصيل الغبطة أكثر مما يلزم وهم مع هذا في أسوإ عيش وانكده. هؤلاء الجوالون في ميدان الغرام المتعاطون لدسائسه قد اعتاضوا عن الحب بظله (أعني الظرف والكياسة في معاشرة

النساء) وان خسة عواطفهم لتدل على خلوهم من الادراك وهم شبيهون عندي بأشجار الصفصاف الجوفاء التي تصادف على حافة السواقي (الانهار الصغيرة) في أنها لتعفن قلوبها لم يبق لها حياة الا في قشورها .

الامم التي لاتجل رجالها نساءها ولا نساؤها أنفسهن غير جديرة بالحرية - يدلك على ذلك ان جميع عصور الاستعباد وانحطاط النفوس كانت هي عصور فساد الاخلاق والانهماك في الرذائل فاذا زالت هيبة الدين من النفوس وانعدم إحساس الناس بما عليهم من الفروض الكبرى رأيت الناشئين اذا أعوزهم مايضيعون فيه أوقاتهم يتصيدون الملاذ السهلة فاربأ بنفسك عن هذه الردغة [1] فلا مقر لك فيها .

إني ربما كنت أعرف منك بنفسك لانه يتفق كثيرا لمن هم في سنك ان يضلوا فيشطوا في طلب مثال من الواقع لما يتخيلونه من منتهى الكمال فيمن يريدون أن يجعلوها مناطا لحبهم وهو قريب المنال منهم حاضر بين أيديهم . أرى انك فوق حنقك على من غرتك نادم على ان كنت غير صادق في محبتك فتأمل في باطن ماتحفظه ذاكرتك تجدني قد أصبت المرمى فيما أقول، فانك تعلم بوجود ذات من أترابك تفكر فيها ولا تتكلم في شأنها وتذكر ملامح وجهها وابتسامها وجرس صوتها وكل مايتعلق بها حتى ثنيات حلتها تمام الذكر ،وان مثالها الطاهر ليسري سريان الشعاع فوق كتابك اذا فتحته لتقرأ فيه ماصنفه الشعراء، وأنت تود لو تشاهد معها كل مافي الكون من الجمال وتسمع جميع ما للبرية من الاغاريد ، وهي التي ينطبق عليها ماتتخيله من معنى الفضيلة وتود من أجلها لو تكون أفضل

(١) الردغة الماء والطين والوحل الشديد

الفضلاء فتلك الذات هي التي تحبها. فان لم تكن تأنس من نفسك شيئاً من هذا لم تكن حتى الآن الا طفلا ولم يأن لك أن تعتقد في نفسك أنك محب، فالحب الحقيقي هو الذي يرفع النفس ويبعث على طلب الخير وعلى ان يقتضي المحب من نفسه لمحبوبه كل ما يقتضيه لنفسه منه لان الحب هو انصاف القلب.

فاذا تربصت حتى يحصل في نفسك هذا الوجدان الطاهر فاياك أن تدنس اسمه باجرائه على لسانك قبل حصوله والا ندمت فيما بعد أن لوثت شفتيك بالكذب.

وللشبان خطأ آخر في الحب وهو توهمهم أنه اذا حصل بدسائس ووقائع كالتي تروى في القصص ازدادت لذته وكثر الابتهاج به، فليس الامر كما يتوهمون لان في الحب من العظمة الذاتية مايغنيه عن زخارف الخيال. فالفلاح البار اذا راح الى بيته مساء بعد الفراغ من عمله وجلس لتناول مرقته وأخذ يلحظ زوجته وهي تغزل أو تخيط بجانب المصطلى ثم يمسح رءوس أولاده غلاظ الوجنات منادياً كلا منهم باسمه ويذكر في نفسه زمن ترقبه لزوجته « جنة » يوم الاحد في ظل شجرة الدردار الكبرى في المزرعة، ويراها لاتزال غضة الحسن موفورة الشباب — كان أبهج خيالا أضعافا كثيرة من حظي " إلاهة من إلاهات الحب الجديدة

الشباب هو سن الاماني والاحلام، وطور الخيالات والاوهام، ثم ان كثرة المطالعة لاثمرة لها في أغلب الاحيان الا افساد حكم القلب. على ان الحب في غاية الغنى عن القصص الخرافية لانه عبارة عن تاريخ لأصح ما في فطرتنا من ضروب الوجدان وأشدها استقلالا، فويل لمن لا يعشق ويتوله الا في

الحلم لانه لا يلبث أن ينكشف وهمه اذا حان وقت انتباهه.

يجب عليك قبل اهتمامك باختيار امرأة تحبها أن توجد لنفسك بين الناس مقاماً ، فان كل عمل تعمله في سبيل تحصيل العلم ورفع شأنك في نظر نفسك ومغالبة ما للأثرة من أنواع الميل الاعمى وبلوغ ما للانسان من الشرف يفيد المرأة التي ستحبها كما يفيدك، وكن واثقاً بأن هذا لا يعد منك في حقها كثيراً اذا كان يهمك أن تكون أهلاً لإجلالها لك حفظاً لشرفك وصوناً لعرضك .

حاشية : فاتني أن أخبرك بأن «لولا» تتعلم من أجل أن تقبلها جمعية الطبيبات بلوندرة في عدادهن وكلنا نحبك (*) .اه

الرسالة التاسعة

من « اميل » الى أبيه

عن هيدلبرغ في ١٨ يناير سنة — ١٨٦

« الاستقلال في العلم — فلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية »

« الاعتماد على العقل دون الخطابة — حب الوطن »

غادرت مدينة «بن» ونقلت كتبي ـ وهي كل ما أملكه ـ تقريبا الى مدينة «هيدلبرغ». ومن نظام المدارس الجامعة في ألمانية انه يجوز لطلبتها مطلقا أن ينتقلوا من احداها الى الاخرى من غير أن يكون في ذلك ضياع لحقوقهم

(*) هامش المنار : ليتأمل اللبيب هذا التذكير اللطيف « للولا » التي تربت مع « اميل » مثل تربيته بعد بيان من تستحق الحب وبيان حقيقته وغرور الشبان فيه فيالله ما هذه الحكمة في هذه البلاغة !! اه

فيما نالوه من الدرجات . على ان هذا التنقل يمكن الطلبة من الاختلاف الى درس أنبغ الاساتذة وأشهرهم في كل فرع من فروع العلوم البشرية .

أخالني تعلمت كثيراً من دروس هؤلاء الاساتذة المفيدة ، ولكني كل يوم أتبين ان تعليم المدارس بجملته لايمكن أن يقوم لطالب الحق مقام عمله الذاتي الذي يجري فيه على ماترشده اليه سريرته .

أرى مذهبين يتنازعان عقول البشر أعثر عليهما أينما وجهت فكري فأجدهما في العلم والحكمة والدين والسياسة . ومقتضى المذهب الاول ان العالم خلق مقسورا أي ان كل مافيه خصص بارادة أزلية، وان صور الحياة في الكائنات الحية ثابتة لاتتغير، فتندمج الاصول بعضها في بعض وتنتج الفروع ناقلة مخصصات كل نوع عن مثال أزلي له. ومقتضى المذهب الثاني انه وجد مختارا بمعنى ان الكائنات لم توجد من العدم بل استحالت من طور الى طور وان القوى لم تسبق في الوجود بل نمت وان الانواع النباتية والمعدنية (هكذا فى الاصل ولعل صوابه والحيوانية) مستمرة البقاء غير أنها تتغير وترتقي على مقتضى نواميس طبيعية .

واذا انتقلت من العلم الى التاريخ وجدت هذا الاختلاف بعينه في آراء الناس فيرى بعضهم ان التمدن قديم وجد مع الانسان ، يعني ان الاجتماع أوجدته قدرة أعلى من قدرة البشر ، وان أية أمة من الامم ليس لها أن تختار قوانينها وأوضاعها ، وان للحكومة مثلا لاتحيد عنها الامم حتى تسقط في مهاوي الفوضى . ويرى بعض آخر خلافا للاولين ان الانسان نشأ متوحشاً أي انه كان قردا متقن الخلقة ففر من بين الحيوانات وأنشأ على التعاقب قوانينه ومعايشه ومكانته فى البرية بعد ان خلق نفسه — ان صح

التعبير على هذا النحو - وان الامم قد مرت في أطوار نموها ببدايا أوضاع لم تلبث ان ابتعدت منها بتأثير الترقي الذي لاراد له فكما ان الارض كانت بنفسها يكون الانسان بنفسه ويؤلف مجتمعه بقواه الذاتية .

واذا رجعت الى الديانات وصدقت أقوال مؤوليها كانت كلها موحاة من الله فاذا سألت خصومهم عن رأيهم فيها قالوا انها أمور طبيعية تدخل في قوانين ادراك الانسان المألوفة .

وما أشد التباين وأوسع مسافة الخلاف اذا سألت أهل وطني عن آرائهم في الامور السياسية ! . وقد استخلصت من اختلاف طرق النظر هذه نتيجة هي اني مع بحثي في أفكار غيري وآرائه لا ينبغي لي ان أعول الا على شهادة عقلي وسريرتي . هذه هي السبيل التي صممت على سلوكها وهي التي أوضحتها لي أنت أيضاً، ويبعد كل البعد ان تكون هذه الضرورة الملجئة لي الى الحكم بنفسي على الامور مدعاة الى الكبر والصلف، بل هي تبعث في نفسي الذلة والاستكانة لاني أكون مضطراً في كل وقت الى الاعتراف لنفسي بأني لا أعرف شيئاً ، وانه يجب عليَّ ان اتدرع بالإقدام وان أوسع نطاق معارفي، واختلس من النظر في الحوادث مقدمات اقتناعي، وأما البراهين الخطابية التي كنت أعتقد في ساعة من الساعات اني أدرك بها مالا حد له من العوالم فقد تبين لي انها شبيهة بتلك الاصداف التي يتناقلها الاطفال في أيديهم ويضعونها على آذانهم متخيلين انهم يسمعون فيها اصطخاب البحر .

على اني لا أدرس وابحث من أجل أن اكون عالماً فكل ماينتهي اليه طمعي ينحصر في فهم حاجات العصر الذي أعيش فيه والاخذ بناصر

الحق، وهيهات أن أنسى بلادي أو أعيش غير مبال بمجاهداتها ! فاني وان ولدت في بلاد أجنبية أجد فرنسة حيثما نظرت فانها تبدو لي في انتصارها الكثير الذي انتشر في ارجاء الدنيا، وأراها حتى في مصائبها التي نزلت بها عقاباً لرجل من رجالها على تغطرسه وتجبره . هذا الوطن الذي مارأيته في حياتي هو في نسبته اليّ أمي الثانية فلا يذكر الا ويقشعر جلدي لذكره ولا ينتقص الا ويتبيغ دمي كله انتقاماً له . وليس الذي يثير اعجابي منه هو غزواته ووقائعه الحربية، وانما هو تاريخ مكافحاته ووثباته الباسلة في طريق الحرية، واني أحب مفكريه الذين يعملون فيه وهم يضحكون، وأعجب بكتابه الذين يهيجون القلوب وهم لنور العلم يبثون، فأنا من صميم قلبي ملك له وبما في نفسي من الامل في خدمته يوماً ما تجدني مغتبطا ومعتزا بالانتساب اليك .اه

الرسالة العاشرة

« من اراسم الى ولده »

عن لوندرة في ١٥ فبراير سنة ١٨٦ —

بيان وجوب ان يكون للشاب المتعلم رأي في سياسة بلاده

لاحق لك يا عزيزي «اميل» في أن تكون بلا رأي سياسي، فأيما رجل يعيش في قوم ويظهر معتزلا لما يتعارض بينهم من المصالح غافلا عما يتقاسم عقولهم من المذاهب فهو في غاية الحقارة والخسة ، وكان حقه أن ينشأ بين المتوحشين بل المتوحشون يشتغلون بمصالح قبيلتهم بغيرة وحمية.

نعم قد كان رؤساء الحكومات أكدوا للناس في الازمان الغابرة انهم

مرسلون من عند الله لسياستهم وتدبير شؤونهم ، وكان عمل الرعايا على هذا الفرض قد قصر على الطاعة المطلقة لاوامرهم فكانوا ملكا لولاتهم وخاصتهم كما تملك الارض ، ولا حق للارض في أن تثور على اليد العاملة فيها . وأما الآن فلم يبق في البلاد المهتدية بهدي العلم من أنصار هذا الحق الالهي الذي يزعمه الملوك الا النزر اليسير ، وقد قضى العقل على بعض المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ، ثم دل التاريخ على أن السلاطين كانوا يسقطون من عروشهم ولم تكن عناية الله تأخذ سلاحها لنصرهم ، وانه كان من الميسور للامم كل اليسر أن يستغنوا عنهم (١)

هذا السلطان المعصوم الذي لم يكد يبق للانسان جراءة على ادعائه للاشخاص في وجه عبر التجربة الزاجرة لا يزال يدعى للاوضاع البشرية فلا تكاد أية حكومة من الحكومات تستقر حتى تدعي انها حلت محل المحكومين في أفكارهم وعزائمهم .

(١) ما ادعاه الكاتب من تأكيد الملوك لرعاياهم انهم مرسلون من عند الله أمر ثابت في التاريخ بل قد بلغ الغلو في هذه الدعوى ببعضهم ان ادعى الالوهية والصحيح المعروف لذوي العقول المطهرة من رجس مذهب الماديين انهم عبيد استخلفهم الله في الارض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم فان أحسنوا الخلافة سعدوا وسعد بهم رعاياهم وان أساؤها شقوا وشقوا بهم « ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ومايزعم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ليس صحيحاً على اطلاقه فان القوانين الالهية المحفوظة من التحريف هي أس العدل والحرية . واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره عن ذلك لايدل الا على أنه جهل أن الله لاينصر الا من نصره باتباع أوامره وحسن السيرة في خلقه وانه تنزه ان يحتاج في النصرة الى الاستعانة بعدة أو سلاح . اه

ولا يخفى أن البلاد التي وضعت حكومتها على هذا النمط يكون من عادة شيوخ بيوتها لفرط حرصهم وبلوغهم فيه حد الجبن أن يعظوا شبانها بأن لا يشتغلوا بالسياسة .

تسمع الاب منهم يقول لابنه « يابني ان لك أن تغتني وتتزوج وتجعل لنفسك في الناس ذكرا وليس من حقك الاشتغال بما وراء ذلك لوجود رجال عهد اليهم الحاكم بمحض ارادته أن يفصلوا في جميع المسائل ويوزعوا المثوبات والعقوبات على الناس، فهم كما تقول التوراة أنفاس منخريه التي تحرق أموال المعاندين للنظام المقرر كما تحرق السموم نبات المزارع ، فالاحزم لك ان تخلي بين الحكومة وعملها واذا كان لا بد لك من رأي فلا بأس في أن تختار لنفسك مايلائمها من الآراء على شرط أن تقصره عليها لانه لافائدة للمرء من الاشتغال بمصالح غيره « والعاقل من يتوقى ادخال أصبعه بين الشجرة ولحائها » (١)

وأما الامم الحرة فالامور فيها تجرى على مايخالف ذلك كل المخالفة فلا يكاد طالب العلم فيها يملك اليسير من فصاحة المنطق حتى يمارس المناظرة في المصالح العامة وكل فرد من أفرادها اذا أراد أن يكون شريفا وجب عليه أن ينتمي الى حزب من الاحزاب وهم بعيدون كل البعد أن يعتقدوا أن في مجاهدات المعيشة السياسية ضررا بالمعيشة البيتية بل هم يجلون الفضائل الخاصة على نسبة اتساعها وامتدادها في ميدان الفروض العامة ، ولو ان وجدان العدل كان قاصرا على المعاملات الخاصة لعد من الظلم في حق عامة الناس

(١) المثل العربي « لا تدخل بين العصا ولحائها »

اذا تقرر هذا قلت إن جميع الامم خلقت لتكون أحراراً، ومن العبث أن يزعم زاعم ان منها من هي مفرطة في الطيش ومنها من هي غالية في التحمس ومنها من هي غاية في الجهل ومنها من هي متنطعة في التأنق، فقد نسي أن الوسيلة الى ترقية أخلاق الامم انما هي ترقية أوضاعها وقوانينها ولا مراء في أن هذه الاوضاع المؤسسة على الحرية لن تنزل من السماء، وانه من الحمق والجنون أن تنتظرها أمة من حكامها لان جميع الحكومات المستبدة مبنية على قاعدة أن الناس عاجزون عن سياسة أنفسهم فكيف يرضى الحكام حينئذ أن يكذبوا أنفسهم بالتخلي عنها؟ وقد يرخون زمامها أحياناً حذقاً منهم في تصريفها وحزماً ولكنهم يعرفون عند الحاجة كيف يرجعون تصريف شكيمتها الى أيديهم. ليست الحرية بجميع أنواعها مما يعطى ويوهب بل هي مما يغنم بالجهاد والمكافحة، فشدة كفاح العقول والعزائم وجملة إخلاص المخلصين الخاملين وتصلب من لا يستخذون للذل من أفراد الامة، هي التي بضرورة الاحوال نفسها تكره غاصبي حق الحرية على ارجاعه الى نصابه ورده الى أربابه. وما يحصل من التعذير في أثناء الجهاد لا يلبث أن يزول وما يعقبه من الرقي دائم لا فناء له فان القاطع يبلى بعمله في المقطوع.

ليس من قصدي مطلقاً أن أبعث في نفسك كراهة الامة التي خلقت للمعيشة فيها فانت صاحب الحكم على أهل زمانك ولكن حذار من الاحتقار لغيرك والاستخفاف به فان عصرنا سيشتهر في التاريخ بخطوبه ومصائبه لاننا قد عملنا في الحكومات التي تعاقبت على البلاد وهي حكومة الاصلاح والحكومة المقيدة والجمهورية وحكومة نابليون،

وليست العصور التي تغمني وتؤلمني هي التي تسعى فيها أمة عظيمة للحصول على الحرية من خلال الحوادث وانما هي التي تخلد فيها الى الدعة من غير أن تنال حريتها .

ان لداتي من جيل بذل نفسه في سبيل الحرية وأنا أشتهي بمجامع قلبي أن يكون الناشئون أسعد منهم حظاً وأوفر غبطة ولكن ينبغي لهم أن يستفيدوا من زلاتنا وتجاربنا .

نحن غلونا فيما رجوناه من تصاريف الزمان وكلما سألت نفسي عن سبب مصائبنا خلتني أجده في عيوب تربيتنا السياسية فاشدنا بعداً عن الايمان يؤمن بالمعجزة، ذلك انه يعتقد إمكان تغيير أحوال الأمة بأمر من أوامر حاكم مطلق مؤقت الحكومة أو على الاقل بأمر مجلس حاكم . شهدت فرنسا غير مرة تلاشي بيوت حاكمة كانت تعتقد متانة دعائمها وحبوط مقاصد لبعض الطامعين من رجالها الذين كانوا يدعون المستقبل لانفسهم ثم إنها لما انتصرت انتصارها العقيم القصير المدة كان اشتغالها بتحرير نفسها واستخلاص مصايرها أقل بكثير من اشتغالها باختيار الرجال الذين ألقى اليهم الاتفاق زمام سياستها . نعم ان شكل الحكومة واختيار الرجال الذين يصرفون زمامها ليس مما لا يعبأ به ولكن ينبغي ان تكون الامة هي المنشئة لحريتها على اختلاف ضروبها . مضى زمن المسحاء فلن يرى بعد الآن لا في شكل حكومة منتخبة ولا في صورة حكومة تأتي الى الدنيا بالنور والهدى فعلينا ان نخلص أنفسنا من خداع الناس ونطهرها من وثنية الاوهام لان الامم لا تنال حريتها باتفاق ولا بسلطة غيبية فائقة

للطبيعة [١] ولا بالبخت فلتنظر فرنسة في نفسها تجد ان بختها هو عزيمتها .

أنت حدث ومغترب عن بلادك فوسيلتك الى خدمتها هي ان تنفي عن عقلك الجهل والاوهام والاضاليل التي تبذر في الدنيا بذور الطغاة الغاشمين . اذا فعلت ذلك كنت قد أديت في سعيك الى الحرية شيئاً من العمل . التعلم اثمار بالشر لاستئصاله فلو لم يكن نظام تربيتنا برمته من شأنه تجريد أبناء الوطن من ملكة الاستقلال بالفكر والارادة لكانت فرنسا قد اهتدت الطريق الى الحرية من زمان بعيد . فاما ان يكون هـذا هو ينبوع ما أصابنا من ضروب العجز وإما ان أكون مخطئاً خطأ فاحشا . لا حق لنا ان نعيب على الترك [٢] اعتقادهم بالقضاء والقدر فنحن أثبت منهم فيه ألف مرة ، ذلك اننا تابعون لبخت يومنا ، خاضعون لمقدور سياستنا ، مؤدون ميثاق الطاعة لحكومتنا ، حتى لو انتقلت الى أيدي الكفار . وقد أصبح خمود الهمم وانحلال العزائم ملاذا يلوذ به أشدنا أنفة واباء . تراهم لما حل بهم من الكآبة وكسوف البال يحولون وجوههم عما يجري بين أيديهم من الامور كما لو كان لاي واحد من الناس ان يقنط من أهل زمانه ومن بلاده .

اذا ظهر الشر والفساد في الامة كان حقا على الانسان ومن مقتضى عظمته ان يجاهـد في ازالة سببه وليس يكفي الرجل الصالح افتخاره أحيانا بأن يتخيل في نفسـه عالما آخر يطوي فيه معتقداته ويشرف من أعاليـه على أمور دهره فيحتقرها بل عليه أيضاً ان لا يدخر سلاحاً في مكافحته .

---

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية يعني الله جل شأنه في حرية الامم أثر من آثار المذهب المادي القائل بأن لا وجود لهذه السلطة نزه الله عقولنا من لوثه .

(٢) يعني بالترك المسلمين

ليست أمة من الامم من هـذا العجز في شيء فأنت تعرف كلمة جوفينال [1] اذ قال : « لكن لن يعدم المغلوبون سلاحاً » فالذي يبقى من السلاح في أيدي الامم المغلوبة هو الخطابة وبث الافكار والمقاومة المعنوية، ولن تخضع الحكومة رعيتها ماداموا لا يستكينون للخذلان، نعم انها تستطيع في ليلة واحدة ان تسلب حقوقهم وأموالهم ، وتعدم من يسخطونها منهم وترهب أنذالهم وتخدع جهالهم ، ولكن هيهات ان يكون هذا هو ظفرها النهائي بهم عنوة . لا تظفر بهم الا متى أزهقت روح الكرامة الانسانية من نفوسهم . الامة الحرة وهي أمة المستقبل تزيد وتنمو في ظل حكومة الاستبداد وستنتصر اذا تقوت بما تكتسبه من المعارف وبما يوجد فيها من عواطف الانصاف التي تخلص اليها من البحث في حقائق الامور وبما تستفيده من القوى التي يختلسها العلم من الطبيعة .

لا ريب في أنه ليس كل واحد من الناس مخلوقا لان يؤدي عملا سياسياً فلا بد فيه من ملكات وميل خاص ولكن لكل انسان بل عليه أن يرتأي لنفسه رأياً في مصالح عصره وبلاده ، ولست ملزماً بأن تأخذ بشيء من ماضيَّ ولا من آرائي فكل جيل مستعد لان يعمل عمله بنفسه وملزم بأن يسترشد فيه بما يستجد من حاجات أمته ، وانما عليك أن تعلم أنه لا يكفيك أن تطعن في الاوضاع القديمة لهدم بنيانها ، بل لا بد أن يثبت لك العلم كذبها أو عدمها ، واذا أردت أن تظفر بخصمك فكن خيرا منهم وأنور فكرا .

« ١ » جوفينال كاتب لاتيني هجائي شهير كان يعيش في آخر القرن الاول من الميلاد ومات في عهد الانتونيين وهم بيت من بيوت الملك في رومية .

إن مايشكو منه جميع الناس في أزمان التدلي من خمود النفوس وأثرة التواكل وبله الاستسلام لضرورة الاحوال منشؤه الناس كلهم أيضاً ، فما منهم الا شريك في الهلاك العام إما بسكوته واما بامتناعه اختيارا عن العمل . على أن تلك الازمان هي التي يأبى فيها للنفوس الأبية أن تشتد وتثبت في تيار الدمار . فعلينا ان لم نأنس من نفوسنا كفاية في القوة أن نستعين من سبقت لهم الشهادة في سبيل الحق ومن ماتوا من الكتاب وهم يجاهدون الاستبداد ويعالجون عمى البصائر قبل أن يجنوا ثمار كدهم ، ومن خروا من منابرهم من الخطباء مخضبين بدمائهم ، ومن حكم عليهم من العقلاء بشاق الاعمال وشكلوا خلال القرون الماضية في سلاسل العبودية المعنوية ، ولنتأمل في ماضينا فانا نجد فيه من السجون المظلمة والمنافي وأنواع العذاب والنكال مايشهد لنا بنزاهة مقصدنا نزاهة لاتدافع . ألا ان لواء الحرية يظل جميع المقاومين والمكروبين والمهيضين في سبيل تأدية مافرض عليهم ، وبهذا اللواء سيكون لنا الفوز والظفر وعلى هذا الاعتقاد أقبلك قبلة الوداع . اه

الرسالة الحادية عشرة

(وهي خاتمة الكتاب)

من الدكتور وارنجتون الى زوجته

« بيان ان من الواجب على كل انسان ان يسعى الى انشاء ولده حراً لتجتث »
« بذلك جرائم الشرور المحزنة للامة »

عن لوندرة في ١٥ مايو سنة — ١٨٦

شهدت بالامس أيتها الحبيبة العزيزة عيداً أهلياً أقامه الدكتور

ارانسم وزوجته احتفالا ببلوغ ولدهما الواحدة والعشرين من عمره وكان عددنا اثني عشر صديقا .

كان العيد وليمة رجال زانتها المهابة والوقار ولم يمنع كونها كذلك من انتعاش جميع قلوب المدعوين ابتهاجاً وسروراً . وفي ختام المائدة ابتدأ رفع الاقداح لتعاطي الراح على محبــة « اميل » جرياً على العادة الانكليزية القديمة، فقام ارانسم واستأذن في ان يشرب نخب ولده، وما رأيته في حياتي أفصح مقالاً منه حينئذ، فقد أفاض في القول عن الفروض التي تجب على الشاب في معيشته القومية وعن التربية ووجوب ان تكون عمل كل منا في جميع حياته وعن الازمان الحاضرة واقتضائها من المفكر ان يستمسك بالآراء المؤسسة على البحث والاختبار وان يثبت عليها، وبالجملة فليس في وسعي أن أودي اليك أثر هذا الخطاب الابوي الذي كانت مزيته الكبرى أنه لم يكن كخطب الخطباء .

وما فرغ منه حتى اتجهت جميع الابصار نحو « اميل » — وأنت قد استطعت من منذ عوده من انكلترة ان تعرفي ماهو متحل به من ثبات الرأي وعلو الآداب وسعة المعارف — فشكر لاصدقاء أبيه ان تفضلوا باجابة الدعوة الى هذا العيد البيتي الحقير بعبارات تشف عن لطف ذوقه ومزيد تواضعه ، ثم ارتقى الى الكلام عن بعض المسائل العامة فبين الخطة التي يؤمل أن يسير عليها في الناس بألفاظ جلية مؤدية تمام المعنى

وقد أحس كل من سمع قوله بأن جميع مافاه به صادر عن فكره المستقل

ثم تعاقبت الكؤوس وتوالت الانخاب وبينما كنا على أهبــة القيام من المائدة التفت الى والديه وآذنهما بأن لديه خبرا يريد أن يعلمهما اياه

وقد لونت جبينه حينئذ حمرة الخجل مع أن ملامح وجهه كلها كانت تعرب عما فيه من ثبات الرجولية .

ما كان أشد دهشي ودهش الحاضرين اذ سمعناه يقول بصوت قوي على ما فيه من الاحتشام انه من الامس متفق مع دولوريس على التزوج بها .

ثم أعقب هذا الاخبار ان انحنى امام والديه قائلا : « هل لي أن أرجو منكما استحسانكما لهذا الاختيار »

هنالك غشيت وجنتي الفتاة السمراوين سحابة من حمرة الخجل وأغضت عينيها فلألأت بين اهدابهما السوداء الطويلة عبرات الفرح والهناء .

لم تجد السيدة هيلانة جوابا لمسئلة ابنها الا اكبابها على عنقه تقبله وقد كادت تختنق سرورا واغتباطا. واما اراسم فانه مع تأثره مثلها مما سمع من ولده كان املك منها لعواطفه . اجاب ولده بصوت ينبيء عن سكينته ووداعته فقال : « اذا كنت تحبها فهي ابنتي » ثم قبل هذه الفتاة الحسناء بصدر منشرح ونفس منبسطة .

في خلال هذا المنظر المؤثر طرق البريد باب الشارع طرقتين فاضطرب كل من في البيت وكان يحمل رسالة كان يرى من غلافها انها آتية من بلاد بعيدة

كانت هذه الرسالة «لاميل» فاستأذن في فض ختامها لانه ما لبث ان عرف في عنوانها خط قوبيدون وقرأها وكانت بالانكليزية الركيكة —

انكليزية زنجي - فاذا هي تتضمن تهنئة من هذا الافريقي البار « لاميل» بعيد ميلاده ورجاءه كما هي العادة عود كثير من امثاله عليه بالغبطة والهناء، وتشتمل فوق ذلك على خبر سار وهو ان الزروع التي زرعت في ارض « لولا » قد نجحت بفضل حذقه وحذق زوجته وانها ربما كفلت لها صداقها عند الزواج .

اني على جذلي باغتباط اصدقائنا محزون لتفكري في مفارقتهم لنا لان هذه الوليمة العيدية كانت وليمة وداع ايضاً فهم راجعون الى فرنسا يدعوهم اليها ماوقع فيها اخيرا من الحوادث السياسية وحب مسقط رءوسهم، واني مشيعهم بأحسن آمالي لهم، ولست انسى كلمة من كلمات اراسم الاخيرة التي فاهبها عند مصافحتنا بصوت ملؤه الوقار والهيبة وهي قوله: على كل منا ان يسعى في جعل ولده رجلا حرا فاننا بذلك نجتث جراثيم الشرور المحزنة للامة . . . اه

المترجم : فرغت من ترجمة هذا الكتاب المفيد قبيل ظهر يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ للهجرة النبوية الموافق للثالث والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٠٦ للميلاد المسيحي

الناشر : تم طبع الكتاب (الطبعة الاولى) على حدته بعد استخراجه من المنار واعادة تصحيحه في سلخ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ بمطبعة مجلة المنار بمصر القاهرة

﴿ وتم طبعه في مطبعة المنار المرة الثانية في جمادى الآخرة أيضا سنة ١٣٣١ ﴾

فالحمد لله على نعمة التمام

فهرس التربية الاستقلالية

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	١٢	٥٨٥	١٨٥
١٦	١٣	واجده	وأجدره
١٩	١٤	منهما	منها
٣١	١٤	أشجارها	ازهارها
٣٤	١٩	١٨٩١	١٧٩١
٣٧	٦	ورحك	وروحك
٣٧	٩	لاهتمامه	لاهتمامك
٤٧	١٠	قاعدة	قاعة
٤٨	٦	أطفال	الاطفال
٤٨	١٦	لاولادهم	لاولادهما
٥٢	١٤	وهو	وهي
٥٧	١٤	الاستاذة	الاساتذة
٦٦	٤	الربع	الربيع
٦٦	١٨	القدرة	القدوة
٦٩	٧	اتدوز	اندروز
٧٢	١٤	حقيقة	حقيقية
٨٩	١٥	ماخذه	ماخذ
٩١	٣	ان يكون	يكون
٩٢	١٥	ان	آن
٩٩	١٩	طريقية	طريقة
١٠١	١٢	الانقياد	القياد
١٠١	١٨	الوحشة	الوحشية
١١٧	١٣	أعمال	إعمال
١٢٠	٤	كبار	الكبار

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٣	٢٠	الخصوصية	الخاصة
١٤٢	٧	أطفال	من أطفال
١٥٦	١٧	معلومة	معلولة
١٦٣	٣	العداة	العادة
١٧٥	١٦	الـكل	كلهم
١٧٧و١٧٨و١٧٩و١٨٥	١	الوالدان	الولدان
١٧٩	١٧	فاحببت	فأصبت
١٨٦	٦	وليم	وكان وليم
١٩٢	٣	عليك	عنك
١٩٤	٢٤	ماقاله	ماله
١٩٥	٥	ولاستعداها	ولاستعدادها
١٩٧	٢	متأثرا	متأثر
١٩٧	٤	عن	من
٢٠٦	٤	عساه	عسى ان
٢٠٧	١٣	ولها	لها
٢١٤	٩	اختياز	اجتياز
٢٢٠	٣	يريعه	يروعه
٢٢١	١٠	الى	على
٢٢٩	١	الطفل	في الطفل
٢٣٢	٩	مضحكا	ضحكا
٢٣٤	٢٠	في هذه	هم في هذه
٢٣٥	١٩	السائرة	الثائرة
٢٤٦	٤	تسترشد	نسترشد
٢٥٦	١٩	يوما	يوماما
٢٦١	١٣	بعلمه	بعمله
٢٦٩	٢٠	لرواع	الروع

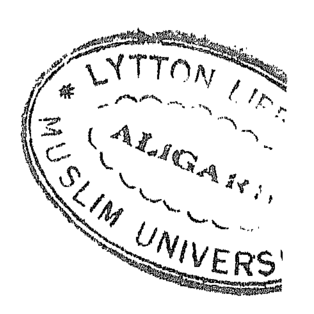
صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٧٠	٤	مضخبا	مصطخباً
٢٧٦	١٤	العملين	العلمين
٢٨٠	٤و١٦	والبكم	البكم
٢٨٥	٨	آتين	آتون
٢٨٥	٢٠	بأنفسم	بأنفسهم
٢٩٤	٤	كانما	كانا
٢٩٦	٦	أهلها	أهلهما
٢٩٦	٨	تأثر	تأسر
٢٩٦	١٠	أنواع	أنواعاً
٣٠٠	٤	دلائل	من دلائل
٣٠٥	٩	لاشك	لا أشك
٣٠٧	٧	و ـث	و يبحث
٣٠٩	١٢	بُرتوس	بروتوس
٣١١	٤	يمتعون	يتمتمون
٣١٥	١٧	١١٣٥	١٧٣٥
٣١٨	٢	السخرية	للسخرية
٣٢٣	١٣	اسرار	أسرارا
٣٢٣	١٣	اذا ذكرت	ذكرت
٣٣٥	١	تحتاج	يحتاج
٣٦٩	١٢	التاثير	التأثر
٣٧٠	١٤	استرالة	استرالية
٣٧٣	٨	اليهما	اليها
٣٧٥	١٦	كروزو	كروزوية
٣٧٦	٤	فترفع	فترتفع
٣٨١	٥	من قلالهم	استقلالهم
٣٨٧	٤	استدخول	من دخول

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤١٤	٥	يفير	يفير
٤١٩	١٨	استتبع	اتتبع
٤١٩	١٧	اذ	اذا
٤٢٩	١٧	مرتكبها	مرتكبيها

تم

تنبيه

يرى القراء ان اكثر هذا الخطأ تصحيف أو تحريف يسهل تصحيحه بالقلم قبل قراءة الكتاب فمن يصحح نسخته فانما يحسن لنفسه



(اثمان مطبوعات المنار عدا اجرة التجليد)

البريد مليم	الثمن مليم	الثمن ـــه	
٤		٣	تفسير الفاتحة
٤	٥	١	» سورة والعصر
٣٠		١٢	» القرآن الحكيم لكل جزء منه
٨		٥	المصلح والمقلد
٦		٥	أم القرى (طبع المنار)
٦		٣	الانقلاب العثماني
٥٠		٢٤	شرح عقيدة السفاريني
٦		٥	رسالة التوحيد
٨		٦	الاسلام والنصرانية
٨		٤	الدين في نظر العقل
٢٠		٥	دين الله في كتب أنبيائه
٣٠		١٥	انجيل برنابا
١٢		٢	عقيدة الصلب والفداء
٨		٤	شبهات النصارى
١٦		٩	التوسل والوسيلة
٤		١	المسلمون والقبط
٦		٣	انتقاد مؤلفات جرجي بك زيدان
١٦		٨	سيرة خديجة
٥٠		٢٥	العلم الشامخ مع الذيل
٤٠		٢٠	التربية الاستقلالية

البريد مليم	الثمن مليم	الثمن ـــه	
٣٠		٢٠	تاريخ الاستاذ الامام (المنشآت)
٣٠		١٠	تاريخ الاستاذ الامام (التأبين والمراثي)
٥٠		٦٠	لكل مجموعة من مجاميع السنة الاولى والرابعة الى الرابعة عشرة من المنار
٥٠		٢٠٠	المجموعة الثانية » »
٥٠		١٠٠	» الثالثة » »
٥٠		٨٠	» الخامسة عشرة
٣٠		٢٠	دلائل الاعجاز ، طبعة ثانية
٣٠		٢٠	اسرار البلاغة
٤		٢	اغاثة اللهفان
٤		٢	الجرح والتعديل (للقاسمي)
٦		٤	اصلاح المحاكم الشرعية
٢		١	فتاوى في القضاء الشرعي لاصلاح حال المرأة
٦		٥	اعمال مجلس ادارة الازهر
٢	٥	٠٠	خلاف الامة
٢	٥	٠٠	الصوفية والفقراء
		٨	تاريخ دول العرب والاسلام
		٢٠	» البابية

ثمن كل جزء من المنار (ان وجد) للمشترك ٨ قروش و ١٠ لغير المشترك
يضاف خمسة قروش لكل جزء من اجزاء التفسير أو التاريخ ولكل نسخة من انجيل برنابا وأسرار البلاغة وقرش واحد لرسالة التوحيد اذا كان المطلوب من الورق الجيد
اجرة التجليد الافرنجي بالكعب الجلد خمسة قروش لكل كتاب يكون ثمنه من عشرة قروش فصاعدا واربعة قروش لما دون ذلك والتجليد الممتاز عشرة قروش لكل مجلد